البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الخامس

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

par

Victor Hugo

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٥٥

الطبعة الثالثة

آب (أغسطس) ١٩٨٣

القسم الخامس

جان ڤالجان

الكتاب الأول

الحرب بين أربعة جدران

١

« كاريبد » * ضاحية سان انطوان
و « سيلا » ضاحية التامبل

إن المتراسين الأشد رسوخاً في الذاكرة ، واللذين قد يشير اليهما مراقب الأمراض الاجتماعية ، لا ينتسبان إلى العهد الذي تقع فيه احداث هذا الكتاب . فهذان المتراسان — وكل منهما رمز ، ذو شكل مختلف ،

* كاريبد Charybde و Scylla تيارات مائية وصخور شهيرة في مضيق مسينا كان الملاحون القدماء يخافونها اعظم الخوف فيحاولون اجتنابها فلا يكادون ينجون من بعضها حتى يقعوا في بلاد الآخر .

لحالة رهيبة – إنما انبثقا من الأرض ايام ثورة حزيران ١٨٤٨ المشؤومة ، أكبر حرب شوارع شهدها التاريخ .

ولكن يتفق في بعض الأحيان ان ذلك القانط الكبير – الرعاع – يحتج ، حتى على المبادىء ، حتى على الحرية ، والمساواة ، والاخاء ، حتى على الاقتراع العام ، حتى على حكومة الجميع بواسطة الجميع . من اعماق آلامه المريرة ، من خيباتها ، من ضروب حرمانها ، من حميّاتها ، من شدائدها . من أبخرتها الوبيئة ، من جهالاتها . من ظلماتها . وعندئذ يشن السوقة الحرب على الشعب .

إن الصعاليك يهاجمون الحق العام ؛ ان حكومة الدهماء تتمرد على الشعب .

تلك أيام فاجعة . ذلك بان ثمة دائماً مقداراً ما من الحق في هذا الجنون . إن ثمة انتحاراً في تلك المبارزة . وهذه الكلمات ، التي يُقصد بها إلى الاهانة ، الصعاليك ، الرعاع ، حكومة الدهماء ، السوقة ، تثبت – وا أسفاه – خطيئة اولئك الذين يحكمون اكثر مما تثبت خطيئة اولئك الذين يتألمون . تثبت خطيئة اصحاب الامتيازات اكثر مما تثبت خطيئة المنبوذين .

اما نحن فلسنا نلفظ هذه الكلمات ، ابداً ، إلا في أسى وفي احترام . لانه حين تسبر الفلسفةُ الحقائق التي تتصل بها ، فانها كثيراً ما تجد فيها ضروباً من العظمة عديدة إلى جانب مظاهر البؤس والشقاء . لقد كانت اثينا خاضعة لحكم الدهماء . والصعاليك هم الذين صنعوا هولندة . والسوقة أنقذت رومة غير مرة . والرعاع اتبعوا يسوع المسيح .

ليس ثمة مفكر لم يتأمل في وقت ما عظمة الطبقة الوضيعة .

ولا ريب في ان القديس جيروم كان يفكر في هؤلاء الرعاع ، وفي جميع هؤلاء الفقراء ، وفي جميع اولئك الصعاليك ، وفي جميع هؤلاء البؤساء الذين انبثق منهم الرسل والشهداء ، عندما اطلق هذه

إن حفائظ هذه الجمهرة التي تتألم والتي تدمى ، إن عنفها في تحريف المبادىء التي هي حياتها ، ومقاومتها الفعالة للقانون ، كلها انقلابات شعبية ، وينبغي ان تُكبت . إن الرجل المخلص ليتفانى من اجل ذلك ، وهو يقاوم هذه النزعات بسبب من حبه نفسه لتلك الجمهرة . ولكن ما اكثر ما يستشعر أنها معذورة ، حتى وهو يعارضها ، وما اكثر ما يجلها حتى وهو يقاومها ! انها واحدة من تلك اللحظات النادرة التي نحس خلالها ، ونحن نعمل ما يجب ان نعمله ، شيئاً يحبط تدابيرنا وينصحنا بعدم الذهاب إلى أبعد . نحن نصر ونثابر ، إننا مكرهون على ذلك . ولكن الضمير ، على الرغم من ارتياحه ، محزون : واداء الواجب يشوهه انقباض في الفؤاد .

ولنسارع إلى القول إن حزيران عام ١٨٤٨ كان حادثاً خارقاً للعادة ، وانه يكاد يكون من المتعذر على المرء ان يصنفه في فلسفة التاريخ . وكل ما قلناه اللحظة ينبغي ان يوضع جانباً عندما ننظر في تلك الفتنة الفريدة التي نستشعر فيها قلقَ العملِ المقدسَ يطالب بحقوقه . كان ينبغي ان تُقمع . كان هذا هو الواجب . ذلك لأنها هاجمت الجمهورية . ولكن ، اي شيء كان حزيران ١٨٤٨ في الحقيقة ؟ ثورة الشعب على نفسه .

وحين يظل الموضوع نصب العين لا يكون ثمة استطراد . فليسمح لنا اذن ان نلفت نظر القارىء إلى المتراسين الفريدين إلى ابعد الحدود ، اللذين تحدثنا عنهما اللحظة ، واللذين ميزا تلك الثورة :

لقد سد احدهما ضاحية سان انطوان ، وحمى الآخر منافذ ضاحية التامبل . واولئك الذين نهضت أمامهم ، تحت سماء حزيران الزرقاء النيرة ، هاتان الرائعتان الرهيبتان من روائع الحرب الاهلية ، لن ينسوهما ابد الدهر .

كان متراس سان انطوان هائلا مخيفاً ؛ كان يتألف من ثلاثة ادوار ، وكان طوله سبعمئة قدم . لقد سد فم الضاحية العريض من اقصاه إلى اقصاه ، يعني ثلاثة شوارع . ولقد نهض مخدداً ، ممزقاً ، مسنناً ، مجزءاً ، مثلّماً بشق هائل ، مسنّداً إلى أكوام من الحجارة كانت هي نفسها بروجاً بارزة ، دافعاً رؤوساً هنا وهناك ، متكئاً في قوة على أكمتي بيوت الضاحية الضخمتين — نهض مثل سد سيكلوبيّ * في اعماق تلك الساحة الرهيبة التي شهدت اليوم الرابع عشر من تموز . وتدرّج تسعة عشر متراساً على طول الشوارع ، خلف ذلك المتراس الرئيسي . ولوقد نظرت اليه مجرد نظر اذن لأحسست في الضاحية بذلك الألم الهائل المحتضر الذي بلغ تلك اللحظة الاخيرة التي تتحول فيها الشدة إلى كارثة . من اي شيء شُيد ذلك المتراس ؟ من انقاض ثلاثة بيوت ، كل منها ذو ستة ادوار ، سُوّيت بالارض لهذا الغرض ، — كذلك قال بعضهم . ومن اعاجيب الاحقاد جميعاً ، — كذلك قال بعضهم الآخر . كان له ذلك المظهر المبكي الذي تتخذه جميع اعمال البغض : الخراب . وقد تقول : من الذي أقام ذلك ؟ وقد تقول ايضاً ومن الذي دمره ؟ كان ارتجالَ الفورة. انظر ! هذا الباب ! هذا الحاجز المشبك ! هذا الافريز ! اطار النافذة هذا ! هذا الكانون المكسور ! هذا المرجل المصدوع ! إيتوا بكل شيء! إطرحوا كل شيء ! إدفعوا ، دحرجوا ، إحفروا ، خربوا ، إهدموا كل شيء ! كان تعاونَ الرصيف ، والحصاة ، ولوح الخشب ، والقضيب الحديدي ، والخرقة ، واللوح الزجاجي المحطم ، والكرسي المجرد من قشه ، وبقايا الملفوف ، والمزقة ، والثوب البالي ، واللعنة . كان عظيماً وكان صغيراً . كان الحفرةَ التي لا قرار لها زيّفها الاختلاط والعماء في

---

* نسبة الى جماعة السيكلوب الاسطورية ، وقد سبق التعريف بها . والمقصود مثل سدّ جبار .

الحال . الكتلة قرب الذروة ؛ شقة الحائط المهدومة والصحن المكسور . تآخ متوعد بين جميع الفضلات . كان سيسيف * قد طرح صخرته هناك ، وكان يعقوب قد طرح كسرة قدره . وعلى الجملة فقد كان شيئاً فظيعاً . كان آكروبوليس الحفاة . كانت عربات مقلوبة توعّر المنحدر . وكانت عجلة نقل قائمة هناك ، بالعرض ، ومحورها مسدد إلى السماء ، فكأنه ندبة فوق تلك الواجهة الصاخبة . وكانت عربة عمومية مرفوعة في إبتهاج ، بقوة الايدي ليس غير ، فوق قمة الركام ، وكأنما أراد مهندسو تلك الوحشية ان يضيفوا الطيش إلى الرعب — نقول كانت تلك العربة يتقدم مجرّها المجرد عن دابته إلى خيول الهواء المجهولة . كانت تلك الكتلة الجبارة ، طمي الفتنة ، تمثل للعقل صورة اوسا فوق بيليون ** في كل الثورات . عام ٩٣ فوق عام ٨٩ ، التاسع من تيرميدور فوق العاشر من آب ، الثامن عشر من برومير فوق الحادي والعشرين من يناير ، فاندمير فوق بريريال ، و١٨٤٨ فوق ١٨٣٠ . وكان المكان يستحق تلك المشقة ، وكان ذلك المتراس خليقاً بأن يبرز في نفس المكان الذي اختفى منه الباستيل . ولو ان الاوقيانوس استطاع ان ينشيء سدوداً اذن لبناها على هذا النحو . وكانت سورة الفيضان منطبعة على ذلك السد الشائه . أيّ فيضان ؟ الجمهور . كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى اللغط متحجراً . كان خليقاً به ان يظن انه سمع فوق ذلك المتراس ، وكأنما كانت هناك فوق قفيرها نحلات التقدم

* Sisyphe ابن إيبول وملك كورنث ، وقد اشتهر بقسوته الفظيعة ، وتقول الاسطورة انه حكم عليه بعد موته بأن يدحرج في جهنم صخرة ضخمة فوق قمة جبل حيث كانت تلك الصخرة تعاود السقوط من غير انقطاع .

** Pélion جبل في تسالية مجاور لجبل أوسا Ossa . وتقول الاساطير انه يوم اراد « العمالقة » ان يصعدوا الى السماء ، بعد ان ثاروا على جوبتير ، وضعوا بيليون فوق اوسا . ومن هنا نشأ قولهم : « ركمّ بيليون فوق أوسا . » يعني بذل المستحيل للوصول الى غاية ما .

بالقوة ، تلك النحلات السوداء الهائلة الناشطة في الظلام . اكان دغلا ؟ أكان عيداً من اعياد باخوس ؟ أكان معقلا ؟ لقد بدا وكأن الدوار قد شيده بخفق الجناح . كان ثمة شيء من المستنقع في ذلك المتراس ، وشيء من اوليمبوس في تلك الفوضى . كنت ترى ، في عماء مليء باليأس، عوارض سقوف ، وقطعاً من علاليّ بورق جدرانها ، وأطُر نوافـــذ بزجاجها كله مزروعاً في الانقاض ، تنتظر المدفعية ، ومداخن مقتلعة ، وخزائن ، وطاولات ، ومقاعد ، في تقوّضٍ نابح ، وألفاً من تلك الاشياء الحقيرة ، التي يأباها الشحاذ نفسه ، والتي تنطوي في آن معا على هيجان وعدم . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنها كانت حطام شعب ، حطاماً من خشب ، من حديد ، من برونز ، من حجارة ، وان ضاحية سان انطوان قد جرفتها هناك إلى بابها ، بضربة هائلة من مكنسة ، مشيدة متراسها من بؤسها . ثم ان بعض قُرم الحطب الشبيهة بقطـــع الخشب الغليظة القصيرة ، والسلاسل المفككة ، والهياكل الخشبية ذوات المساند الخاصة بالرفوف المتخذة شكل المشانق . والدواليب الناتئة أفقيـــاً من بين الانقاض — إن هذه كلها دغمت بصرح الفوضى ذاك صـــورةَ النكال القديم الذي تحمّله الشعب . لقد اتخذ متراس سان انطوان من كل شيء سلاحاً . لقد انبثق من هناك كل ما كان في ميسور الحرب الاهلية ان تقذف بـه رأس المجتمع . انها لم تكن معركة . كانت داء بلغ غاية استفحاله ، فالبنادق القصيرة الخفيفة التي دافعت عن ذلك المعقل والتي كان بينها بعض البنادق العادية ، نثرت فتاتاً من الخزف المطليّ ، وعُظَيّمات ، وأزرار سترات ، وحتى دواليب طاولات صغيرة — قذائف خطرة بسبب من الرصاص . كان ذلك المتراس مجنوناً ؛ لقـــد أطلق نحو السحب ضجيجاً يمتنع على الوصف . وفي بعض الاحيان كان يتحدى الجيش فيغطي نفسه بالحشود وبالعاصفة . لقد توجته جمهرة من الرؤوس اللامعة ، وملأه تألبُ متراسٍ . كانت قمته شائكة بالبنادق ،

والسيوف ، والعصي ، والفؤوس ، والحراب ؛ وكان علم احمر كبير يخفق مع الريح ، وكان في ميسور المرء ان يسمع صيحات القيادة ، واناشيد الهجوم ، وقرع الطبول ، وتنهدات النسوة ، وضحكات الجائعين المظلمة الضارية . كان ضخماً موازاً بالحياة . وانطلق منه هزيم رعود يخيّل اليك انه منطلق من ظهر بهيمة كهربائية . لقد حجبت روح الثورة بسحابها تلك القمة التي زجر فيها صوت الشعب الشبيه بصوت الله . وانبعث جلال عجيب من ذلك العملاق المليء بالنفايات . كان كومةً من الاقذار ، وكان جبلَ سيناء .

وكما قلنا من قبل لقد هاجم باسم الثورة ، ماذا ؟ الثورةَ . كان هذا المتراس — المصادفة ، الفوضى ، الانشداه ، سوء التفاهم ، المجهول — يواجه الجمعية التأسيسية ، وسيادة الشعب ، والاقتراع العام ، والامة ، والجمهورية . وكان هو الكارمانيول * متحدياً المارسييز. تحدٍّ مجنونٌ ولكنه باسل ، ذلك بأن هذه الضاحية العتيقة بطلة .

وتبادلت كل من الضاحية ومتراسها المعونة . لقد عضدت الضاحية المتراس ، وقوّى المتراس الضاحية . وامتد المتراس الضخم مثل جرُف تحطمت عليه ستراتيجية جنرالات افريقيا . إن كهوفه ، ونواميه الغريبة ، وثآليله ، وحدباته قد كشرت ، إذا جاز التعبير ، وضحكت ساخرة تحت الدخان . وتلاشت القذائف هناك في اللاشكل . وغاصت القنابل الصغيرة هناك ، والتُهمت ، وغارت . ولم توفق كُرات المدافع إلا إلى إحداث الحفر ، فأي فائدة من تسديد القذائف إلى العماء ؟ وأخذت الكتائب ، المتعودة اشد مشاهد الحرب وحشية ، تنظر بعين قلقة إلى هذا المتراس البهيمي الضاري ، الشبيه في تشوّكه بالخنزير البري ، وفي ضخامته بالجبل .

وعلى ربع فرسخ من هناك ، عند زاوية شارع التامبل الذي يصب

* نوع من الرقص الغنائي شاع عام ١٧٩٣ اثناء الثورة الفرنسية وقد سبق التعريف به .

في الجادة قرب « شاتو دو » ، إذا أتلعتَ عنقك في جسارة وراء النقطة التي تشكلها واجهة مخزن دالمانيْ ، تلمح في المدى البعيد . خلف القناة ، في الشارع الذي يرتقي منحدرات الـ « بيغيل » ، عند قنة الكثيب ، جداراً غريباً يصل إلى الدور الثاني من واجهات المنازل ، ضرباً من صلة الوصل بين البيوت القائمة إلى اليمين والبيوت القائمة إلى اليسار ، وكأن الشارع طوى بنفسه ، كرة ثانية ، جداره الأعلى لكي يحتجب على نحو مفاجيء . كان ذلك الجدار مبنياً من حجارة الارصفة . كان مستقيماً ، صحيحاً ، عابساً ، عمودياً ، مسوّى بالزاوية المثلثة ، مشيداً بخيط البناء ، مقوّماً بالفادن . لم يكن فيه اسمنت البتة . من غير شك ، ولكن ذلك لم يوهن من معماريته الخشنة ، شأنه في هذا شأن بعض الاسوار الرومانية . ومن ارتفاعه كان في ميسور المرء ان يحزر عمقه . كان أعلى السور متوازياً ، رياضياً ، مع قاعدته . وههنا وههناك كان في استطاعتك ان تتبين ، على السطح الرمادي ، كوى تكاد لا تُلحظ ، تشبه خيوطاً سوداء . وكانت مسافات متساوية تفصل ما بين هذه الكوى . وكان الشارع مقفراً على مرمى النظر . وكانت النوافذ كلها والابواب كلها موصدة . وفي الخلفية ، نهض ذلك السد الذي جعل الشارع زقاقاً غير نافذ . جدار جامد هاديء . لم يكن في ميسورك أن ترى احداً ، أو أن تسمع شيئاً . لا صيحة ، لا صوت ، لا نفَس . قبر من القبور .

وغمرت شمس حزيران الباهرة هذا الشيء الرهيبَ بالضياء :

ذلك كان متراس ضاحية التامبل .

حتى إذا بلغ المرء الارض ورآها ، كان من المتعذر عليه ولو كان اكثر الناس جرأة ، ان لا يقلق أمام هذا الشبح الخفي . كان محكماً متداخلا ، متراكباً ، مستقيماً ، متناسقاً ، وفاجعاً . كان المرء يستشعر ان رئيس هذا المتراس كان عالماً بالهندسة ، أو شبحاً . كان المرء يراه ؛

وكان يتكلم بهمس . حتى إذا غامر احد بين الفينة والفينة — جندي أو ضابط أو ممثل للشعب — وحاول ان يعبر الشارع المهجور ، سُمعت صفرة حادة وخفيضة ، وسقط عابر السبيل جريحاً أو صريعاً . أما إذا نجا فعندئذ كانت كرة من كرات المدافع تُرى غائبة في احد المصاريع الموصدة ، في فسحة بين حجري بناء ، في جص جدار من الجدران . وكانت تلك الكرة كبيرة في بعض الاحيان . ذلك ان رجال المتراس كانوا قد صنعوا من قطعتين من انبوب غاز حديدي مصبوب ، سُد احد طرفيه بالدسُر * وطين المواقد ، مدفعين صغيرين . وهكذا لم يبق ثمة هدر للبارود لا طائل تحته . كانت كل طلقة فعالة تقريباً . وكانت ههنا وههناك بضع جثث ، وبرك دم على الرصيف . وانا اذكر كيف راحت فراشة بيضاء تطوّف في الشارع جيئة وذهوباً . إن الصيف لا يتنازل عن عرشه .

وفي الجوار كانت ارصفة ابواب العربات مغطاة بالجرحى .

كنت تحس نفسك منظوراً من شخص لم تره ، وان الشارع بطوله كان معرضاً لنيران البنادق .

وإذ احتشدوا خلف صهوة الجواد التي يشبهها مدخل ضاحية التامبل ، راح الجنود المهاجمون ينظرون ، في هدوء ورباطة جأش ، إلى هذا المتراس الحدادي ، إلى هذا السكون ، إلى هذا اللاتأثر ، الذي انبثق منه الموت . لقد زحف بعضهم على الارض حتى بلغوا أعلى منحنى الجسر ، محاذرين ان تبدو قلانسهم بأية حال .

وابدى الكولونيل مونتينار الباسل إعجابه بهذا المتراس بهزة من كتفيه . وقال لأحد المندوبين :

— « ما اعظم بناءه ! إنك لا ترى فيه حجراً يتقدم حجراً . إنه مصنوع من خزف صيني ! »

* الدسار étoupe خيط من ليف تشد به الواح السفينة ، ج. دسر .

وفي تلك اللحظة ، كسرت قذيفةٌ الصليبَ الذي كان على صدره ، وخرّ الكولونيل على الارض .

وقيل :

— « يا لهم من جبناء ! ولكن دعهم يبرزون ! دعنا نراهم ! إنهم لا يجرأون ! إنهم يختبئون ! » لقد صمد متراس ضاحية التامبل ، يدافع عنه ثمانون رجلا ويهاجمه عشرة آلاف ، صمد ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع فعلوا مثل مافُعِل في زاتشا * وفي قسنطينة ** . لقد ثقبوا البيوت ، ونفذوا من السقوف ، واستولوا على المتراس . إن احداً من الثمانين جباناً لم يفكر في الفرار . لقد قتلوا جميعاً ، ما عدا رئيسهم بارتيليمي ، الذي سنتحدث عنه اللحظة .

كان متراس سان انطوان صخَب الرعود ، أما متراس التامبل فكان الصمت . كان بين هذين المتراسين فرق ما بين الفظيع والمشؤوم .لقد بدا احدهما اشبه بالفم الفاغر ، وبدا الثاني وكأنه قناع .

وإذ سلمنا بأن ثورة حزيران المظلمة العملاقة كانت مؤلفة من غضب وأحجية ، فقد كان في استطاعتنا ان نستشعر التنين ، في المتراس الأول ، وان نستشعر أبا الهول في المتراس الثاني .

وقد بنى هذين المتراسين رجلان ، احدهما كورنيه ، والآخر بارتيليمي . فأما كورنيه فقد اقام متراس سان انطوان ، وأما بارتيليمي فقد اقام متراس التامبل . وكان كل من المتراسين صورة عن الذي بناه .

كان كورنيه رجلا طويل القامة ، كان ذا منكبين عريضين ، ووجه

---

* واحة مجاورة لبيسكره في مقاطعة قسنطينة بالجزائر وقد صمدت في وجه الحصار الفرنسي عام ١٨٤٩ صموداً باسلاً . ثم ان الفرنسيين شنوا عليها هجوماً عنيفاً فسقطت .

** قسنطينة ، من اعمال الجزائر ايضاً وقد قاومت الفرنسيين مقاومة بطولية عام ١٨٣٦ — ١٨٣٧

أحمر ، وقبضة ساحقة ، وقلب جريء ، ونفس وفية ، وعين سليمة الطوية فظيعة . كان باسلا ، ُهماماً ، سريع الغضب ، عاصفاً ، وكان اكثر الناس وداً ، وأشد المقاتلين هولا . كانت الحرب ، والصراع ، والقتال هي الهواء الذي يحيا عليه ، والذي يجعله انيساً طلق المحيا. كان في ما مضى ضابطاً بحرياً ، ومن حركاته ومن صوته كان في ميسورك ان تحس انه انبثق من الاوقيانوس ، وانه جاء من العاصفة ، لقد واصل الاعصار في المعركة . وفي ما عدا العبقرية كان في كورنيه شيء من دانتون ، كما كان في دانتون – في ما عدا الألوهية – شيء من هرقل.

أما بارتيليمي ، الهزيل ، القميء ، الشاحب ، السكّيت فكان ضرباً من « المتشرد » الفاجع ، الذي لطمه احد رجال الشرطة ذات يوم ، فأنشأ يراقبه ، ويترصده ، حتى قتله ، فأدخل سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وهو في السابعة عشرة . ثم انه خرج من هناك ، وأقام ذلك المتراس .

وفي ما بعد – وذلك شيء فظيع – قتل بارتيليمي كورنيه ، وكانا كلاهما لاجئين في لندن . كانت مبارزة فاجعة . وبعد فترة يسيرة ، وقع بارتيليمي في شرك واحدة من تلك المجازفات التي تمتزج فيها العاطفة ، تلك الكوارث التي ترى فيها العدالة الفرنسية اسباباً تخفيفية ، ولا ترى العدالة الانكليزية فيها غير الموت ، ثم شُنق بارتيليمي . إن الصرح الاجتماعي المظلم مركّب على نحو جعل هذا الكائن البائس الذي انطوى على ذكاء ، راسخ من غير شك ، وربما كان عظيماً ، نقول جعل هذا الكائن البائس يبدأ – بفضل الحرمان المادي ، والظلمة الاخلاقية – في سجن الاشغال الشاقة بفرنسة ، وينتهي بالمشنقة في انكلترة . ان بارتيليمي لم يرفع ، في جميع الاحوال ، غير راية واحدة ، هي الراية السوداء .

٢

ما الذي يمكن ان يُصنع في الهوة غير الكلام ؟

إن للستة عشر عاماً اثرها البعيد في التربية السرية للثورة ، ولقد فهمها حزيران عام ١٨٤٨ خيراً مما فهمها حزيران عام ١٨٣٢ . وهكذا فأن متراس شارع الـ « شانفزيري » لم يكن غير رسم تقريبي خفيف ، وغير جنين بالقياس إلى هذين المتراسين الجبارين اللذين صورناهما منذ لحظة ، ولكنه كان بالنسبة إلى ذلك العهد شيئاً رهيباً .

وافاد المتمردون – تحت بصر آنجولراس ، ذلك لأن ماريوس ما عاد ينظر إلى شيء – افادوا من الليل . إنهم لم يرمموا المتراس فحسب ، ولكنهم كبّروه أيضاً . لقد رفعوه قدمين اثنين . وكانت القضبان الحديدية المغروزة في حجارة الأرصفة تشبه رماحاً في معتقل . وكانت مختلف ضروب النفايات المضافة والمنقولة من كل ناحية قد ضاعفت التعقد الخارجي . لقد حُوِّل المتراس ، في براعة ، إلى جدار من الداخل ، وإلى دغل من الخارج .

لقد اعادوا بناء السلم المصنوع من حجارة الارصفة ، ذلك السلم الذي كان يمكّن المرء من الصعود مثل سور حصن من الحصون .

لقد نظموا المتراس ، ونزعوا الردم من الحجرة السفلى ، واتخذوا من المطبخ مستشفى ، وأتموا تضميد الجراح ، وجمعوا البارود المتناثر على الارض والطاولات ، وسبكوا كرات المدافع ، وصنعوا الخراطيش ، وحلجوا النُسالة ، ووزعوا اسلحة الصرعى ، ونظفوا داخل المتراس ، والتقطوا الحطام ، وحملوا الجثث .

وركموا الموتى بعضهم فوق بعض في زقاق مونديتور ، وكانوا لا يزالون سادته. وظل الرصيف أحمر ، فترة طويلة ، في تلك البقعة. وبين القتلى كان اربعة من رجال حرس الضواحي الوطني . وكان آنجولراس قد رغب في ان توضع ملابسهم العسكرية جانباً .

ونصح آنجولراس القوم بأن يرقدوا ساعتين . وكانت النصيحة من آنجولراس أمراً . ومع ذلك فأن ثلاثة نفر أو اربعة أفادوا منها . واصطنع فويي هاتين الساعتين لحفر هاتين الكلمتين على الجدار المواجه للخمارة :

« فلتحي الشعوب ! »

والواقع أن هاتين الكلمتين ، اللتين نقشتا في الحجر بواسطة مسمار ، كانتا لا تزالان مقروءتين على ذلك الجدار في عام ١٨٤٨ .

وأفادت النسوة الثلاث من استراحة الليل ، فاختفين نهائياً ، مما جعل المتمردين يتنفسون في حرية أعظم .

لقد وجدن ملجأ لهن في احد البيوت المجاورة .

وكان معظم الجرحى قادرين على متابعة القتال ، راغبين في ذلك . كان ثمة ، فوق فراش للدواجن وبعض حزم القش ، في المطبخ الذي أمسى الآن مستشفى ، خمسة رجال ذوي جراح خطرة ، اثنان منهم كانا من الحرس البلدي . لقد ضمدت جراحات الحرس البلدي اولا .

لم يكن قد بقي في الحجرة السفلى غير مابوف ، تحت غطائه الاسود ، وجافير موثقاً إلى الوتد .

وقال آنجولراس :

— « هذه غرفة الاموات . »

وفي داخل هذه الحجرة ، المضاءة على نحو باهت بشمعة . وعند الطرف الاقصى نفسه ، وقد نهضت المائدة الجنائزية خلف الوتد مثل قضيب حديدي أفقي . كان ضرب من صليب ضخم قاتم قد تكوّن من

جافير واقفاً . ومابوف ممدداً .

كان عريش العربة العمومية ، رغم أن وابل القذائف قد ذهب بجزء منه ، لا يزال عالياً إلى درجة تمكنهم من ان يرفعوا عليه احدى الرايات .

وعلق آنجولراس ، الذي كان يتمتع بصفة الزعيم هذه ، وهي ان يعمل دائماً ما يقوله . علق سترة العجوز القتيل . المخزوقة الدامية ، بهذا العريش .

ولم يكن في ميسورهم الآن ان يتناولوا اية وجبة من وجبات الطعام . فلم يكن ثمة لا خبز ولا لحم . كان رجال المتراس الخمسون قد استهلكوا وشيكاً . خلال الست عشرة ساعة التي قضوها هناك ، مؤن الحانة الهزيلة . وبعد مدة بعينها . لا بد لكل متراس صامد من ان ينتهي إلى ما انتهت اليه « ميدوز » * . إن عليهم ان يستسلموا للمجاعة . كانوا في الساعات الاولى من يوم ٦ حزيران الاسبارطي حين طوق المتمردون « جان » ، في متراس سان ميري ، وراحوا يسألونها خبزاً صائحين : « نريد شيئاً نأكله ! » فما كان منها إلا ان اجابت جميع اولئك المتقاتلين بقولها : « ولماذا ؟ الساعة الآن الثالثة . وعند الساعة الرابعة سنموت ! »

وإذ لم يجدوا شيئاً يأكلونه . فقد حظر آنجولراس الشراب . لقد حرّم الخمر ، وقنّن العرق .

ووجدوا في القبو نحواً من خمسين زجاجة ملأى ، ومختومة ختماً محكماً . وفحصها آنجولراس وكومبوفير . وفيما هما يغادران القبو قال كومبوفير :

---

* Méduse باخرة غرقت على الساحل الغربي من افريقيا ، في ٢ تموز سنة ١٨١٦ وقد لجأ ١٤٩ من ركابها الى طوف انشىء على عجل .واخذت الامواج تعبث به في عرض البحر . وبعد اثني عشر يوماً عثر على هذا الطوف ، وعلى جثث خمسة عشر شخصاً ممن كانوا على متن الـ « ميدوز » . اما الباقون فكانوا قد امسوا طعاماً للاسماك .

« انها من المخزونات العتيقة التي خلفها هوشلو الاب الـذي بـدأ حياتـه بقالا . »

ولاحظ بوسوويه :

— « ينبغي ان تكون خمراً أصلية . من حسن الحظ أن غرانتير نائم: ولو قد كان قائماً على رجليه اذن لكان علينا ان نبذل جهداً كبيراً لانقاذ هذه الزجاجات . »

وعلى الرغم من الهمسات ، وضع آنجولراس « الفيتو » على الزجاجات الخمس عشرة . ولكي لا يمسها احد ، ولكي تبدو وكأنها مقدسة ، امر بأن توضـع تحت المائدة التي سجي عليها الأب مابوف .

وحوالى الساعة الثانية صباحاً احصوا انفسهم . كان قد بقي منهـم سبعة وثلاثون .

كان الصبح قد آذن بالانبلاج . وكانوا قد اطفأوا ، منذ لحظـات ، تلك الشعلة التي أعيدت إلى مغرزها ، في حجارة الارصفة . وكان الجزء الداخلي من المتراس غارقاً في الظلمة ، وبدا من خلال الذعر الغسقي الغامض شبيهاً بسطح سفينة منزوعـة الصواري والقلوع . وفي غدوهـم ورواحهم ، تحرك المقاتلون فيه مثل اشكال سوداء . وفوق وكر الظلام الرهيب هذا ، كانت طوابق البيوت الخرساء ترتسم على نحو شاحب . وفي القمـة برزت المداخن المحزونة . وكانت السماء مصطبغة بذلك اللون الفاتن المتردد الذي قد يكون أبيض ، وقد يكون أزرق . كانت بعض الطيور ترسل ، فيما هي تنطلق في الجو ، اغاني بهيجة . وكان على سطح المنزل العالي ، الذي يشكل خلفية المتراس ، بوصفه متجهاً نحو الشرق ، انعكاس نور أزهر . وعند كوة الدور الثالث ، عبثت ريـح الصباح بشعرات رأس الرجل الميت ، البيضاء .

وقال كورفيراك لفويي :

— « انا سعيد لأطفائهم الشعلة . فتلك الشعلة المنشدهة وسط الريح ،

كانت تزعجني . لقد بدت وكأنها خائفة . إن ضوء الشعلة يشبه حكمة الجبان . انه غير واضح ، لأنه يرتجف . »

الفجز يوقظ العقول كما يوقظ الطيور . كان كل امرء يتحدث .

واستوحى جرلي الفلسفة من هرة كانت تطوف حول احد الميازيب وهتف :

— « ما هي الهرة ؟ إنها تصحيح . ذلك ان الله بعد ان خلق الفأرة قال : « ولكن ، لقد ارتكبتُ حماقة . » ثم خلق الهرة . الهرة هي تصويب الفأرة . والفأرة ، زائد الهرة ، هي مسوّدة الخليقة منقحة مصححة . »

وانشأ كومبوفير ، وقد احاط به الطلاب والعمال ، يتحدث عن الموتى ، عن جان بروفير ، عن باهوريل ، عن مابوف ، وحتّى عن « لو كابوك » ، وعن حزن آنجولراس الكالح . قال :

— « هارموديوس * وآريستو جيتون ، بروتوس ، كيرياس ** ، كروموِيل ، شارلوت كورداي *** ، صاند **** — كلهم عرفوا ، بعد الطعنة ، لحظات من الألم النفسي المرير . ان فؤادنا لشديد الارتعاش ، وان الحياة الانسانية هي من الغرابة بحيث انه في الاغتيال المدني نفسه ، وحتى في الاغتيال المحرِّر ، إذا كان ثمة اغتيال محرر ، نجد الندم على قتلنا رجلا ، يفوق البهجة بخدمتنا الجنس البشري . »

* Harmodius اثيني تآمر مع صديقه آريستوجيتون Aristogiton ضد ولدي بيسيسترات: هيبارك وهيبياس (٥٣٤ ق.م) .

** Chéréas هو الخطيب الشعبي الروماني الذي قتل الامبراطور الروماني الظالم كاليغولا ، عام ٤١ م .

*** Charlotte Corday هي الفتاة الشابة التي طعنت « مارا » ، في الحمام ، بخنجر ، انتقاماً للجيروندييين . وقد اعدمت في ١٧ تموز عام ١٧٩٣ وليس لها من العمر غير خمس وعشرين سنة .

**** Louis Sand وطني الماني اغتال الوزير كوتزيبو Kotzebue (١٧٩٥ — ١٨٢٠

وبعد لحظة — فذلك هو مسرى المحادثة — ومن طريق الانتقال من قصائد جان بروفير ، راح كومبوفير يقارن ما بين مترجمي « الجيورجيك » * ، بين « رو » و « كورنان » ، وبين « كورنان » و « دوليل » ، مشيراً إلى بعض المقاطع التي ترجمها مالفيلاتر ، وبخاصة العجائب المتصلة بموت قيصر . ومن هذه الكلمة ، قيصر ، ارتد الحديث إلى بروتوس .

وقال كومبوفير :

— « لقد صُرع قيصر بحق . كان شيشرون قاسياً على قيصر ، وكان مصيباً . إن هذه القسوة ليست ذماً . فحين يتصدى زولوس ** لاهانة هوميروس ، وحين يتصدى ميفيوس لاهانة فيرجيل ، وحين يتصدى فيزيه لاهانة موليير ، وحين يتصدى البابا لاهانة شيكسبير ، وحين يتصدى فرينون *** لاهانة فولتير ، نجد أنفسنا أمام قانون قديم من قوانين الحسد والكراهية مطبقاً نافذاً . إن العبقرية تجتذب الاهانة ؛ وكبار الرجال يُنبح دائماً في وجوههم ، قليلا اوكثيراً . ولكن زولوس شيء ، وشيشرون شيء آخر . كان شيشرون قاضياً بالروح كما كان بروتوس قاضياً بالسيف . انا أنكر ، من ناحيتي ، تلك العدالة النهائية : السيف ؛ ولكن العصور القديمة رضيت بها . إن قيصر ، الذي انتهك حرمة الروبيكون **** ، والذي كان يخلع الرتب المنبثقة من الشعب وكأنها منبثقة

* Géorgiques ، او اعمال الارض ، قصيدة تعليمية ذات موضوع زراعي من نظم الشاعر فيرجيل .

** Zoïlus ناقد من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ، تهجم على هومير تهجماً مضحكاً (١٧١٨ — ١٧٧٦)

*** Frénon ناقد شهير كان خصماً لفولتير وغيره من « الفلاسفة » الذين هيأوا الجو للثورة الفرنسية .

**** نهر صغير يفصل ايطاليا عن غالة (فرنسة) ، وكان مجلس الشيوخ الروماني قد حظر اجتيازه على الرومان وقاية لرومة من عدوان القوات الفرنسية . ولكن قيصر هزىء بهذا الحظر واجتاز النهر .

من ذات نفسه ، والذي أبى ان يقف عند دخول الشيوخ — ان قيصر هذا قد مثل ، كما قال اوتروبيوس * ، دور الملك ، بل دور الطاغية تقريباً *regia ac poené tyrannica* . كان رجلا عظيماً ، لا فرق . الدرس أعظم . لقد أثرت جراحاته الثلاث والعشرون فيّ اقل مما أثر فيّ البصاق على وجه يسوع المسيح . لقد طُعن قيصر بأيدي الشيوخ ، أما المسيح فقد لطمه الخدم . وكلما عظمت الاهانة ، نستشعر وجود الله . »

وهتف بوسوويه ، وهو يطل على المتحدثين من أعلى ركام الحجارة ، وبندقيته القصيرة الخفيفة في يده :

— « ايه سيداتينيوم ، ايه ميرهينوس ، ايه بروباليانث ، ايه يا منتوِّ اينتيد ! اوه ! من ذا الذي يهب لي القدرة على ان الفظ شعر هوميروس مثل اثيني من لوريوم أو من إيدابتيون ! »

٣
نور وظلام

كان آنجولراس قد مضى للقيام باستكشاف . لقد سلك زقاق شارع موندیتور ، زاحفاً في حذاء البيوت .

وينبغي ان نقول إن المتمردين كانوا مفعمين بالأمل . فالطريقة التي صدوا بها الهجوم اثناء الليل ، كانت قد قادتهم تقريباً إلى ان يزدروا ، مقدماً ، هجوم الفجر . لقد انتظروه ، ولقد ابتسموا له . لم يعد لديهم شك في نجاحهم ، كما لم يكن لديهم شك في قضيتهم . وفوق هذا ،

* Eutrope مؤرخ لاتيني من اهل القرن الرابع الميلادي وضع كتاباً مفيداً يعرف بـ « مختصر التاريخ الروماني » .

فقد كان واضحاً ان النجدة توشك ان تُقبل . لقد اعتمدوا عليها . وفي سهولة التنبؤ المظفَّر ذاك ، الذي هو جزء من قوة الفرنسي المقاتل ، قسموا النهار الذي كان قد آذن بالانبلاج إلى ثلاث مراحل متميزة . ففي الساعة السادسة صباحاً سوف تقبل كتيبة « كانت قد عولجت » ، وعند الظهر يعم العصيان باريس ، وعند المغيب : الثورة .

لقد سمعوا ناقوس سان ميرّي الذي لم يسكت لحظة منذ المساء ؛ وكان ذلك دليلا على أن المتراس الاخر ، المتراس الكبير ، متراس جانّ ، لا يزال صامداً .

وتناقلوا هذه الآمال كلها في ضرب من الهمس البهيج ، الرهيب في وقت معاً ، همسٍ كان شبيهاً بأزيز قفير من النحل في حالة حرب .

وظهر آنجولراس من جديد . لقد رجع من جولته النسرية القائمة في الظلمة الخارجية . واصغى لحظة إلى هذا الابتهاج كله وهو متصالب الذراعين ، واحدى يديه على فمه . ثم إنه قال ، نضراً متورداً في بياض النهار النامي :

— « إن جيش باريس كله يقاتل . إن ثلث ذلك الجيش يضغط على المتراس الذي انتم فيه . وإلى جانب الحرس الوطني ، لاحظت قلانس كتيبة المشاة الخامسة ، وراية الفرقة السادسة . سوف يُشن عليكم الهجوم خلال ساعة . أما الشعب ، فقد كان امس يغلي على نار ، ولكنه لا يتحرك هذا الصباح . ليس ثمة ما نتوقعه ، وليس ثمة ما نرجوه : ولن نفوز من احدى الضواحي بعد الآن باكثر مما سنفوز من احدى الكتائب . لقد تخلى القوم عنكم . »

وسقطت هذه الكلمات على ازيز الجموع ، فأحدثت مثل ذلك الأثر الذي تحدثه في النحل قطرات العاصفة الاولى . لقد اعتصموا كلهم بالصمت . كانت لحظة من لحظات ذلك السكوت الذي لا سبيل إلى وصفه

حين يكون في ميسور المرء ان يسمع حفيف اجنحة الموت .

وكانت تلك اللحظة قصيرة ؟

وصاح من اعماق الجموع الاشد إظلاماً ، صوت يخاطب آنجولراس :

– « ليكن ذلك . فلنجعل ارتفاع المتراس عشرين قدماً ، ولنبق كلنا فيه . ايها المواطنون ، دعونا نقدم احتجاج الجثث . فلنظهر للملأ انه إذا ما تخلى الشعب عن الجمهوريين فأن الجمهوريين لا يتخلون عن الشعب . »

وحررت هذه الكلمات اذهان الجميع من سحابة القلق الشخصي الأليمة . لقد استقبلت بهتاف حماسي ه

ولم يعرف قط اسم الرجل الذي تكلم هكذا . كان رجلا مغموراً من لابسي الدُّرّاعات ، رجلا مجهولا ، منسياً ، بطلا عابراً ، ذلك الغفل العظيم الذي نقع عليه دائماً في الازمات الانسانية والولادات الاجتماعية ، والذي ينطق في اللحظة المناسبة ، وعلى نحو سامٍ ، بالكلمة الحاسمة ، والذي يتلاشى في الظلام بعد ان يمثّل ، لحظة من زمان ،على وميض البرق ، الشعبَ والله .

كان هذا العزم الصارم قد ملأ جو اليوم السادس من حزيران ۱۸۳۲ إلى درجة جعلت المتمردين في متراس سان ميرّي يطلقون في الساعة نفسها تقريباً هذه الصيحة التي امست تاريخية والتي أوردت في المحاكمة:

« سيان أجاءوا لمساعدتنا ام لم يجيئوا . فلنمت هنا حتى الرجل الأخير ! »

وهكذا نرى ان كلا من المتراسين اتصل بالآخر على الرغم من انهما كانا منفصلين مادياً .

٤
نقص خمسة وزيادة واحد

بعد ان تكلم الرجل المجهول الذي رسم « احتجاج الجثث » وبعد ان أعطى صيغة النفس المشتركة ، ارتفعت من جميع الشفاه صيحة راضية ورهيبة على نحو غريب ، صيحة حدادية المعنى ، مظفرة الجرس:

— « فليحي الموت ! فلنبق كلنا هنا ! »

فقال آنجولراس :

— « ولماذا كلنا ؟ »

— « كلنا ! كلنا ! »

وأضاف آنجولراس :

— « المركز منيع . والمتراس جيد . ثلاثون رجلا يكفون . لماذا نضحي باربعين ؟ »

فأجابوا :

— « لأن اياً منا لا يريد ان يغادر المكان . »

فصاح آنجولراس ، وكان في صوته ارتجاج يكاد يكون غاضباً :

— « ايها المواطنون ، الجمهورية ليست غنية بالرجال حتى تتحمل النفقات على غير طائل . الزهو اسراف . وإذا كان من واجب بعضنا أن يمضي لسبيله فان هذا الواجب ينبغي ان يؤدى كأي واجب آخر . »

وكان لآنجولراس ، رجل المبدأ ، على اخوانه في المذهب ، ضرب من السلطان الكلي الذي ينبثق من المطلق . ومع ذلك ، وبرغم هذا السلطان الكلي ، فقد كان ثمة دمدمة .

وإذ رأى آنجولراس ، وكان زعيماً حتى رؤوس اصابعه ، إلى القوم يدمدمون ، أصرّ على رأيه . ثم عاد إلى القول في شموخ :

— « على كل من يخشى ان لا نكون اكثر من ثلاثين أن يعبر عن رأيه . »

وتضاعفت الدمدمة .

ولاحظ صوتٌ منطلق من احد الجموع :

— « وإلى هذا ، فمن اليسير جداً ان نطالب المرء بالانصراف : المتراس محاصر . »

وقال آنجولراس :

— « ليس من ناحية الاسواق . إن شارع مونديتور سالك . ومن طريق الـ « بريشور » يستطيع المرء ان يصل إلى الـ « مارشيه ديزينوسانت » .

واضاف صوت آخر من بين الجمع :

— « وهناك سوف يلقون القبض عليه : انه سوف يقع هناك على جماعة من الحرس الحزبي أو من جند الضواحي . انهم سوف يرون رجلا يمضي وقد ارتدى دُرّاعة واعتمر بقلنسوة . فيسألونه : « من اين اقبلت ، يا هذا ؟ انت من جماعة المتراس ، اليس كذلك ؟ » وينظرون إلى يديك . ان رائحة البارود تعبق منك . ويعدمونك رمياً بالرصاص . »

ومن غير ان يجيب ، مس آنجولراس كتف كومبوفير ، وذهبا معاً إلى الحجرة السفلى .

ثم انهما رجعا بعد لحظة . كان آنجولراس يحمل بين يديه البذلات العسكرية الأربع التي كان محتفظاً بها . وتبعه كومبوفير ، حاملا الاحزمة المصنوعة من جلد الجاموس ، والقلانس العسكرية :

وقال آنجولراس :

— « بهذه الملابس العسكرية يستطيع احدكم ان يختلط بالجنود ويهرب . إن معي ما يكفي أربعة »

وطرح البذلات العسكرية الاربع على الارض غير المرصوفة :
ولم تستبد بالحشد الباسل هزة ما . وتولى كومبوفير الكلام فقال :

— « اسمعوا ، ينبغي ان يكون عندنا قليل من الرحمة . أتعلمون ما المسألة التي تواجهنا هنا ؟ إنها مسألة نساء . فلنرَ . هل ثمة زوجات ، نعم أم لا ؟ هل هناك اطفال ، نعم أم لا ؟ هل يوجد أم لا يوجد امهات يهززن المهد باقدامهن ويتراكم من حولهن عدد من الصغار ؟ إذا كان بينكم من لم ير قط ثدي امرأة مرضعة فليرفع يده . آه ، انتم تريدون ان تموتوا . انا اريد ذلك ايضاً ، أنا الذي يخاطبكم ، ولكني لا اريد ان استشعر اشباح النساء تلف اذرعها من حولي . تريدون ان تموتوا ، ليكن لكم ذلك ، ولكن لا تميتوا الآخرين . ان انتحارات مثل هذه التي سوف تتم هنا لسامية رفيعة ؛ ولكن الانتحار ضيق . وهو لا يزيد توسيعاً . ولحظةَ يمسّ اولئك المجاورين لك . يصبح الانتحار قتلا ؛ فكروا في الرؤوس الصغيرة الشقراء ، وفكروا في الشعور البيضاء : اسمعوا ، منذ لحظة ليس غير ، وقد اخبرني آنجولراس بذلك الآن ، رأى عند زاوية شارع الـ « سيني » شباكاً مضاءاً ، شمعةً في نافذة حقيرة ، في الطابق الخامس ، وعلى زجاج النافذة رأى خيالا مرتعشاً لرأس امرأة عجوز يبدو انها سلخت الليل كله في الانتظار . إنها قد تكون ام واحد منكم . حسناً ، فليذهب هذا الرجل ، وليهرع إلى أمه قائلا : « أماه ، ها انا ذا ! » وليطمئنّ فؤاده ، فأن العمل هنا سوف يظل سائراً على ما يرام ، وحين يعيل امرؤٌ اقرباءه بعمله ، فليس له الحق في ان يضحي بنفسه ؛ إن معنى ذلك تخليه عن اسرته . وأولئك الذين لهم بنات ، واولئك الذين لهم اخوات ! هل تفكرون في ذلك ؟ إنكم تريدون أن تُقتلوا ، ولنفرض انكم قد متم . هذا حسن ، والغد ؟ فتيات صغيرات ليس عندهن خبز ، ذلك شيء فظيع . الرجل يشحذ ، والمرأة تبيع . آه ، أولئك المخلوقات الفاتنات ، المليحات جداً ،

الناعمات جداً ، المعتمرات بقلانس من الازهار ، اللواتي يغنين ، اللواتي يثرثرن ، اللواتي يملأن البيت بالعفة ، اللواتي يشبهن عطراً حياً ، اللواتي يثبتن وجود الملائكة في الجنة بطهر العذارى على الأرض ، جان تلك ، ليزا تلك ، ميمي تلك ، هاته الكائنات المعبودة النبيلة اللواتي هن نعمتاك وموضع فخرك ، آه ايها الرب ، سوف يجعن ! ما الذي تريدون ان اقوله لكم ؟ إن ثمة سوقاً للاجساد البشرية ، وليس بايديكم الشبحية المرتعشة من حولهن تستطيعون ان تحولوا بينهن وبين الدخول إلى تلك السوق ! فكروا في الشارع ، فكروا في الرصيف المغطى بالسالكين ، فكروا في الدكاكين التي تغدو النسوة امامها ويرحن عاريات الاكتاف ، عبر الوحل . هاته النسوة ايضاً كن طاهرات . فكروا بأخواتكم ، اعني اولئك الذين لهم منكم اخوات . الشقاء ، البغاء ، الشرطة ، سان لازار * — ذلك ما سوف تسقط فيه تلك الفتيات الجميلات الناعمات ، تلك المعجزات الواهنات اللواتي ابدعهن الحياء واللطف والجمال ، الأشد نضرة من زنابق شهر نوار ! آه ! لقد قُتلتم ! آه ، انتم لم تعودوا إلى جانبهم ! حسن جداً ، لقد رغبتم في انقاذ الشعب من الملكية ، فأسلمتم فتياتكم إلى البوليس . ايها الأصدقاء ، خذوا حذركم ، ليكن عندكم شيء من الرأفة . ان النساء ، النساء البائسات ، ليس من عادتهن أن يفكرن طويلا . نحن نعتز بأن النساء لم يتلقين ثقافة الرجال ، نحن نحظر عليهن القراءة ، نحن نحظر عليهن التفكير ، نحن نحظر عليهن الانهماك في السياسة . فهل تحظرون عليهن ، الليلة ، ان يذهبن إلى معرض الجثث المجهولة للتعرف إلى جثثكم ؟ اسمعوا ، إن اولئك الذين لهم عائلات يجب ان يكونوا اولاداً طيبين ، فيصافحونا ويمضوا لسبيلهم ، تاركين لنا مهمة العمل ، هنا ، وحدنا . أنا اعلم جيداً ان الانصراف يقتضي شجاعة ؛ إنه عسير . ولكن كلما ازداد الشيء عسراً كان اجدر

* سجن النساء واصلاحيتهن في ذلك العهد .

بالثناء والتقدير . قد يقول أحدكم : « إن عندي بندقية ، أنا في المتراس ، ليكن ما يكون ، سوف ابقى . » ليكن ما يكون ، هذه عبارة قد قيلت باكراً جداً . ايها الاصدقاء ، هنالك غد ؛ انتم لن تكونوا هنا في ذلك الغد ، ولكن أسَركم سوف تكون . ويا لها من آلام ! انتبهوا ، طفل جميل ، يمور بالصحة ، طفل ذو وجنتين مثل التفاح ، طفل يهذر ، ويثرثر ، ويلغو ، ويضحك ، ويعبق بالعبير تحت القبلة ، هل تعلمون ما الذي يحل به حين نتخلى عنه ؟ لقد رأيت واحداً ، صغيراً جداً ، لا يزيد طوله عن هذا المقدار . كان ابوه قد مات . وكان بعض الناس الفقراء قد تلقفوه بدافع الشفقة ، ولكن لم يكن عندهم خبز يأكلونه . كان الطفل جائعاً دائماً . وكانت الدنيا شتاء . ولم يبك البتة . لقد رأوه يحوم حول الموقد الذي لم ينطو على نار قط ، والذي كانت مدخنته ، كما تعرفون ، مجصصة بالطين الاصفر ؛ ونزع الطفل باصابعه الصغيرة شيئاً من ذلك الطين ، وأكله . كان يتنفس في عسر ، وكان وجهه شديد الشحوب ، وكانت رجلاه رخوتين ، وكان بطنه منتفخاً . إنه لم يقل شيئاً . وخاطبوه ، فلم يجب . لقد مات . لقد حُمل إلى « مستشفى نيكير » ليموت ، وهناك رأيته . كنت جراحاً في ذلك المستشفى . والآن ، إذا كان بينكم آباء ، آباء يبهج نفوسهم أن يتنزهوا يوم الاحد ممسكين بأيديهم الكبيرة القوية ايدي اطفالهم الصغيرة ، فليتخيل كل منهم ان ذلك الطفل كان ولده . هذا الطفل البائس ، وانا اتذكره جيداً ، يبدو لي انني اراه الآن ، وهو ممدد عارياً فوق مائدة التشريح ، وقد نتأت عظامه تحت جلده مثل القبور تحت أعشاب مقبرة . لقد وجدنا ضرباً من الوحل في معدته . وكان ثمة رماد في اسنانه . والآن ، دعونا نراجع ضمائرنا ونستشر قلوبنا . الاحصاءات تظهر ان نسبة الوفيات بين الاطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم تبلغ خمسة وخمسين بالمئة . أنا اعود فأكرر : المسألة

مسألة زوجات ، انها مسألة امهات ، انها مسألة فتيات صغيرات ، إنها مسألة أطفال . هل اخاطبكم من اجلكم انتم ؟ نحن نعرف جيداً من انتم . نحن نعرف جيداً انكم كلكم شجعان ، وحق الالـه ! نحن نعرف جيداً ان في نفوسكم جميعاً بهجة افتداء القضية العظمى بأرواحكم وفخر ذلك الافتداء . نحن نعرف جيداً انكم تحسون بان كلا منكم قد اختير لكي يموت موتاً نافعاً رائعاً ، وان كلا منكم يعض بالنواجذ على نصيبه من النصر . حسن جداً . ولكنكم لستم وحدكم في هذا العالم . هناك كائنات اخرى يجب عليكم ان تفكروا فيها . ينبغي ان لا نكون انانيين . »

وحنوا رؤوسهم جميعاً وقد طغت على وجوههم سحابة قاتمة :

يا لمتناقضات القلب البشري الغريبة في اسمى لحظاته ! إن كومبوفير ، الذي تكلم هكذا ، لم يكن يتيماً . لقد تذكر امهات الآخرين ، ونسي امه : كان قد اختار الموت . كان « أنانياً » .

وكان ماريوس الصائم ، المحموم ، المسلوب آماله واحداً بعد آخر ، الجانح إلى الامى ، اشد انواع الغرق قتاماً ، المشبع بالعواطف العنيفة ، المستشعر ان النهاية تقترب – كان ماريوس يسترسل اكثر فأكثر في ذلك الذهول الخيالي الذي يسبق ساعة الهلاك ، دائماً ، حين نختارها بارادتنا .

كان خليقاً بالعالم الفيسيولوجي ان يدرس فيه الاعراض النامية لذلك الاستغراق الحمّي * المصنف والمعروف عند العلماء ، والذي هو بالنسبة إلى الألم اشبه بالانخطاف بالنسبة إلى اللذة . إن لليأس ايضاً انخطافه ، وكان ماريوس قد انتهى إلى تلك النقطة . لقد شهد كل شيء وكأنما كان يفعل ذلك من خارج . وكما قلنا من قبل ، فقد بدت الاشياء ، الجارية امامه ، وكأنها نائية . لقد رأى الكل . ولكنه لم يتبين التفاصيل

---

* نسبة الحمى .

لقد رأى الغادين والرائحين من خلال وهج مذهل . وسمع الاصوات تتكلم وكأنما تنبعث من أعماق هوة .

ومع ذلك ، فقد هزه هذا . كان في ذلك المشهد حد مسنون نفذ اليه ، وأيقظه . وكانت تطوف في ذهنه الآن فكرة واحدة ليس غير : أن يموت ، ولم يكن راغباً في الانحراف عنها . ولكنه فكر ، في سرنمته* الفاجعة ، انه ليس من المحظر على المرء ، فيما هو يهلك نفسه ، ان ينقذ شخصاً آخر .

ورفع عقيرته قائلا :

— « آنجولراس وكومبوفير على حق . لا تضحيات على غير طائل . أنا اضم صوتي إلى صوتيهما ، وينبغي ان نسرع . ولقد قال لكم كومبوفير الاشياء الحاسمة . ان بينكم نفراً لهم اسَر ، لهم امهات ، لهم اخوات ، لهم زوجات ، لهم اطفال . فليغادر هؤلاء صفوفنا ! »

ولم يتحرك أحد .

وأعاد ماريوس :

— « على المتزوجين ومعيلي الأسر ان يغادروا الصفوف ! »

كانت سلطته عظيمة . صحيح ان آنجولراس كان زعيم المتراس ، ولكن ماريوس كان مخلّصه .

وصاح آنجولراس :

— « أنا آمركم بذلك . »

وقال ماريوس :

— « انا اناشدكم ذلك ! »

وعندئذ ، وبعد أن اثارتهم كلمات كومبوفير ، وهزهم أمر آنجولراس ، وحركتهم صلاة ماريوس ، راح هؤلاء الرجال الابطال يسعى بعضهم ببعض . فقال فتى منهم لرجل في منتصف العمر : « هذا صحيح .

* somnambulisme أو السير اثناء الرقاد .

انت والد أسرة . إذهب ! » فأجابه الرجل : « انت اولى بالذهاب ان لك اختين تعيلهما . » ونشب نزاع لم يُسمع بمثله من قبل . كمان يـدور حول من منهما ينبغي ان لا يسمح لنفسه بأن يوضع عنـد باب القبر .

وقال كومبوفير :

— « عجلوا ! بعد ربـع ساعة يكون الاوان قد فات . »

وواصل آنجولراس :

— « ايها المواطنون ، هذه هي الجمهورية ، والاقتراع العام هـو الذي يحكم . عينوا بانفسكم من الذي ينبغي ان ينصرف . »

وأطاعوا . وما هي إلا بضع دقائق حتى كان خمسة منهم قد عينوا بالاجماع ، فغادروا صفوف المقاتلين .

وهتف ماريوس :

— « إنهم خمسة ! »

ولم يكن ثمـة غير اربـع بذلات عسكرية .

فاندفع الخمسة يقولون :

— « حسن ان واحداً منا يجب ان يبقى . »

وكانت المسألة الآن : من الذي يجب ان يبقى ، ومـن الـذي سوف يجد اسباباً تبرر عدم بقاء الآخرين . ونشب النزاع الكـريم كرة اخرى .

— « انت . انت لك زوجة تحبك . » — « أما انت فان عنـدك امك العجوز . » — « انت ليس لك لا أب ولا ام ، فما الذي سيحل بأخوتك الثلاثة الصغار ؟ » — « أنت أب لخمسة اطفال . » — « إن لك الحق في ان تعيش . انك في السابعة عشرة . لم يئن الاوان بعد . »

كانت هذه المتاريس الثورية الضخمة مواعيد بطولات . كان غـيرُ ممكن الوقوع سهلا هناك . ولم يدهش بعض هؤلاء الرجال من بعض .

وكرر كومبوفير :

— « عجلوا ! »

وصاح صوت من بين الجمع يخاطب ماريوس :

— « عين انت بنفسك من الذي يجب ان يبقى . »

فقال الخمسة :

— « اجل . إختر . سوف نطيعك . »

واعتقد ماريوس الآن أن ليس ثمة مكان لعاطفة ما . ومع ذلك فلم تكد تراوده هذه الفكرة ، فكرة اختيار رجل للموت ، حتى ارتد دمه كله إلى قلبه . وكان جديراً بلونه ان يشحب لو كان في ميسوره ان يزداد شحوباً .

وتقدم نحو الخمسة ، الذين ابتسموا له . وصاح كل منهم وقد امتلأت عينه بتلك الشعلة الشريفة التي نراها في أعماق التاريخ على الـ « تيرموبيل » * :

— « انا ! انا ! انا ! »

وعدهم ماريوس في ذهول . كانوا لا يزالون خمسة ! ثم وقعت عينه على البذلات العسكرية الأربع .

وفي تلك اللحظة سقطت بذلة خامسة ، وكأنما كان سقوطها من السماء ، فوق الاربع الأخر .

لقد انقذ الرجل الخامس .

ورفع ماريوس عينيه فرأى مسيو فوشلوفان .

كان جان فالجان قد دخل اللحظة إلى المتراس .

وسواء أكان ذلك بفضل توجيه من شخص ما ، أو بفضل الغريزة ، المصادفة فأنه كان قد اقبل من طريق شارع مونديتور . وبفضل

---

* Thermopylee فجاج مشهورة في تسالية ، بين جبل انوبيه وخليج مالياك حيث حاول ليونيداس مع ثلاثمئة رجل اسبارطي زحف الفرس الغزاة مظهراً بطولة تكاد تكون اسطورية .

ملابسه الخاصة بالحرس الوطني ، استطاع ان يجتاز الطريق في يسر .

ولم يطلق الحارس الذي اقامه المتمردون في شارع مونديتور اشارة الخطر قط من أجل رجل مفرد من رجال الحرس الوطني : لقد اجاز لـه ان يسلك الشارع قائلا في ذات نفسه : « لعله ان يكون مدداً ، وفي أسوأ الاحوال اسيراً . » كانت اللحظة بالغة الحرج فهـي لا تسمح للحـارس بأن يُشغل عن واجبه وعن مركز مراقبته .

ولحظة دخل جان فالجان المتراس لم يلحظه احد . كانت الاعين كلها مركزة على الرجال الخمسة المختارين وعلى البذلات العسكرية الأربـع . ورأى جان فالجان ، وفهم . وفي صمت ، نزع ملابسه ، وطرحها على ركام البذلات الاخرى .

وكان الانفعال ممتنعاً على الوصف .

وتساءل بوسوويه :

— « من هذا الرجل ؟ »

فأجابه كومبوفير :

— « إنه رجل ينقذ الآخرين . »

وقال ماريوس في صوت رصين :

— « أنا اعرفه . »

وكان هذا التوكيد كافياً للجميـع .

والتفت آنجولراس نحو جان فالجان وقال :

— « ايها المواطن ، اهلا بك . »

ثم اضاف :

— « انت تعلم انك سوف تموت . »

ومن غير ان يجيب ، ساعد جان فالجان المتمردَ الذي انقذه ، على ارتداء ثوبـه العسكري .

٥
اي افق يُرى من أعلى المتراس

كانت حال الجميع ، في ساعة الموت تلك ، وفي ذلك الموطن الذي لا يعرف الرحمة ، قد وجدت حاصلها وذروتها في كآبة آنجولراس العليا .

كان آنجولراس يجسّد في ذات نفسه كمال الثورة . ومع ذلك ، فقد كان ناقصاً ، بقدر ما يمكن للمطلق ان يكون ناقصاً . لقد تعلق اكثر مما ينبغي بسان جوست * ، واقل مما ينبغي بـ « آناشارسيس كلوتز » ** ، وبرغم ذلك فان عقله ، في جمعية « اصدقاء الالفباء » ، كان قد انتهى إلى ان يتلقى بعض الاستقطاب من أفكار كومبوفير . وكان قد شرع يطّرح ، منذ مدة ، شيئاً فشيئاً ، شكل العقيدة الضيق ، واجاز لنفسه ان يمضي في طرق التقدم اللاحبة ، وارتضى آخر الامر ، كتطور نهائي ورائع ، تحوّل الجمهورية الفرنسية العظيمة إلى جمهورية انسانية ضخمة . أما في ما يتصل بالوسائل المباشرة ، في حالة من حالات العنف ، فكان يريدهم ان يكونوا ذوي عنف . وهو في هذا لم يتغير ؛ وكان لا يزال من تلك المدرسة الملحمية الرهيبة التي تلخّص في هذه الكلمة : ثلاث وتسعون . ***

كان آنجولراس واقفاً على السلم المصنوعة من حجارة الارصفة ،

---

* Saint — Just (١٧٦٧ – ١٧٩٤) عضو المؤتمر الوطني زمن الثورة ، وعضو لجنة السلامة الوطنية ، وكان شديد التطرف في ثوريته ، وقد مات على المقصلة مع روبسبيير .

** Anacharsis Cloots عضو المؤتمر الوطني في عهد الثورة الفرنسية ، وكان احد مؤسسي « عبادة العقل » ، وقد لقب نفسه بـ « خطيب الجنس البشري » . وقضى نحبه على المقصلة مع الهيبيريين (١٧٥٥ – ١٧٩٤)

*** يقصد عام ١٧٩٣ الذي ساد فيه الارهاب الثوري في فرنسة .

ومرفقه على انبوب بندقيته القصيرة الخفيفة . كان يفكر . واجفل وكأنما كان في غمرة من عصفات ريح . ان للمواطن التي يجثم فيها الموت مثل هذه الآثار ذوات القوائم الثلاث . وانبعثت من عينيه ، المفعمتين بالبصر الباطني ، ضروب من النيران المطفأة . وفجأة رفع رأسه ، وارتد شعره الاشقر إلى الوراء مثل شعر الملاك فوق مركبته القائمة المصنوعة من النجوم . كان اشبه بعفرة الاسد المروع وسط هالة من نور . وهتف آنجولراس :

— « ايها المواطنون ، هل تتصورون المستقبل ؟ شوارع المدن مغمورة بالضياء ؛ اغصان خضراء على عتبات المنازل ؛ الدول متآخية ؛ الناس متصفين بالعدل ؛ الشيوخ يباركون الاطفال ؛ الماضي محباً للحاضر ؛ المفكرون يتمتعون بحرية كاملة ؛ المؤمنون ينعمون بالمساواة ؛ السماوات للدين ، والرب كاهناً مباشراً ، وقد امسى الضمير مذبحاً ؛ لا بغض ؛ الاخاء يجمع ما بين المعمل والمدرسة ؛ الشهرة للمكافأة وللعقوبة ؛ العمل للجميع ؛ القانون في خدمة الجميع ؛ السلم فوق الجميع ؛ لا دماء مسفوحة ؛ لا حزوب ؛ الامهات تغمرهن السعادة ! إن اخضاع المادة هو الخطوة الأولى ، وتحقيق المثل الاعلى هو الخطوة الثانية . فكروا في الذي صنعه التقدم حتى الان . ففي العهود القديمة كانت العروق البشرية ترى في رعب إلى الافعوان الذي نفث فوق الماء ، والتنين الذي تقيأ ناراً ، والعُقاب — هولة السماء — الذي طار بجناحي نسر وبراثن نمر ، حيوانات رهيبة كانت فوق الانسان . بيد ان الانسان كان قد طرح أشراكه ، أشراك الذكاء المقدسة ، وكان قد اوقع بالهولات آخر الأمر .

لقد روّضنا الافعوانَ ، وهو يدعى المركب البخاري ؛ لقد روضنا التنين ، وهو يدعى القاطرة ؛ ونحن على وشك ترويض العُقاب ، وقد

أمسينا اليوم نملكه ، وهو يدعى المنطاد . ويوم يتمّ هذا العمل البروميثي * ويوم يوفق الانسان إلى ان يسخر لارادته تسخيراً نهائياً وهم القدماء الثلاثي ، الافعوان ، والتنين ، والعقاب ، فعندئذ يصبح سيد الماء ، والنار ، والهواء . وعندئذ يصبح بالنسبة إلى سائر الخليقة الناشطة ما كانت الآلهة القديمة بالنسبة اليه هو . الشجاعة ، وإلى الامام ! أيها المواطنون ، إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى العلم وقد جُعل حكومة ، إلى قوة الاشياء وقد غدت وحدها القوة العامة الوحيدة ، إلى القانون الطبيعي الحامل جزاءه وعقوبته في ذات نفسه والمعلن رسمياً بالبرهان الذاتي ، إلى فجر الحقيقة المطابق لفجر النهار . نحن ماضون نحو اتحاد الشعوب ؛ نحن ماضون نحو وحدة الانسان . لا أوهام بعد اليوم ؛ لا طفيليات بعد اليوم . الواقعي محكوماً بالحقيقي . تلك هي الغاية . ان الحضارة سوف تقيم محاكمها فوق قمة اوروبة ، وبعد ذلك في وسط القارات ، في برلمان للذكاء كبير . لقد رئي شيء مثل ذلك من قبل . ن مجالس اليونان التمثيلية القديمة المعروفة بالآمفيكتيونات كانت تعقد جلستين في العام ، الأولى في دلفي ، مقر الآلهة ، والثانية في تيرموبيل ، مقر الأبطال . ولسوف يكون لاوروبة آمفيكتيوناتها ، ولسوف يكون للكرة الارضية آمفيكتيوناتها . إن فرنسة لتحمل بين جوانحها هذا المستقبل السامي . ذلكم هو حَمْل ** القرن التاسع عشر . فما رسمته بلاد الاغريق رسماً أولياً جدير بأن يتم على يد فرنسة . أصغ الي اذن ، يا فويبي ، ايها العامل الباسل ، يا رجل الشعب ، يا رجل الشعوب . أنا أجلّك . اجل ، انت ترى عصور المستقبل في وضوح . اجل ، انت على صواب . انت لم يكن لك لا أب

* نسبة الى بروميثيوس الذي تروي الاساطير انه سرق النار من السماء ، وكان واضع حجر الاساس في الحضارة الانسانية ..

** الحمل هنا بمعنى الحَبَل .

ولا ام . فويبي . لقد اتخذتَ من الانسانية أماً لك ، ومن الحق أباً لك إنك سوف تموت هنا ، يعني سوف تنتصر . ايها المواطنون ، مهما يحدث اليوم ، وسواء انهزمنا أم انتصرنا ، فأننا سنصنع ثورة . ومثلما تضيء الحرائق المدينة بكاملها هكذا تنير الثورات الجنس البشري كله . واي ثورة تلك التي سنصنعها ؟ لقد سبق لي ان قلت : إنها ثورة الحق. ومن وجهة النظر السياسية هناك مبدأ واحد ليس غير : سيادة الانسان على نفسه . وهذه السيادة التي لنفسي على نفسي تدعى الحرية . وحيث تتشارك اثنتان من هذه السيادات أو اكثر تبدأ الدولة . ولكن ليس في هذه المشاركة اي تنازل البتة . ان كل سيادة تتخلى عن جزء من ذاتها لكي تشكل الحق العام . وهذا الجزء متساو بالنسبة إلى الجميع . وتماثل المقادير التي تتخلى عنها هذه السيادات يدعى المساواة . والحق العام ليس غير حماية الجميع مشعةً على حق كلٍ ، لا اكثر ولا اقل . وحماية الجميع هذه لكلٍ تدعى الاخاء. ونقطة التقاطع بين هذه السيادات المتآلفة تدعى المجتمع . ولما كان هذا التقاطع التقاء ، فأن تلك النقطة هي عقدة. ومن هنا ما ندعوه الرابطة الاجتماعية . وبعضهم يقول العقد الاجتماعي ، وليس من فرق بين التعبيرين ، لأن لفظة العقد قد صيغت ، اشتقاقياً ، من فكرة الرابطة . فلنتفاهم في ما يتصل بالمساواة . لانه إذا كانت الحرية هي القمة فان المساواة هي القاعدة . المساواة لا تعني ، ايها المواطنون ، نهوض النبات كله على مستوى واحد ، مجتمعاً من اعشاب ضخمة وسنديانات صغيرة ؛ جواراً من ضروب الحسد يخصي بعضها بعضاً : إنه ، مدنياً ، تكافؤ الفرص أمام الكفايات كلها ؛ وسياسياً تساوي الاصوات جميعاً في القيمة ؛ ودينياً ، تساوي جميع الضمائر في الحقوق . إن للمساواة وسيلة : التعليم المجاني الالزامي الحق في الوصول إلى الالفباء ؛ يجب ان نبدأ بهذا . المدرسة الاولية الزاميةٌ للجميع ، والمدرسة الثانوية متاحةٌ للجميع ، ذلك هو القانون . ومن

المدرسة المتماثلة ينبثق المجتمع المتساوي . اجل ، التعليم ! الضياء ! الضياء ! كل شيء ينبعث من الضياء ، وكل شيء يرتد اليه ، ايها المواطنون ، ان القرن التاسع عشر عظيم ، ولكن القرن العشرين سوف يكون سعيداً . وعندئذ لن يبقى بعدُ شيء مما يشبه التاريخ القديم . ولن يتعين على الناس بعدُ ان يخشوا ، شأنهم اليوم ، فتحاً ، أو غزوا ، أو اغتصاباً ، أو تنافساً بين الشعوب بالاسلحة ، أو اعتراضاً للحضارة متصلا بزواج ملك ، أو ولادة في انظمة الطغيان الوراثية ، أو تمزيقاً للشعوب بمؤتمر ، أو تجريئاً ناشئاً عن سقوط اسرة مالكة ، أو صراعاً بين دينين يلتقيان وجهاً لوجه ، مثل تيسين من تيوس الظلام ، فوق جسر اللانهاية . لن يتعين على الناس بعدُ ان يخشوا الجوع ، والاستغلال ، والبغاء بسبب من العوز ، والبؤس بسبب من انعدام العمل ، وان يخشوا المشنقة ، والسيف ، والمعارك ، وجميع لصوصيات المصادفة في غابة المصائب . بل ان في استطاعتنا أن نذهب إلى حد القول : لن تبقى بعدُ مصائب . ان الناس سوف يكونون سعداء . والجنس البشري سوف ينفّذ قانونه كما تنفذ الكرة الارضية قانونها . ولسوف يقام التناغم من جديد بين النفس والنجم . إن النفس سوف تنجذب حول الحقيقة كما ينجذب النجم حول الضياء . ايها الاصدقاء ، إن الساعة التي نعيش فيها ، والتي اخاطبكم فيها ، هي ساعة مظلمة ، ولكن ثمن المستقبل يكون فظيعاً دائماً . الثورة باب ، تؤدى عنده المكوس . اوه ، ان الجنس البشري سوف ينقذ ، وتقال عثرته ، ويوقع في قلبه العزاء . اننا نؤكد ذلك هنا في هذا المتراس . من اين ترتفع صيحة الحب إذا لم ترتفع من قمة التضحية ؟ ايه ايها الاخوة ، هذا مكان الاتصال بين اولئك الذين يفكرون واولئك الذين يتألمون . إن هذا المتراس ليس مصنوعاً من حجارة ارصفة ، أو من ألواح خشب ، أو من حديد ؛ إنه مصنوع من ركامين ، ركام افكار وركام آلام . إن البؤس ، هنا ، يلتقي بالمثل الاعلى . هنا يعانق النهار الليل ،

ويقول له : « سوف اموت معك ، وانت سوف تولد من جديد معي . » ومن ضغط ضروب الحزن كلها ينبثق الايمان . إن الآلام لتحمل حشرجتها هنا ، وان الافكار لتحمل خلودها . وهذه الحشرجة وذاك الخلود سوف يمتزجان ويشكلان موتنا . ايها الاخوة ، إن ذلك الذي يموت هنا يموت تحت اشعاع المستقبل ، وإننا لداخلون إلى قبر مضاء بالفجر . »

وقاطع آنجولراس نفسَه مقاطعة ، ولا نقول انتهى ، وراحت شفتاه تتحركان في صمت وكأنما كان لا يزال يخاطب نفسه . ونظروا اليه في انتباه ، محاولين ان يسمعوا شيئاً اضافياً . لم يكن ثمة تصفيق ، ولكنهم تهامسوا فترة طويلة . وإذ كان الكلام نفثاً ، فأن ارتجاف العقول يشبه ارتجاف اوراق الاشجار .

٦
ماريوس تائهاً ، جافير موجزاً

فلنروِ ما كان يدور في خلد ماريوس .

ينبغي ان نتذكر حالته الذهنية . فكما ذكرنا منذ لحظة ، كان كل شيء عنده ، الآن ، حلماً من الاحلام . وكان إدراكه مشوشاً . ويجب ان نؤكد أن ماريوس كان في ظل الاجنحة الكبيرة السوداء التي تنبسط فوق المحتضَرين من الناس . لقد استشعر انه دخل القبر ، وبدا له انه قد انتهى إلى الجانب الاخر من الجدار ، ولم يعد يرى وجوه الاحياء إلا بعيني ميت .

كيف ظهر مسيو فوشلوفان هناك ؟ لماذا كان هناك ؟ ما الذي كان يبتغي ؟ إن ماريوس لم يطرح اياً من هذه الاسئلة . وإلى هذا ، فبسبب

من ان ليأسنا تلك الخاصة التي تجعله يلف الآخرين كما يلفنا ، فقد بدا له ان من المنطقي ان يقبل كل امريء على الموت .

كل ما في الأمر أنه فكر بكوزيت منقبض الفؤاد .

وفوق هذا ، فان مسيو فوشلوفان لم يتحدث اليه ، ولم ينظر اليه ، بل انه لم يبد انه سمع شيئاً حين رفع ماريوس صوته لكي يقول : « أنا اعرفه . »

أما ماريوس ، فقد كان في مسلك مسيو فوشلوفان هذا راحة له ؛ واذا جاز لنا ان نصطنع مثل هذه الكلمة لمثل تلك الانطباعات فيتعين علينا ان نقول ان ذلك المسلك قد سره . فلقد طالما استشعر ان من المستحيل عليه بايما حال من الاحوال ان يوجه كلمة إلى ذلك الرجل اللغز الذي كان في نظره مبهماً ومهيباً في آن واحد . وكان قد انقضى زمن طويل ايضاً على رؤيته اياه آخر مرة ، مما زاد في قوة تلك الاستحالة ، بالنسبة إلى ماريوس ذي الطبيعة الحيية المتحفظة .

وغادر الرجال الخمسة المعينون المتراس سالكين زقاق مونديتور. كانوا يشبهون رجال الحرس الوطني كل الشبه . ولقد غادر واحد منهم المتراس وهو يبكي . وقبل ان يمضوا لسبيلهم عانقوا اولئك الذين مكثوا .

حتى إذا انصرف الرجال الخمسة الذي أرسلوا إلى الحياة ، فكر آنجولراس في ذلك الذي حُكم عليه بالموت . ومضى إلى الحجرة السفلية . كان جافير ، المشدود وثاقه إلى العمود ، مستغرقاً في التفكير .

وسأله آنجولراس :

— « هل تحتاج إلى شيء ؟ »

فأجاب جافير :

– « متى ستقتلونني ؟ »

– « انتظر . نحن في حاجة إلى كل خرطوشة من خراطيشنا في هذه اللحظة . »

فقال جافير :

– « اذن ، فاعطوني ما اشربه . »

وقدم آنجولراس بنفسه كأساً من الماء اليه . واذ كان جافير مشدود الوثاق فقد ساعده على ان يشربه .

وعاد آنجولراس إلى الكلام :

– « اهذا كل شيء ؟ »

فأجاب جافير :

– « إن شدي إلى هذا الوتد يؤذيني . ولم يكن رفيقاً منكم ان تتركوني اقضي الليل هنا . شدوا وثاقي كما تريدون ، ولكن في استطاعتكم من غير ريب أن تمددوني على طاولة . مثل الرجل الاخر . »

وبحركة من رأسه ، أشار إلى جثمان مسيو مابوف .

كان في اقصى الغرفة ، كما نذكر ، مائدة عريضة كانوا قد صبوا فوقها القذائف وصنعوا الخراطيش . وإذ كانت الخراطيش كلها قد صنعت ، وإذ كان البارود كله قد استُعمل ، فقد أمست تلك المائدة شاغرة .

ونزولا عند أمر آنجولراس ، فك اربعة متمردين وثاق جافير ؛ وفيما كانوا يفكون وثاقه كان خامس يسدد إلى صدره حربة . لقد تركوا يديه موثقتين خلف ظهره . واحاطوا قدميه بحبل قصير ولكنه قوي كان يسمح له بأن يخطو خطوات طولها خمس عشرة بوصة مثل خطوات اولئك الصاعدين إلى المشنقة . وقادوه إلى المائدة في اقصى الغرفة ، فمددوه فوقها ، وشدوا جذعه اليها شداً محكماً .

وزيادة في الحيطة ، وبواسطة حبل مشدود إلى عنقه ، اضافوا إلى

مجموعة الاربطة التي جعلت كل هرب مستحيلا – اضافوا ذلك النوع من الرباط الذي يدعونه في السجون "حكَمة * ، والذي ينطاق من مؤخر العنق ثم ينفصل فوق المعدة ، ويُشَد إلى اليدين بعد ان يُمرّ بين الرجلين .

وفيما كانوا يوثقون جافير حدق اليه رجل ، عند عتبة الباب ، في انتباه فريد . وكان في الظل الذي أحدثه ذلك الرجل ما جعل جافير يدير رأسه . لقد رفع عينيه ، وعزف جان فالجان . ولم يجفل مجرد إجفال . لقد غض طرفه في صلف ، واكتفى بالقول : « ذلك طبيعي جداً . »

٧
الوضع يصبح خطراً

وتنفس الصبح في سرعة . ولكن اياً من النوافذ لم تفتح ، واياً من الابواب لم يُفتح فتحاً يسيراً . لقد ارتفع الضحى ، أما ساعة اليقظة فلم تكن قد حانت . وكانت الجيوش قد أخلت اقصى شارع الـ « شانفريري » تجاه المتراس ، كما ذكرنا . لقد بدا سالكاً ، منفتحاً للعابرين في هدوء مشؤوم . وكان شارع سان دينيز أخرس مثل جادة ابي الهول في ثيبة . لم يكن ثمة كائن حي عند مفارق الطرق التي كانت تبيضّ تحت أشعة الشمس . إن شيئاً ليس اكثر حدادية من اشراق الشوارع المهجورة ذاك .

ولم يكن في ميسور المرء ان يرى شيئاً ، ولكنه كان في ميسوره ان يسمع . كانت حركة خفية تجري على مسافة ما . وكان واضحاً ان اللحظة

* الحكمة ، بالتحريك ، حديدة في اللجام تكون على انف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . وسميت بذلك لانها تمنعه من الجري الشديد . وهي ترجمة لكلمة martingale التي في الأصل .

الحرجة قد حانت : وانسحب الحرس ، شأنهم في المساء . ولكنهم انسحبوا كلهم هذه المرة .

كان المتراس أقوى منه لحظة الهجوم الأول — لقد سمَوا به ، أعلى فأعلى ، بعد انسحاب الرجال الخمسة .

وما إن سمع آنجولراس إخطار الحرس الذي كان يراقب منطقة الأسواق ، حتى اتخذ قراراً خطيراً خشية ان تؤخذ قواته على حين غرة من خلاف . كان قد سد المجاز الصغير المؤدي إلى زقاق موندیتور الذي كان حتى ذلك الحين سالكاً . ولقد نزعوا ، من اجل ذلك ، حجارة الارصفة على محاذاة بضعة بيوت اخرى . وهكذا كان المتراس المحصن بثلاثة شوارع — من أمام ، بشارع الـ « شانفريري » وعن يسار ، بشارع دو سيني ، و « لا بيتيت تروواندري » ، وعن يمين بشارع موندیتور — قد أمسى امنع من عقاب الجو أو يكاد . صحيح انهم كانوا مطوقين على نحو مشؤوم . كانت للمتراس ثلاث جبهات ، ولكن لم يبق له مخرج . وقال كورفيراك ضاحكاً :

— « معقل ، ولكنه مصيدة . »

وكان آنجولراس قد ركم قرب باب الحانة نحواً من ثلاثين حجراً من حجارة الارصفة « اقتُلعت على غير طائل » كما قال بوسوويه .

وكان الصمت قد غدا ، الآن ، عميقاً في الناحية التي ينتظر ان يشن منها الهجوم بحيث أمر آنجولراس كل رجل من رجاله بالعودة إلى موقعه المحدد له .

ووزِّعت على القوم جميعاً أنصبة من العرق .

وليس شيء اكثر غرابة من متراس يستعد للغارة . إن كل رجل يختار مكانه ، كالذي يقع في المسارح . انهم يتكئون على جوانبهم ، وعلى مرافقهم ، وعلى مناكبهم . وثمة نفر يتخذون لانفسهم من حجارة الارصفة كراسي ودككاً . وقد تكون ههنا زاوية حجارة مزعجة ، فهم

يبتعلون عنها ، وقد يكون ههناك حائط ذو زوايا يستطيع المرء ان يحتمي بـه فهم يفزعون اليه . والأعسرون من المقاتلين هم اعلاق نفيسة ؛ انهم يتخذون المواقع التي لا تلائم سائر الجماعة . وكثير من المقـاتلين يعملون إلى ترتيبات تمكنهم من القتال وهم قعود . إنهم يريدون ان يقتلوا في غير ما انزعاج ، وان يموتوا في رفاهية . ففي حرب حزيران ١٨٤٨ المشؤومة كان متمرد ذو اصابة رهيبة ، متمرد قاتلٌ من اعلـى سطيحة ، فوق سطح ، قد حمل كرسياً ذا ذراعين من نوع فولتير إلى هناك . إن وابلا من القذائف قد وجده فيه .

وما يكاد الزعيم يأمر بالاستعداد للقتال حتى تنقطع جميـع الحركات المشوشة . لا تبقى ثمـة مناوشات بين متمرد ومتمرد ؛ لا تبقى ثمـة تجمهرات ودية ، لا تبقى ثمة احاديث تدور بين كل شخصين على حدة ، لا يبقى ثمـة اعتزال . إن كل ما في الاذهان يتحول ، ويتغير في انتظار المهاجم . المتراس قبل الخطر فوضى ، ولكنه عند الخطر ضبط . ان الخطر يولد النظام .

ولم يكد آنجولراس يحمل بندقيته القصيرة الخفيفة ذات الاسطوانـة المزدوجة ، ويرتقي ضرباً من المرتفع كان قد احتفظ به لنفسه ، حتى ران الصمت على الجميع . وسُمعت على طول الجدار المشيد من حجارة الارصفة ضجـة صغيرة جـافة ، غير واضحـة . كـانوا يشحنـون بنـادقهم .

وفوق هذا ، فقد كانت مسالكهم اكثر اعتزازاً واحفل بالثقة من ذي قبل . إن فرط التضحية توطيد . لم يعد عندهم أمل ، ولكنْ يأس . اليأس ، السلاح الاخير ، الذي يهب النصرَ في بعض الاحيان . ذلـك ما قاله فيرجيل . إن الأمداد العليا لتنبثق من العزائم المتطرفة . ان التخويض في الموت قد يكون الوسيلة إلى النجاة من الغرق . وهكذا يصبح غطاء التابوت لوحَ الخلاص .

وكما حدث في الليلة الفائتة ، كان انتباه الجميع قد تحول ، بل نكاد نستطيع ان نقول انه كان مستنداً ، إلى اقصى الشارع ، الذي غدا الآن مضاءاً ومنظوراً .

ولم يطل انتظارهم . واستؤنف النشاط استئنافاً ملحوظاً في ناحية سان لو ، ولكن ذلك لم يشبه حركة الهجوم الأول . لقد كان في جلجلة السلاسل ، وارتجاج الجمع المحتشد ارتجاجاً مهدداً ، وصليل النحاس المقصدر الواثب فوق حجارة الرصيف ، وفي ضرب من القعقعة الاحتفالية – كان في هذا كله ما يؤذن بأن جسماً مشؤوماً من حديد يتقدم ويقترب . وسرت رعدة في احشاء تلك الشوارع العتيقة الآمنة المشقوقة والمبنية لسير المصالح والافكار على نحو مثمر ، والتي لم تجعل لدوران دواليب الحرب الرهيب .

وكان تحديق المقاتلين جميعاً إلى اقصى الشارع قد غدا ضارياً .

وبدا مدفع .

ودفع الجند ذلك المدفع . كان على استعداد لاطلاق النار . كانت الدواليب الامامية قد نُزعت ، وكان مدفعيان يسندان العزبة ، واربعة عند الدواليب ، وآخرون يتبعونهم بعربة العتاد . لقد رئي دخان الفتيلة المشتعلة .

وصاح آنجولراس :

– « النار ! »

واطلق المتراس كله النار ، وكان الانفجار رهيباً . وغطت سحابة دخانٍ المدفعَ والمدفعيين ومحتهم . وما هي إلا ثوان معدودات حتى تبددت السحابة ، وعاد المدفع والمدفعيون إلى الظهور . وعمد المكلفون بالمدفع إلى وضعه تجاه المتراس ، في تؤدة ، وفي ضبط ، وفي غير ما سرعة . إن رجلا ما لم يمسّ . ثم ان رئيس المدفعيين ، القى بثقله على مؤخر المدفع لكي يرفع خط الرمي ، وراح يسدد المدفع بوقار فلكيٍ

يصوب تلسكوباً .

وصاح بوسوويه :

— « مرحى للمدفعيين ! »

وصفق المتراس كله .

وبعد لحظة ، كان المدفع قد وُضع بحزم في منتصف الشارع ، منفرج الساقين فوق الساقية ، مستعداً لاطلاق النار . كان شدقٌ مروِّعٌ قد فُتح على المتراس .

وقال كورفيراك :

— « هيا ، كونوا ناشطين ! هو ذا القظ . بعد الضربة بطرف السبابة يجيء دور اللكمة . إن الجيش يبسط برثنه الكبير نحونا . ان المتراس سوف يزعزع على نحو جديّ . البنادق تجسّ ، والمدافع تشتعل . »

ثم اضاف :

— « إنه مدفع برونزي تزن قذيفته ثمانية ارطال ، وهو يمثل نموذجاً جديداً . وهذه المدافع ، برغم انها لا تزيد على نسبة عشرة اجزاء من الصفيح إلى مئة من النحاس إلا زيادة طفيفة ، تظل عرضة للانفجار . إن فرط الصفيح فيها يجعلها رقيقة باكثر مما ينبغي . وفي هذه الحال ، تنشأ فجوات وتجاويف في ثقب إشعال البارود . ولكي يتفادوا هذا الخطر ، ويكونوا قادرين على إطلاق النار عنوة ، فقد يتعين عليهم أن يرجعوا إلى طريقة القرن الرابع عشر ، التطويق بأُطر مستديرة ، وإلى تدعيم المدفع خارجياً بسلسلة من الحلقات الفولاذية بدون إلحام ، من مؤخره إلى محوره . وفي غضون ذلك يعالجون العلة جهد طاقتهم . ويكتشفون اين تقع الثقوب والفجوات في ثقب الأشعال بواسطة

سابر ما . ولكن ثمة طريقة افضل : هي نجمة غريبوفال * المتحركة . »

ولاحظ بوسوويه :

— « في القرن السادس عشر ، كانوا يفرّضون الجزء الداخلي من المدفع . »

فأجاب كومبوفير :

— « نعم ، ذلك يزيد في القوة على رمي القذائف ، ولكنه يضعف من حسن الاصابة . وإلى هذا ، ففي المدى القصير لا يكون لمسار القذيفة ذلك العنف المطلوب . إن الخط العدسي ليبالغ فيه ، وإن سبيل القذائف لا يكون من الاستقامة بحيث يمكّنها من اصابة جميع الاشياء المعترضة ، ولكنه على اية حال ضرورة من ضرورات القتال تتعاظم أهميتها كلما اقترب العدو وتسارع إطلاق النار . وضعفُ التوتر هذا في خط القذيفة المنحني ، في مدافع القرن السادس عشر المفرّضة ، مرده إلى ضعف الشحنة . والشحنات الواهنة المصطنعة في هذا الضرب من السلاح تفرضها ضرورات علم القذائف ، من مثل صيانة سند المدفع مثلا . وعلى الجملة فالمدفعية ، ذلك الطاغية المستبد ، لا تستطيع ان تفعل كل ما تشاء ؛ القوة ضعف ضخم . إن كرة المدفع لا تزيد سرعتها على ستمئة فرسخ في الساعة . اما الضوء فتبلغ سرعته سبعين الف فرسخ في الثانية . تلك هي أفضلية يسوع المسيح على نابوليون . »

فقال آنجولراس :

— « أعيدوا شحن الاسلحة ! »

ما الذي سيحدث لغطاء المتراس حين تنصبّ عليه النار ؟ هل تحدث فيه النار ثغرة ؟ ذلك كان هو السؤال . وفيما كان المتمردون يعيدون شحن

---

* Gribeauval قائد مدفعية فرنسي مشهور ابتدع نظاماً مدفعياً جعل من مدفعية فرنسة اقوى مدفعية اوروبية عند فجر الثورة (١٧١٥ — ١٧٨٩).

بنادقهم ، شحن المدفعيون المدفع .
واستبد بالمتراس قلق بالغ .
لقد انطلقت النار . ودوى الانفجار .
وصاح صوت مبتهج :
— « حاضر ! »
ومع انطلاق القذيفة انقض غافروش على المتراس .
لقد أقبل من طريق شارع دو سيني . وكان قد تخطى ، برشاقة ، المتراس الثانوي الذي كان يشكل واجهة تيه الـ « بيتيت تروواندري » .
وأحدث غافروش في المتراس اثراً أعظم من اثر القذيفة .
وضاعت القذيفة في فوضى الانقضاض . لقد كسرت ، على الأكثر ، دولاب العربة العامة ، وأجهزت على كارة آنسو العتيقة . وإذ رأى رجال المتراس إلى ذلك شرعوا يضحكون .
وصاح بوسوويه مخاطباً المدفعيين :
— « تابعوا ! »

٨
المدفعيون يتركون انطباعة جديدة

وأحاطوا بغافروش .
ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت لينبئهم بشيء . وانتحى به ماريوس ، وهو يرتعد ، جانباً .
— « ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »
— « اسكت ! وأنت ما الذي جاء بك ؟ »

وحدق إلى ماريوس بوقاحته الملحمية . واتسعت عيناه بالضياء الفخور الذي كان يمور فيهما .

وتابع ماريوس كلامه في جرْس صارم :

— « من قال لك ان تعود ؟ هل أوصلت رسالتي على الاقل إلى عنوانها ؟ »

ولم ينسج غافروش من شيء من وخز الضمير في ما يتصل بتلك الرسالة . فبحكم رغبته في العودة العاجلة إلى المتراس ، كان قد تخلص منها تخلصاً بدلا من ان يسلّمها تسليماً . لقد اضطر إلى ان يعترف لنفسه بأنه عهد بها في شيء من الطيش إلى ذلك الرجل الغريب الذي لم يتبين ، هو غافروش ، وجهه مجرد تبيّن . صحيح ان ذلك الرجل كان حاسر الرأس ، ولكن هذا غير كاف . وعلى الجملة فقد عانى بعض التبكيت الباطني على ذلك ، وخشي ان يوجه غافروش اليه ضروب التأنيب . وسلك ، لكي ينجو من البلاء ، الطريق الأبسط . لقد كذب على نحو مقيت .

— « ايها المواطن ، لقد أسلمتُ الرسالة إلى البواب . كانت السيدة نائمة . ولسوف تتلقى الرسالة ساعة تستيقظ . »

كان لماريوس في ارسال ذلك الكتاب هدفان : أن يودع كوزيت ، وان ينقذ غافروش . ولقد اضطر إلى أن يقنع بنصف ما ابتغاه .

ومثلت أمام ذهنه هذه المطابقة : إرساله الكتاب ووجود مسيو فوشلوفان في المتراس . ولفت نظر غافروش إلى مسيو فوشلوفان :

— « هل تعرف هذا الرجل ؟ »

فقال غافروش :

— « لا . »

والواقع ان غافروش ، ، كما اشرنا اللحظة ، لم يكن قد رأى جان فالجان إلا في الظلام .

وتبددت الأحداس المقلقة السقيمة التي كانت قد نشأت في ذهن ماريوس . هل كان يعرف آراء مسيو فوشلوفان ؟ لعل مسيو فوشلوفان كان جمهورياً . ومن هنا وجوده الطبيعي في هذا المعترك .

وفي غضون ذلك كان غافروش قد انتهى إلى الطرف الآخر من المتراس ، صائحاً :

— « بندقيتي ! »

واصدر كورفيراك أمره باعطائه اياها .

وحذر غافروش « رفاقه » ، كما كان يدعوهم ، قائلا ان المتراس مطوق . لقد وجد صعوبة كبيرة في الوصول اليه . كانت كتيبة من المشاة ، كُدست بنادقها في شارع الـ « البتيت ترووواندري » ، تراقب ناحية شارع دو سيني . وفي الناحية المقابلة ، كان الحرس البلدي يحتل شارع الـ « بريشور » . وفي الخط الامامي كان القسم الاكبر من الجيش .

حتى إذا قدم غافروش هذه المعلومات اضاف قائلا :

— « أنا افوضكم أن تعطوهم حبة دواء كريهة . »

وفي غضون ذلك كان آنجولراس فوق مرتفعه يراقب ويصغي في انتباه بالغ .

وكان المهاجمون قد احجموا عن اطلاق النار كرة اخرى ، بعد ان خيبت محاولتهم الأولى آمالهم .

كانت سرية من المشاة قد أقبلت واحتلت اقصى الشارع ، خلف المدفع . واقتلع الجند حجارة الرصيف ، وأقاموا منها جداراً صغيراً منخفضاً ، ضرباً من الدريئة ، لم يكد يرتفع إلى أكثر من ثماني عشرة بوصة ، تجاه المتراس . وعند زاوية هذه الدريئة وإلى يسارها رأوا طلائع فوج الضواحي المتراص في شارع سان دونيز .

وحسِبَ آنجولراس ، القائم بالمرصاد ، انه تبين الضجة الفريدة

التي تحدث عندما تُخرج صناديق القذائف من عربة العتاد ، ورأى رئيس المدفعيين يغير الهدف ويميل فوهة المدفع إمالة طفيفة نحو اليسار . ثم ان المدفعيين راحوا يشحنون المدفع بالقذائف . وامسك رئيسهم بنفسه القضيب ذا الفتيلة المشعلة ، وقرّبه من ثقب الاشعال .

وصاح آنجولراس :

— « اخفضوا رؤوسكم ، إلزموا الجدار ! واركعوا على ركبكم جميعاً على طول المتراس ! »

وكيفما اتفق اندفعت نحو المتراس جموع المتمردين الذين كانوا متناثرين تجاه الحانة ، والذين كانوا قد تركوا مواقعهم عند وصول غافروش ، ولكن قبل أن ينفذ امر آنجولراس أطلقت النار بمثل فُواق الكرات المدفعية الرهيب . ولقد كانت النار منطلقة من المدافع فعلا .

كانت النار مصوبة إلى مدخل المتراس ، ولقد ارتدت عن الجدار . وهذا الارتداد الفظيع قتل رجلين وجرح ثلاثة .

ولو تواصل هذا اذن لما كان في الامكان الدفاع عن المتراس . لقد كان غير ممتنع على القذائف المدفعية .

وسُمعت ضجة حزن شديد .

وقال آنجولراس :

— « فلنمنع الطلقة الثانية على الاقل . »

وخفض بندقيته القصيرة الخفيفة ، وسددها إلى رئيس المدفعيين الذي كان في تلك اللحظة منحنياً فوق مؤخر المدفع محاولا إحكام تسديده إلى الهدف .

كان هذا الرئيس رقيباً مدفعياً وسيماً ، غض الشباب ، اشقر ، عذب المحيا ، تطفو على وجهه تلك السيما الذكية الخاصة بذلك السلاح المختار الرهيب الذي ينبغي ، بحكم تكامله في الهول ، ان ينتهي بقتل الحرب .

ونظر كومبوفير ، الواقف قرب آنجولراس ، إلى هذا الشاب .

وقال كومبوفير :

– « واأسفاه ! ما أبشع هذه المذابح ! عندما لا يبقى ثمة ملوك لن يبقى ثمة حرب . آنجولراس ، انت تسدد النار إلى ذلك الرقيب ، انت لا تنظر اليه . فكر في أنه شاب فاتن ، إنه شجاع . انت ترى انه مفكر . إن هؤلاء المدفعيين الشباب يتمتعون بثقافة جيدة . إن له أباً ، وأماً ، وأسرة . ولعله ان يكون عاشقاً . إن عمره خمسة وعشرون ربيعاً على الاكثر . ولعله ان يكون أخاك . »

وقال آنجولراس :

– « إنه لكذلك . »

فقال كومبوفير :

– « اجل ، وأخي ايضاً . حسناً . فلنحقن دمه ! »

– « دعني وشأني . يجب ان نفعل ما يجب ان يُفعل . »

وفي بطء تحدرت عبرة على خد آنجولراس الرخامي .

وفي الوقت نفسه ، ضغط على زناد بندقيته القصيرة الخفيفة . وانطلقت النار . ودار المدفعي على نفسه مرتين ، باسطاً ذراعيه امامه ، رافعاً رأسه وكأنه كان يريد أن يستنشق الهواء ، ثم خر على جانبه فوق المدفع وانطرح هناك جثة هامدة . كان في امكان المرء ان يرى ظهره وقد انبجس منه على نحو عمودي سيل من الدماء . كانت القذيفة قد دخلت صدره واخترقت ظهره . لقد مات .

وتعيّن عليهم ان ينقلوه من هناك ويعهدوا في عمله إلى شخص آخر . والحق ان ذلك اكسب المقاتلين بضع دقائق .

٩

فائدة تلك البراعة القديمة في الصيد المحظور ، وتلك الطلقة النارية المعصومة التي اثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦

وتعارضت الآراء في المتراس . كان المدفع على وشك ان يطلق ناره من جديد . وما كان في مقدور المتمردين ان يصمدوا ربع ساعة تحت وابل من تلك النيران . كان ضرورياً أن يوهنوا تلك الضربات .

وأصدر آنجولراس أمره :

— « يجب ان نضع حشيّة هناك . »

فقال كومبوفير :

— « ليس عندنا شيء من ذلك . إن الجرحى ممددون فوقها . »

ولم يكن جان فالجان — الجالس على حدة فوق احد المعالم ، عند زاوية الحانة ، واضعاً بندقيته بين فخذيه — لم يكن حتى تلك اللحظة قد اشترك في الاحداث الجارية . لقد بدا له وكأنه يسمع المقاتلين يقولون من حوله : « هي ذي بندقية لا تقوم بأيما عمل . »

حتى إذا سمع أمر آنجولراس انتصب واقفاً .

والقاريء يذكر أنه عند وصول الكتيبة إلى شارع الـ « شانفريزي » وضعت امرأة عجوز فراشها أمام نافذتها ، بعد ان توقعت اطلاق القذائف . وهذه النافذة ، نافذة عليّة من العلالي ، كانت على سطح منزل ذي ستة أدوار قائم على مسافة يسيرة من المتراس . وكان الفراش الموضوع بالعرض ، قد أسنِد أدناه إلى وتدين من أوتاد الغسيل ، وشُد أعلاه بحبلين بدوا من بعيد وكأنهما خيطان رُبطا إلى مسمارين دُقا في إطار الكوة . وكان هذان الحبلان يشاهدان على صفحة السماء مثل

شعرتين .

وقال جان فالجان :

– « هل يستطيع احد منكم ان يعيرني بندقية خفيفة ذات اسطوانة مزدوجة ؟ »

وقدم اليه آنجولراس بندقيته الخفيفة القصيرة ، وكان قد شحنها منذ لحظة .

وسدد جان فالجان البندقية إلى النافذة ، واطلق النار .

وقُطع واحد من حبلي الفراش .

وتدلى الفراش من خيط واحد ليس غير .

واطلق جان فالجان الطلقة الثانية . وأصاب الحبل الثاني زجاج النافذة.

وانزلق الفراش بين الوتدين وسقط في الشارع .

وصفق المتراس .

وصاح الجميع :

– « هي ذي حشيّة . »

فقال كومبوفير :

– « اجل ، ولكن من الذي سوف يذهب التماساً لها ؟ »

كانت الحشية قد سقطت ، في الواقع ، خارج المتراس ، بين المحاصَرين والمحاصِرين . وكان موت المدفعي قد اسخط الجيش ، فظل الجند بضع لحظات مستلقين على وجوههم خلف خط حجارة الارصفة الذي اقاموه . ولكي يعوضوا عن صمت المدفع الالزامي ، هذا المدفع الذي خرس ريثما يعاد تنظيم استخدامه ، فتحوا النار على المتراس . ولم يجب المتمردون على رصاص البنادق هذا ، توفيراً لذخيرتهم . وتحطم وابل الرصاص على صخرة المتراس ، ولكن الشارع الذي ملأه ذلك الوابل بالقذائف ، كان رهيباً .

وخرج جان فالجان من فرجة المتراس ، وولج الشارع ، واجتاز

عاصفة القذائف ، ومضى إلى الحشية . فرفعهـا ، ووضعها على ظهره، ورجع إلى المتراس .

ووضع الحشية بنفسه في الفرجة . وركزها على الجدار تركيزاً جعل رجال المدفعية لا يرونها .

حتى إذا تم له ذلك انتظر المتمردون ان تنصبّ عليهم نيران المدفعية . ولم يطل انتظارهم .

لقد تقيأ المدفع ، في تهدار ، مشحونهُ من الرصاص الضخم . ولكن لم يكن ثمة ارتداد . ان القذيفة قد اجهضت على الحشية . لقد فـاز المتمردون بمبتغاهم . ولقد أنقذ المتراس .

وقال آنجولراس لجان فالجان :

— « ايها المواطن ، الجمهورية تشكرك . »

وأخذ العجب بوسوويه وضحك . وهتف :

— « من غير الاخلاقي ان يكون لحشية هذه القوةُ كلها . انتصار ذلك الذي يخضع على ذلك الذي يصعق . ولكن سيان . المجد للحشية الـتي تنسخ مدفعاً . »

١٠
الفجر

في تلك اللحظة استيقظت كوزيت .

كانت غرفتها صغيرة ، نظيفة ، منعزلة ، ذات نافذة طويلة قائمة إلى ناحية الشرق ، تطل على فناء البيت الخلفي .

ولم تعرف كوزيت شيئاً ممـا كان يجري في باريس . إنها لم تغـادر غرفتها قط خلال الليل ، وكانت قد آوت اليها عندما قالت توصين :

« يبدو ان هناك صخباً . »

كانت كوزيت قد نامت بضع ساعات ، ولكن نوماً عميقاً . لقد رأت في ما يرى النائم احلاماً عذاباً ، ولعل ذلك راجع – جزئياً – إلى ان فراشها الصغير كان ناصع البياض . لقد رأت شخصاً هو ماريوس وكأنه مطوق بهالة . واستيقظت والشمس في عينيها ، مما احدث بادئ الامر مثل أثر استمرار الحلم .

وكان انفعالها الأول ، لدن خروجها من هذا الحلم ، بهيجاً . واستشعرت كوزيت الطمأنينة كاملة . كانت تمر ، شأن جان فالجان قبل بضع ساعات ، برجع الروح التي لا تريد الشقاء . لقد بدأت ترجو بكامل قواها من غير ان تدري لماذا ؟ ثم استبد بها انقباض الفؤاد . « ها قد انقضت ثلاثة ايام لم تر فيها ماريوس . ولكنها قالت في ذات نفسها انه لا بد قد تلقّى رسالتها ، وانه يعرف اين كانت ، وانه كان عظيم الفطنة ، وانه سوف يجد وسيلة للوصول اليها . » « وهذا سوف يتم اليوم من غير شك ، وربما هذا الصباح بالذات . » « كانت الشمس قد اشرقت ، ولكن أشعتها كانت أفقية جداً . ولقد فكرت ان الوقت مبكر جداً . وان عليها ان تنهض ، برغم ذلك ، لكي تستقبل ماريوس . »

لقد استشعرت انها لا تستطيع أن تحيا بدون ماريوس ، وان هذا بالتالي كان كافياً ، وان ماريوس سوف يجيء . ولم يكن أيما اعتراض ممكنَ القبول . كان ذلك كله ثابتاً . ولقد كان رهيباً إلى حد كاف أن تقاسي الآلام ثلاثة ايام موصولة حتى الآن . ماريوس يغيب ثلاثة ايام ، – إن ذلك لفظيع وحق الاله . والآن كانت مناكدة السماء القاسية تجربة انتهى اجلها . كان ماريوس آتياً ، ولسوف يحمل اليها انباء طيبة . على هذا النحو خُلق الشباب ، إنه يكفكف دموعه على عجل ، إنه يعتقد ان الحزن لا طائل تحته ، وهو لا يقبله . الشباب بسمة

المستقبل امام كائن مجهول هو المستقبل نفسه . إن من الطبيعي ان يكون سعيداً . إنه يبدو وكأنه يتنفس الأملَ تنفساً .

وإلى هذا ، فان كوزيت لم توفق إلى تذكّر ما كان ماريوس قد قاله لها حول مسألة هذا الغياب الذي ما كان ينبغي ان يطول اكثر من يوم واحد ، أو تذكّر ما كان قد قدمه اليها من تفسير لهذا الغياب . إن كلا منا قد لاحظ بأية رشاقة تجري القطعة النقدية الساقطة على الارض وتختفي ، وبأي فنّ تجعل من المتعذر على المرء أن يكتشف مكانها . إن ثمة افكاراً تخاتلنا مثل هذه المخاتلة عينها . إنها تختفي في زاوية من دماغنا . لقد قضي الامر . لقد ضاعت . ومن المستحيل علينا بعدُ ان نتذكرها . واغتاظت كوزيت ، بعض الشيء ، لذلك الجهد الصغير الذي بذلته ذاكرتها على غير طائل . لقد قالت لنفسها ان نسيانها كلمات نطق بها ماريوس كان عملا شريراً جداً اقدمت عليه ، بل عملا مجرماً جداً .

ونهضت ، وتوضأت الوضوءين ، وضوء النفس ووضوء الجسد ، صلاتها وزينة وجهها .

اننا قد نُدخل القاريء ، عند الضرورة ، إلى غرفة زواجية ، لا إلى غرفة بتولية . إن الشعر ليجرؤ على ذلك بشق النفس ، أما النثر فينبغي ان لا يفعل .

إنها باطن زهرة لمّا تتفتح بعد . إنها بياض في الظل ؛ إنها الخلية الجوهرية لزنبقة مغلقة يجب أن لا ينظر اليها الانسان ما دامت الشمس لمّا تنظر اليها بعد . إن المرأة في كمها مقدسة . إن هذا السرير البريء الذي ينكشف ؛ ونصف العري الزائغ ذاك الخائف من نفسه ؛ وتلك القدم البيضاء التي تلجأ إلى مشاية ؛ وذلك الصدر الذي يحتجب أمام مرآة وكأن تلك المرآة عين ترى ؛ وذلك القميص الذي يسارع إلى الارتفاع وإخفاء الكتف لدن طقطقة قطعة من اثاث أو لدن مرور عربة ،

وهذه العصائب المعقودة ، والأبازيم المنشّبة ، والأشرطة المشدودة ، وهذه الارتعادات ، وارتعاشات البرد والحياء ، وذلك الخجل اللذيذ في كل حركة ، وذلك القلق الذي يكاد يكون مجنّحاً حيث لا سبب للخوف ، وأطوار الملابس المتعاقبة ، الفاتنة كسُحب الضحى – إن هذا كله ليس من المناسب ان يوصف ، وانه لمن الكثير ، حقاً ، ان يشار اليه .

بل إن عين الرجل يجب ان تكون أتقى أمام بزوغ فتاة صغيرة منها أمام بزوغ نجم من النجوم . إن إمكانية اللمس يجب ان تزيد الاحترام . فزغب الدراق ، وغبار الخوخ ، وبلور الثلج المشع ، وجناح الفراشة المذرور بالريش – كل اولئك اشياء غليظة بالقياس إلى ذلك الطهر الذي لا يعرَف حتّى مجرد انه طاهر . ان الفتاة الصغيرة ليست غير بارقة حلم ، وهي لـمّا تصبح بعد تمثالا . إن مخدع نومها مخبوء في ظلال المثل الاعلى . ولمس النظرة غير الرصين يشوه شبه الظل القائم هذا . فلأن تنظر هنا يعني ان تدنس .

إننا لن نُظهر ، اذن ، شيئاً من كل ذلك التشوش الطفيف العذب الذي اتسم بها استيقاظ كوزيت .

تروي حكاية شرقية ، ان الله خلق الوردة بيضاء ، ولكن آدم نظر اليها لحظةَ شرعت في التفتح ، فاستحيت واحمر وجهها . إننا من اولئك الذين يستشعرون انهم قاصرون أمام الفتيات الصغيرات والازهار لأننا نجدهن جديرات بالاحترام .

وارتدت كوزيت ملابسها في عجل بالغ ، ورجلت شعرها وسوته ، ذلك الشعر الذي كان شيئاً بسيطاً جداً ، عندما كان النساء لا يورّمن خصلهن وجدائلهن بوسائد ولفائف ، ولا يضعن نسيجاً صفيقاً في شعرهن . ثم فتحت النافذة ، واجالت طرفها في ما حولها راجيــة ان تكتشف شيئاً من الشارع ، زاوية منزل ، ناحية من رصيف ، وان توفق إلى ترقب ماريوس هناك . ولكنها لم تستطع ان ترى شيئاً من الشارع .

كان الفناء الخلفي مطوقاً باسوار عالية ، وكانت بضع جنائن ليس غير تبدو للعيان . وتراءت هذه الحدائق بشعة في عيني كوزيت ، وللمرة الأولى في حياتها وجدت الازهار قبيحة . ولقد كان خليقاً بأحقر جزء من ساقية من سواقي الشوارع أن يتراءى لها وكأنه اهم من ذلك كله . واخيراً . شرعت تنظر إلى السماء ، إذ خيّل اليها ان ماريوس قد يجيء من تلك الطريق ايضاً .

وفجأة اغرورقت عيناها بالدمع . لم يكن ذلك خفة منها . ولكن الضنى كان قد عطل آمالها . واستشعرت على نحو غير واضح ذعراً لا سبيل إلى تحديده . لقد طافت الاشياء في الهواء حقاً . وقالت في ذات نفسها انها غير واثقة من شيء . وان احتجاب المرء عن البصر يعني فقدانه . إن الفكرة القائلة بان ماريوس قد يعود اليها ، فعلا ، من السماء لم تعد تبدو فاتنة . بل امست مشؤومة .

ثم ان الهدوء عاودها ، فتلك هي طبيعة هذه الغيوم . كما عاودها الامل وضربٌ من الابتسام غير الواعي ، ولكن الواثق بالله .

كان كل امريء لا يزال نائماً في ذلك المنزل . لقد خيم ثمة صمت ريفي . ولم يكن اي من مصاريع النوافذ قد فتح . كان كوخ البواب موصداً . ولم تكن توسين قد افاقت بعد . وكان من الطبيعي جداً ان تحسب كوزيت ان أباها كان نائماً . ولا ريب في انها قد تألمت كثيراً . وفي أنها كانت لا تزال تتألم ؛ ذلك انها قالت في ذات نفسها ان اباها كان غير كريم ، ولكنها كانت تعتمد على ماريوس . كان إلمام الضعف بمثل ذلك الضياء امراً مستحيلا بالكلية . وبين الفينة والفينة كانت تسمع على مسافة ما ضرباً من الارتجاجات الخرساء . وقالت: « من العجيب ان الناس يفتحون ابواب العربات ويغلقونها في هذه الساعة المبكرة جداً » . كان المدفع يقصف المتراس بقذائفه .

وعلى اقدام معدودات تحت نافذة كوزيت ، في افريز الجدار العتيق

الاسود ، كان عش سنونو ، وكان ذلك العش يحدث نتوءاً صغيراً خلف الافريز ، بحيث كان في ميسور المرء ان يرى إلى الجزء الداخلي من هذا الفردوس من عل . كانت الأم ، هناك ، باسطةً جناحيها مثل مروحة فوق صغارها . وطوّف الاب في الفضاء ؛ لقد انطلق لسبيله ، ثم رجع حاملا بمنقاره الطعام والقبلات . وذهّب الضحى المرتفع هذا الشيء السعيد. كان القانون العظيم ، « تسكانزوا » هناك باسمَ الوجه جليلا ، وكانت هذه الغامضة العذبة تتفتح اكمامها في ظل مجد الصباح . وانحنت كوزيت ، وشعرها تحت أشعة الشمس ، وروحها مستغرقة في الأحلام . وقد اضاءها الحب من داخل والضحى من خارج — انحنت على نحو شبه ميكانيكي . ومن غير ان تعترف بانها كانت تفكر في ماريوس في الوقت نفسه . شرعت تنظر إلى هذه الاطيار ، إلى هذه الاسرة ، إلى ذلك الذكر وتلك الانثى ، إلى تلك الام وإلى هذه الصغار ، بمثل القلق العميق الذي يورثه العشُ احدى العذارى .

١١

الطلقة التي لا تخطىء أحداً ولا تقتل أحداً

وتواصل إطلاق النار من جانب المهاجمين . كانت البنادق تعمل حيناً ، والمدافع تعمل حيناً ، من غير ان تحدث — في الحق — اذى كبيراً . لقد أصيب الجزء الاعلى من واجهة كوزيت ليس غير بأضرار . وتشوهت شيئاً فشيئاً نافذة الطابق الاول وكوى السطح التي مزقها رصاص البنادق وقذائف المدافع تمزيقاً . وكان على المقاتلين المتمركزين هناك

ان ينسحبوا . وإلى هذا ، فذلك هو فن مهاجمة المتاريس : ان تطلق النار بتواتر ، فترة طويلة من الزمن ، ابتغاء استنفاد ذخيرة المتمردين ، إذا ما ارتكبوا خطيئة الرد . حتى إذا لوحظ ، من فتور نيرانهم ، انه لم يبق عندهم لا رصاص ولا بارود فعندئذ تُشن الغارة . ولم يقع آنجولراس في هذا الشرك . إن المتراس لم يردّ البتة .

وكلما اطلقت مفرزة من الجند نارها كان غافروش يورّم خده بلسانه ، علامةَ الازدراء المتشامخ .

وقال :

— « هذا صحيح . مزقوا القماش . نحن في حاجة إلى نسالة . »

واستجوب كورفيراك القذائف عن السبب في انعدام تأثيرها ، وقال للمدفع :

— « لقد بدأت تصبح مسهباً ، ايها الرجل الطيب . »

في المعركة يشغل احد الفريقين بال الفريق الآخر ، كالذي يحدث في الحفلات الراقصة . ومن المحتمل ان يكون ذلك الصمت الذي ران على المتراس قد شرع يقلق المغيرين ، ويجعلهم يخافون حادثة ما ، غير متوقعة ، وان يكونوا قد استشعزوا الحاجة إلى اختلاس النظر من خلال ركام حجارة الارصفة ، ومعرفة ما كان يجري خلف ذلك السور الممتنع على التأثر ، والذي كان يتلقى نيرانهم من غير أن يرد عليها . وفجأة لمح المتمردون خوذة تلمع في الشمس فوق سطح مجاور . كان إطفائي يسند ظهره إلى المدخنة الطويلة ، وبدا وكأنه يقوم ثمة بمهمة الحراسة . كانت عيناه مصوبتين إلى المتراس .

وقال آنجولراس :

— « هناك حارس مزعج . »

وكان جان فالجان قد اعاد البندقية القصيرة الخفيفة إلى آنجولراس ، ولكنه كان يحمل بندقيته .

ومن غير ان يتول كلمة ، سدد بندقيته إلى الاطفائـي . وما هـي إلا ثانية حتى اصابت الخوذة رصاصة اطاحت بها في صخب فوق ارض الشارع . وسارع الجندي المروّع إلى الاختفاء .

وحل محله حارس جديد . وكان هذا الحارس ضابطـاً . وسـدد جان فالجان بندقيته ، بعد ان جدد شحنها ، إلى القادم الجديد ، وأطاح بخوذة الضابط فالتحقت بخوذة الجندي . ولم يكن الضابط عنيداً ، فانسحب في سرعة بالغة . وهذه المرة فُهم الاخطار . ولم يعاود احـد الظهور فوق السطـح ، وأقلـع المغيرون عن التجسس على المتراس .

وسأل بوسوويه جان فالجان :

— « لماذا لم تقتل الرجل ؟ »

فلم يجب جان فالجان .

١٢

الفوضى نصير للنظام

وهمس بوسوويه في اذن كومبوفير :

— « إنه لم يجب عن سؤالي . »

فقال كومبوفير :

— « إنه وجل يتلطف في طلقات البندقية . »

إن اولئك الذين يحتفظون بشيء من ذكرى تلك الحقبة التي امست الآن قصية يعرفون ان حرس الضواحي الوطني كان باسلا في مقاومـة الانتفاضات . ولقد كان ضارياً ومقداماً في ايام حزيران ١٨٣٢ بخاصة . إن كثيراً من اصحاب الخمارات الطيبين في « بانتين » ، و « فيرتوس » أو « لا كونيت » ، الذين خلت « مؤسساتهم » من الزبائن بسبب مـن

الفتنة ، قد استأسدوا عند رؤيتهم صالات رقصهم وقد أقفرت من روادها ، وماتوا لكي يُقروا النظام الممثل بحانة الضاحية . وفي تلك الايام ، البورجوازية والبطولية في آن معاً ، وفي حضرة افكار كان لها فرسانها ، كان للمصالح مغامروها . والدافع الذي يعوزه السمو لم يُفقد العمل شيئاً من بطولته . إن تناقص ركام من الريالات جعل اصحاب المصارف ينشدون المارسييز . لقد سفحوا دماءهم على نحو حماسي في سبيل منضدة المحاسبة . وفي اندفاع اسبارطي دافعوا عن الدكان ، ذلك المصغر الهائل للوطن .

وفي الواقع – وهذا ما ينبغي ان نقوله – انه لم يكن في ذلك كله شيء غير جديّ إلى أبعد الحدود . كانت العناصر الاجتماعية تتصارع في انتظار ذلك اليوم التي تنتهي فيه إلى توازن .

وعلامة اخرى من علامات ذلك العصر تلك الفوضى الممتزجة بالحكومية (اسم بربري للحزب الصحيح). كان الناس انصاراً للنظام مع عدم الانقياد . لقد قرع الطبل على حين غرة ، بأمر من احد زعماء الحرس الوطني ، بالمناداة على الاسماء على نحو اشتهائي . وكثير من الضباط مضوا إلى النار بدافع من الوحي . وكثير من رجال الحرس الوطني قاتلوا بسائق « الوهم » ، ولحسابهم الخاص . ففي اللحظات الحرجة ، في « الأيام » ، كان المرء يستشير رؤساءه اقل مما يستشير غرائزه . كان ثمة في الجيش النظامي عصابات حقيقية ، بعضها عصابات سيف مثل فانيقو ، وبعضها الآخر عصابات قلم ، مثل هنري فونفريد .

كانت الحضارة ، الممثلة في تلك الحقبة مع الاسف بحشد من المصالح باكثر مما مُثلت بحشد من المباديء – كانت الحضارة في خطر . أو خيل اليها انها في خطر . لقد اطلقت صيحة الخطر . وجعل كل امريء نفسه مركزاً ، وراح يدافع عنها ، ويسعفها ، ويحميها ، على طريقته

الخاصة . واخذ كل امريء على عاتقه مهمة إنقاذ المجتمع .

إن الاندفاع يذهب في بعض الاحيان إلى حد الابادة . وهكذا فان بعض فصائل الحرس الوطني اقامت بنفسها ، وبقوة سلطانها الخاص ، مجلساً حربياً ، واصدرت حكمها على اسير من المتمردين ونفذته ، في فترة لا تزيد على خمس دقائق . ولقد كان مثل هذا الارتجال مسؤولا عن مصرع جان بروفير . قانون « لنش » * ضار ، لا يحق لاي حزب ان يعيّر به الاحزاب الاخرى . إذ انه مطبّق على يد الجمهورية في اميركة وعلى يد الملكية في اوروبة سواء بسواء . وقانون « اللنش » هذا عرضة للاخطاء . فذات يوم من ايام الفتن طورد شاعر شاب ، يدعى بول اميه غارنييه ، في القصر الملكي ، ورأس الحربة في ظهره ، ولم ينج إلا بالالتجاء تحت باب العربات من رقم ٦ . وكانت الصيحة : **« هوذا واحد آخر من اولئك السان سيمونيين »** ** وكانوا يريدون ان يقتلوه . ذلك انه كان يتأبط مجلداً من مذكرات الدوق سان‌سيمون *** وقرأ احد رجال الحرس الوطني على هذا الكتاب اسم **سان سيمون** فصاح : « اقتلوه ! »

وفي السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، ارتضت مفرزة من مفارز الحرس الوطني ، يقودها الكابتن فانيقو المذكور آنفاً ، ارتضت هذه المفرزة ان يقتل منها خلق كثير في شارع الـ « شانفريري » لمجرد الهوس وبكامل الارادة المطلقة . وقد أقيم البرهان على هذه الحقيقة ، برغم غرابتها الظاهرية ، في التحقيق القضائي الذي أجري بعد ثورة

---

* كلمة انكليزية الاصل (Lynch) تفيد معنى محاكمة المرء ومعاقبته اعتباطاً من غير قانون ، وهو ما كان يصنعه البيض بالزنوج الاميركيين وما يزالون حتى اليوم .

** نسبة الى كلود هنري سان سيمون ، المفكر الاشتراكي المشهور (١٧٦٠ — ١٨٢٥) .

*** وهو كاتب فرنسي اشتهر بمذكراته (١٦٩١ — ١٧٢٣) .

١٨٣٢ . وتفصيل ذلك ان الكابتن فانيقو – وكان بورجوازياً جريئاً قليل الصبر ، ضرباً من جندي النظام المرتزق الذي وصفناه اللحظة ، حكومياً متعصباً جامحاً – لم يستطع ان يقاوم الرغبة في فتح النار قبل الموعد المحدد ، والطموحَ إلى الاستيلاء على المتراس بنفسه هو وحده ، يعني مع جنود مفرزته . لقد أثار سخطه تكررُ ظهور الراية الحمراء والسترة العتيقة التي حسبها الرايةَ السوداء ، فلام جميع القادة وزعماء القوات المقاتلة ، الذين كانوا يتشاورون في الموقف ، والذين لم يروا ان ساعة الهجوم الحاسم قد حانت ، فتركوا الثورة – وفقاً للتعبير المشهور الذي اصطنعه واحد منهم – « تنضج في عصيرها نفسه . » أما هو فقد حسب ان المتراس ناضج ، واذ كان يتعين على كل ناضج ان يسقط ، فقد قام بالمحاولة .

لقد قاد رجالا جسورين مثله ، رجالا « مسعورين » كما قال احد الشهود . وكانت مفرزته ، وهي نفسها التي كانت قد قتلت الشاعر جان بروفير ، أولى مفارز الكتيبة التي رابطت عند زاوية الشارع . ولحظة كان القوم اقل ما يكونون توقعاً لذلك ، قذف الكابتن المتراس بجنوده . وهذه الحركة ، التي نفّذت في حماسة اكثر مما نفذت في فن حربي ، كلفت مفرزة فانيقو غالياً . وقبل ان تجتاز اكثر من ثلثي الشارع ، استُقبلت بوابل عام من رصاص المتراس . ولقد صُرع اربعة منهم ، كانوا اكثرهم جرأة ، وكانوا يندفعون في المقدمة – صرعوا بملامسة السلاح الناري للمرمى ، عند عتبة المتراس نفسها، وهكذا تعين على هذا الجمع الباسل من الحرس الوطني – وهم رجال اولو شجاعة بالغة ، ولكن تعوزهم الصلابة العسكرية – ان ينكصوا على اعقابهم ، بعد شيء من التردد ، تاركين خمس عشرة جثة على ارض الشارع . وفسحت لحظةُ التردد هذه المجال امام المتمردين فأعادوا شحن اسلحتهم، وانصبّ وابل ثان من رصاص – وابل مهلك جداً – على المفرزة قبل

ان تبلغ زاوية الشارع ، ممَزعها . وفي لحظة واحدة سقطت بين وابلين من نار ، وانهالت عليها طلقات المدافع من المدفعية التي لم تتلق اي امر ، فلم تكفّ عن إطلاق نارها . وكان فانيقو ، القليل التبصر ، واحداً من الذين صرعتهم تلك النيران . لقد قُتل بالمدفع ، يعني بالنظام .

وهذا الهجوم ، الذي كان ضارياً اكثر منه جدياً ، اثار آنجولراس . وقال :

— « يا لهم من مجانين ! إنهم يلقون برجالهم إلى الموت ويستهلكون ذخيرتهم على غير طائل . »

لقد تكلم آنجولراس مثل قائد الفتنة الحقيقي الذي كانهُ . ان الثورة والقمع لا يتقاتلان البتة باسلحة متساوية . فالثورة ، النافدة في سرعة ، لا تملك غير عدد محدود من الرصاصات تطلقها ، وغير عدد محدود من المقاتلين تستهلكهم . فاذا ما فرغ صندوق خرطوش من صناديقها ، أو صرع رجل من رجالها لم يكن ثمة سبيل إلى التعويض عنهما . أما القمع فأنه ، بسبب من كونه مالكاً للجيش ، لا يعدّ الرجال ، وبسبب من كونه مالكاً لـ « فينسين » ، لا يعدّ الطلقات النارية . والقمع يملك من الكتائب قدراً موازياً لما يملكه المتراس من الرجال ، ويملك من معامل السلاح قدراً موازياً لما يملكه المتراس من صناديق الخرطوش . وهكذا فنحن هناك أمام صراع بنسبة واحد إلى مئة ، صراع ينتهي دائماً بتدمير المتراس . إلا إذا استطاعت الثورة ، وقد انفجرت فجأة ، ان تلقي في الميزان بسيفها الملتهب الشبيه بسيف كبير الملائكة . وهذا قد يقع . وعندئذ يهبّ كل شيء ، وتبدأ الارصفة في الغليان ، وتتكاثر متاريس الشعب ، وتختلج باريس على نحو مفعم بالسلطان ، ويطلق سراح الـ *quid divinum* ، وتملأ الفضاء نُذُرُ يوم كيوم العاشر من آب ، ويلوح شبح يوم كيوم التاسع والعشرين من تموز في كل مكان ، ويبدو ضياء أعجوبي ، وينكفىء شدق القوة الفاغر ، ويرى الجيشُ ، ذلك

الاسدُ . أمامه . منتصباً هادئاً ذلك النبي . فرنسة .

١٣
ومضات تخبـــو

في عماء العواطف والاهواء التي تدافع عن متراس من المتاريس يوجد شيء من كل شيء . هناك الشجاعة . والشباب . والشرف . والحماسة . والمثل الأعلى . واليقين . وانهماك المقامر . وفوق ذلك كلـــه فـترات الأمـــل .

إن احدى تلك الفترات . احـدى رعشات الأمل الغامضة تلك . مرت فجأة . لحظــة لم يكن يتوقعها أحد . بمتراس شارع الـ «شانفريري» .

وعلى حين غرة . صاح آنجولراس الذي كان دائماً بالمرصاد :

— « اسمعوا ! يبدو لي ان باريس تستيقظ . »

من الثابت أنــه في صباح السادس من حزيران ، عرفت الثورة ، طوال ساعة أو ساعتين ، انتعاشاً جديداً . لقد أحيا عنادُ ناقوس سان ميرّي بعض الآمال الخابية . ففي شارع بواريبه ، وفي شارع غرافييه ارتسمت بعض المتاريس . وتجاه باب سان مارتين . هاجم شاب مسلح ببندقية قصيرة خفيفة كتيبةً من الفرسان بمفرده . ومن غير ما ستر ، في وضح الجادة . ركع على احدى ركبتيه ، وتنكّب سلاحه ، واطلــق النار ، فصرع قائد الكتيبة ، واستدار قائلا : « هوذا شخص آخر لن يُنزل بنا اذى اضافياً . » وطعنوه بحد السيف . وفي شارع سان دونيز ، اطلقت امرأة النار على الحرس البلدي من وراء شعرية نافذة مسدلة . ورئيت وصلاتُ الشعرية الخشبية ترتجف عند كل طلقة . وفي شارع الكوسونيري ، ألقي القبض على غلام في الرابعة عشرة وجيوبه مـــلأى

بالخراطيش . وهوجم عدد من مراكز الجند . وعند مدخل شارع بيرتين بواريه استقبل وابل من رصاص البنادق حاد جداً وغير متوقع البتة كتيبة من الدارعين كان يسير على رأسها الجنرال كافينياك دو باراني. وفي شارع بلانش ميبري ألقوا على الجند ، من السطوح ، كِسَراً عتيقة من الآنية والادوات المنزلية . علامة سيئة . وحين رُويت هذه الحقيقة للمارشال سولت ، استغرق مساعد نابوليون العجوز ، وقد تذكّر كلمة سوشيه * في سرقسطة : « نحن نهلك حين تُفرغ النسوة العجائز مباولهن على رؤوسنا » .

هذه الاعراض العامة التي تكشفت لحظة اعتقد الناس ان الفتنة قد حصرت في موقع ما ، حمّى الحقد هذه التي تمت لها الكلمة العليا كرة اخرى ، هذه الشرارات التي انطلقت هنا وهناك فوق تلك الاكوام العميقة من المواد المشتعلة التي تدعى ضواحي باريس — هذه كلها مجتمعةً أثارت القلق في نفوس الزعماء العسكريين . لقد أرجأوا ، حتى تنطفىء تلك الشرارات ، الهجوم على متاريس موبيه ، والشانفريري ، وسان ميرّي ، لكي لا تصطدم إلا بها ، ولكي يكون في ميسورهم ان يقضوا على كل شيء بضربة واحدة . لقد قذفوا بفصائل الجند إلى الشوارع الهائجة، مكتسحةً كبراها ، سابرة صغراها ، عن يمين ، وعن شمال ، حيناً في حذر وعلى مهل ، وحيناً في سير خاطف كسّير الحملة . وحطم الجند ابواب البيوت التي سبق أن انطلقت منها النار ، وفي الوقت نفسه فرقت مناورات سلاح الفرسان الحشود المجتمعة في الشوارع الواسعة . وهذا القمع لم يتم من غير ضجة ، أو من غير تلك القرقعة الصاخبة التي تلازم الاصطدامات الواقعة بين الجيش والشعب . ذلك ما أدركه آنجولراس في الفترات الفاصلة ما بين طلقات المدافع وطلقات البنادق .

---

* Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ — ١٨٢٦) أبلى بلاء حسناً في اسبانية ، وبخاصة في معركة جرت قرب ساغونت .

وإلى هذا ، فقد كان قد رأى بعض الجرحى يجتازون اقصى الشارع على محامل ، وقال لكورفيراك :

— « هؤلاء الجرحى لا يأتون من عندنا . »

ولم يعمّر الامل طويلا .وخبا الوميض في سرعة . وفي اقل من نصف ساعة تلاشى ذلك الرجاء الذي كان يملأ الفضاء .كان اشبه ببرق خلّب ، واستشعر المتمردون وكأنما سقط عليهم ذلك الضرب من غطاء النعش الرصاصي الذي تلقيه لا مبالاة الشعب على اصحاب الرأي الصليب المتخلّى عنهم .

كانت الحركة العامة التي بدت وكأنها رُسِمَتْ على نحو غامض — كانت هذه الحركة قد اجهضت . وأصبح في ميسور اهتمام وزير الحرب واستراتيجية القادة العسكريين ان يركّزا على المتاريس الثلاثة أو الاربعة التي كانت ما تزال قائمة .

وارتفعت الشمس فوق الأفق .

وخاطب احد المتمردين آنجولراس :

— « نحن جائعون هنا . هل سنموت هنا ، فعلا ، من غير ان نأكل ؟ »

وهز آنجولراس رأسه ، وكان لا يزال مستنداً إلى شرفته ، من غير ان يزيح عينيه عن اقصى الشارع .

١٤
حيث نقرأ اسم خليلة آنجولراس

وواصل كورفيراك ، الجالس على حجر من حجارة الارصفة قرب آنجولراس ، اهاناته للمدفع . وكلما انطلقت السحائب القاتمة من

القذائف التي ندعوها كرات المدافع ، بدويها المائل ، تلقّاها بفورة من السخريـة .

— « انت ترهق رئتيك ، ايها البهيمة العجوز المسكينة : إنك تقلقني ؛ إنـك تفقـد ضوضاءك . هذا ليس رعداً . لا ، إنه سعال . »

وضحك الذين كانوا من حوله .

وشرع كورفيراك وبوسوويه ، اللذان كانت بشاشتهما تزداد في ساعات الخطر ، يستعيضان ، مثل مدام سكارّون ، عن الطعام بالدعابة . وإذ لم يكن عندهما خمر فقد صبّا البِشر للجميع .

وقال بوسوويه :

— « أنا معجب بآنجولراس . ان جراءته الممتنعة على التأثر لتدهشني . إنه يحيا وحيداً ، وهذا ما قد يجعله حزيناً بعض الشيء . إن آنجولراس يتألم من عظمته ، التي تشدّه إلى الترمل . اما نحن الباقين فان لنا جميعاً ، قليلا أو كثيراً ، خليلات تجعل منا مجانين ، يعني شجعاناً . فحين يكون المرء عاشقاً كالنمر ، فأقل ما يُنتظر منه ان يقاتل كالاسد . إنها وسيلة ننتقم بها لانفسنا من الحيل التي تدبرها لنا سيداتنا الفتيات المغناجات . إن رولان * يلقي بنفسه إلى الموت لكي يغيظ آنجيليكا * . جميع بطولاتنا تنبثق من نسائنا . الرجل من غير امرأة غدارةٌ من غير زناد . إن المرأة هي التي تجعل الرجل ينطلق . والآن ، إن آنجولراس لا امرأة له . إنه ليس عاشقاً ، وهو يجد الوسيلة إلى ان يكون باسلا . وانه لمن المعجز ان يستطيع المرء ان يكون بارداً كالثلج ، ومقداماً كالنار . »

ولم يبدُ ان آنجولراس كان يسمع . ولكن لو ان ايما امريء كان قربه اذن لسمعه يغمغم في همس : *Patria* **

وكان بوسوويه لا يزال يضحك عندما صاح كورفيراك :

---

* بطل « انشودة رولان » و « رولان الهائج » . وآنجيليكا زوجته .

** اللفظة اللاتينية التي تفيد معنى الوطن . »

— « شيء جديد ! »
وفي صوت حاجب يعلن نبأ وصول شخص ما : اضاف :
— « اسمي المدفع ذو القذيفة البالغ وزنها ثمانية ارطال . »
والواقع ان شخصية جديدة كانت قد دخلت المسرح . كان مدفعاً ثانياً .

وفي سرعة ، نفذ رجال المدفعية المناورة ،ووضعوا المدفع الثاني قرب المدفع الاول .

لقد اوحى ذلك بأن النهاية باتت قريبة .

وبعد بضع لحظات ، شرع المدفعان — وقد حشيا على عجل — يطلقان نيرانهما على المتراس مباشرة وكانت نار قوات المشاة وجند الضواحي تدعم المدفعية .

وعلى مسافة ما ، سمع ددوي وابل آخر من طلقات المدافع . وفيما كان مدفعان اثنان يقذفان بنيرانهما، متراس شارع الـ « شانفريري » كان مدفعان آخران مصوبان ، احدهما في شارع سان دونيز والآخر في شارع اوبري لو بوشيه تمطران متراس سان ميري بوابل من قذائفهما. وتبادلت المدافع الاربعة أصداء كئيبة .

لقد تجاوب نباح كلاب الحرب المشؤومة .

ومن احد المدفعين اللذين كانا يقذفان بنارهما متراس شارع الـ « شانفريري » ، انطلقت قذائف ، على حين انطلقت من الآخر كرات حديدية .

كان المدفع المطلق للكرات مرتفعاً بعض الشيء ، وكان خط الرمي محسوباً بحيث تصيب الكرة الحافة القصوى من زاوية المتراس الناتئة العليا فقطعت رأسها ، وفتتت حجارة الارصفة فوق رؤوس المتمردين وكأنها، وابل من قذائف .

وكان هذا المرمى الخاص مقصوداً به ان يقصي المقاتلين عن قمة

المتراس ، وان يكرههم على الاحتشاد في الداخل ؛ يعني ان ذلك قد أعلن الهجوم .

حتى إذا أقصي المقاتلون عن قمة المتراس بالكُرات ، وعن نوافذ الحانة بالقذائف ، أصبح في ميسور القوات المهاجمة ان تغامز في الدخول إلى الشارع من غير ان تراقَب ، بل ومن غير ان تكون تحت النار ، كما اصبح في ميسورها ان تتسلق المتراس فجأة ، كفعلها الليلة البارحة وان تستولي عليه — فمن يدري ؟ — بغتة .

وقال آنجولراس :

— « يجب على اية حال ان نخفض من إزعاج هذه المدافع . »

ثم صاح :

— « اطلقوا النار على المدفعيين ! »

كانوا كلهم مستعدين . واطلق المتراس — الذي صمت فترة طويلة — النار في يأس . وتعاقبت سبع إطلاقات أو ثماني اطلاقات في ضرب من الغضب والبِشر . وافعم الشارع بدخان معتم . وبعد بضع دقائق ، ومن خلال هذا الضباب الذي اخترقه اللهب ، استطاعوا ان يتبينوا ، على نحو غير واضح ، ثلثي رجال المدفعية منطرحين تحت دواليب المدفعين . أما اولئك الذين ظلوا واقفين فقد واصلوا حشو المدفعين في هدوء صارم ، ولكن النار كانت قد تباطأت .

وقال بوسوويه لآنجولراس :

— « الامور تجزي على ما يرام . نجاح . »

فهز آنجولراس رأسه وأجاب :

— « ربع ساعة اخرى من هذا النجاح ، ولن تبقى في المتراس عشر خراطيش . »

والذي يبدو ان غافروش قد سمع هذه الملاحظة .

١٥
غافروش في الخارج

وفجأة لمح كورفيراك شخصاً ما ، عند ادنى المتراس ، في الخارج ، وسط الشارع ، تحت وابل الكرات المدفعية .

كان غافروش قد اخذ سلة من الحانة ، وانطلق من فرجة المتراس ، وراح يفرغ في سلته وبهدوء ، صناديقَ الخرطوش الملأى تلك ، التي خلّفها رجال الحرس الوطني الذين صرعوا على منحدر المتراس .

وقال كومبوفير :

— « ماذا تفعل هناك ؟ »

ورفع غافروش انفه .

— « ايها المواطن ، إني املأ سلتي . »

— « ولكن ، ألا ترى القذائف المدفعية ؟ »

فأجاب غافروش :

— « حسناً ، انها تمطر . ثم ماذا ؟ »

فصاح كورفيراك :

— « إرجع ! »

فقال غافروش :

— « في الحال . »

وبوثبة انطلق إلى الشارع .

ويذكر القاريء أن فصيل فانيقو كان قد ترك وراءه ، وهو ينسحب ، خطاً طويلا من الجثث .

كان نحو من عشرين قتيلا منثورين فوق الرصيف ، على طول الشارع . وكان ثمة عشرون صندوق خرطوش لغافروش . ذخيرة من

الخرطوش للمتراس .

كان الدخان في الشارع كالضباب . وكل من قُدّر له ان يرى سحابة تسقط في فج من فجاج الجبال بين منحدرين وعرين يستطيع ان يتخيل هذا الدخان محتشداً ، وان يتخيله وكأنه يُكثّف بخطين مظلمين من بيوت شاهقة . لقد ارتفع في بطء ، وكان يتجدد على نحو موصول . ومن هنا تلك الظلمة التدريجية التي جعلت وضح النهار نفسه شاحباً . وأمسى المقاتلون لا يلمح بعضهم بعضاً ، إلا في عسر ، من اقصى الشارع إلى اقصاه ، على الرغم من انه كان قصيراً جداً .

هذه الظلمة ، ولعلها كانت مدبرة ومرغوباً فيها من جانب الزعماء الذين عُـهِد اليهم في قيادة الهجوم على المتراس ، كانت ذات فائدة لغافروش .

فتحتَ ثنايا حجاب الدخان هذا ، وبفضل ضآلة جسمه ، استطاع أن يُبعد في الشارع من غير ان يراه احد . لقد افرغ صناديق الخرطوش السبعة أو الثمانية الاولى دونما كبير خطر .

لقد زحف على بطنه ، وراح يعدو على يديه ورجليه ، حاملا سلته بين أسنانه ، وتلوّى ، وانزلق ، وتموّج ، وتمعج من جثة إلى جثة ، وأفرغ احد صناديق الخرطوش كما يفتح قرد جوزة .

ولم يجرؤ المتحصنون في المتراس — وكان لا يزال على مدى السمع منه — على أن يدعوه إلى العودة ، خشية ان يلفتوا الانظار اليه .

وفوق احدى الجثث ، وكانت جثة عريف ، وجد وعاء بارود . وقال وهو يضعه في جيبه :

— « من اجل العطش . »

وبفضل التقدم المتعاقب بلغ نقطة كان ضباب الطلقات النارية قد امسى فيها شفافاً .

وكانت هذه الشفافية شديدة بحيث ان مطلقي النار من المشاة ، المعبأين

المترصدين خلف جدارهم المقام من حجارة الارصفة ، وبحيث ان مطلقي النار من جند الضواحي المحتشدين في زاوية الشارع اكتشفوا فجأة شيئاً يتحرك في الدخان .

ولحظة كان غافروش يجرد رقيباً قرب مَعْلم الطريق من خراطيشه ، أصابت الجثةَ كرةٌ من كرات المدافع .

وقال غافروش :

— « يا للشيطان ! إنهم يقتلون أمواتي ! »

وفتتت كرة اخرى الرصيف الذي إلى جانبه . وقلبت ثالثة سلته رأساً على عقب .

ونظر غافروش ، ورأى انها اقبلت من جند الضواحي .

ونهض منتصباً على قدميه وقد عبثت الريح بشعره ، واضعاً يديه على خاصرتيه ، مسدداً بصره نحو رجال الحرس الوطني المطلقين النار وراح يغني :

ان المرء ليكون بشعاً في نانتير ،
وتلك خطيئة فولتير ،
واحمق في باليسو ،
وتلك خطيئة روسو .

ثم تناول سلته ، ووضع فيها الخراطيش التي سقطت منها من غير ان يضيع أياً منها ، وتقدم نحو وابل الرصاص ، وشرع يفرغ صندوق خرطوش آخر . وهناك أخطأته قذيفة رابعة ايضاً ، وما كادت . وغنى غافروش :

انا لست كاتبا عدلاً ،
وتلك خطيئة فولتير

انا عصفور صغير
وتلك خطيئة روسو

ولم توفق قذيفة خامسة إلى اكثر من انتزاع دور ثالث من غافروش :

البهجة شيمتي
وتلك خطيئة فولتير
والبؤس جهاز عرسي
وتلك خطيئة روسو

واستمر ذلك على هذا النحو فترة ما .

كان المشهد راعباً وفاتناً . كان غافروش . وقد صُوب اليه الرصاص، يسخر من الرصاص . لقد بدا وكأنه مبتهج جداً . كان هو السنونو يضرب الجنود القناصة بمنقاره . ولقد اجاب على كل إطلاقة رصاص بدور من ادوار الغناء . وسددوا النار اليه على نحو موصول ، ولكنهم اخطأوه دائما . وضحك الجند ورجال الحرس الوطني وهم يصوبون الرصاص اليه . لقد انطرح على الارض ، ثم نهض ، واختبأ عند زاوية باب ، ثم قفز ، واختفى . وعاود الظهور . وفر . وأجاب على طلقات النار بالسخر ، ونهب في الوقت نفسه الخراطيش ، وافرغ صناديق الخرطوش ، وملأ سلته . وأتبعه المتمردون عيونهم . وقد تقطعت انفاسهم قلقاً . كان المتراس يرتجف ، وكان هو يغني . لم يكن ذلك طفلا ، ولم يكن ذلك رجلا ، لقد كان « متشرداً » جنياً غريباً . ولقد كان خليقاً بمن يراه ان يقول إنه قزم المعترك المعصوم عن الجراح . كانت القذائف تعدو خلفه . وكان هو أرشق منها . كان يلعب مع الموت لعبة « اختبيء والتمس » على نحو رهيب إلى حد لا يوصف .

وكلمـــا اقترب وجـه الشبـح الافطس . فرقع « المتشرد » اصابعه .

بيد ان رصاصة ، أشد غدراً أو مصوبة على نحو افضل من سابقاتها . بلغت الطفل الشبيه بالشهاب الغازيّ . لقد رأوا غافروش يترنح ، ثم يقع. واطلق المتراس كله صيحة . ولكن كان ثمـة آنتيبوس * في هذا القزم . لأن مسّ « المتشرد » الرصيف اشبه شيء بمس العملاق الارض . فلم يقع غافروش إلا لينهض من جديد . وظل قاعداً على مؤخرته ، وقد جرى على وجهه خط من الدم طويل ، ورفع ذراعيه في الهواء . ونظر إلى الناحية التي اقبلت منها الرصاصة . وبدأ يغني :

لقد سقطت على الارض
هذه خطيئة فولتير
وانفي في الساقية
هذه خطيئة ...

ولم يكمل . لقد حالت بينه وبين ذلك قذيفة ثانية من القناص نفسه . وهذه المرة خر على الرصيف مكباً على وجهه . ولم يتحرك بعدُ قط . كانت تلك الروح العظيمة الصغيرة قد فاضت .

١٦
كيف يصبح الاخ اباً

كان في تلك اللحظـة ذاتها في حديقة اللوكسومبورغ – ذلك ان عين المأساة يجب ان تكون ماثلة في كل مكان – طفلان يمسك احدهما بيـد الآخر . واغلب الظن ان احدهما كان في السابعة من عمره . والآخر

* عملاق من عمالقة الميثولوجيا القديمة ، ابن « نبتون » و « الارض » وقد خنقه هرقل (هيركول) بين ذراعيه ، واذ وجد البطل في صراعه ضد آنتيبوس ان هذا العملاق كان ينعم بقوة جديدة كل مسّ الارض فقد رفعه عنها ، فوفق بذلك الى ان يسلبه الحياة .

في الخامسة . وإذ نُقعا بالمطر ، فقد كانا يمشيان في مجازات الحديقة في الناحية المشمسة . كان الكبير يقود الصغير . وكانا شاحبين تعلو جسديهما اسمال بالية . لقد بدت عليهما سيما طائرين بريين : وقال اصغرهما :

— « أنا جائع جداً . »

وساق الأكبر ، وكان قد أصبح وصياً وحامياً ، اخاه بيده اليسرى ، حاملا باليد اليمنى قضيباً طويلا .

كانا وحدهما في الحديقة . وكانت الحديقة خالية ، بعد أن أوصدت الابواب بأمر الشرطة بسبب من الثورة . وكان الجنود الذين عسكروا فيها قد طلب اليهم مغادرتها سداً لحاجات المعركة .

كيف وصل الطفلان إلى هناك ؟ هل هربا من باب مخفر نصف مفتوح ؟ هل اتفق ان كان ثمة في الجوار ، عند « باب الجحيم » ، أو « ساحة الاوبزر فاتوار » ، أو في الميدان المجاور الذي تشرف عليه تلك القوصرة * المكتوب عليها : *invenerunt parvulum pannis involutum* هل اتفق ان كان ثمة كوخ من اكواخ المشعوذين فرا منه ؟ هل قدّر لهما ، الليلة البارحة أن يغافلا عن حراس الحديقة ساعة الاقفال ، فسلخا ساعات الليل في واحد من تلك الاكشاك التي يقرأ الناس فيها الصحف ؟ الواقع انهما كانا تائهين ، وانهما كانا حرّين في ما يبدو . ولأن يكون المرء تائهاً ولأن يبدو حراً يعني أنه هالك . ولقد كان هذان الصغيران البائسان هالكين حقاً .

هذان الطفلان كانا عين ذينك اللذين قلق غافروش عليهما ، واللذين يذكرهما القاريء . ولدَيْ تيناردييه ، المؤجرين لـ « مانيون » ، المنسوبين إلى مسيو جيلنورمان . واللذين أمسيا الآن ورقتين سقطتا من جميع هذه الأغصان التي تعوزها الجذور ، وعصفت بهما الريح مطوّفة فوق الارض .

---

* القوصرة : مثلث يقام على واجهة بناء .

كانت ملابسهما النظيفة في عهد مانيون ، والتي كانت لها بمثابة البيان في مسيو جيلنورمان ، نقول كانت ملابسهما قد امست مزقاً خلقة .

لقد أصبح هذان المخلوقان ، منذ اليوم ، في عداد « الاطفال المهجورين » الذين يُبلغ البوليس عنهم ، ويجمعهم ، وينثرهم ، ثم يجدهم كرة اخرى في شوارع باريس .

كان لا بد من قلق نهار كهذا حتى يمسي هذان الصغيران المسكينان في تلك الحديقة . ولو قد رآهما الحرس ، اذن لطردوا هذه الاسمال . فالاطفال الفقراء لا يستطيعون ان يدخلوا إلى الحدائق العامة . ومع ذلك فينبغي للمرء ان يفكر ان لهم ، كأطفال ، حقاً في الازهار .

لقد كانا هناك ، بفضل الابواب الموصدة . كانا هناك خارقَين القانون. لقد انسلا إلى الحديقة ، وبقيا هناك . إن الابواب الموصدة لا تسرّح الحرس المراقبين ، فمن المفروض ان تستمر المراقبة ، ولكنها تسترخي وتستريح . وهكذا فان الحرس ، المثارين هم ايضاً بالقلق العام المنشغلين بالمسائل الخارجية اكثر من انشغالهم بالمسائل الداخلية ، لم يعودوا يلقون بالاً إلى الحديقة ، ومن ثم لم يروا المذنبين الصغيرين .

كانت السماء قد أمطرت في الليلة البارحة ، بل كانت قد امطرت بعض الشيء ذلك الصباح . ولكن الامطار في حزيران لا اهمية لها . فليس يدرك المرء ، إلا في صعوبة ، بعد ساعة من العاصفة ، ان ذلك النهار الاشقر الجميل كان ماطراً . ان الارض في الصيف لتجف وشيكاً كما تجف وجنة طفل .

في لحظة انقلاب الشمس هذه يكون ضياء القمر ، إذا جاز التعبير ، ثاقباً . إنه يستبد بكل شيء . إنه يدأب وينشر نفسه فوق الارض في ضرب من الامتصاص . وإنه لخليق بالمرء أن يقول ان الشمس كانت ظمأى . إن الوابل كأس من الماء . وان المطر ليُعبّ في الحال . في

الصباح يكون كل شيء راشحاً . وبعد الظهر يكون كل شيء مغبراً .

وليس شيء أروع من اخضرار غسله المطر ومسحته اشعة الشمس . تلك هي البرودة الحارة . إن الحدائق والمروج ، وقد أفعمت جذورها بالماء وحفلت ازهارها باشعة الشمس ، تنقلب الى مجامر بخور . وتنفث عطورها كلها دفعة واحدة . إن كل هذه لتضحك ، وتغني ، وتعرض نفسها . نحن نستشعر ثملا عذباً . الربيع جنة موقتة . وأشعة الشمس تساعد على اغراء المرء بالصبر .

هناك اناس لا يطلبون شيئاً اكثر من ذلك ؛ وكائنات حية ما ان يروا السماء اللازوردية حتى يقولوا « هذا حسبنا ! » ؛ وحالمون مستغرقون في الاعجوبة ، يغترفون من وثنية الطبيعة لا مبالاةً بالخير والشر ؛ ومتأملون في الكون منصرفون عن الانسان على نحو مشرق لا يفهمون كيف يستطيع اي امرىء ان يشغل نفسه بجوع هؤلاء ، وظمأ اولئك ، وبعري الفقير في الشتاء ، والانحناء اللمفاوي في عمود فقري صغير ، بالفراش الحقير ، بالعلية ، بالحبس المظلم ، بأسمال الفتيات الصغيرات المرتجفات ، حين يكون في ميسوره ان يحلم تحت الأشجار ؛ نفوس مسالمة وفظيعة ، راضية على نحو لا يعرف الرحمة . شيء غريب ؛ ان اللانهائي يكفيهم . أما حاجة الانسان العظمى ، النهائي ، الذي يجيز العناق ، فهم ينكرونها . النهائي الذي يسلّم بالتقدم ، والكدح السنّي لا يفكرون فيه . ان اللامحدود ، الذي يولد من امتزاج اللانهائي والنهائي امتزاجاً انسانياً وإلهـياً ، ليفوتهم . إنهم يبتسمون . شرط ان يكونوا وجهاً لوجه مع السعة التي لا نهاية لها . لا ابتهاج البتة ، ولكن الخطاف دائماً . قوام حياتهم أن يتلقوا . وتاريخ الانسانية عندهم ليس غير رسم تقسيمي . إن « الكل » ليس هناك ؛ إن « الكل » الصحيح لا يزال في الخارج . أي فائدة في أن نشغل انفسنا بهذا العرَض : الانسان ؟ الانسان يتألم ، هذا جائز . ولكن انظر إلى الدَّبَرَان البازغ هناك ! الأم قد جف

ثديها . والوليد الصغير يموت . أنا لا ادري شيئاً عن ذلك ، ولكن أنظر إلى شكل الوردة المذهل الذي تؤلفه حلقة من حلقات لحاء الصنوبر تحت المجهر . قابل ذلك بأجمل ضروب الوشي الدقيق ! هؤلاء المفكرون يفسون ان يحبوا . إن فلك البروج ليهيمن عليهم بحيث يمنعهم من رؤية الطفل الذي يبكي . إن الله يكسف روحهم . وهناك اسرة من هذه النفوس ، الصغيرة العظيمة في آن واحد . من هذه الاسرة كان هوراس ومنها كان غوته . ولعل لافونتين كان منها ايضاً . انانيو اللانهائي الرائعون ، شهود الألم الهادئون . الذين لا يرون نيرون إذا كان الجو جميلا . والذين تخفي الشمس عن اعينهم كومة الحطب المعدّة لاحراق المجرم . والذين يرون إلى المقصلة تعمل باحثين عن اثر من آثار الضياء. والذين لا يسمعون لا الصيحة ، ولا الزفرة ، ولا الحشرجة . ولا ناقوس الخطر . والذين يرون كل شيء حسناً ما دام ثمة شهر يدعى شهر نوار ، والذين يعلنون ، ما دام فوق رؤوسهم سحائب ارجوان وذهب. انهم سعداء ، والذين عقدوا العزم على أن يكونوا سعداء إلى ان ينفد ضياء النجوم ونشيد الطيور .

إنهم ذوو إشراق قاتم . وهم لا يشكّون في انهم ينبغي ان يرثى لهم. وليس من ريب في انهم بذلك جديرون . إن من لا يبكي لا يرى . ان علينا أن نعجب بهم ونرثي لهم ، كما نرثي ونعجب بكائن هو نور وظلام في آن معاً . كائنٍ لا عينين تحت حاجبيه ؛ ولكنّ في وسط جبينه نجمة .

وفي لا مبالاة هؤلاء المفكرين . كما يعتقد بعضهم ، تكمن فلسفة متفوقة . ليكن ذلك . ولكن في هذا التفوق بعض الوهن . فقد يكون المرء خالداً واعرج . خذ فولكان * مثلا على ذلك . وقد يكون المرء اكثر من رجل واقل من رجل . واللاكامل الذي لا حد له موجود في

* إلـه النار والمعادن عند الرومان .

الطبيعة . ومن ذا الذي يستطيع ان يزعم ان الشمس ليست عمياء ؟

ولكن ثم مـــاذا ؟ عمن نثق ؟ ؟ Solem quis dicere falsum audeat

وهكذا فان بعض العباقرة انفسهم ، وبعض البشر الاكثر رفعة ، الرجال الكواكب ، قد يُخدعون ! إن اولئك الواقفين فوق ، في الذروة ، في القمة ، عند سمت الرأس ، والذين يرسلون إلى الارض هذا الضياء كله ، قد يرون قليلا ، قد يرون في عسر ، قد لا يرون شيئاً ! أليس في ذلك مـا يوقـع اليـأس في النفس ؟ لا . ولكن ، اي شيء فوق الشمس اذن ؟ الله .

في السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، كانت حديقة اللوكسومبورغ ، المنعزلة المهجورة ، فاتنة . كانت مربعات الاشجار ومساكب الازهار تُبرز نفسها نحو الضياء في الراتينج العطِر وجَهَر البصر . لقد بدت الاغصان مدلهة بأشراق الظهر ، وكأن بعضها يسعى إلى معانقة بعض . كان في شجرات الجميز جلبة دُخّلات ، وتهللت الطيور الجواثم ، وتسلقت الطيور ثقاباتُ الخشب شجـــرات الكستناء ، ناقرة بمناقيرها ثقوب اللحاء . وتقبلت مساكب الزهور ملكية الزنابق الشرعية . فأفخم العطور هو ذلك الذي ينبثق من البياض . كان المرء يستنشق ريا القرنفل المفلفلة . وكانت زيغان ماري دي مديتشي العجائز صريعة العشق في الاشجار الضخام . وذهّبت الشمس الخزامى وأشعلتهـا وسفحت عليها لون الارجوان ، الخزامى التي لم تكن غير مختلف ضروب اللهب حولت إلى ازهار . وحول مساكب الخزامى طوفت جماعات النحل ، شرارات من هذه « الازهار – اللهب » . كان كل شيء يمور بالملاحة والبهجة ، حتى المطر الوشيك . وهذا المجرم العتيـق ، الذي كان جديراً بزهرات العسل وزنابق الوادي ان تفيد منه ، لم يحدث شيئاً من الانزعاج . وطارت جماعات السنونو على ارتفاع منخفض ، وكان ذلك وعيداً فاتناً . لقد استنشق من كان هناك ريـح السعـادة .

كانت الحياة حلوة . وكانت تلك الطبيعة كلها تتنفس سلامةَ النية ، والغوث ، والمساعدة ، والابوة ، والملاطفة ، والفجر . وكانت الأفكار التي هبطت من السماء ناعمة مثل يد الطفل الصغيرة التي نقبّلها .

وكانت التماثيل القائمة تحت الاشجار . عارية بيضاء . مجلببة بأثواب من الظل مزقها الضياء . لقد أبلت أشعة الشمس اثواب هذه الآلهات . لقد تدلت منها إرَباً إرَباً من الجهات جميعاً . وحوالى الحوض الكبير ، كانت الارض قد جفت إلى حد اصبحت معه مخبوزة تقريباً . وكان ثمة ريح قوية إلى درجة تمكّن من اثارة فتن رملية صغيرة هنا وهناك . وطاردت بعض الاوراق الصفراء . بقايا الخريف الماضي . بعضها الآخر في مرح . وبدت وكأنها تلعب لعبة « المتشردين » .

كانت وفرة الضياء تبعث الطمأنينة في النفوس على نحو لا سبيل إلى وصفه . لقد فاضت الحياة ، وفاض النسغ ، والدفء ، والعبير . كنت تشعر تحت الخليقة بضخامة مصدرها . وفي جميع هذه النسائم المشبعة بالحب ، وفي تذبذب انعكاسات النور وارتداداته هذه ، وفي هذا الانفاق الاعجوبي للاشعة ، وفي هذا التدفق اللامحدود للذهب المائع ، كنت تشعر بتبذير ما لا ينضب . ووراء هذا البهاء ، شأنك وراء حجاب من اللهب ، كنت تلمح الله ، مليونير النجوم .

وبفضل الرمل لم يكن ثمة أثارة من وحل . وبفضل المطر لم يكن ثمة ذرة من غبار . كانت الباقات قد غسلت منذ لحظة . كانت المخمليات كلها ، والاطلسيات كلها ، والمينائيات كلها ، والذهبيات كلها التي تنبثق من الأرض في شكل ازهار — كانت هذه كلها خلواً من العيب . وكان هذا البهاء نقياً . لقد ملأ الحديقة صمت الطبيعة السعيدة الكبير . صمت سماوي متساوق مع آلاف الألحان ، وهدهدات الاعشاش ، ودندنات النحل ، وخفقات الريح . كان تناغم الموسم كله قد تحقق في كلٍّ واحد لطيف . واتخذت مداخل الربيع ومخارجه اماكنها في

النظام الملائم . لقد انتهت الزنابق ، وأهل الياسمين . كانت بعض الازهار قد تأخرت ، وكانت بعض الحشرات قد اقبلت قبل إبانها . ولقد تآخت طليعة فراشات حزيران الحمراء مع ساقة فراشات نوار البيضاء . وكانت شجرات الدلب ترتدي جلداً جديداً . وكان النسيم يحفر تموجات في شجرات الكستناء ذات الضخامة الرائعة . كان ذلك متألقاً . ولقد نظر جندي عريق من عساكر الثكنات المجاورة عبر الباب الحديدي وقال :

— « هوذا الربيع تحت السلاح ، وفي كامل اللباس الرسمي . »

كانت الطبيعة كلها تتناول طعام الصباح ؛ كانت الخليقة جالسة إلى المائدة ؛ لقد حانت الساعة ، ولقد نشر غطاء المائدة الكبير الاخضر فوق الارض ، واشرقت الشمس ساطعة . وكان الرب يقدم الوجبة الكونية : ونال كل كائن طعامه أو علفه . لقد وجدت اليمامة بزر قنب ، ووجد البرقش ذرة بيضاء ، ووجد الحسون رتماً ، ووجد ابو الحناء ديداناً ، ووجدت النحلة أزهاراً ، ووجدت الذبابة نقعيات ، ووجد المخروطي المنقار ذباباً . لقد أكل بعضها بعضاً ، شيئاً ما من غير شك ، وذلك هو لغز الشر ممتزجاً بالخير ، ولكن أياً من الحيوانات لم يكن فارغ المعدة .

كان المخلوقان الصغيران البائسان قرب الحوض الكبير . وإذ اقلقهما ذلك الضياء كله بعض الشيء ، فقد حاولا ان يختبئا — وتلك غريزة البائس والضعيف أمام البهاء وان يكن مجهولا — وظلا خلف كوخ الاوز العراقي .

وههنا وههناك ، بين الفينة والفينة ، كلما همدت الريح ، سمعا على نحو غامض صيحات ، وجلبة ، وضرباً من الحشرجات الصاخبة التي كانت طلقات بنادق ، وصنوفاً من الصرير الابكم التي كانت طلقات مدافع . كان ثمة دخان فوق السطوح في اتجاه الاسواق . ورن جرس

كان يبدو وكأنه يُقرع ، في المدى البعيد .

وتراءى هذان الطفلان وكأنهما لم يسمعا هذه الاصوات . وكرر اصغرهما بين الفينة والفينة ، في همس :

— « أنا جائع . »

وفي وقت واحد مع الطفلين تقريباً ، تقدم زوج آخر نحو الكبير . كان رجلا في الخمسين يقود بيده رجلا في السادسة . أب وابنه من غير شك . وكان الرجل البالغ السادسة من العمر يحمل في يده قطعة كبيرة من حلوى مصنوعة بالدقيق والسمن والبيض .

في ذلك العهد ، كانت لبعض البيوت المجاورة ، في « شارع السيدة » « وشارع الجحيم » ، مفاتيح لحديقة اللوكسومبورغ كان نزلاء تلك البيوت يستعملونها حين تكون الابواب موصدة ؛ وهو تساهل ألغي منذ ذلك الحين . ولعل هذا الاب وهذا الابن اقبلا من احد هذه الأبواب .

ورأى الصغيران البائسان إلى « هذا السيد » يتقدم ، وأحكما اختباءهما اكثر بعض الشيء .

كان بورجوازياً . ولعله عين ذلك الذي كان ماريوس قد سمعه ذات يوم ، رغم حمّى حبه ، قرب هذا الحوض الكبير نفسه ، ينصح ابنه بأن « يحذر التطرف » . كانت تزين على وجهه سيما أنيسة متغطرسة وكان فمه الذي لم يطبق قط يبتسم ابداً . وهذه الابتسامة الميكانيكية ، الناشئة عن فك هو من الكبر باكثر مما ينبغي وجلد هو من الضآلة باكثر مما ينبغي ، إنما تكشف عن الاسنان اكثر مما تكشف عن الروح . وبدا الطفل ، بقطعة حلواه المقضومة التي لم يُنهها ، وكأنه متخوم . وكان الطفل يرتدي بزة جندي من جنود الحرس الوطني ، بسبب من الفتنة ، وكان الاب قد احتفظ بملابس المواطن المدنية ، بسبب من الفطنة .

ووقف الاب والابن قرب الحوض الذي كانت الاوزتان العراقيتان

تنسليان فيه . لقد بدا وكأن هذا البورجوازي معجب إعجاباً خاصاً بالاوزتين العراقيتين : وكان يُشبههما من هذه الناحية : أنه كان يمشي مثلهما .

في تلك اللحظة كانت الاوزتان تسبحان، وتلك هي موهبتها الرئيسية ، وكانتا بهيتين .

ولو قد أصغى الصغيران البائسان ، ولو قد كانا في سن تمكنهما من الفهم ، إذن لاستطاعا ان يتلقفا كلمات رجل رزين . لقد قال الأب لابنه :

— « العاقل يحيا قانعاً بالقليل . انظر إلي ، يا بني . انا لا أحب الأبهة . إن أحداً لم يرني قط في ثياب مزينة بالذهب والجواهر : انا اترك هذا المجد الزائف لذوي العقول الرديئة التنظيم . »

وهنا انفجرت الاصوات العميقة ، المنطلقة من ناحية الاسواق ، في قرع اجراس متضاعف وضوضاء متعاظمة .

وتساءل الطفل :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب الاب :

— « إنها أعياد فوضى ودعارة . »

وفجأة بصُرَ بالغلامين ذوَي الاسمال البالية واقفين في غير حراك خلف كوخ الاوز العراقي الأخضر :

وقال :

— « هذه هي البداية : »

وبعد لحظة ، أضاف :

— « لقد شرعت الفوضى تدخل إلى هذه الحديقة . »

وفي غضون ذلك قضم الطفل قطعة الحلوى ، وانشأ يصرخ فجأة : وسأله الأب :

— « لماذا تبكي ؟ »
فقال الطفل :
— « أنا لم أعد جائعاً . »
وغدت ابتسامة الوالد عريضة .
— « ليس من الضروري أن تكون جائعاً حتى تأكل قطعة حلوى . »
— « إن هذه القطعة تزعجني . إنها بائتة . »
— « ألم تعد لك رغبة فيها ؟ »
— « لا . »
ودله الاب على الاوزتين .
— « ألقها إلى هذين الطائرين ذوي الاقدام الكفية . »
وتردد الطفل . فرغبة المرء عن قطعة حلواه ليست سبباً كافياً للتبرع بها .
وتابع الأب :
— « كن انسانياً . يجب أن تأخذنا الشفقة على الحيوانات . »
وأخذ قطعة الحلوى من ابنه وقذف بها إلى الحوض .
وسقطت الكعكة قرب الحافة .
كانت الاوزتان بعيدتين ، في وسط الحوض ، منهمكتين في فريسة ما . إنهما لم تريا أياً من البورجوازي أو قطعة الحلوى .
وإذ شعر البورجوازي أن قطعة الحلوى كانت مهددة بخطر الضياع ، وإذ أثاره هذا الغرق غير المجدي ، نذر نفسه لاهتياج تلغرافي لفت آخر الأمر انتباه الأوزتين .
لقد لمحتا شيئاً يطفو ، واستدارتا مثل السفن — وهل كانتا غير سفينتين ؟ — واتجهتا في تؤدة نحو قطعة الحلوى ، بذلك الجلال الصافي الذي يلائم الحيوانات البيضاء .
وقال البورجوازي ، وقد أبهجه ذكاؤه :

— « الأوز (*Cygnes*) يفهم الاشارات (*Signes*) .

وفي تلك اللحظة تعاظمت من جديد ، وعلى نحو مفاجيء ، تلك الضجة القصية المنبعثة من المدينة . إن ثمة رياحاً تنطق بوضوح يفوق ذلك الذي تنطق به الرياح الاخرى . والواقع ان تلك التي هبت في تلك اللحظة نقلت ، في وضوح ، قرع الطبول ، والصيحات ، ونيران فصائل الجند ، وأجوبة الناقوس والمدفع المشؤومة . ووافق ذلك انتشارُ سحابة سوداء حجبت الشمس فجأة .

ولم تكن الاوزتان قد وصلتا إلى قطعة الحلوى .

وقال الاب :

— « فلنرجع إلى البيت . إنهم يهاجمون التويلري . »

وأمسك بيد ابنه من جديد . ثم تابع :

— « من التويلري إلى اللوكسومبورغ ،ليس ثمة غير المسافة التي تفصل الملوكية عن الأشرافية . وهي ليست شاسعة . إن رصاص البنادق سوف ينهمر . »

ونظر إلى السحابة .

— « ولعل المطر نفسه أيضاً سوف ينهمر . إن السماء لتتدخل . ولقد صدر الحكم على الغصن الأصغر . فلنرجع على عجل . »

وقال الطفل :

— « اود أن أرى الأوزتين تأكلان قطعة الحلوى . »

فأجاب الأب :

— « ذلك خليق به أن يكون تهوراً . »

وقاد بورجوازيه الصغير .

وادار الابن رأسه ، آسفاً على الاوزتين ، نحو الحوض ، حتى حجبه عنه منعطف من صفوف الاشجار .

وفي غضون ذلك ، كان التائهان الصغيران قد اقتربا نحو قطعة الحلوى

لحظـة اقتربت الاوزتان منها . كانت تطفو على سطح الماء . كان اصغر الطفلين ينظر إلى قطعـة الحلوى ، وكان اكبرهما ينظر إلى البورجوازي وهو ينصرف .

ودخل الاب والابن في تيه الممرات الذي يقود إلى مرقاة مجمـوع الشجر الكبيرة ، ناحية شارع السيدة .

وما إن غابا عن النظر ، حتى سارع أكبر الطفلين إلى التمدد على بطنه فوق حافة الحوض المدورة ، وتشبث بها بيده اليسرى ، متدلياً فـوق الماء ، وقد أشرف على السقوط ، وبسط يده اليمنى بعصاه نحو قطعة الحلوى . وحثت الاوزتان ، بعد ان رأتا العدوّ ، خطاهما ، وهكذا احدثتا بصدريهما أثراً كان مفيداً للصياد الصغير : لقد ارتدّت المياه امام الاوزتين ، ودفعت احدى هذه التموجات الرقيقة المشتركة المركز قطعـة الحلوى في رفق نحو عصا الطفل . حتى إذا وصلت الاوزتان مست العصا قطعة الحلوى . وقام الطفل بحركـة سريعة ، وسحب قطعة الحلوى ، مروّعاً الأوزتين ، وتناول قطعة الحلوى ، وانتصب واقفاً . كانت الكعكة مشبعة بالماء ، ولكنهما كانا جائعين ظمئين . وقسم الطفل الاكبر قطعـة الحلوى قسمين ، احداهما كبيرة والاخرى صغيرة ، واحتفظ بالقطعـة الصغيرة لنفسه ، وقدم الكبيرة إلى اخيه الصغير ، وقال له :

— « ألصق هذه إلى بندقيتك . »

١٧
« الأب الميت يرثه ابنه حسب الشريعة »

كان ماريوس قـــد وثب إلى خـــارج المتراس . وكان كومبوفير قـد تبعـه . ولـكنّ كان الاوان قـــد فـات . لقـد مات غـافروش ؛

ورجع كومبوفير حاملا سلة الخرطوش ، ورجع ماريوس حاملا الطفل .

وفكر : « وا أسفاه ، إن ما عمله أبوه من اجل أبي اردّه انا اليوم للابن . مع فارق واحد هو ان تيناردييه عاد بأبي حياً ، على حين اني اعود بالطفل ميتاً . »

وحين انقلب ماريوس إلى المتراس وغافروش بين ذراعيه ، كان وجهه مثل وجه الطفل ، مخضباً بالدم .

فلحظة انحنى لكي ينتشل غافروش كانت رصاصة قد مست جمجمته مساً رفيقاً . إنه لم ينتبه إليها .

ونزع كورفيراك رباط رقبته وعصب به جبين ماريوس .

وسُجي غافروش على الطاولة نفسها التي سجي عليها مابوف ، ونُشر الشال الاسود فوق الجثمانين جميعاً . كان من الاتساع بحيث يغطي العجوز والطفل .

ووزع كومبوفير الخراطيش من السلة التي كان قد رجع بها .

وهكذا نال كل مقاتل خمس عشرة رصاصة .

وكان جان فالجان لا يزال في المكان نفسه ، جامداً فوق مَعْلَمه . وحين قدّم اليه كومبوفير خراطيشه الخمسة عشر ، هز رأسه .

وقال كومبوفير لآنجولراس في صوت خفيض :

— « هوذا رجل نادر غريب الاطوار . إنه يجد وسيلة إلى ان لا يقاتل في هذا المتراس . »

فأجاب آنجولراس :

— « الأمر الذي لا يحول بينه وبين الدفاع عنه . »

وعاد كومبوفير إلى القول :

— « إن للبطولة رجالها الغريبي الاطوار . »

وأضاف كورفيراك ، الذي كان قد سمع الحديث :

— « إنه من ضرب آخر مختلف عن الاب مابوف : »

ومن الحقائق الجديرة بالذكر ، ان النار التي كان المتراس يُقذف بها لم تقلق الجزء الداخلي منه إلا بشق النفس : واولئك الذين لم يجتازوا قط بزوبعة هذا النوع من الحرب لا يستطيعون ان يتصوروا لحظات الهدوء الفريدة التي تمتزج بهذه الاضطرابات . فالرجال يروحون ويغدون؛ إنهم يتجاذبون أطراف الحديث . وإنهم يتبادلون النكات ، وإنهم يتبلدون ويتكاسلون . ولقد سمع احد معارفنا مقاتلا يقول له تحت وابل من قذائف المدافع : « **هذا شيء اشبه بطعام العَزَب الصباحي .** » إن متراس شارع الـ « شانفريري » — ونحن نكرر ذلك — قد بدا هادئاً جداً من داخل . كان كل تحول وكل وجه من وجوه الحظ قد استُهلك أو على وشك ان يُستهلك . وكان الموقف قد انقلب من حرج إلى متوعد ، ومن متوعد كان قد انقلب في أغلب الظن إلى يائس . وكلما بدت الاوضاع أشد قتاماً خضب الوميض البطولي ذلك المتراس بالارجوان أكثر فأكثر . وفي رصانة ، نهض آنجولراس بعبء قيادته وكأنه اسبارطي شاب نذر سيفه المسلول لعبقرية أبيدوتاس الكالحة .

وكان كومبوفير يضمد جراح الجرحى وقد ارتدى مئزراً : وكان بوسوويه وفويي يصنعان الخراطيش بوعاء البارود الذي اخذه غافروش من العريف الصريع . وقال بوسوويه لفويي : « عما قليل سوف نركب العربة العامة إلى كوكب آخر . » وكان كورفيراك ، فوق حجارة الارصفة القليلة التي احتفظ بها لنفسه قرب آنجولراس . يرتب وينظم مصنع سلاح كاملا . عصاه المسيّفة ، وبندقيته ، وغدارتي قربوس ، وغدارة جيب ، تمثل عناية فتاة ترتب صندوقاً صغيراً من صناديق أشغال الابرة . كان جان فالجان ينظر . في صمت . إلى الجدار المقابل . وكان أحد العمال يثبت على رأسه . بواسطة خيط من خيوط القنب . قبعة ضخمة من قش كانت ملكاً للام هوشلو « **خوفاً من ضربة**

الشمس » كما قال . كان شبان الـ « كوغورد ديكس » يتجاذبون أطراف الحديث ، في مرح ، وكأنما كانوا يتعجلون الكلام باللهجـة الأقليمية للمرة الاخيرة . وكان جولي ، الذي نزع مزآة الأرملة ، يفحص لسانه بها . وإذ كان بعض المقاتلين قد اكتشفوا بضع كسرات الخبز ، العفنة أو تسكاد ، في احد الأدراج ، فقد راحوا يلتهمونها في شره . وكان ماريوس مضطرب البال متسائلا اي سوف يقوله والده له .

١٨
العُقاب يصبح فريسة

إن علينا أن نفصّل القول في ظـاهرة سيكولوجية خاصة بالمتاريس : فليس ينبغي ان يهمل شيء مما يميز حرب الشوارع العجيبة هذه .

وأياً ما كانت تلك السكينة الداخلية الغريبة التي تحدثنا عنها اللحظة ، فان المتراس يظل — في نظر الذين انطوى عليهم — رؤيـا من الـرؤى .

إن في الحرب الأهلية لرؤيا اشبه برؤيا القديس يوحنا . فكل ضباب المجهول يمتزج بهذه الشعَل الوحشية — والثورات آباء هول * . وايما امرئ اجتاز بمتراس من المتاريس يعتقد أنه اجتاز بحلم من الاحلام .

إن ما يستشعره المرء في هذه المواطن ، كما اشرنا في كلامنا علـى ماريوس وكما سنرى في ما سوف يلي ، هو اكثر من الحياة وأقل من الحياة . فما إن يغادر المقاتل المتراس حتى ينسى اي شيء رآه فيه : لقد كان فظيعاً ، وهو لا يعرف ذلك . كان محوطاً بأفكار مقـاتلة كانت ذات وجوه بشرية ، وكان رأسه مغموراً بضياء المستقبل . كانت

* جمع « ابو الهول » .

هنالك جثث مطروحة ، وأطياف منتصبة . وكانت الساعات طويلة إلى حد هائل ، ولقد بدت وكأنها ساعات الابدية . لقد عاش في الموت : ومرت ظلال . أي شيء كانت ؟ لقد رأى أيدياً مخضبة بالدم ؛ كان هديراً مروعاً ، وكان صمتاً رهيباً أيضاً . كانت ثمة أفواه فاغرة تصيح ، أوافواه فاغرة اخرى تعتصم بالصمت . كان في غمرة من الدخان ، أو ربما في غمرة من الليل . وهو يحسب انه قد مس رشحاً مشؤوماً من عماق مجهولة . إنه لا يرى شيئاً أحمر في أظافره . انه لم يعد يذكر شيئاً .

ولنعد إلى شارع الـ « شانفريزي » .

وفجأة ، بين وابلين من رصاص ، سمعوا صوت ساعة نائية تدق .

وقال كومبوفير :

— « إنه الظهر . »

ولم تكن الدقات الاثنتا عشرة قد اكتملت عندما انتصب آنجولراس واقفاً وقذف من أعلى المتراس بهذه الصيحة الراعدة :

— « انقلوا بعض حجارة الارصفة إلى المنزل . حصنوا النوافذ بها : ليتسلح نصف الرجال بالبنادق ، ونصفهم الاخر بالحجارة . حذار ان تضيعوا دقيقة واحدة . »

كانت مفرزة من الجند ، المتنكبين فؤوسهم ، قد برزت منذ لحظة ، على قدم الاستعداد للقتال ، عند نهاية الشارع .

ولا يمكن أن يكون ذلك غير طليعة جند ؛ وأي جند ؟ جند الهجوم ، من غير شك . إن الطلائع ، المكلفين تقويض المتراس ، ينبغي ان يتقدموا دائماً العساكر ، المكلفين بتسلقه .

لقد وضح انهم كانوا يكادون يمسّون تلك اللحظة التي دعاها مسيو دو كليرمون تونير ، عام ١٨٢٢ ، « الجهد الجهيد » .

ونُفِذ أمر آنجولراس بالسرعة المضبوطة المميزة للسفن والمتاريس :

وهي مواطن القتال الوحيدة التي يتعذر فيها الفرار . وفي أقل من دقيقة ، كان ثلثا الحجارة التي ركمها آنجولراس عند باب كورنث قد حُملت إلى الدور الأول وإلى العليّة . وقبل ان تتصرم دقيقة اخرى كانت هــذه الحجارة ، المنضد أحدها فوق الآخر في فن ، قد سدت نصف ارتفاع نافذة الدور الأول وكوى العلية . وكانت بضع فتحات ، أعدها فويبي ، البنّاء الرئيسي ، في عناية ، تمكّن انابيب البنادق من النفاذ خلالها . وكان تحصين النوافذ هذا ممكناً على نحو أيسر بعد أن كفت المدافع عن إطلاق النيران . كان المدفعان يسددان كُراتهما ، الآن ، إلى منتصف الجدار لكي يحدثا فيه ثقباً ، أو لــكي يحدثا ، إذا كان ذلك ممكنــاً ، ثغرة للهجوم .

حتى إذا اتخذت حجارة الأرصفة ، المعدة للدفـــاع الأخــير ، مواطنهــا أمر آنجولراس رجــاله بأن يحملوا إلى الطابق الأول تلــك الزجاجات التي كان قــد وضعها تحت المــائدة المــدد عليهــا جثمانُ مابوف .

وسأله بوسوويه :

— « من الذي سيشرب هذا ؟ »

فأجابه آنجولراس :

— « هم . »

ثم إنهم متّرسوا نافذة الحجرة السفلية ، وهيــأوا على مقربة منهــم العوارض الحديدية التي كانت تساعد على إيصاد باب الحانة ، من الداخل ، أثناء الليل .

كانت القلعة كاملة . كان المتراس هو السور ، وكــانت الحــانــة هي البرج .

وبحجارة الأرصفة الباقية ، سدوا الفتحة .

وإذ كان يتعين على حماة المتاريس دائماً أن يقتصدوا في إنفـــاق ذخيرتهم ، وإذ كان المحاصِرون يعرفون ذلك ، فان المحاصِرين ينظمون

أعمالهم في ضرب من التمهل المثير ، معرضين انفسهم للنار قبل الأوان ، ولكن في الظاهر لا في الحقيقة ، وينعمون بالراحة . إن الاستعـدادات للهجوم تُتخذ دائماً في شيء من البطء المنهجـي ، وبعد ذلك تنقضّ الصاعقة .

وهذا البطء مكن آنجولراس من ان يراجع كل شيء . وان يخلع مسحة من الكمال على كل شيء . لقد استشعر انه ما دام مقدراً لهؤلاء الرجال ان يموتوا فينبغي ان يكون موتهم رائعة من الروائع .

وقال لماريوس :

— « نحن الزعيمان . سوف اصدر الأوامر الأخيرة في الداخـل : ولسوف تبقى انت في الخارج ، وتراقب . »

واتخذ ماريوس من ذروة المتراس مقراً للمراقبة .

وأمر آنجولراس بتسمير باب المطبخ الذي كان ، كما نذكر ، بمثابة المستشفى المتنقل .

وقال :

— « لا وحل على الجرحى . »

واصدر تعليماته الاخيرة في الحجرة السفلى ، في صوت موجز ، ولكنه عميق وهادىء . واصغى فويي ، وأجاب باسم الجميع .

— « في الطابق الأول . استعدوا لأن تقطعوا السلم بفؤوسكم . هل تحملونها ؟ »

فقـال فويي :

— « نعم . »

— « كم ؟ »

— « فأسان ، وفأس لشق الخشب . »

— « حسن . بقي عندنا ستة وعشرون مقاتلا . كم بندقية عندنا ؟ »

— « أربـع وثلاثون . »

— « اي بزيادة ثماني بنادق . أبقوا هذه الثماني مشحونة كغيرها وفي متناول أيديكم . تمنطقوا بالسيوف والغدارات . عشرون رجلا إلى المتراس . ستة يكمنون عند الكوى وعند نافذة الطابق الاول لكي يطلقوا النار على المغيرين من خلال المرامي التي بين حجارة الارصفة . حذار ان تقوموا بأي عمل لا طائل تحته هنا . وحالما يقرع الطبل إشارة الانطلاق يتعين على العشرين رجلا ، القائمين تحت ، ان يندفعوا إلى المتراس . والذين يصلون إلى هناك قبل غيرهم سوف يفوزون بالمواقع الفضلى . »

حتى إذا تمت هذه التدابير ، التفت إلى جافير وقال له :

— « انا لن أنساك . »

ووضع غدارة على الطاولة ، وأضاف :

— « ان آخر رجل يغادر هذه الغرفة سوف يحطم جمجمة هذا الجاسوس . »

وتساءل صوت :

— « هنا ؟ »

— « لا ، لا تتركوا هذه الجثة مع جثتنا . في استطاعتكم ان تتسوروا المتراس الصغير في زقاق مونديتور . إن ارتفاعه لا يزيد على اربعة أقدام . سوف تأخذونه إلى هناك ، وتعدمونه في ذلك المكان . »

كان ثمة ، في تلك اللحظة ، رجل واحد اكثر امتناعاً على التأثر ، من آنجولراس . وكان ذلك الرجل جافير .

وهنا برز جان فالجان .

كان في حشد المتمردين . وتقدم إلى أمام وقال لآنجولراس :

— « انت القائد ؟ »

— « نعم . »

— « لقد وجهت إليّ الشكر منذ لحظة . »

— « باسم الجمهورية . ان للمتراس منقذَين : ماريوس بونميرسي وأنت : »

— « هل تظن اني استحق مكافأة ؟ »

— « طبعاً » .

— « حسناً . انا اسألك مكافأة . »

— « وما هي ؟ »

— « أن احرق انا دماغ هذا الرجل . »

ورفع جافير رأسه ، ورأى جان فالجان ، واتى بحركة غير ملحوظة ، وقال :

— « هذا شيء ملائم . »

أما آنجولراس فكان قد شرع يشحن بندقيته القصيرة الخفيفة من جديد : وأجال بصره في ما حوله :

— « لا اعتراض ؟ »

والتفت نحو جان فالجان وقال :

— « خذ الجاسوس . »

واستولى جان فالجان ، فعلا ، على جافير بأن جلس على اقصى المائدة : وأمسك بالغدارة ، وأعلن صليلٌ واهن انه قد رد انبوبتها إلى الوراء استعداداً لاطلاق النار .

وفي اللحظة نفسها تقريباً سُمعت أبواق :

وصاح ماريوس من أعلى المتراس :

— « احذروا ! »

وشرع جافير يضحك تلك الضحكة الصامتة الخاصة به . وسدد بصره إلى المتمردين وقال لهم :

— « لستم احسن حالا مني . »

وصاح آنجولراس :

– « إلى الخارج جميعاً ! »

ووثب المتمردون ، في صخب ، إلى أمام . وفيما هم يخرجون تلقوا في ظهورهم . وليُسمح لنا باصطناع هذا التعبير . هذه الكلمة من جافير :

– « إلى اللقاء القريب ! »

١٩
جان فالجان يثأر لنفسه

وحين خلا جان فالجان بجافير فك الحبل الذي كان يوثق الاسير من خصره ، والذي كانت عقدته تحت المائدة . ثم أوعز اليه بأن ينهض .

وامتثل جافير الأمر ، بتلك الابتسامة التي تمتنع على الوصف ، والتي تُكثَّف فيها رفعة السلطة المصفَّدة .

وأمسك جان فالجان بجافير من سيره الجلدي كما يمسك المرء باحدى دواب الاثقال من لببها ، وجرّه خلفه ، وغادر الحانة في تؤدة ، لأن جافير المكبَّل القدمين ، لم يكن قادراً على ان يخطو غير خطوات قصار :

وكان جان فالجان يحمل الغدارة بيده .

وهكذا اجتازا مربّع المتراس الداخلي المنحرف . وكان المتمردون ، المترقبون الهجوم الوشيك ، قد اداروا ظهورهم .

كان ماريوس ، القائم إلى جانب الطرف الايسر من الجدار ، هو وحده الذي رآهما يمران . واستعار اجتماع الضحية والجلاد هذا ضوءاً من الوميض القبريّ الذي كان في نفسيهما :

وساعد جان فالجان اسيره ، المكبل بالاغلال ، على تسوّر متراس

زقاق مونديتور الصغير ، في شيء من العسر ، ولكن من غير ان يفلته لحظـــة .

حتى إذا تسلقا الجدار ، وجدا نفسيهما وحيدين في الزقاق . ولم يرهما الآن احد . لقد حجبتهما زاوية المنزل عن أعين المتمردين . وكانت الجثث المنقولة من المتراس قـد شيدت ركاماً هائلا على بضع خطوات منهمـا .

وفي ركام الموتى كان في ميسور المرء ان يتبين وجهاً شديد الشحوب ، وشعراً محلول العقدة ، ويداً مثقوبة ، وصدر امرأة نصف عار . كانت هي ايبونين .

ونظر جافير في انحراف إلى هذه الميتة ، وقال في همس ، وهو على اكثر ما يكون من الهدوء :

— « يخيل إلي اني اعرف هذه الفتاة . »

ثم التفت نحو جان فالجان .

ووضع جان فالجان الغدارة تحت ذراعه ، وسدد إلى جافير نظرة لم تـكن في حاجة إلى كلمات لكي تقول : « جافير ، هذا انا . »

واجاب جافير :

— « خذ بثأرك . »

واخرج جان فالجان من جيبه سكيناً ، وفتحها .

وصاح جافير :

— « مدية ! أنت على حق . هذا يلائمك اكثر . »

وقطع جان فالجان السير الجلدي المطوّق لعنق جافير ، ثم قطـــع الحبال المطوقة لمعصميه ، ثم انحنى ، وقطع الحبل المكبل لقدميه . ثم انتصب وقال له :

— « انت طليق السراح . »

ولم يذهل جافير في يسر . ومع ذلك ، وبرغم سيطرته الكاملة على

نفسه ، فانه لم يستطع ان ينجو من بعض الانفعال . لقد ظل فاغر الفم جامداً لا حراك فيه .

وتابـع جان فالجان :

– « انا لا اتوقع ان اغادر هذا المكان . ومع ذلك فاذا اتفق لي ، بالمصادفة ، ان افعــــــــل ، فاني أعيش ، تحت اسم فوشلوفان ، في شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

وغضّن جافير وجهه مثل نمر يفتح فمه نصف فتحة ، وغمغم من بين اسنانه :

– « خذ حذرك . »

وقال جان فالجان :

– « إذهب . »

واستأنف جافير :

– « قلتَ فوشلوفان . شارع الرجل المسلح ؟ »

– « رقم ٧ . »

وكرر جافير في همس :

– « رقم ٧ . »

وزرر سترته ، واعاد الصلابة العسكرية ما بين كتفيه ، واستــدار نصف استدارة ، وطوى ذراعيه ، مسنداً ذقنه باحدى يديه ، ومضى لسبيله في اتجاه الاسواق . وأتبعه جان فالجان بصره . وبعد بضع خطوات التفت جافير وصاح مخاطباً جان فالجان :

– « أنت توقع السأم في نفسي . ليتك قتلتني . »

ولم يلاحظ جافير انه لم يعد يخاطب جان فالجان بضمير المفرد .

وقال جان فالجان :

– « إمض لسبيلك . »

وابتعد جافير في خطى بطيئة . وبعد لحظة ، انعطف حول زاوية شارع

الـ « بريشور » :

وحين توارى جافير عن العيان ، أطلق جان فالجان نار الغدارة في الهواء .

ثم عاود الدخول إلى المتراس ، وقال :

– « لقد قضي الامر . »

وفي غضون ذلك كان الذي حدث هو هذا :

لم يكن ماريوس ، المنشغل بالشارع اكثر من انهماكه بالحانة ، قد نظر حتى ذلك الحين ، في انتباه ، إلى الجاسوس الذي كان موثقاً في مؤخرة الحجرة السفلى المظلمة .

حتى إذا رآه في وضح النهار يتسلق المتراس في سبيله إلى الموت ، تبيّنه وعرفه . وتمثلت في ذهنه ذكرى مفاجئة . لقد ذكر مفتش شرطة شارع بونتواز ، والغدارتين اللتين كان قد قدمهما اليه ، واللتين استعملها – هو ، ماريوس – في هذا المتراس نفسه . ولم يتذكر الوجه فحسب ، بل لقد تذكر الاسم ايضاً .

بيد ان هذه الذكرى كانت ضبابية غير واضحة ، مثل افكاره جميعها ان ما وجّهه إلى نفسه لم يكن توكيداً ، وإنما كان سؤالا : « أليس هذا هو مفتش البوليس الذي قال لي ان اسمه هو جافير ؟ »

لعله كان لا يزال ثمة متسع للتدخل من اجل هذا الرجل ؟ ولكن يتعين عليه ان يعرف ، أولا ، ما إذا كان هو جافير حقاً .

واستوضح ماريوس آنجولراس الذي كان قد اتخذ مكانه ، منذ لحظة، في الطرف الآخر من المتراس :

– « آنجولراس ! »

– « ماذا ؟ »

– « ما اسم هذا الرجل ؟ »

– « من ؟ »

— « مفوض الشرطة . هل تعرف اسمه ؟ »
— « من غير ريب . لقد أخبرنا . »
— « ما اسمه ؟ »
— « جافير . »
وتصدّر ماريوس .
وفي تلك اللحظة سُمع طلق الغدارة الناري . وبرز جان فالجان من جديد وصاح :
— « قضي الأمر . »
وسرت رعشة كئيبة في فؤاد ماريوس .

٢٠

الموتى مصيبون والاحياء غير مخطئين

كانت حشرجة المتراس على وشك ان تبدأ .

وتلاقت الاشياء كلها في جلال تلك اللحظة العليا التراجيدي . الف قرقعة غريبة في الهواء ، وأنفاس الجماعات المسلحة المندفعة في الشوارع التي لم يكونوا قادرين على روءيتها ، وخبب الفرسان المتقطع ، وزلزلة المشاة الثقيلة وهم يزحفون ، وتقاطع نيران المفارز ونيران المدافع في تيه باريس ، ودخان المعركة مرتفعاً على نحو مذهّب خالص فوق السطوح ، وصيحات خفية قصية فظيعة على نحو غامض ، وبروق الخطر في كل مكان ، وناقوس سان ميرّي الذي غلب عليه الآن جرْس التنهد ، وعذوبة الفصل ، وبهاء السماء الحافلة بأشعة الشمس والسحب ، وجمال النهار ،

وصمت البيوت الرهيب .

ذلك بأنه ، منذ المساء ، كان صفّا البيوت في شارع الـ « شانفريري » قد امسيا جدارين ضاريين . كانت الابواب موصدة ، والنوافذ موصدة ، والمصاريع موصدة .

ففي تلك الايام ، الشديدة الاختلاف عن الايام التي نعيش فيها ، حين كانت تحين الساعة التي يرغب فيها الشعب في إنهاء وضعٍ دامَ اكثر مما ينبغي ، أو دستور ممنوح أو بلد دستوري ، وحين كان الغضب الشامل ينتشر في الفضاء ، وحين كانت المدينة توافق على اقتلاع حجارة ارصفتها ، وحين كانت الانتفاضة تجعل البورجوازية تبتسم بان تهمس بكلمتها السرية في أذنها ، فعندئذ كان ساكن المنزل المشبع بالفتنة، إذا جاز التعبير ، يصبح نصيراً للمقاتل ، ويتآخى المنزل مع القلعة المرتجلة التي استندت اليه . وحين كانت الاحوال غير ناضجة ، وحين كانت الانتفاضة غير مقبولة في حزم ، وحين كانت الجماهير تنكر الحركة ، فعندئذ كان يُقضى الامر مع المقاتلين ، وعندئذ كانت المدينة تتحول إلى صحراء تحيط بالثورة ، والنفوس تتثلج ، والملاجىء توصد ابوابها ، والشارع ينقلب إلى ثغرة لمساعدة الجيش في الاستيلاء على المتراس .

إننا لا نستطيع ان نحمل الشعب على ان يسير في معارج التقدم بأسرع مما يبتغي . والويل لمن يكرهه على ذلك إكراهاً ! الشعب لا ينقاد . وعندئذ يترك الانتفاضة وشأنها ، ويصبح المتمردون مصابين بالطاعون . وعندئذ يصبح كل منزل منحدراً وعراً ، وكل باب رفضاً ، وكل واجهة بناء جداراً . وهذا الجدار يرى ، ويسمع ، ويأبى . إنه قد ينفتح وينقذك . لا . إن هذا الجدر قاضٍ . إنه ينغلق عليك ويدينك : ما أظلم هذه البيوت الموصدة ! إنها تبدو ميتة ، ولكنها حية . ان الحياة شبه المعلقة في تلك البيوت ، لا تزال باقية . إن أحداً لم يخرج منها

منذ اربع وعشرين ساعة ، ولكن أحداً لم يُفقد . وفي داخل هذه الصخرة . يروح الناس ويجيئون . إنهم يضطجعون ؛ وإنهم ينهضون ؛ وإنهم ليشعرون أنهم بين اهلهم هناك . إنهم يأكلون ويشربون هناك ، وانهم ليخافون هناك . شيء فظيع ! الخوف يعذر سوء الوفادة الرهيب هذا . إنه يمزجه بالانشداه . وتلك اسباب تخفيفية . بل إن الخوف لينقلب في بعض الاحيان – وهذا امر مشاهد – إلى حميّا ، والذعر قد ينقلب إلى جيَشان . كما ينقلب التبصر إلى غيظ ، ومن هنا هذه الكلمة البالغة العمق : مسعورو الاعتدال . إن ثمة تألقات ذعر رفيع ينبثق منها الغضب مثل دخان كئيب . – « ما الذي يريده هؤلاء الناس ؟ ان الرضا لا يعرف سبيلا إلى نفوسهم . إنهم يعرّضون الرجال المسالمين للخطر . لكأننا لم يكفنا ما شهدنا من ثورات مشابهة ! ما الذي جاء بهم إلى هنا ؟ فلينجوا بأنفسهم الآن . لأمّهم الهبل ! تلك خطيئتهم هم . إنهم ينالون الجزاء الذي يستحقون . ذلك ليس من شأننا . هوذا شارعنا المسكين وقد غربلته القذائف المدفعية . إنها حزمة من الأدنياء الخلعاء . وفوق كل شيء ، لا تفتحوا الباب » . ويتخذ المنزل مظهر قبر . وامام ذلك الباب يكون المتمرد في نزعه الاخير . إنه يرى كُرات المدافع والسيوف المسكوبة مقبلة نحوه . فاذا ما نادى ، فهو يعرف أنهم سيسمعونه ، ولكنه يعرف ايضاً انهم لن يلبوا نداءه . ان ثمة جدراناً قد تحميه ، وإن ثمة رجالا قد ينقذونه . وهذه الجدران لها آذان من لحم ، واولئك الرجال لهم احشاء من حجارة .

من نتهم ؟

لا أحد ، وكل أحد .

العصر غير الكامل الذي نعيش فيه .

إن المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) لتحوّل نفسها دائماً ، مخاطرة بذاتها ، إلى انتفاضة ، ومن احتجاج فلسفي تصبح احتجاجاً مسلحاً ، ومن

« مينرفا » تنقلب إلى « بالاّ » . والمدينة الفاضلة التي تفقد الصبر وتصبح فتنة ، تعرف ما الذي ينتظرها . وهي تصل دائماً ، تقريباً ، باسرع مما ينبغي . وعندئذ ترضى بما كُتب لها ، وتتقبل ، في بسالة ، الكارثة بدلا من النصر . إنها تخدم ، من غير ان تتشكى ، اولئك الذين ينكرونها ؛ بل انها لتخدمهم وهي تبرىء ساحتهم ، وشهامتها قائمة على ارتضائها الجفاء والهجر . إنها جَموح أمام العوائق ، لطيفة أمام انكار الجميل .

ولكن أهو إنكار للجميل ؟

نعم ، من وجهة نظر الجنس البشري .

لا . من وجهة نظر الفرد .

التقدم شيمة الانسان . وحياة الجنس البشري العامة تدعى التقدم . وسيرُ الجنس البشري الجماعيُّ يدعى التقدم . التقدم يسير . إنه يقوم بالرحلة الانسانية والأرضية الكبرى نحو السماوي والالـهي . إن له مواقفه حيث يجمع شمل القطيع المتخلف ، وان له محطاته حيث يتأمل ، في حضرة « كنعان » بهيّ يكشف النقاب فجأة عن أفقه . ان له لياليه التي يرقد فيها . وإن من أشد ضروب القلق مضاضة على المفكر أن يرى الظل يلف النفس البشرية ، وان يتلمس التقدم ، في الظلام ، مستسلماً للرقاد ، من غير ان يكون قادراً على إيقاظه .

— « لعل الله قد مات » كذلك قال جيرار دو نيرفال ،* ذات يوم ، لكاتب هذه الأسطر ، خالطاً ما بين التقدم والله ، وحاسباً انقطاع الحركة موت الرب .

مخطئٌ ذلك الذي ييأس . ان التقدم ليستيقظ على نحو محتوم ؛ وعلى الجملة فان في ميسورنا أن نقول إنه يسير حتى في النوم ، لأنه قد نما وكبر . وحين نراه منتصباً كرة اخرى نجده اطول قامة . إن النزوع إلى المسالمة دائماً ليس من شيمة التقدم إلا بمقدار ما هو من شيمة

* Gérard de Nerval كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٨ وتوفي عام ١٨٥٥

النهر . فعدم إقامة اي سدّ يعني عدم القاء أيّ صخر . إن العقبات تجعل الماء يُزبد ، وتجعل الانسانية تفور . ومن هنا القلاقل . ولكن بعد هذه القلاقل ندرك ان ارضاً ما ، قد كُسبت . وإلى ان يُقر النظام ، الذي لا يعدو ان يكون السلامَ الكوني ، وإلى ان يهيمن التناغم والوحدة فسيظل التقدم يتخذ من الثورات محطات له .

ما التقدم اذن ؟ لقد اجبنا عن ذلك منذ لحظة . انه حياة الشعوب السرمدية :

والآن ، قد يتفق في بعض الاحيان ان تقاوم حياةُ الافراد الموقتة حياةَ الجنس البشري الأبدية :

ولنعترف من غير اكتئاب ، بأن للفرد أشواقه المتميزة ، وأنه قد يعظّم هذه الاشواق ، من غير ما خيانة ، ويدافع عنها . إن للحاضر نصيباً من الانانية قابلا للمعذرة . وإن للحياة المؤقتة حقوقها ، وهي ليست ملزمة بأن تضحي بنفسها ، على نحو موصول ، في سبيل المستقبل والجيل الذي حان الآن دوره في المرور فوق الارض ليس مضطراً إلى أن يختصره من أجل الاجيال — وهي أقرانه على اية حال — التي سوف يجيء دورها في ما بعد . — « انا موجود ، » كذلك يغمغم ذلك الكائن الذي يدعى « الكل » . — « أنا شاب واني لعاشق ؛ انا عجوز واني لفي حاجة إلى الراحة ؛ أنا رب اسرة ؛ أنا اعمل ؛ أنا موفق ؛ إن تجارتي لمزدهرة ؛ ان عندي بيوتاً ارغب في تأجيرها ؛ إن لي اموالا على الدولة ؛ أنا سعيد . إن لي زوجة واولاداً ؛ أنا أحبهم جميعاً؛ إني احب ان اعيش . دعوني وشأني . » ومن هنا ذلك البرد الشديد الذي يصيب طليعة الجنس البشري الشهمة ، في بعض الاحيان .

وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نسلم بأن المدينة الفاضلة تنفصل عن فلكها المشعّ وهي تشن الحرب . إن حقيقة الغد لتستعير اسلوبها ، المعركة ، من اكذوبة الامس . إنه — المستقبل — ليعمل مثل الامس . وإنها

ـ الفكرة المحض ـ لتصبح وسيلة من وسائل العنف . إنها تعقد بطولتها بعمل من اعمال العنف يكون من العدل ان تتحمل مسؤوليته ؛ عنفُ فرصة وانتهاز ، مناقضٌ للمباديء . فهي تعاقب عليه بقضاء محتوم . إن « المدينة الفاضلة ـ الانتفاضة » لتقاتل والقانون العسكري العتيق في يدها . إنها تطلق النار على الجواسيس ؛ إنها تنفذ حكم الموت في الخونة ؛ إنها تعطل كائنات حية وتقذف بها إلى الظلمات المجهولة . إنها تسخّر الموت ، وذلك شيء خطير . ويبدو وكأن المدينة الفاضلة قد فقدت ايمانها باشعاع الضياء ، قوّتها التي لا تقاوَم والتي لا يعتريها الفساد . إنها تضرب بالسيف . ولكن ليس ثمة اىما سيف بسيط . فلكل سيف حدان . ومن يجرح بأحدهما يجرح نفسه بالآخر .

حتى إذا قمنا بهذا التحفظ ، وفي قسوة بالغة . يتعذر علينا ان لا نعجب ، سواء أنجحوا أم لم ينجحوا ، بمقاتلي المستقبل الماجدين ، بأساتذة المدينة الفاضلة . وحتى حين يخفقون يكونون موضع الاحترام ، ولعلهم إنما يتحققون في حال الاخفاق بالجلال الاعظم . إن النصر ، حين ينسجم مع التقدم ، ليستحق تصفيق الشعوب . ولكن الهزيمة البطولية تستحق شفقتهم . احدهما بهيّ ، والآخر سَنيّ . أما نحن ، فأننا نؤثر الاستشهاد على النجاح . إن جون براون * اعظم من واشنطون ، وبيزاكان اعظم من غاريبالدي .

إن امرءاً ما ، ينبغي ان يكون في جانب المهزوم من غير ريب ؛ والناس غير منصفين لمجربي المستقبل الكبار حين يسقطون .

الثوريون متهمون بأنهم ينشرون الرعب . ان كل متراس ليبدو اعتداء. ان الناس ليؤثّمون نظرياتهم ، ويرتابون بهدفهم ، ويخشون سريرتهم ، ويتهمون ضميرهم . انهم يعيّرونهم بأنهم إنما يرفعون ويكوّمون ويركمون

* John Brown احد دعاة تحريم الرق في اميركا ، وقد شنق في تشارلزتاون (فرجينيا) لانه دعا الزنوج الى حمل السلاح .

في وجه الواقع الاجتماعي السائد كثيباً من ضروب البؤس ، من الآلام ، من الآثام ، من المظالم ، وباقتلاع كتل الظلام من الاعماق السفلى لكي يتمترسوا بها ، ويقاتلوا بواسطتها . ان الناس يصيحون في وجوههم : « إنكم تقتلعون بلاط جهنم ! » وفي استطاعتهم ان يجيبوا بقولهم : « وهذا هو الذي يجعل متراسنا مشيداً من مقاصد خيّرة . »

وخير الحلول هو ، من غير شك ، الحل السلمي . وعلى الجملة ، فلنعترف بأننا حين نرى حجارة الارصفة نفكر بالدب . وهذا استعداد لا يرتاح اليه المجتمع . ولكن خلاص المجتمع رهن بالمجتمع نفسه : فالى ارادته الخيرة نوجه النداء . فليس ثمة حاجة إلى علاج عنيف : لندرس الشر في محبة ، ولنعيّنْه ، ثم لنتقدمْ إلى معالجته . ذلك ما ندعو اليه في إلحاح .

وأياً ما كان ، فحتى في حال سقوطهم ، وبخاصة في حال سقوطهم ، تجلبب العظمة اولئك الرجال الذين يقاتلون — في ارجاء الكون كله ، بأعين مسمّرة على فرنسة — من أجل العمل العظيم بمنطق المثل الأعلى الصلب الذي لا يلين . انهم يقدمون حياتهم هبة خالصة إلى التقدم . إنهم يحققون إرادة العناية الالـٰهية . إنهم يؤدون فرضاً دينياً . وفي الساعة المحددة ، وبمثل تجرد ممثل يصل إلى كلمته الاخيرة ، يدخلون إلى القبر طائعين السيناريو الالـٰهي . وهم إنما يرتضون هذا الكفاح اليائس وهذا الزوال البطولي لكي يقودوا إلى نتائجها الكونية البهية الرفيعة تلك الحركةَ الانسانية البديعة التي استُهلت على نحو لا يقاوَم ، في الرابع عشر من تموز ، ١٧٨٩ . هؤلاء الجنود هم كهان . والثورة الفرنسية عمل من أعمال الله .

ومع ذلك فان ثمة — ومن الخير ان نضيف هذا الفرق إلى تلك الفروق التي أشرنا اليها في فصل آخر — ان ثمة انتفاضات مقبولة ندعوها ثورات . وان ثمة انتفاضات مرفوضة ندعوها فتناً . إن

الانتفاضة التي تنفجر هي فكرة تُجري امتحانها أمام الشعب . وإذا ما رفض الشعب ان يعطيها صوته فعندئذ تصبح الفكرة فاكهة ذابلة . وعندئذ تصبح الانتفاضة مغامرة خاسرة .

إن المضيّ إلى الحرب عند اول دعوة وكلما رغبت المدينة الفاضلة في ذلك ليس من شيمة الشعوب . ان الامم لا تنعم دائماً ، وفي كل لحظة ، بمزاج الأبطال والشهداء .

إنهم ايجابيون . إن الانتفاضات لتثير اشمئزازهم ابتداء * . اولا ، لأنها كثيراً ما تتمخض عن كارثة . وثانياً لأنها تتخذ من التجرد نقطة انطلاق لها دائماً .

ذلك بأن اولئك الذين يضحون بأنفسهم إنما يضحون بأنفسهم–دائماً– وهذا شيء جميل – من اجل المثل الاعلى ، ومن اجل المثل الاعلى وحده . إن الانتفاضة حماسة . والحماسة قد يستبد بها الغضب ؛ ومن هنا الالتجاء إلى السلاح . ولكن كل انتفاضة موجهة ضد حكومة من الحكومات أو نظام من النظم تطمح إلى شيء اسمى . وهكذا ، مثلا ، يحسن بنا أن نكرر ان ما حاربه زعماء انتفاضة ۱۸۳۲ ، وبخاصة متحمسي شارع الـ « شانفريري » الشبان ، لم يكن لويس فيليب على وجه الضبط . ان معظمهم – ولنقل ذلك في صراحة – كانوا يقرون بسجايا هذا الملك الذي كان وسطاً بين الملكية والثورة . إن اياً منهم لم يبغضه . ولكنهم هاجموا الفرع الاصغر للحق الالـهي في لويس فيليب كما سبق ان هاجموا الفرع الاكبر للحق الالـهي في شارل العاشر . وكان الذي يريدون اسقاطه باسقاط الملكية ، كما أوضحنا ، هو اغتصاب الانسان للانسان ، واغتصاب الامتياز للحق ، في العالم أجمع . إن باريس من غير ملك انما ينتج عنه ان يصبح العالم من غير طغاة . على هذا النحو كانوا يفكرون . كان هدفهم بعيداً من غير شك ، ولعله كان

---

* *a priori*

غامضاً . متراجعاً في وجه الجهد . ولكنه عظيم .

ذلك هو الواقع . وإنما يضحي المرء بنفسه من اجل هذه الرؤى ، التي هي في نظر الضحايا . دائماً تقريباً . أوهام . ولكنها اوهـــام تتصل بها — على العموم — الحقيقةُ الانسانية كلها . انه يقذف بنفسه إلى هذه الاشياء الفاجعة ، ثملاً بما يوشك أن يفعله . ومن يدري ؟ فقد تُكتب الغلبة لهذه الفئة . إنها فئة قليلة . إنهم يواجهون جيشاً كاملا ، ولكنهم يدافعون عن الحق ، عن القانون الدولي . عن سيادة كل امرىء على نفسه — تلك السيادة التي لا يمكن التنازل عنها — . عن العدالة . عن الحقيقة . وعند الحاجة يموتون مثل اولئك الاسبارطيين الثلاثمئة . إنهم لا يفكرون في دون كيشوت . ولكن في ليونيداس . ويندفعون إلى أمام ، وما ان يشرعوا في القتال . حتى يمتنعوا على النكوص . ويطوّحوا بانفسهم قُدماً . آملين في نصر لم يُسبق إلى مثله . وفي الثورة مُنْجَزَةً . والتقدم مطلقَ السراح . وفي تكبير الجنس البشري . والخلاص العام . واضعين نصب اعينهم . في أسوأ الاحـــوال ، معركة كمعركة تيرموبيل * .

هذا التسايف من اجل التقدم كثيراً ما يخفق . ولقد سبق لنا ان قلنا لماذا . ان الجمهور لجموح يستعصي توجيهه على الفرسان . وهذه الكتل الثقيلة . هذه الجماهير . الهشة بسبب من ثقلها نفسه . تخشى المغامرة . وان في المثل الاعلى لمغامرة .

وفوق هذا — وينبغي ان لا ننسى ذلك — فأن المصالح هناك ؛ وبين المصالح وبين المثل الاعلى وكل ما هو عاطفي ود مفقود . إن المعدة تشل الفؤاد في بعض الاحيان .

وعظمة فرنسة وجمالهـــا قائمان على نها اقل عناية بالبطن من سائـر

---

* هي المعركة البطولية التي خاضها ليونيداس ، ملك اسبارطة ، مع قواته البالغة لاثمئة ليس غير ، ضد الفرس ، فقضى نحبه مع رجاله جميعاً ، عام ٤٨٠ ق.م.

الشعوب . إنها تشد الحزام على خصرها بأيسر مما يشده غيرها . وهي أول من يفيق ، وآخر من يستسلم للرقاد . إنها تمضي في الطليعة : إنها رائدة .

وما ذلك إلا لأنها فنانة .

إن المثل الاعلى لا يعدو ان يكون أوج المنطق ، مثلما ان الجميل ليس شيئاً غير ذروة الحقيقي . والشعوب الفنانة هي ايضاً الشعوب التي لا تعرف التناقض المنطقي . إن حبّك الجمال يعني رؤيتك الضياء . وهذا ما جعل اليونان تحمل قبل غيرها شعلة اوروبة ، يعني شعلة الحضارة ، لتسلمها بعد إلى ايطالية ، ولتسلمها هذه بدورها إلى فرنسة . شعوب الـبهية رائدة ! *Vitaï lampada tradunt*

شيء رائع : إن شعر الشعب عنصر تقدمه . ومقدار الحضارة إنما يقاس بمقدار الخيال . والشعب الممدّن وحده يجب ان يظل شعباً فحلا . كورنث * ، نعم . سيباريس ** ، لا . ومن يتخنث يفسد ويفقد مزايا أصله . ينبغي ان لا نكون لا هواة ولا عباقرة في الفن ، ولكن ينبغي ان نكون فنانين . وفي موضوع الحضارة . يجب ان لا نفرط في الرقة ، ولكن يجب ان نصعّد في معارج السمو . وعلى هذا الشرط نعطي الجنس البشري نموذج المثل الأعلى .

إن للمثل الأعلى العصري مثاله في الفن ، ووسيلته في العلم . واننا من خلال العلم سوف نحقق رؤيا الشعراء الماجدة : الجمال الاجتماعي . سوف ننشيء جنة عدن كرة ثانية من طريق أ + ب . وفي هذه النقطة التي بلغتها الحضارة أمسى المضبوط عنصراً أساسياً من عناصر

---

* كورنث احدى مدن بلاد الاغريق القديمة الاكثر ازدهاراً ، وكانت تنافس اثينا واسبارطة .

** ، Sybaris مستعمرة آخيّة دمرت عام (٥١٠) ق.م. وكانت مشهورة برقة سكانها وتخنثهم .

البهي . والعاطفة الفنية لا تخدم بالاداة العلمية فحسب . بل تكمل أيضاً . إن على الحلم أن يحسب . والفن . الذي هو الفاتح . يجب ان يتخذ من العلم . الذي هو المحرك . نقطة ارتكاز له . إن صلابة المطية شيء هام . والروح الحديثة هي عبقرية اليونان متخذةً من عبقرية الهند عربةً لها . إنها الاسكندر على متن فيل .

ان الامم التي تحجرت في العقيدة أو التي افسدها الربح ليست اهلا لأن تقود الحضارة . والسجود للصنم أو للدينار يوقع الهزال في العضلة التي تمشي . والارادة التي تمضي . والاستغراق الكهنوتي أو التجاري ينقص من اشعاع الشعب . ويخفض من افقه من طريق خفض مستواه . ويحرمه ذكاء الهدف الشامل ذاك . الانساني والالهي في وقت معاً . الذي ينشىء الأمم المبشّرة . إن بابل ليس لها مثل أعلى . وقرطاجة ليس لها مثل أعلى . أما اثينا وروما فأن لهما : حتى خلال ظلام القرون الكثيف كله . هالات من الحضارة ؛ وانهما لتحتفظان بهذه الهالات .

وفرنسة تنتمي إلى نوع الشعوب نفسه الذي تنتمي اليه بلاد اليونان وايطالية . إنها أثينية مما هو جميل : ورومانية مما هو عظيم . وإلى هذا . فأنها خيرة . إنها تهب ذاتها . وهي أعلق بروح التفاني والتضحية من الشعوب الأخرى . بيد ان هذه الروح تستحوذ عليها وتتخلى عنها . وهنا يكمن الخطر العظيم على اولئك الذين يركضون حين ترغب في ان تمشي . أو الذين يمشون حين ترغب في أن تقف . إن لفرنسة نكساتها نحو النزعة المادية . وفي بعض اللحظات نرى الافكار التي تسد ذلك العقل الرفيع وقد فقدت كل ما يذكّر بالعظمة الفرنسية . وان لها لمساحة كمساحة ميسوري أو كارولينا الجنوبية . ما الذي ينبغي أن يُصنع ؟ ان العملاقة لتمثل دور القزمة . إن لفرنسة اللانهائية أوهامها الاطفالية . هذا كل ما هنالك .

وليس ثمة ما يمكن أن يقال في هذا الصدد . فالشعب . كما

للكوكب ، الحق في الكسوف . وكل شيء حسن . شرط ان يعود الضياء . وان لا يفسد الكسوف وينقلب إلى ليل . إن الضحى والانتفاضة مترادفان . وعودة ظهور الضياء مماثلة لبقاء الأنا .

فلننصّ على هذه الوقائع في هدوء . إن الموت في المتراس . أو الرمس في المنفى . بديلان مقبولان عن التفاني وبذل الذات . ان الاسم الحقيقي للتفاني هو النزاهة . دع المتخلى عنهم ينقادون للتخلي . والمنفيين يخضعون للنفي . ولنقنع بان نتوسل إلى الشعوب الكبرى ان لا تتراجع — حين تتراجع — مسافات بعيدة جداً . يجب عليها ان لا توغل في الانحدار بحجة العودة إلى العقل .

المادة موجودة . واللحظة موجودة . والمصالح موجودة . والبطن موجود . ولكن البطن ينبغي ان لا يكون هو الحكمة الوحيدة . إن للحياة الموقتة حقوقها . ونحن نسلّم بذلك . ولكن للحياة السرمدية حقوقها ايضاً . وا أسفاه ! إن الارتقاء لا يحول دون السقوط . نحن نرى ذلك في التاريخ أكثر مما نود . تتوشح أمة بالمجد ؛ وتتذوق المثل الأعلى : ثم تتمرغ في الحمأة . وتجدها سائغة ؛ وإذا ما سألنا لماذا تستبدل فالستاف * بسقراط اجابتنا : « لأنني أحب رجال السياسة.»

بقي ان نقول كلمة قبل ان نعود إلى المعترك .

إن معركة مثل هذه التي نصفها الآن ليست غير حركة تشنجية نحو المثل الأعلى . والتقدم المصفّد عرضة للمرض . وان له ضروب الصرع الفاجعة هذه . وقد قدّر لنا ان نلتقي في طريقنا بداء التقدم هذا : الحرب الاهلية . انها وجه مشؤوم — وجه هو في آن معاً فصل وفترة بين فصلين — من وجوه هذه المأساة التي محورها منبوذ اجتماعي . والتي عنوانها : التقدم .

---

* Falstaff ضابط وسياسي انكليزي جعل منه شكسبير في بعض مسرحياته نموذجاً للرجل الداعر الخالع العذار (حوالى ١٣٧٨ — ١٤٥٩) .

التقدم !

هذه الصيحة التي كثيراً ما نطلقها هي تفكيرنا كله . وفي المرحلة الحاضرة من مأساتنا نحسب ان من الجائز لنا – ما دام في الفكرة التي تنطوي عليها اكثر من محنة ينبغي ان نُخضع لها – لا ان نرفع الحجاب عن وجهها ، بل ان نجعل النور يشرق ، في وضوح . من خلالها على الاقل .

ان الكتاب الواقع في هذه اللحظة تحت نظر القاريء هو – من ألفه إلى يائه ، في جملته وتفصيله . مهما تكن التقطعات والاستثناءات ونواحي الضعف – الانتقالُ من الشر إلى الخير . من الظلم إلى العدل . من الباطل إلى الحق ، من الليل إلى النهار ، من الشهوة إلى الضمير ، من العفونة إلى الحياة ، من البهيمية إلى الواجب ، من الجحيم إلى الجنة ، من العدم إلى الله . نقطة الانطلاق : المادة . الهدف : النفس . افعى هيدرية في البداية ؛ ملاك في النهاية .

٢١
الأبطال

وفجأة اعلنت الطبول بدء العمليات الحربية .

كان الهجوم أشبه بالزوبعة . ففي المساء ، تحت جنح الظلام ، كانت القوات الحكومية قد اقتربت من المتراس ، في صمت ، وكأنها البوّاء * . أما الآن ، في وضح النهار ، وعلى قارعة الطريق العريضة ، فقد كانت المباغتة مستحيلة بالكلية . وفوق هذا ، فقد كانت القوى الفاعلة حاسرة قناعها ، وكان المدفع قد شرع في التهدار ، وكان الجيش قد هجم على المتراس . كان الهياج الآن هو البراعة . لقد اندفعت في

* هي الحية المعروفة باللغات الاجنبية بال boa

الشارع . بخطى سريعة . فرقة من سلاح المشاة يفصل ما بين جنودها في فترات متساوية رجال من الحرس الوطني والحرس البلدي على أقدامهم . وتدعمها جماعات كثيفة تُسمع ولكنها لا تُرى . وقُرِعت الطبول . وضجت الابواق . وسُددت الحراب . وسار الاطفائيون في المقدمة . وانقضّت هذه القوات . ثابتة الجنان . على المتراس بمثل ثقل عمود برونزي ينقضّ على جدار .

وصمد الجدار .

وأطلق المتمردون النار في حميّة . وكان المتراس وقد تسوره المغيرون أشبه بعُفْرة من بروق . وكان الهجوم خاطفاً إلى درجة جعلت المتراس يغصّ لحظة بالمغيرين . ولكنه زلزلَ الجند كما يزلزل الاسد الكلاب . وغُطي بالمحاصرين ولكن كما يُغَطى الجُرف بالزبد لكي يعود بعد لحظة إلى الظهور شديد الانحدار . أسود . رهيباً .

وإذا كانت فرقة المشاة قد اضطرت إلى التراجع إلا أنها ظلت متراصة في الشارع . بلا ستر أو غطاء . ولكنها فظيعة . وردت على المتراس بوابل مروّع من نيران البنادق . وكل من رأى الالعاب النارية يوماً يذكر تلك الحزمة التي تتألف من تشبيك بعض الصواعق . والتي تدعى الباقة . تخيل الباقة . وقد غدت الآن أفقية لا عمودية . حاملةً كُرة مدفعية . أو رصاصة ضخمة ، أو قذيفة عند نهاية كل نفثة من نفثات نارها . وموزعةً الموت بعناقيد رعودها . كان المتراس تحتها .

وفي كلتا الناحيتين كانت عزيمةٌ متكافئة . كان ثمة بطولة تكاد تكون بربرية . وكانت ممتزجة بضرب من الضراوة البطولية التي بدأت بالتضحية بنفسها . تلك كانت الايام التي قاتل فيها رجال الحرس الوطني مثل الجنود الفرنسيين في الجزائر . كانت القوات الحكومية تريد ان تضع حداً للحركة الثورية . وكانت الحركة الثورية تريد ان تناضل . إن قبول الموت في ريعان الشباب وفي أوج الصحة يجعل من البسالة خبالا . لقد

استشعر كل امرىء في ذلك المعترك التضخيم الذي تحدثه الساعة الحاسمة .

كان الشارع مغطى بالجثث .

كان آنجولراس في طرف من المتراس . وكان ماريوس في الطرف الآخر . وكان آنجولراس ، الذي حمل المتراس كله على رأسه . يدخر نفسه ويجنبها موارد التلف . ولقد سقط ثلاثة جنود ، الواحد تلو الآخر ، تحت مرتفعه . ومن غير ان يلمحوه مجرد لمح . أما ماريوس فقاتل من غير ستر . لقد جعل من نفسه هدفاً . فقد وقف مبرزاً أكثر من نصف قامته فوق قمة المتراس . والواقع انه ليس ثمة مبذر أعنف من بخيل يركب رأسه ، وليس ثمة رجل اكثر ترويعاً عند العمل من حالم من الحالمين . ولقد كان ماريوس فظيعاً ومستغرقاً في التفكير . كان في المعركة وكأنه في حلم . ولو قد رآه المرء اذن لحسبه طيفاً يطلق النار من بندقية .

كانت خراطيش المحاصَرين على وشك ان تنفد ، ولكن سخرياتهم لم تكن كذلك . ففي زوبعة الموت التي احاطت بهم كانوا يضحكون .

كان كورفيراك حاسر الرأس .

وسأله بوسوويه :

— « ماذا فعلت بقبعتك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

— « لقد أطاروها آخر الأمر بقذيفة من قذائف المدفعية . »

او كانوا يقولون اشياء متكبرة .

لقد هتف فويي في مرارة :

— « هل يفهم احد هؤلاء الرجال (وذكر اسماء ، اسماء معروفة ، بل مشهورة ، وبعضها من رجال الجيش القديم) الذين وعدوا بالانضمام الينا ، واخذوا على انفسهم عهداً بأن يساعدونا ، والذين اقسموا على ذلك بشرفهم ، والذين هم قادتنا ، والذين تخلوا عنا ! »

فأجابه كورفيراك في ابتسامة رصينة :

— « ان ثمـة اناساً يراعون قواعد الشرف كما نراعي النجوم ، من مكان بعيد جداً . »

كان الجزء الداخلي مزروعاً بالخراطيش الممزقة إلى درجة يخيل معها إلى المرء ان السماء كانت تُثلج .

كان للمغيرين تفوّق في العدد ، وكان للمتمردين تفوق في الموقـع : كانوا عند أعلى الجدار يمطرون الجنود بنيران منطلقة من انابيب بنادقهم ، فيما كانوا يترنحون فوق القتلى والجرحى وقد سقطوا في الشرك عنـد منحدر السور . كان هذا المتراس — على النحو الذي شُيد عليه ، وقد سُنِّد تسنيداً رائعاً — واحداً من تلك المواقع التي تعطل فيها حفنةٌ من الرجال فرقـة كاملة عن العمل . ومع ذلك ، فقد كان سلاح المشـاة المهاجم يزوَّد دائماً بأمداد جديدة ويتضخم تحت وابل الرصاص ، وكان يتقدم في غير ما رحمة . واخيراً هصر الجيش المتراسَ . شيئاً فشيئاً ، وخطوة خطوة ، ولكن في ثقـة ، كمـا يهصر اللوابُ معصـرة العنـب .

وتبـع الهجومُ الهجومَ . وتعاظم الهول على نحو موصول .

ثم نشب ، فوق ركام حجارة الارصفة هذا ، في شـارع الـ « شانفريري » ذاك ، صراع جدير بأسوار طروادة . لقد غدا هـؤلاء الرجال الشاحبو الوجوه ، الممزقو الثياب ، المنهوكو القوى ، الذين لم يأكلوا منذ اربـع وعشرين ساعة ، والذين لم يذوقوا طعم النوم ، والذين لم يبق لديهم غير بضع رصاصات يطلقونها . والذين تحسسوا جيوبهم الفارغة من الخراطيش ، والذين كانوا كلهم جرحى تقريباً ، وقد عُصبت رؤوسهم أو أذرعهم بقماش صدىء مسودّ ، وتبدّت الثقوب في ستراتهم حيث كان الدم يتدفق ، والذين كانوا مسلحين بشق النفس ببنادق رديئة وسيوف عتيقة مثلمة — لقد غدا هؤلاء الرجال عمالقة . لقـد

هوجم المتراس . وشُنت عليه الغارة . وتُسوِّر عشر مرات ، ولكنه لم يسقط قط .

ولكي تكوّن فكرة عن هذا الصراع : تخيّلِ النار وقد أضرِم بها ركام من البسالة الفظيعة . وتخيل انك تشهد الحريق . إنه لم يكن قتالا ، لقد كان باطنَ تنور . هناك تنفست الافواه لهباً ؛ هناك كانت الوجوه رائعة . هناك بدا الشكل الانساني مستحيلا ؛ هناك تلألأ المقاتلون ، وكان من المتعذر عليك ان ترى سمندرات * المعترك هذه تروح وتجيء في ذلك الدخان الأحمر . اما مشاهد هذه المذبحة العظيمة فنحجم عن تصويرها . إن للملحمة وحدها الحق في ان تملأ اثني عشر الف بيت من الشعر بوصف معركة واحدة .

كان خليقاً بالمرء ان يقول انها كانت جحيم البرهمية . أفظع الهُوَى السبع عشرة ، التي يطلق عليها الـ « فيدا » اسم « غابة السيوف . »

لقد قاتلوا صدراً لصدر . وقدماً لقدم . بالغدارات . بالسيوف ، بجمع الكف . عن بعد ، وعن كثب . من فوق ، ومن تحت ، من كل مكان . من سطوح المنزل ، من نوافذ الحانة . من كوى الاقبية التي كان بعضهم قد انزلق اليها . كانوا واحداً ضد ستين . وكانت واجهة كورنث ، نصف المدمرة ، رهيبة جداً . كانت النافذة التي وشّمتها القذائف قد فقدت الواحها الزجاجية وأطُرها ، فهي الآن لا تعدو ان تكون ثقباً شائهاً سدته حجارة الارصفة على نحو مشوش . كان بوسوويه قد قُتل ؛ وكان فويي قد قتل ؛ وكان كورفيراك قد قتل ؛ وكان جولي قد قتل ؛ ولم يكن امام كومبوفير ، الذي اخترقت صدره طعنات حراب ثلاثٌ لحظةَ كان يرفع جندياً جريحاً — لم يكن امام كومبوفير غير متسع من الوقت نظر فيه إلى السماء ، ولفظ أنفاسه .

---

* جمع سمندر Salamandre وهو ضرب من الضفدعيات المذنّبة ، يقال ان له القدرة على اجتياز النيران من غير ان يحترق ...

وكان ماريوس ، المقيم على القتال ، مثخناً بالجراح ، وبخاصة حول رأسه ، إلى درجة جعلت محياه يضيع في الدم ، وإلى درجة كانت تخيل إلى المرء ان وجهه قد غُطي بمنديل أحمر .

كان آنجولراس وحده سليماً لم يمس . وحين اعوزه السلاح بسط يده يميناً وشمالا ، وقد وضع احد المتمردين ايما سلاح وُفق اليه في قبضته . لم يكن قد بقي لديه ، من أصل اربعة سيوف ، (اكثر من فرانسوا الاول في ماريغنيان بواحد) غير فلذة من سيف .

يقول هوميروس : « ان ديوميد يذبح آكسيلوس ، ابن توثرانيس ، الذي يقطن في آريسبا السعيدة . ويهلك اوريالوس ، ابن ميسيسته ، دريسوس وأوفيلتيوس ، وايسيبوس ، وبيداسوس ذاك الذي حبلت به عروس الماء آباربارية من بوكوليون الذي لا يُتهم . ويوليسيس يخلع بيديت دو بيركوس ؛ وآنتيلوخوس يخلع آبليروس ؛ وبوليبيتيس يخلع آستيالوس ؛ وبوليداماس يخلع اوتوس دو سيلين ؛ وتوسر يخلع آريتاوُن . ويقضي ميغانتيوس تحت طعنات حربة يوريبيلوس . ويهزم آغاممنون ، ملكُ الابطال ، ايلاتوس المولود في المدينة الوعرة المنحدر التي يغسلها نهر ساتنيو المرنان . » ففي قصائدنا الفخرية القديمة يهاجم اسبلانديان بنار ذات حدين المركيزَ العملاق سوانتيبور فيما كان يدافع عن نفسه برجم الفارس بحجارة ضخام كان يقتلعها من الابراج . ولوحاتنا الجدرانية القديمة ترينا دوقَيْ بروتانيْ وبوربون مسلحين ، دارعين ، موسومين بسمة الحرب ، ممتطيين فرسيهما ، متواجهين ، وفي يد كل منهما فأس حربية ، متقنّعين بالحديد ، منتعلين بالحديد ، متقفّزين بالحديد ، احدهما مجلل بفرو السمور الابيض والآخر متشح باللازورد ، بروتانيْ وقد تراءى أسده بين قرني تاجه ، وبوربون وقد تبدت زنبقة هائلة على حافة خوذته ؛ ولكن ليس من الضروري لكي يكون المرء بهياً ان يعتمر مثل إيفون *

* Adolphe Yvon رسام عسكري فرنسي تمور لوحاته بالحركة . (١٨١٧ – ١٨٩٣

بالخوذة الدوقية . أو ان يقبض مثل ايسبلانديان على شعلة حية . أو أن يجلب من ايفير . مثل فيليس . ابي بوليداماس * ، درعاً رائعة هدية من ملك الرجال اوفيتيس . حسبه ان يبذل حياته في سبيل معتقد ما أو ولاء ما . وذلك الجندي الساذج الصغير . الذي كان بالامس فلاحاً من يوسيا أو ليموزين ، والذي يطوّف بالليل . ومدية الكرنب إلى جانبه ، حول مربيات الاطفال في اللوكسومبورغ ، وذلك الطالب الفتى الشاحب الوجه المنحني فوق قطعة تشريحية أو كتاب ، المراهق الاشقر الذي يشذب لحيته بالمقص ، خذهما معاً ، وانفخ عليهما نفخة الواجب ، وضعهما على نحو متقابل في ساحة « بوشيرا » أو زقاق « بلانش ميبراي » غير النافذ ، ودع احدهما يقاتل من أجل رايته ، والآخر من اجل مثله الأعلى ، ودعهما كليهما يتخيلان انهما يحاربان في سبيل الوطن ؛ ان الصراع سوف يكون جباراً ، والظل الذي سوف يلقى على ذلك الميدان الملحمي الكبير حيث تناضل الانسانية ، وقد تقاتلت السترة الزرقاء والمئزر الطبي ، سوف يساوي الظل الذي يلقيه ميغاريون ، ملك ليسيا المليئة بالنمور ، المتصارع جسداً لجسد مع آجاكس ** الهائل ، المساوي للآلهة .

٢٢
قدماً لقدم

وحين لم يبق احد من الزعماء حياً ، باستثناء آنجولراس وماريوس ،

ومن اشهر آثاره « المارشال ناي في تراجعه من روسيا » .

* Polydamas رياضي تسالي ذو قوة اعجوبية . وقد توفي وهو يحاول ان يسند صخرة ضخمة تدحرجت من مغارة فسحقته سحقاً .

** Ajax احد الابطال اليونانيين في حرب طروادة .

اللذين كانا في طرفي المتراس . تداعى الوسط الذي كان كورفيراك ، وجولي ، وبوسوويه ، وفويي ، وكومبوفير قد دافعوا عنـه طويلا . وكانت المدفعية قد جوفت ، من غير ان تحدث ثغرة سالكة ، قلب المتراس تجويفاً كبيراً . هناك ، كانت قمة السور قد اختفت تحت القذائف ، وانهارت . وكانت الانقاض المنهارة ، في الداخل حيناً وفي الخارج حيناً ، قد أحدثت آخر الأمر ، بعد ان تراكمت على جانبي السور ، شبه منحدرين . احدهما في الداخل والآخر في الخارج . وكان المنحدر الخارجي بمثابة سطح منحنٍ يجعـل الهجـوم علـى المتراس يسـيراً .

وقام المغيرون بهجوم أخير ، وتكلل ذلك الهجوم بالنجاح . لقـد اندفعوا شائكين بالحراب ، في خطوات خاطفة ، اندفاعاً لا يقاوَم ، وبدت جبهة المهاجِمين الكثيفةُ وسط الدخان عند أعلى منحدر السور . لقد قضي الأمر ، هذه المرة . لقد تراجع جمْع المتمردين المدافع عن الوسط تراجعاً فوضوياً .

ثم استيقظ حب الحياة الكالح في بعضهم . إن كثيراً منهم انتهـوا الآن ، وقد سُددت اليهم غابة البنادق تلك ، إلى ان ينفروا من الموت . تلك لحظة تعوي فيها غريزة حفظ الذات . ويعاود الحيوان الظهورَ في الانسان . لقد حُجزوا عند المنزل العالي ذي الأدوار الستة الذي شكّل مؤخرة المتراس . ولعله كان في ذلك المنزل خلاصهم . فقد كان هـذا المتراس ممترساً ، شبه مسوّر من أعلى إلى أدنـى . وقبل ان يصبـح في ميسور الجند المهاجمين ان يبلغوا الجزء الداخلي من المتراس كان ثمـة متسع من الوقت لانفتاح باب وانغلاقه . وكانت ومضةٌ كافيةً لذلك ؛ ولقد كان باب ذلك المنزل المنفتح نصف فتحة والمنغلق في الحال كرة اخرى ، بمثابة الحياة بالنسبة إلى هؤلاء الرجال اليائسين . في مؤخـرة ذلك المنزل كانت الشوارع ، والفرار الميسور ، والفضاء . وشرعـوا

يقرعون هذا الباب باعقاب بنادقهم ، وبرفسات أرجلهم ، منـــادين . صائحين ، متوسلين ، مشبكين أيديهم . ولم يفتح احد . ومن نافذة الدور الثالث اطل عليهم رأس الموت .

ولكن آنجولراس وماريوس ، وسبعة أو ثمانية متحلقين حولهما ، وثبوا إلى الامام وحموهم . وصاح آنجولراس في وجـــه الجنـــود : « لا تتقدموا ! » حتى إذا امتنع أحد الضباط عن الاذعان . قتـلــه آنجولراس . كان الآن في فناء المتراس الداخلي الصغير . مولياً ظهره بيتَ كورنث . شاهراً سيفه بأحدى يديه ، مسدداً بندقيته القصيرة الخفيفة بالاخرى ، مبقياً باب الحانة مفتوحاً ، ساداً إياه في الوقت نفسه في وجه المغيرين . وصاح مخاطباً اليائسين : « ليس ثمـة غير باب واحد مفتوح . وهو هذا . » وغطاهم بجسده ، مواجهاً بمفرده كتيبة بكاملها . ومكنهم من المرور خلفه . واندفعوا كلهم إلى هناك . واختزل آنجولراس — فيما هو ينفّذ ببندقيته القصيرة الخفيفة ، التي استعملها الآن وكأنها عصاً ، ما يدعوه لاعبو النبابيت « الوردة المغطاة » — اختزل الحرابَ من حوله وأمامــه وكان آخر الداخلين . وكانت لحظةٌ رهيبة . فالجنود يحاولون ان يدخلوا . والمتمردون يريدون أن يوصدوا الباب . لقد أغلِقَ الباب في كثير من العنف حتى إنــه حين ارتــد إلى إطــاره ابـــدى عـــن أصابعَ خمسٍ مقطوعــة ملتصقة بالاطار — اصابـع جندي كان قــد تشبث به .

وظل ماريوس في الخارج . كانت قذيفةٌ قد كسرت ترقوَته ، ولقد استشعر انه على وشك الاغماء ، وانه يشرف على السقوط . وفي تلك اللحظة ، وكانت عيناه قد أغمضتا — أحسّ وكأن يداً قوية تمسك به . ولم يُبق له اغماؤه الذي افقده وعيه غير متسع من الوقت لهذه الفكرة ، ممزوجةً بآخر ذكرى لكوزيت : « لقد وقعتُ في الاسر . ســـوف يقتلونني رمياً بالرصاص . »

وراودت الفكرة نفسها آنجولراس حين لم ير ماريوس بين اولئك الذين لجأوا إلى الحانة . ولكنهم كانوا قد انتهوا إلى تلك اللحظة التي لا يجد فيها كل منهم متسعاً لغير التفكير في ميتته هو . وثبّت آنجولراس رتاج الباب ودعّمه بالحديد . وأغلقه بأن أقفل الغلق والقفل على نحو مزدوج ، فيما كانوا يخفقونه في الخارج خفقاً رهيباً — الجنود باعقاب بنادقهم ، والطلائع بفؤوسهم . لقد احتشد المغيرون عند هذا الباب . كان حصار الحانة قد بدأ الآن .

كان الجنود ، ولنقل ذلك ، مفعمين بالغضب .

كانت وفاة رقيب المدفعية قد اثارت غيظهم . وفوق هذا — وذلك شيء اشد شؤماً — فقد كان قد سرى في أوساطهم ، خلال الساعات القليلة التي سبقت الهجوم ، ان المتمردين يمثّلون بالاسرى ، وانه كانت في الحانة جثة جندي احتُز رأسه . وهذا الضرب من الاشاعات هو المرافق العادي للحروب الاهلية ، وان مثل هذه الاخبار الكاذبة هي التي سببت في ما بعد كارثة شارع ترانسنونين * .

وحين مُتِّرس الباب ، قال آنجولراس لرفاقه :

— « فلنبع انفسنا بثمن غال . »

ثم تقدم نحو المائدة التي سجي عليها مابوف وغافروش . كان في ميسور المرء ان يرى ، تحت الغطاء الاسود ، شكلين مستقيمين متصلبين ، احدهما كبير والآخر صغير ، وقد ارتسم الوجهان على نحو غامض تحت ثنايا الكفن الكالحة . لقد نتأت يد من تحت الكفن . وتدلت نحو ارض

---

* مذابح شارع ترانسنونين Transnonain ، وقد وقعت في ١٤ نيسان ١٨٣٤ اثناء الثورة التي انفجرت في باريس في حي سان ميري . وتفصيل ذلك ان الجنود اقبلوا لتقويض متراس شارع ترانسنونين فاطلقت عليهم النار من المنزل رقم ١٢ في ذلك الشارع فجرحت ضابطاً . فما كان من الجند الغاضبين الا ان اجتاحوا ذلك البيت وذبحوا كل من فيه .

الغرفة . كانت يدَ الرجل العجوز .

وانحنى آنجولراس وقبّل تلك اليد الجليلة . كما قد قبّل البارحة جبين الرجل .

كانت همـا القبلتين الوحيدتين اللتين طبعهما في حياته كلها .

فلنختصر . كان المتراس قد ناضل مثل باب من ابواب ثيبة . * وناضلت الحانة مثل بيت من بيوت سرقسطة ** . ان هذه المقاومات لضارية . لا صفح . لا تفاوض ممكناً . إنهم راغبون في الموت شرط ان يقتلوا . وحين يقول سوشيه *** : « استسلموا ! » يجيبه بالافوكس**** « بعد حرب المدفع حرب السكين ! » لم يكن ثمة ما يعوز اقتحـــام حانة هوشلو . لا حجارة الارصفة المنهمرة من النافذة والسطح علــى رؤوس المغيرين مثيرة حنق الجنود بما احدثت من سحق رهيب . ولا طلقات الرصاص من الاقبية ومن كوى العلية . ولا احتدام الهجوم ، ولا سَورة الدفاع . ولا جنون الافناء المسعور ، آخر الامر . عندمـــا اقتُحم الباب . وحين اندفع المغيرون إلى الحانة . وقد تعثرت اقدامهم بالواح الباب الخشبية المحطمة المتناثرة على الارض . لم يجدوا ايما مقاتل هناك . كانت السلم اللولبية التي بُترت بضربة فأس منطرحة وسط الغرفة السفلى . وكان بعض الجرحى قد لفظوا أنفاسهم منذ لحظة . وكان جميع الذين لم يقتلوا معتصمين في الدور الاول . وهناك . من خلال الثقب

---

* Thèbes من مدن مصر القديمة ومن اشهر مدن العالم القديم ، وكانوا يطلقون عليها لقب « المدينة ذات الابواب المئة

** مدينة أسبانية معروفة ، وقد قاومت الفرنسيين في ضراوة فائقة وصمدت لحصارهم من حزيران ١٨٠٨ إلى ١٩ شباط ١٨٠٩

*** Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ — ١٨٢٦) وقد لمع نجمه في حروب اسبانية .

**** Palafox دوق سرقسطة ، وقد ابلى بلاء حسناً في الدفاع عن هذه المدينة ضد الفرنسيين عام ١٨٠٩ (١٧٨٠ — ١٨٤٧)

الذي في السقف والذي كان هو المدخل إلى السلم . انفجرت طلقات نار رهيبة . كانت البقيةَ الباقية من الخراطيش . حتى إذا نفدت ، وحتى إذا لم يبق لدى هؤلاء الرجال المحتضرين الراعبين لا بارود ولا رصاص . تناول كل منهم اثنتين من تلك الزجاجات التي احتفظ بها آنجولراس . والتي تحدثنا عنها من قبل . ودافعوا عن المطلع بهذه النبابيت السريعة الانكسار على نحو رهيب . كانت زجاجات ملأى بماء الفضة . ونحن إنما نروي وقائع هذه المجزرة كما هي . فقد اتخذ المحاصرون — وا أسفاه — سلاحاً من كل شيء . والنار الاغريقية لم تَشِن ارخميدس ، والقطران الفائر لم يشن بايار * . إن الحرب رعبٌ كلها . وليس ثمة ما يُختار فيها . إن نار المحاصرين . على الرغم من صعوبتها ومن صعودها من ادنى إلى أعلى . كانت مهلكة . وما هي إلا لحظات حتى أحيطت حافة الثقب الذي في السطح برؤوس القتلى وقد سالت منها خطوط طويلة حمراء داخنة . كانت القرقعة ممتنعة على الوصف . وأحدث الدخان المحبوس المتقد شبه ليل فوق هذا الصراع . وإنما تعجز الكلمات عن الهول حين ينتهي إلى هذه الدرجة . لم يعد ثمة رجال في هذا الكفاح الذي غدا الآن جحيماً . لم يبق ثمة عمالقة ضد مردة . كان أشبه بميلتون ودانتي منه بهوميروس . لقد هاجمت ابالسةٌ . ودافعت اشباح .

كانت بطولةَ الهولات .

* Bayard قائد فرنسي شهير سطع نجمه اثناء حروب شارل الثامن ، ولويس الثاني عشر ، وفرنسوا الأول (١٤٧٣ - ١٥٢٤)

٢٣
أوريست * صائماً وبيلاد * سكران

واخيراً شُنت الحملة على حجرة الدور الأول ، شنها نحو من عشرين محاصراً — جنوداً ، وحرساً وطنياً ، وحرساً بلدياً — وثب بعضهم فوق اكتاف بعض ، مستعينين بهيكل السلم ، متسورين الجدران ، متعلقين بالسقف ، مقطّعين آخر المقاومين إرباً إرباً ، متفرقين في هرج ومرج ، مشوّهاً اكثرهم بجرح في الوجه في هذا الصعود الرهيب ، مروّعين أعماهم الدم وانقلبوا إلى وحوش ضارية . لم يكن ثمة ، الآن ، غير رجل واحد قائم على قدميه : آنجولراس . وإذ أعوزه الخرطوش ، واعوزه سيف يقاتل به ، فلم يبق في يده غير أنبوب بندقيته القصيرة الخفيفة التي كان قد كسر القسم المعوج من خشبتها فوق رؤوس الداخلين . كان قد وضع مائدة البليارد بينه وبين المغيرين . وكان قد ارتد إلى زاوية الغرفة ؛ وهناك ، بعين فخور ، ورأس شامخ ، وفي قبضته تلك الشظية من السلاح ، كان لا يزال رهيباً إلى درجة تركت من حوله فسحة واسعة . وارتفعت صيحة :

— « هوذا الزعيم ! إنه هو الذي قتل المدفعي . وما دام قد وضع نفسه هناك فلا ريب في انه مكان جيد . فليبق هناك . ولنطلق عليه الرصاص حيث هو . »

وقال آنجولراس :

— « اطلقوا النار علي ! »

---

* Oreste ابن آغاممنون وكليتمنستر . وقد قتل أمه بالاتفاق مع اخيه ايلكتر اخذاً بثأر ابيه ، ثم امسى ملكاً على آرغوس ولاسيديمون . وكانت تربطه بـ « بيلاد » Pilade صداقة لا تزال الى اليوم مضرب المثل .

وطرح البقية الباقية من بندقيته الخفيفة القصيرة ، وطوى ذراعيه ، وفتح لهم صدره .

إن الجسارة التي تحمل صاحبها على ان يموت عزيزاً تحرك لواعج الرجال دائماً . فما ان طوى آنجولراس ذراعيه ، مرتضياً النهاية ، حتى خفت هدير الصراع في الغرفة ، وهدأت الفوضى فجأة في ضرب من الخشوع القبريّ . لقد بدا وكأن عظمة آنجولراس المتوعدة ، آنجولراس الأعزل الذي لا حراك فيه ، قد رزحت فوق ذلك الصخب. وبدا وكأن هذا الشاب الذي كان وحده خلواً من الجراح . بهياً ، مدمّى ، فاتناً ، لا مبالياً وكأنه ممتنع على الجراح — بدا وكأنه استطاع بسلطان عينه الهادئة وحده أن يُكره هذا الجمع المشؤوم على ان يقتله في احترام . إن جماله في تلك اللحظة ، وقد زادته كبرياؤه روعة ، كان بهاء متألقاً . كان نضراً أزهر . وكأنما امتنع على التعب كما امتنع على الجَرح ، بعد الساعات الاربع والعشرين المروِّعة التي أوشكت ان تنقضي . ولعل ذلك الشاهد الذي تحدّث بعد ذلك أمام المجلس الحربي كان يقصده حين قال : «كان هناك ثائر سمعتهم ينادونه أبولو . » وخفض احد رجال الحرس الوطني المسدد بندقيته إلى آنجولراس — خفض سلاحه قائلا : « يبدو لي اني اطلق النار على زهرة . »

وشكّل اثنا عشر رجلا مفرزة في الزاوية المقابلة لآنجولراس ، وأعدوا بنادقهم في صمت .

وصاح رقيب :

— « سددوا بنادقكم ! »

وتدخّل ضابط :

— « إنتظر ! »

ووجّه الخطاب إلى آنجولراس فقال :

— « هل تريد ان تُعصب عيناك ؟ »
— « لا . »
— « هل صحيح أنك انت الذي صرعت رقيب المدفعية ؟ »
— « نعم . »
وكان غرانتير قد استفاق منذ بضع دقائق .

ويذكر القاريء ان غرانتير كان قد استسلم للرقاد منذ الليلة الماضية في الحجرة العليا من الحانة ، وانه كان جالساً على كرسي ، مكباً على وجهه فوق احدى الموائد .

لقد تمثلت فيه بكامل قوتها الصورةُ المجازية العتيقة : « سكران ميت » . كان الشراب الرهيب ، المؤلف من كحول وأفسنتين وستوت ، قد قذف به في سبات عميق . واذ كانت طاولته صغيرة لا حاجة للمتراس بها ، فقد تركوها له . وكان قد اقام على وضعه نفسه ، مطويّ الصدر على الطاولة ، ملقى الرأس على ذراعيه ، محاطاً بالكؤوس والأباريق والزجاجات . لقد نام ذلك النوم الماحق الذي نعرفه من الدب الذي أقرسه البرد ومن العلقة المتخمة . إن شيئاً ما لم يكن قادراً على التأثير فيه ، لا رصاص البنادق ، ولا كرات المدافع ، ولا القذائف التي مرقت من خلال النافذة إلى الغرفة التي كان فيها . بل لقد عجزت ضوضاء الهجوم العجيبة عن ان تؤثر فيه . بيد انه كان يستجيب في بعض الاحيان لدوي المدافع بشخرة . لقد بدا وكأنه ينتظر هناك أن تُقبل قذيفة فتكفيه مؤونة الاستيقاظ . كانت عدة جثث منطرحة حوله . ولاول وهلة لم يكن ثمة ما يميزه عن نائمي الموت المستغرقين هؤلاء .

إن الضجة لا توقظ السكران ، الصمت يوقظه . وهذه الفريدة قد لوحظت غير مرة . كان سقوط الاشياء كلها ، من حول غرانتير ، يضاعف تلاشيه . كان الدمار يهدهده . وكان ذلك الضرب من التوقف الذي المّ بالصخب أمام آنجولراس صدمةً لنومه العميق . لكأنه عربة

منطلقة حُملت على الوقوف فجأة . إن النائمين ليفيقون من جراء ذلك . ونهض غرانتير مجفلا ، وبسط ذراعيه ، وفرك عينيه ، ونظر ، وتثاءب، وفهـم .

ان الثمّل الذي ينتهي اشبه بستار يمزق . اننا نرى ، على نحو إجمالي وبنظرة واحدة ، كل ما كان محجوباً . ويتمثل كل شيء ، فجأة ، في الذاكرة . وما ان يفتح السكير عينيه - السكير الذي لم يعرف شيئاً مما جرى طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يلمّ بكل ما حدث . إن افكاره لتعاوده في جلاء مفاجىء . وان فناء الثّمَل - وهو ضرب من البخار الذي يعمي الدماغ - ليتبدد ، وتحل محله انطباعات الواقع الواضحة الدقيقـة .

واذ كان منعزلا في احدى الزوايا ، وشبه ملتجىء خلف مائدة البليارد، فان الجنود المصوبين اعينهم إلى آنجولراس لم يكونوا قد لمحوه مجرد لمح، وكان الرقيب يستعد لتكرير الامر : « سددوا بنادقكم ! » عندمـا سمعوا فجأة صوتاً قوياً يصيح إلى جانبهم :

- « فلتحي الجمهورية ! أنا انتسب اليها . »

كان غرانتير قد نهض .

لقد بدا وهج المعركة كلها ، وهج المعركة التي فاتته والتي لم يشهدها، في النظرات الومضة المنطلقة من عيني السكران المنقلب من حال إلى حال.

وكرر : « فلتحي الجمهورية ! » واجتاز الغرفة في خطى ثابتة ، ووقف امام البنادق إلى جانب آنجولراس .

وقال :

- « اقتلوا اثنين بطلقة واحدة . »

والتفت إلى آنجولراس ، في رفق ، وقال له :

- « هل تسمح بذلك ؟ »

وضغط آنجولراس على يده في ابتسامة .

ولم تكد الابتسامة تنتهـي حتى سمع دوي الانفجار .

وظل آنجولراس ، بعد ان مزقته ثماني رصاصات ، مستنداً إلى الجدار وكـأن تلك الرصاصات قد سمّرته هناك . كل ما في الأمر انه حنى رأسه.

وصُعق غرانتير ، وخر على قدميه .

وبعد بضع لحظات عمد الجنود إلى اخراج آخر المتمردين الذين كانوا قد اعتصموا في أعلى المنزل . لقد اطلقوا النار من خلال شُباكة خشبية إلى العليّة . وتقاتلوا تحت سقف البناية الأعلى . وألقوا بالجثث من النوافذ ، وبعض اصحابها على قيد الحياة . وقُتل جنديان خفيفا السلاح – فيما كانا يحاولان رفع العربة العمومية المحطمة – برصاصتي بندقيـة قصيرة أطلقتا من الكوى . وطُرح على أم رأسه رجل يرتدي درّاعة ، بطعنة حربة في بطنه ، وانشأ يحشرج على الارض . وانزلق جندي ومتمرد معاً فوق منحدر السطح المقرمد ، وأبى كل منهما ان يفلت الآخـر ، وسقطا ، وقد تعانقا عناقـاً وحشياً . ودار صراع مماثل في القبـو . صيحات ؛ طلقات نارية ؛ وطء اقدام ضارٍ . ثم ساد الصمت . لقد استولوا على المتراس .

وشرع الجنود في تفتيش البيوت المجاورة ، وفي تعقب الهاربين .

٢٤
في الأسر

كان ماريوس اسيراً في الواقع . أسيرَ جان فالجان .

كانت اليد التي امسكت به من خلاف لحظةَ سقط ، والتي استشعر قبضتها وهو يفقد الوعي ، هي يد جان فالجان .

ولم يقم جان فالجان بايما دور في المعركة غير تعريض نفسه للخطر .

ولولاه ، في تلك المعركة الحاسمة من لحظات الحشرجة ، لما فكر احد بالجرحى . وبفضله ، وكان ماثلا في كل مكان من المجزرة كالعناية الالهية ، تُلُقِّفَ الذين سقطوا ، وحُملوا إلى الحجرة السفلى ، وضُمدت جراحاتهم . وفيما بين الفترة والفترة كان يرمم المتراسَ . ولكن اياً مما يشبه ضربة ، أو هجمة ، بل وحتى دفاعاً شخصياً ، لم ينطلق من يديه . كان معتصماً بالصمت ، وكان يسدي يد العون . وفوق هذا ، فلم يُصَب بغير خدوش طفيفة . كانت الرصاصات ترغب عنه . وإذا كان الانتحار جزءاً مما خطر له حين وفد إلى ذلك القبر فقد اخفق من هذه الناحية . ولكنا نشك في انه فكر بالانتحار ، وهو عمل مغاير للدين .

ولم يبد جان فالجان ، في سحابة الصراع الكثيفة ، وكأنه رأى ماريوس ؛ ولكن الواقع انه لم يرفع عينيه عنه . حتى إذا طوّح بماريوس طلق ناري ، وثب جان فالجان برشاقة نمر ، وانقض عليه كما ينقض وحش على فريسة ، وحمله إلى بعيد .

كانت زوبعة الهجوم قد تركزت في تلك اللحظة تركزاً ضارياً حول آنجولراس وباب الحانة حتى لقد غفل القوم جميعاً عن رؤية جان فالجان يجتاز حقل المتراس غيرَ المعبد ، حاملا ماريوس الفاقد رشده بين ذراعيه، ويختفي خلف زاوية بيت كورنث .

ويذكر القراء أن هذه الزاوية كانت ضرباً من الرأس الجغرافي في الشارع . لقد حمت من الرصاص والقذائف المدفعية ، ومن النظر ايضاً، بضعة اقدام مربعة من الارض . وهكذا فان في الحرائق ، بعض الأحيان، فسحة تمتنع على النيران ، وان في اشد البحار ضراوة ، خلف احد الرؤوس أو عند نهاية درب من دروب الصخور غير النافذة ، زاوية صغيرة هادئة . وفي هذا الضرب من مطاوي المربّع المنحرف الداخلي من المتراس توفيت ايبونين .

هناك وقف جان فالجان . لقد ترك ماريوس ينزلق إلى الأرض ، واستند ظهره إلى الجدار ، وأجال بصره في ما حوله .

كان الوضع رهيباً .

وطوال لحظة ، أو ربما طوال دقيقتين أو ثلاث ، كانت شقة الحائط تلك ملجأ وملاذاً . ولكن كيف السبيل إلى النجاة من هذه المجزرة ؟ لقد ذكر الألم النفسي المرير الذي ألمّ به في شارع بولونسو ، قبل ثماني سنوات ، وكيف وُفق إلى الفرار . كان ذلك عسيراً آنذاك ، اما اليوم فقد كان متعذراً . فأمامه كان ذلك المنزل الحقود الاصم ذو الطوابق الستة ، والذي بدا غير آهل إلا بذلك الرجل الميت المنحني على نافذته . وإلى يمينه ، كان المتراس المنخفض الذي سد شارع الـ « بيتيت تروواندري » . لقد بدا اجتياز هذه العقبة يسيراً ، ولكن كان في ميسور المرء أن يرى فوق قمة الجدار صفاً من رؤوس الحراب . كانت سريّة من الجند متمركزةً خلف ذلك المتراس ، مترصدة . وكان واضحاً ان اجتياز المتراس معناه التعرض لنيران مفرزة من الجند ، وأن كل رأس قد يغامر في الارتفاع فوق أعلى الجدار المشيد من حجارة الارصفة سوف يكون هدفاً لستين بندقية . وإلى يساره ، كان ميدان المعركة . كان الموت خلف زاوية الجدار .

ما الذي ينبغي ان يفعله ؟

كان في ميسور العصفور وحده ان يفلت من هناك .

وكان عليه ان يقرر في الحال ، وان يجد وسيلة ما ، وان يتخذ موقفاً . كانوا يتقاتلون على بضع خطوات منه . ولحسن الطالع ، كان الجميع ملتحمين التحاماً ضارياً عند نقطة واحدة : باب الحانة . ولكن لو خطر لجندي ما ، جندي واحد ، ان يستدير حول المنزل ، أو ان يهاجمه على نحو جانبيّ ، اذن لانتهى كل شيء .

ونظر جان فالجان إلى المنزل المواجه له ، ونظر إلى المتراس القائم

إلى جانبه ، ثم نظر إلى الارض ، في عنف الشدّة الحاسمة ، وفي يأس، وكأنما كان يريد أن يُحدث فيها ، بعينيه ، ثقباً .

وتحت هذه النظرة الموصولة تمثل شيء ملحوظ على نحو غامض في ألم الاحتضار ذاك ، وتشكّل عند قدميه وكأن ثمة قوة في العين قادرة على انشاء الشيء المطلوب . وعلى بضع خطوات منه ، عند ادنى الجدار الصغير المراقب والمحروس من الخارج على نحو لا يعرف الشفقة ، وتحت بعض حجارة الارصفة المنهارة التي كانت تحجبه جزئياً ، لمح شبكة حديدية منطرحةً على الارض . وكانت مساحة هذه الشبكة ، المصنوعة من قضبان حديدية قوية مستعرضة ، تبلغ نحواً من قدمين مربعين . كان الاطار الحجري المحيط بها منزوعاً من مكانه ، وكأنما قد اقتُلع . ومن خلال القضبان كان في ميسور المرء ان يلمح فتحة غامضة ، شيئاً مثل انبوب مدخنة ، أو اسطوانة صهريج . ووثب جان فالجان إلى أمام . وصعد عِلم الهروب القديمُ إلى دماغه مثل ومض البرق . ونزع الحجارة ، ورفع الشبكة الحديدية ، وحمل ماريوس — الذي كان هامداً مثل جثة باردة — على منكبيه ، وهبط — وذلك الحمل على ظهره — مستعيناً بمرفقه وركبتيه إلى ذلك الضرب من البئر ، غير العميقة لحسن الحظ ، وترك ذلك الباب الآسر القوي الذي رُدت الحجارة فوقه إلى مكانها كرة اخرى — تركه يسقط على رأسه ، ووجد موطىء قدم فوق سطح مبلط يقع على عمق عشرة اقدام تحت الارض . وانما تم ذلك كله ، كما تتم الأشياء في الهذيان ، بقوة عملاق وسرعة نسر . لقد اقتضى بضع لحظات ليس غير .

ووجد جان فالجان نفسه ، وماريوس ما يزال غائباً عن الوعي ، في شبه مجاز نفقيّ طويل .

وهناك كان أمن عميق . وصمت مطلق ، وليل .

وعاوده مثل الشعور الذي ألمّ به من قبل يوم هبط من الشارع إلى

الدير . إلا ان مــا كان يحمل الآن لم يكن كوزيت ، ولكن ماريوس .

وأمسى الآن يسمع فوقه ، مثل همس غامض ـ وما يكاد ـ صخبَ الحانة الرهيب وقد اقتحمها الجند .

الكتاب الثاني

مِصْران لوياثان *

١

الارض وقد أفقرها البحر

كل سنة تقذف باريس بخمسة وعشرين مليوناً إلى البحر . وهذا من غير لجوء إلى المجاز . كيف ، وبأية طريقة ؟ ليلا ونهاراً . لأي غرض ؟ لغير ما غرض . بأية فكرة ؟ من غير تفكير البتة . مقابـل ماذا ؟ لا شيء . من طريق اي عضو ؟ من طريق مَعْيها . وما معيها ؟ بالوعتها .

* لوياثان Léviathan هولة ورد ذكره في التوراة ، في سفر ايوب ، ومن ثم اصبح علماً على كل شيء هائل راهب .

خمسة ملايين هو اكثر الارقام التقريبية اعتدالا ، وفقاً لتقديرات العلم الخاص .

فالعلم يعرف اليوم ، بعد طول التجربة ، أن أكثر الاسمدة إخصاباً وفعالية سمادُ الانسان . لقد عرف الصينيون ذلك – وينبغي أن نقولها، ويا لعارنا – قبلنا نحن . ويخبرنا ايكبيرغ أن الفلاح الصيني لا يذهب البتة إلى المدينة من غير ان ينقلب ناقلا ، عند طرفي عمود البوص الهندي الذي يحمله ، دلوين مليئين بما ندعوه الغائط . وبفضل التسميد البشري لا تزال الأرض في الصين فتية كما كانت في أيام ابراهيم . والقمح الصيني يغل مئة وعشرين ضعفاً . وليس ثمة ذرق يوازي في الخصب نفاية العاصمة . ان المدينة الكبيرة هي أقوى الحشرات التي تعيش وسط الغائط . واصطناع المدينة لاخصاب السهل خليق به أن يقترن بالنجاح الأكيد . واذا كان ذهبُنا روثاً ، فأن روثنا هو ، بالمقابلة ، ذهب .

ما الذي يُصنع بهذا الروث الذهب ؟ إنه يُجرف إلى الهاوية .

إننا نوجه ، متحملين أعظم النفقات ، قوافل من السفن لكي نجمع من القطب الجنوبي ذرق النورس والبطريق ، * على حين نقذف إلى البحر بعنصر الثروة الجسيم الذي في متناولنا . ولو أن جميع الزبل البشري والحيواني الذي يخسره العالم قد أعيد إلى الأرض بدلا من ان يلقى به في الماء اذن لكان كافياً لتغذية العالم .

هذه الاكوام من الاقذار عند زوايا المعالم ، وهذه العجلات المحملة بالوحل الراجّة خلال الشوارع في موهن من الليل ، وهذه العربات الرهيبة المخصصة لاقذار البلدة ، وهذه السيول الطينية النتنة الجارية تحت الأرض والتي تحجبها حصباء الطريق عنك ، أتدري ما هي كلها ؟ إنها المرج المنوّر ؛ إنها العشب المخضوضر ؛ إنها النمام والصعتر والمريمية ؛ إنها الطرائد ؛ إنها الماشية ؛ إنها الخوار الرضيّ تطلقه الثيران الضخام عند

* النورس Pétrel والبطريق Pingouin طائران .

المساء ؛ إنها الصائرة العطرة ؛ إنها القمح المذهّب ؛ انها الخبز على مائدتك ؛ انها الدم الحار في عروقك ؛ انها الصحة ؛ إنها البهجة ؛ إنها الحياة . كذلك شاءت تلك الخليقة الخفية التي هي تحوّل على سطح الارض ، وتجلّ في السماء .

ضع هذا في البوتقة الكبيرة . إن خصبك سوف ينبثق من هناك فغذاء السهول يؤلف قوت الناس .

إن لك القدرة على ان تطّرح هذه الثروة . وان تجدني فضلا عن ذلك سخيفاً . وعندئذ تكون قد بلغت اوج جهالتك .

تظهر الاحصاءات ان فرنسة وحدها تقذف بنصف مليار كل عام ، من خلال أفواه أنهارها ، في المحيط الاطلسي . انتبه إلى هذا : بخمسمئة مليون نستطيع ان ندفع ربع نفقات الحكومة . والانسان من البراعة بحيث يفضل ان يلقي بهذه الملايين الخمسمئة في الساقية . إن مادة الناس نفسها هي التي تُجرف ، نقطةً نقطة هنا ، وسيولا سيولا هناك ، من خلال تقيؤ بواليعنا البائس إلى الانهار ، وتقيؤ انهارنا الضخم في المحيط . إن كل شهقة من بواليعنا تكلفنا الف فرنك . ولهذا نتيجتان : إفقار الارض ، وتلويث الماء . الجوع طالعاً من الثلم ، والمرض منبعثاً من النهر .

ومن المشهور ، مثلا ، ان نهر التيمس يسمم ، في هذه الساعة ، مدينة لندن .

أما في باريس ، فقد تعيّن على السلطة ، في هذه السنوات الاخيرة ، ان تنقل معظم مصابّ البواليع إلى سافلة النهر تحت الجسر الاخير .

إن جهازاً انبوبياً مزدوجاً ، مزوداً بالصمامات والمنافذ ، يستقبل ويردّ ، جهازَ تصريفٍ بدائياً ، بسيطاً كرئتي الانسان ، منتشراً حالياً في كثير من قرى انكلترة ، خليق به ان يكفي لنقل مياه الحقول النقية إلى مدننا ولاعادة

مياه المدن الغنية إلى حقولنا . وهذا التحرك اليسير ذهاباً واياباً ، الأكثر بساطة في العالم ، قادر على أن يعيد إلى حوزتنا الملايين الخمسمئة المطّرحة.
إننا نفكر في شيء آخر

إن الاسلوب الحالي يؤذي من حيث يحاول أن يفيد . القصد جيد ، ولكن النتيجة تعسة . ان الناس يحسبون انهم يطهرون المدينة ، فـاذا بهم يُسقمون السكان . البالوعة سوء فهم . وحين يستطيع جهاز التصريف في كل مكان ، بمهمته المزدوجة ، بحيث يعيد ما يأخذ ، أن يحلّ محل البالوعة – ذلك الغسل البسيط المفقِر – فعندئذ ، وبالاشتراك مـع معطيات اقتصاد اجتماعي جديد ، يزداد نتاج الارض عشرة أضعاف ، وتخف وطـأة مشكلة الشقاء على نحو فريد . اضف قطع دابر التطفل ؛ ان مشكلته سوف تحل .

وفي غضون ذلك تندفع الثروة العامة إلى النهر ، ويستمر السيلان . السيلان هي الكلمة . إن اوروبة تدمر نفسها على هذا النحو من طريق الاستنزاف .

أما فرنسة فقد اشرنا منذ لحظـة إلى الرقم الذي تخسره . والآن ، ولما كانت باريس تضم جزءاً من خمسة وعشرين من مجموع السكان الفرنسيين ، ولمـا كان الروث الباريسي اغنى انواع الروث ، فلسنا نعدو الصواب حين نقدر بخمسة وعشرين مليوناً نصيبَ باريس من خسارة نصف المليار التي تطّرحها فرنسة سنوياً . ولو قد انفقت هذه الملايين الخمسة والعشرون على الغوث والابهاج اذن لضاعفت بهاء باريس . ان المدينة تهدرها في البواليع . بحيث نستطيع ان نقول ان إسراف باريس العظيم ، وعيدها الرائع ، وحماقتها البوجونية * ، وافراطها في الاكل والسكر ، وسيول الذهب المتدفقة من راحتيها المبسوطتين ، وأبهتها ، وبذخها ، وسخاءها البالغ –

* نسبة الى بوجون Beaujon وهو مالي فرنسي خلع اسمه على احد احياء باريس (١٧٠٨ – ١٧٨٦)

كل ذلك هو بالوعتها .

وهكذا ، بعمى اقتصاد سياسي فاسد ، تغرق رفاهية الجميع ونجيز للجة ان تبتلعها فتغيب في الاعماق . ينبغي ان تكون هناك شباك من سان كلو للرخاء العام

واقتصادياً ، يمكن اختصار هذه الواقعة على النحو التالي : باريس سلة مثقوبة .

إن باريس ، تلك المدينة النموذجية ، ذلك المثال للعواصم الراقية الذي يحاول كل شعب ان يفوز بنسخة عنه ، حاضرة المثل الاعلى تلك ، ذلك الموطن الفخيم للمبادرة والحث والتجربة ، ذلك المركز والملاذ للعقل ، تلك المدينة الأمة ، خلية المستقبل تلك ، ذلك المركّب العجيب من بابل وكورنث ، إن باريس هذه لخليقٌ بها ، من وجهة النظر التي أشرنا اليها اللحظة ، أن تحمل فلاحاً من « فو — كيان » على ان يهز كتفيه .

قلد باريس ، تُتلفْ نفسك .

وإلى هذا ، وبخاصة في ذلك الاسراف العريق الخاطل ، تعمد باريس نفسها إلى التقليد .

وهذه الحماقات المذهلة ليست جديدة . فليس ثمّة بلاهة غضة في هذا . لقد تصرف القدماء تصرّف المحدثين . يقول ليبيغ : « كانت بواليع رومة تمتص كامل رفاهية الفلاح الروماني » . وحين دمرت البالوعة الرومانية السهل المنخفض المحيط برومة أنهكت رومةُ ايطالية ، وحين وضعت ايطاليةَ في بالوعتها ، عادت فافرغت فيها صقليةَ ، ثم سردينية ، ثم إفريقية . إن بالوعة رومة قد ابتلعت العالم . لقد خلعت هذه البالوعة شراهتها على المدينة وعلى الكرة الارضية . *Urbi et orbi* * مدينة خالدة . بالوعة لا قرار لها

وفي هذه الاشياء ، شأنها في أشياء اخرى ، تُعتبر رومة قدوة .

* كلمتان لاتينيتان تعنيان المدينة والكون .

وهذه القدوة تقتدي باريس بها ، بكل البلاهــة التي تتميز بهـــا المدن العبقرية .

ولضرورات العملية التي شرحناها اللحظة تقوم تحت باريسَ باريسٌ اخرى . باريسُ بواليع ، لهـا شوارعها ، ومفارقها ، وساحاتها ، ودروبها غير النافذة ، وشرايينها ، وحركة مواصلاتها . باريس بواليع هي وحل ولكن ينقصه الشكل الانساني .

ذلك بأن علينا ان لا نتملق احداً ، حتى ولو كان شعباً عظيمـاً . وحيث يوجد كل شيء نقع على الخزي إلى جانب الرفعة . واذا كانت باريس تنطوي على اثينا مدينة الضياء ، وصور مدينة القوة ، واسبارطة مدينة الفضيلة ، ونينوى مدينة الاعجوبة ، فانها تنطوي ايضـاً علـى « لوتيس » * مدينة الوحل .

وفوق هذا فأن خاتم قوتها هناك ايضاً ، وماخور باريس العمـلاق يحقق ، بين البدائع الاخرى ، ذلك المثل الاعلى العجيبَ الذي تحققـه الانسانية من طريق رجال من مثل ميكيافيلي ، وبيكون ، وميرابو : عظمة الحقارة .

إن باريس التي تحت الارض ، إذا استطاعت العين ان تخترق السطح ، لأشبه شيء بعرق لؤلؤ هائل . وليس في الاسفنجة ثقوب ومعابر اكثر مما في مَدَرة يبلغ مدارها ستة فراسخ تقوم عليها المدينة العظيمة العتيقة . وبصرف النظر عن الدياميس ، التي يفصل ما بين كل منها كهف ، وبصرف النظر عن شبكات انابيب الغـــاز المعقدة ، ومن غير ان نذكر الجهاز الأنبوبي الهائل الذي يوزع مياه الينابيع والذي ينتهي إلى الصنابير الرئيسية ، فان البواليع وحدها تشكل شبكة اعجوبية داكنة تحت الضفتين . تيهٌ مفتاحُه انحداره .

هناك يُرى ، في العتمة الرطبة ، الجرذ ، الذي يبدو وكأنه ثمرة مخاض باريس .

---

* Lutèce اسم باريس القديم .

٣
تاريخ البالوعة القديم

تخيلْ باريسَ وقد رُفعت مثل غطاء . وعندئذ تمثّلُ شبكة البواليع تحت الارضية ، منظوراً اليها نظرة طائر ، عند كل من الضفتين ، شبه غصن ضخم مطعّماً على النهر . ففي الضفة اليمنى تكون « البالوعة المطوّقة » جذع هـــذا الغصن . والمجاري الثانوية أفنانه ، والدروب غير النافذة عساليجه .

وهذه الصورة ليست غير صورة عامة ونصف مضبوطة ، لأن الزاوية القائمة ، المـألوفة عادة في مثل هـــذه الشبكات تحت الارضية ، نادرة جداً في النبات .

ولسوف نشكل صورة اكثر شبهاً بهذا المخطط الهندسي ، بأن نفترض اننا نرى ، منشورةً على خلفية من الظلام ، بعضَ ابجديات الشرق العجيبة مشوشة مثل خليط ما ، وقد اتصلت بعض حروفها الشائهة ببعضها الآخر كيفما اتفق ، ظاهرياً ، وكأنما بفعل المصادفة ليس غير ، من زواياها حيناً ومن اطرافها القصوى حيناً آخر .

لقد لعبت المواخير والبواليع دوراً هاماً في القرون الوسطى ، وفي الامبراطورية البيزنطية والشرق القديم . فيها وُلد الطاعون ، وفيهـــا مات الطغاة . وكانت الجماهير تنظر في رعب يكاد يكون تقوياً إلى سُرر النتن هذه ، مهود الموت الرهيبة . إن جب قمل بيناريس * ليس أقل إذهالا من جب أسود بابل . ووفقاً للكتب التلمودية فأن تغلث فلاسر قد اقسم بماخور نينوى . ومن بالوعة مونستر أطلع جان الليدنيّ ** قمره

* Benarès مدينة على نهر الغانج مقدسة عند الهندوس .

** Jean de Leyde زعيم القائلين بتجديد العماد في مونستر ، احدى مدن بروسيا ، وقد قُتل اثناء حملة التعذيب الرهيبة التي جرت عام ١٥٣٦

الكاذب ، ومن جب – بالوعة في بلدة كشّ أطلع شبيهه الشرقي « المقنّع » نبي خراسان المحجّب ، شمسه الزائفة .

إن تاريخ الناس ينعكس في تاريخ البواليع . ومعرض جثث المذنبين يروي قصة رومة . وانما كانت بالوعة باريس شيئاً فظيعاً في الزمن الماضي . كانت قبراً ، وكانت ملجأ . ففي هذا الثقب اختبأت الجريمة، والذكاء ، والاحتجاج الاجتماعي ، وحرية المعتقد ، والفكر ، واللصوصية ، وكل ما تلاحقه القوانين الانسانية أو قد لاحقته : فالمطرقيون * في القرن الرابع عشر ، والنشالون المتجولون ليلا في القرن الخامس عشر ، والهوغونوت ** في القرن السادس عشر ، ومستنيرو مورين في القرن السابع عشر ، والوقادون في القرن الثامن عشر . ومنذ مئة سنة كانت طعنة الخنجر الليلية تنبثق من هناك ، وكان النشال الذي يلم به الخطر ينزلق إلى هناك . كان للغابة كهفها ، وكان لباريس بالوعتها . وكان التشرد ، ذلك البيكاريريا الغاليّ ، يرتضي البالوعة شعبة من « ساحة المعجزات » *** ، فكانوا يأوون في موهن من الليل ، ماكرين شر ين ، إلى مخرج موبوويه وكأنهم يأوون إلى مخدع .

وكان طبيعياً جداً أن الذين يعملون نهاراً في زقاق « فيد غوسيه » غير النافذ ، أو شارع « كوب غورج » ان يتخذوا مقامهم الليلي في جسر « الطريق الأخضر » أو قناة « هوربوا » . ومن هنا جمهرة من الذكريات . ان مختلف ضروب الاشباح لتألف هذه الأروقة الطويلة المنعزلة ؛ والعفن والابخرة الوبيئة في كل مكان . وههنا وههناك تجد منفذاً

* Maillotins اسم اطلق على الباريسيين المتمردين في عهد شارل السادس ، وقد دعوا بذلك بسبب من المطارق الخشبية Maillets التي اخذوها من مصنع السلاح عام ١٣٨١

** بروتستانت فرنسة .

*** حي من احياء باريس القديمة ، وكان ملجأ الشحاذين والمتشردين في القرون الوسطى .

يتكلم فيون من داخله إلى رابليه في خارجه :

إن البالوعة ، في باريس القديمة ، هي ملتقى جميع القنوات وجميع التجارب . إن الاقتصاد السياسي ليرى فيها نفاية ، وان الفلسفة الاجتماعية لترى فيها ثُفلا :

البالوعة ضمير المدينة . إن الاشياء كلها تتجه اليها ، وتتقابل فيها : في ذلك الموطن المكفهر ظلمات ، ولكن ليس فيه أسرار . إن لكل شيء شكله الحقيقي ، أو على الاقل شكله الحاسم . فمن حسنات ركام الزبالة انه ليس كذاباً . لقد التجأت الصراحة اليه . اننا نجد ثمة قناع باسيل * ، ولكننا نستطيع ان نرى الورق المقوى ، والخيوط ، والباطن والظاهر ، وإن وحلا أميناً ليؤكده . إن أنف سكابين ** لعلى مقربة منه . وجميع قذارات الحضارة تقع ، حالما يستغنى عنها ، في حفرة الحق هذه ، حيث يوضع حد للانزلاق الاجتماعي الهائل . إنها تُبتلع ، ولكنها تتجلى هناك . وهذا الاختلاط هو اعتراف . فههنا تنعدم المظاهر الكاذبة ، ويتعذر كل تجصيص ، ويخلع القذر قميصه ؛ عري مطلق ، وانهزام للاوهام وضروب السراب ؛ لا شيء غير ما هو كائن ، متخذاً صورة الشيء الآفل الكالحة . الحقيقة والزوال . هنا ، يعترف قعر الزجاجة بالسُكْر ، وتروي يد السلة قصة الحياة المنزلية . هنا ، يعود قلب التفاحة الذي كانت له آراء أدبية قلبَ تفاحة من جديد ، وتتغطى الصورة التي على الـ « سو » الكبير بالزنجار على نحو صريح ، وتلتقي بصقة قيافا *** قيء فالستاف **** ، وتصدم الليرة اللويسية الذهبية

* بطل « حلاق اشبيلية » Barbier de Séville ، كوميدية بومارشيه الشهيرة ، وهو يعتبر مثال المرائي المتصف بالملاطفة والحرص على المال .

** Scapin احد ابطال موليير وهو مثال الخادم المخادع ، الخبيث ، الماكر .

*** Caïphe الكاهن اليهودي الذي حكم بالموت على يسوع المسيح .

**** احدى شخصيات شكسبير ، وهو يمثل الرجل الداعر الوقح .

الخارجة من نادي القمار المسمارّ الذي يتدلى منه حبل الانتحار القصير ، ويتدحرج جنين ازرق ضارب إلى السواد مغلفاً بالترتر البراق الذي رقص في الاوبرا يوم ثلاثاء المرفع الاخير ، وتتمرغ قلنسوة حاكمتِ الناس إلى جانب نتانة كانت تنورة لمارغوتون . إنه اكثر من إخاء ؛ إنه غـاية الغايات في الألفة والود . إن كل ما تبرّجَ يتسخ . إن الحجاب الاخير ليُنتزع . البالوعة بذيئة . إنها تروي كل شيء .

ان أمانة القذارة هذه لترضينا ، وإنها لتوقع الطمأنينة في النفس ، فحين يقضي الانسان أيامه على الارض في احتمال سيما التظاهر والتكلف التي تقتضيها ضرورات الحكم ، والقسَم ، والحكمة السياسية ، والعدالة الانسانية ، والنزاهة المهنية ، وحراجة الموقف ، والاثواب التي لا سبيل إلى إصلاحها ، يكون من العزاء له ان يدخل إلى بالوعة ، ويرى الوحل الذي يلائمها .

إنها لتلقي درساً في الوقت نفسه . فالتاريـخ ، كما قلنا اللحظة ، يمرّ من خلال البالوعة . إن المذابـح الشبيهة بمذبحة القديس بارتليماوس لترشح هناك ، قطرةً قطرة ، عبر حجارة الارصفة . والاغتيالات العمومية الكبرى ، والمجازر السياسية والوطنية تجتاز قبو الحضارة هذا ، وتدفـع صرعاها اليه هناك يتبدى لعين المفكر جميع القتلة التاريخيين راكعين في الظلمة الرهيبة ، وقد اتخذوا من اكفانهم مآزر لهم وراحوا ينظفون فعلاتهم على نحو حدادي . ان لويس الحادي عشر ليقيم هناك مـع تريستان * ؛ وان فرنسوا الأول ليقيم هناك مع دوبرا ** ؛ وان شارل التاسع هناك مع أمه ؛ وان ريشيليو هناك مع لويس الثالث عشر : إن

---

* Tristan كبير مارشالات فرنسة في عهد شارل الثامن ولويس الحادي عشر .

** Duprat القاضي الاكبر في فرنسة ايام الملك فرنسوا الاول . كان كردينالا ، وقد عقد كونكوردا بولونيا (١٥١٦) بين فرنسوا الاول والبابا ليو العاشر .

لوفوا * هناك ؛ وان لوتوليه ** وهيبير *** ومايار **** هناك ، يكشطون الحجارة ويحاولون ان يمحوا آثار أعمالهم . وتحت هذه الاقبية نسمع مكنسة هذه الاشباح . اننا نستروح هناك نتانة الكوارث الاجتماعية الهائلة . اننا نرى انعكاسات ضاربة إلى الحمرة في الزوايا . هناك تجري مياه فظيعة غُسلت فيها أيد دامية .

إن على المراقب الاجتماعي ان يدخل هذه الظلال . إنها جزء من مختبره . الفلسفة مجهر الفكر . كل شيء يرغب في الفرار منها ، ولكن شيئاً لن يفلت من بين ايديها . إن التردد غير مجْدٍ . ايّ وجه من وجوه شخصيتك تجلوه بالتردد ؟ الوجه الشائن . إن الفلسفة تتعقب الشر بانظارها النزيهة ، ولا تجيز له ان ينزلق إلى العدم . ففي انمحاء الاشياء التي تختفي ، وفي صغر الاشياء التي تتلاشى تدرك كل شيء . إنها تعيد انشاء الارجوان من الخرقة ، والمرأة من المزقة . وبالبواليع تعيد تكوين المدينة ، وبالوحل تعيد تكوين عاداتها . إنها تستنتج من الكسرة القارورةَ أو الابريق . انها تدرك من أثر قلامة الظفر على رَق من الرقوق الفرق ما بين الحي اليهودي « الجودنغاس » والحي اليهودي « الغيتو » . إنها تجد في الذي تبقّى ما كان : الخير ، والشر ، والباطل ، والحق ، ولطخة الدم في القصر ، وبقعة الحبر في القبو ، ونقطة الشحم في الماخور ، والتجارب

* Louvois رجل دولة فرنسي ، اعاد تنظيم قوات الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٩ - ١٦٩١) .

** Le Tellier رجل دولة فرنسي ، والد لوفوا المذكور في الحاشية السابقة ، وقد ساعد على إبطال براءة نانت (١٦٠٣ - ١٦٨٥) .

*** Hébert سياسي وصحفي فرنسي وافق على مذابح ايلول وكان له في مجلس كومون باريس نفوذ طاغ ، وقد مات على المقصلة مع عدد من رفاقه « الهيبيريين » (١٧٥٧ - ١٧٩٤) .

**** Maillard ثوري فرنسي ، حاول ان يخفف من وطأة مذابح ايلول (١٧٦٣ - ١٧٩٤) .

المقتحَمة ، والاغراءات المرحب بها ، والتُخَم المتقيأة ، والتجاعيد التي تلقتها الشخصيات باتّضاع ، واثر البغاء في نفوس جعلتها خشونتها الخاصة قادرة عليه ، وتجد على صُدرات حمّالي رومة سمةَ مرفق ميسالينا *

٣

برونيسو

كانت بالوعة باريس ، في القرون الوسطى ، اسطورية . وفي القرن السادس عشر حاول هنري الثاني القيام بعملية سبر ما لبثت ان اخفقت. ومنذ أقل من مثتي عام ، بشهادة ميرسييه ** ، تُركت وشأنها ، فاصبحت ما كان في ميسورها أن تصبحه .

كذلك كانت باريس القديمة ، المسلّمة إلى المنازعات ، والتردد ، والتحسس في الظلام . لقد انغمست في الحماقة دهراً طويلا . وبعد ذلك اظهرت سنةُ ٨٩ *** كيف يلمّ الذكاء بالمدن . أما في الايام الخالية الصالحة فقد كان للعاصمة رأس صغير ؛ كانت لا تستطيع ان تدبر شؤونها لا معنوياً ولا مادياً ، ولم تكن تحسن كنس اقذارها إلا بمقدار ما تحسن ازالة عاداتها السيئة . كان كل شيء عقبة ، وكان كل شيء يثير مشكلة . كانت البالوعة ، مثلا ، متمردة على كل دليل خاص بالسفر أو السياحة . كان الناس عاجزين عن أن يعرفوا وجهتهم في طرقها كما عجزوا عن ان يفهموا انفسهم في المدينة . المبهم ، فوق . والمعقّد ، تحت . وتحت

* Messaline اولى زوجات الامبراطور الروماني كلود الاول ، وكانت منغمسة في الفسق والفجور .

** Mercier اديب فرنسي (١٧٤٠ - ١٨١٤)

*** يقصد سنة ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية .

اختلاط الالسن كان اختلاط الاقبية . إن « ديدال » * قد بطّن بابل .

وفي بعض الأحيان كان يخطر لبالوعة باريس ان تفيض ، فكأن هذا « النيل » المجحود فضله قد استبد به الغضب فجأة . كانت ثمة – وهو شيء فاضح – فيضانات بالوعة . فبين الفينة والفينة كانت معدة الحضارة هذه تهضم على نحو سيء ، فتفيض البواليع مرتدة إلى حنجرة المدينة ، وتتذوّق باريس خُلْفَ * وحلها . وهذه المشابه بين البالوعة ووخز الضمير كانت لها حسناتها . كانت ضروباً من التحذير ، ولكنها لم تكن تُستقبل إلا اسوأ استقبال . كانت المدينة تسخط إذ ترى إلى وحلها وقد تكشّف عن هذه الجراءة كلها ، ولم تكن ترتضي عودة الاقذار ؛ اطردوها على نحو افضل !

إن ذكرى فيضان ١٨٠٢ لا تزال ماثلة في اذهان الباريسيين الذين بلغوا الثمانين . لقد انتشر الوحل على شكل صليب في « ساحة الانتصارات » حيث يقوم تمثال لويس الرابع عشر . ودخل إلى شارع « سان هونوريه » من مصبَّي بالوعة الـ « شان زيليزيه » ، والى شارع « سان فلورنتين » من بالوعة « سان فلورنتين » ، وشارع « بيير آبواسون » من بالوعة الـ « سونيري » ، وشارع « بوبينكور » من بالوعة « الطريق الأخضر » ، وشارع الـ « روكيت » من بالوعة شارع الـ « لابّ » . لقد غطى قناة شارع الـ « شان زيليزيه » حتى ارتفاع خمسة وثلاثين سنتمتراً . وفي الجنوب ، بواسطة مخرج الـ « سين » المؤدي مهمته بطريق معكوسة ، نفذ إلى شارع « مازارين » ، وشارع « ايشيديه » ، وشارع الـ « ماريه » ، حيث وقف بعد ان بلغ امتداده

* معمار يوناني أقام تيه كريت الذي تزعم الاسطورة ان المينوتور (الكائن الخرافي الذي نصفه انسان ونصفه ثور) قد حُبس فيه .

* الخلف ، بضم الخاء ، آخر طَعْمُ الطعام (arrière — goût)

مئة وتسعة مترات ، على بضع خطوات بالضبط من المنزل الذي كـان راسين يسكنه ، محترماً – في القرن السابـع عشر – الشاعرَ اكثر من الملك . ولقد بلغ عمقه الأعظمَ في شارع سان بيير حيث ارتفع ثلاثـة أقدام فوق بلاطات الميزاب ، وبلغ امتدادَه الاقصى في شارع « سان سابين » ، حيث انتشر على رقعة طولها مئتان وثمانية وثلاثون متراً .

وفي مطلع هذا القرن ، كانت بالوعة باريس لا تزال موطناً خفياً . ان الوحل لا يمكن ان يكون حسن الصيت ، ولكن سوء السمعة انتهى هنا إلى حد الروع . لقد ادركت باريس ، ادراكاً غامضاً ، أن تحتها كهفاً فظيعاً . ولقد تحدث الناس عنه كما يتحدثون عن مستنقع ثيبـة الرهيب حيث احتشدت حُرُش * طول الواحدة منها خمسة عشر قدماً ، والذي كان جديراً به ان يكون مغطساً لـ « بهيموت » . ** إن أحذية رجال البواليع الضخمة لم تغامر قط في الذهاب إلى أبعد من نقاط معينة . كان الناس لا يزالون قريبي عهد بذلك العصر الذي كانت عربات رافعي الوحل – حيث تـآخى على قمتها سانت فوا مع المركيز كريكي – تُفرّغ فيه بكل بساطة في البالوعة . أما مهمة التنظيف فـكان يُعهد بهـا إلى سيول المطر التي كانت تعوق اكثر مما تجرِف . وتركت رومة ، مع ذلك ، شيئاً من الشعر لبواليعها ، فخلعت عليها اسم « جيموني » *** أما باريس فأهانت بواليعها فدعتها « الثقب النتن » . وكان العلم والخرافة على اتفاق من حيث الرعب . فلم يكن « الثقب النتن » يناقض علـم الصحة بأكثر ممـا يناقض الخرافة . كان « الراهب الشكس » تحـت قوس « بالوعة موفتار » الآسن ؛ وكانت جثث الـ « مارموزيه » ****

* مفردها حريش ، وهي امّ اربعة واربعين .

** Béhémoth حيوان ذكر في التوراة ، ويظن انه فرس البحر .

*** Gemonize وهي سلّم كان الرومان يعرضون عليها جثث المذنبين .

**** Marmousets اسم اطلق على مستشاري شارل الخامس الذين استمروا في القيام بوظائفهم في عهد الملك شارل السادس (كليسون ، مونتاغو ، لوميرسييه الخ .)

قد طُرحت في بالوعة باريلبري . وكان فاغون * . قــد عزا حمى عام ١٦٨٥ الخبيثة الرهيبة إلى الثغرة الكبيرة الّتي في بالوعة الـ « ماريه » والّتي ظلت فاغرة فاها حتّى عام ١٨٣٣ ، في شارع سان لويس ، تجاه لافتة « الرسول الشهم » تقريباً . وكـان مصب بالوعة شارع الـ « مورتيلري » شهيراً بالطواعين المنبعثة منه . فبشبكة قضبانه الحديديـة المروّسة الّتي بدت أشبه بصف من الاسنان ، برز هذا المصب في ذلك الشارع مثل شدق تنين تنفخ الجحيمَ على الناس . وتبّل الخيال الشعبي البالوعةَ الباريسية الكالحة بمزيـج من اللانهاية رهيب إلى حد يمتنعُ على الوصف . كانت البالوعة عديمة القرار . كانت البالوعة هي البراتروم ** ولم تخطر فكرة ريادة هذه المناطق المجذومة حتّى لرجال البوليس انفسهم. ومن ذا الذي كان يجرؤ على اقتحام ذلك المجهول ، وسبر تلك الظلمة ، والقيام برحلة استكشاف في تلك الهاوية ؟ كانت مروعة . ومع ذلك ، فقد برز شخص ما . إن للبالوعة كولومبسها .

ذات يوم ، من عام ١٨٠٥ ، وخلال احدى الزيارات النادرة الّتي كان الامبراطور يقوم بها لباريس مَثُلَ وزير الداخلية ، رجل من مثل دوكريه أو كريتيه ، بين يدي السيد لدن نهوضه من الفراش . وفي ساحة الفوارس كان يُسمع صليل سيوف جميع الجنود الاستثنائيين الذين أطلعتهم الجمهورية العظيمة ، والامبراطورية العظيمة . كان ثمـة جمهرة مـن الابطال عند باب نابوليون : رجال شهدوا الراين ، والأيسكو ***

* Fagon (١٦٣٨ – ١٧١٨) الطبيب الاول للملك لويس الرابع عشر .

** Barathrum لفظ لاتيني يعني جهنم .

*** Escaut نهر مشترك بين فرنسة والبلجيك وهولندة .

والآديج * والنيل . رفاق اجـــــوبير ** ودوســيكس *** ومارسو **** وهوش ***** وكليبر ****** . منطـــــاديو فلوروس ، ورماة قنابل في ميبانس ، وبناة جسور في جنوا ، وفرسان نظرت اليهم الأهرام ، ومدفعيون لطخنهم قذيفة جونو******* ، ودارعون أغاروا على الاسطول الملقي مراسيه في « زوديرزي » . كان هنــاك جماعة لحقت بونابرت عبر جسر لودي . وثانية كانت مع موراـ******** في خنادق مانتو ، وثالثة تقدمت لان ********* في طريق مونتيبيلو المقعّرة . كان جيش ذلك العصر كله هناك ، في بلاط التويلري ، ممثلا بفرقة أو بمفرزة ، حارساً نابوليون المخلد إلى الراحة ؛ وكان ذلك في الفترة البهية يوم كانت مارنغو وراء « الجيش العظيم » ، واوسترليتز أمامه . وقال وزير الداخلية لنابليون : « مولاي ، لقد رأيت أمس أشجع رجـل في امبراطوريتك » فقال الامبراطور على جناح السرعة : « من هـــذا

---

* Adige نهر في ايطالية .

** Joubert قائد فرنسي لمع نجمه في حملة ايطاليا (١٧٦٩ - ١٧٩٩)

*** Desaix جنرال فرنسي تبع نابوليون الى الشرق واحتـل مصر العليـا . (١٧٦٨ - ١٨٠٠) .

**** Marceau جنرال فرنسي لمع نجمه في الفانديه و « فلوروس » (١٧٦٩-١٧٩٦)

***** Hoche جنرال فرنسي يعتبر من اعظم وجوه الثورة وانبلها (١٧٦٨- ١٧٩٧) .

****** Kléber جنرال فرنسي اسهم في الحملة النابوليونية على مصر (١٧٥٣- ١٨٠٠) .

******* Juno قائد فرنسي حارب في ايطالية ومصر ، واستولى على لشبونة عام ١٨٠٧ . (١٧٧١ - ١٨١٣) .

******** Murat اخو زوجة نابوليون ، وقد نصبه ملكاً على نابولي من عام ١٨٠٨ الى عام ١٨١٥

********* Lannes مارشال فرنسة ، لمع نجمه في معركتي مونتيبيلو ومارنغو . (١٧٦٩ - ١٨٠٩) .

الرجل ، وما الذي فعله ؟ » – « إنه يريد ان يصنع شيئاً يا مولاي . »
– « ما هو ؟ » – « ان يزور بواليع باريس . »
كان ذلك الرجل حياً يرزق ، وكان يدعى برونيسو .

٤
تفاصيل مجهولة

وتمت الزيارة . كانت حملة رهيبة ، معركة ليلية ضد الطاعون والاختناق . وكانت في الوقت نفسه رحلة استكشاف . بل إن احد الذين خرجوا من هذه الريادة احياء ، وهو عامل ذكي كان آنذاك غض الشباب ، قد روى منذ بضع سنوات تفاصيل اعتبر برونيسو ان من واجبه ان يحذفها في تقريره إلى مدير البوليس ، بوصفها غير لائقة بلغة الدواوين : كانت العمليات التطهيرية بدائية جداً في ذلك العهد . فما إن اجتاز برونيسو أولى شُعب الشبكة تحت الارضية حتى رفض ثمانية من العمال ان يذهبوا إلى أبعد من ذلك : وكانت العملية معقدة . وانطوت الزيارة على مهمة التنظيف . وهكذا كان على العمال ان ينظفوا ، وان يقيسوا الأبعاد في وقت معاً . كان عليهم ان يعيّنوا مدخل الماء ، وان يحصوا الشباك الحديدية والمصابّ ، وان يضعوا بياناً مفصلا بالشُعب ، وان ينصوا على مجاري المـــــاء عند نقاط الانفصال ، وان يفحصوا الحدو النسبية للاحواض المختلفة ، وان يسبروا البواليع الصغرى المفرّعة فوق البالوعة الرئيسية ، وان يقيسوا ارتفاع كل ممر تحت الغلَق ، والعرض أيضاً سواء عند مستهلّ العقد أو عند سطح الأرض ، وان يحددوا أخيراً نقاط تسوية الأرض على زاوية قائمة عند كل مدخل من مداخل الماء ، سواء من ارضية البالوعة أو من سطح الشارع . لقد تقدموا في عسر .

ولم يكن نادراً ان تغوص السلالم في الوحل إلى عمق ثلاثة أقدام وحشرجت الفوانيس في الأبخرة الوبيئة . وبين الفينة والفينة ، كانوا يخرجون عاملا من عمال البواليع أغمي عليه . وفي بعض المواطن كان العمال يقعون على هاوية . كانت الأرض قد غارت ، وكان بلاط الشارع قد انهار ، وكانت البالوعة قد تحولت إلى بئر ذات قعر رملي . إنهم لم يعودوا يجدون ارضاً صلبة . وفجأة اختفى رجل ، ولم يوفقوا إلى انتشاله إلا بشق النفس . وبناء على نصيحة فوركروا اضاءوا ، بين مرحلة واخرى ، في المواطن المطهرة تطهيراً كافياً ، اقفاصاً كبيرة ملأى بمشاقة الكتان ومشبعة بصمغ الصنوبر . وكان الجدار مغطى ، في بعض الأماكن، بفطريات شائهة ، بل لقد كان في وسع المرء ان يقول انه مغطى بالدمامل . لقد بدا الحجر نفسه مريضاً في هذا الوسط الذي لا يصلح للتنفس .

وتقدم برونيسو ، في ريادته تلك ، من عالية النهر إلى سافلته : وعند مفترق انبوبي مياه الـ « غرات هورلير » قرأ في عسر ، فوق حجر ناتيء ، هذا التاريخ : ١٥٥٠ . وكان هذا الحجر يشير إلى الحد الذي انتهى اليه فيليبير دولورم الذي عهد اليه هنري الثاني بأن يزور قنوات باريس تحت الارضية . كان ذلك الحجر هو طابع القرن السادس عشر على البالوعة . كذلك وجد برونيسو اثر يد القرن السابع عشر العاملة في قناة شارع « بونسو » وقناة شارع « فيي دو تامبل » اللتين بُنيتا ما بين عام ١٦٠٠ وعام ١٦٥٠ ، واثر يد القرن الثامن عشر العاملة في الجزء الغربي من القناة المجمَّعة ، التي جُسِّرت وقُنْطرت عام ١٧٤٠ . وكان هذان العقدان ، وبخاصة العقد الاقل عتقاً ، عقد ١٧٤٠ ، اكثر تشققاً وتهدماً من البالوعة المطوَّقة التي ترقى إلى عام ١٤١٢ ، يوم رُفعت مياه ينبوع مينيلمونتان إلى مقام بالوعة باريس العظمى ، وهو تقدم مماثل لتقدم فلاح

يصبح كبير فراشي الملك ، شيء من مثل « غرو جان » * وقد تحول إلى « لوبيل » ** .

وحسبوا انهم تبيّنوا هنا وهناك ، وبخاصة تحت قصر العدل ، بعض حجيرات السجون الضيقة المظلمة المبنية في البالوعة نفسها . سجن ديري تحت ارضي رهيب . كان غل حديدي يتدلى في احدى تلك الحجيرات . لقد سُدت كلها بالجدران . ووجدوا ثمة اشياء غريبة ، من بينها هيكل عظمي لقرد من نوع « اورانغ – اوتانغ » كان قد اختفى من « حديقة النبات » عام ١٨٠٠ ، وهو اختفاء لعله ان يكون ذا صلة بظهور الشيطان ذلك الظهور الشهير الذي لا يقبل الجدل ، في شارع الـ « بيرناردين » في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر . لقد انتهى الشيطان المسكين إلى الغرق في البالوعة .

وتحت الممر الطويل المقنطر الذي ينتهي عند « آرش ماريون » نالت اعجاب العارضين سلة ملتقط خرق كانت لا تزال مصونة اتم الصون . وفي كل مكان كان الوحل – الذي كان العمال قد أخذوا يمسكون به في جسارة – حافلا بالاشياء النفيسة : بالحلى الذهبية والفضية ، والحجارة الكريمة ، والقطع النقدية . ولو قد صفى عملاقٌ هذه البالوعة اذن لفاز في منخله بكنوز القرون . وعند مفترق شعبتي شارع التامبل وشارع سانت آفوا التقطوا مدالية بروتستنتية نحاسية فريدة تحمل على احد وجهيها خنزيراً يعتمر بقبعة كاردينال ، وتحمل على وجهها الآخر ذئباً على رأسه التاج البابوي .

وكان الكشف الأدعى إلى العجب هو مدخل البالوعة العظمي . كان هذا المدخل موصداً ، في ما مضى ، بشبكة حديدية لم يبق منها غير رزاتها . وكانت تتدلى من احدى تلك الرزات خرقة قذرة شائهة

* Gro - Jean اسم يطلق في اللهجة الفرنسية العامية على الأبله المتظاهر بالعلم .

** Lebel ضابط فرنسي كانت له خبرة خاصة بصناعة البنادق (١٨٣٨ – ١٨٩١) .

علقت هناك في طريقها من غير شك ، فأنشأت تطفو في الظلام حتى أمست آخر الامر مِزَقاً . وقرّب برونيسو فانوسه إلى هذه الخرقة ، وفحصها . كانت من انفس القماش الكتاني الابيض الناعم ، ولقد تبين عند احدى الزوايا الاقل بلىً تاجاً نسَبياً أو شعارياً طُرز فوق هذه الحروف السبعة « لافبيسب » *LAVBESP* . وكان التاج تاج مركيز . وكانت الحروف السبعة تعني لوبيسبين *Laubespine* . وادركوا ان امام اعينهم قطعة من كفن مارا . فقد كانت لمارا ، في صباه ، غراميات. وكان ذلك حين كان يؤلف جزءاً من منزل الكونت دارتوا ، بوصفه طبيباً للاصطبلات . ومن هذه الغراميات ، المثبتة تاريخياً ، مع سيدة نبيلة كبيرة لم يبق له غير غطاء السرير هذا . لقية أو ذكرى . حتى إذا قضى نحبه كفّن به بوصفه قطعة القماش ، الأبيض الناعم بعض الشيء ، التي لم يكن غيرها في منزله. لقد جهزت بعض النسوة العجائز « صديق الشعب » الفاجع ، بجهاز القبر هذا الذي كان ينطوي على لذة .

وتابع برونيسو تقدمه . لقد تركوا هذه الخرقة حيث كانت . إنهم لم يُجهزوا عليها . أكان ذلك ازدراء أم احتراماً ؟ كان مارا يستحق الاثنين جميعاً . ثم إن القدر كان منطبقاً عليها إلى حد جعلهم يترددون في مسها . وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نترك أشياء القبر في الموطن الذي تختاره . وعلى الجملة ، فقد كانت تلك الذخيرة غريبة . لقد نامت عليها مركيزة : ولقد انتن عليها مارا . لقد اجتازت البانتيون لكي تصل آخر الأمر إلى جرذان البالوعة . كانت خرقة المخدع تلك ، التي كان خليقاً بـ« واتو » * في ما مضى أن يرسم كل طية من طياتها ، قد انتهت إلى أن تصبح جديرة بنظرة من نظرات دانتي المحدِّقة .

واستغرقت الزيارة الكاملة لشبكة البواليع الباريسية تحت الارضية سبع سنوات ، من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨١٢ . وفيما كان برونيسو لا يزال

* Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ – ١٧٢١)

يقوم بها ، عيّن كثيراً من الأعمال ، وادارها ، وانجزها . ففي سنة ١٨٠٨ خفض مستوى قناة بونسو ، واذ أنشأ خطوطاً جديدة في كل مكان ، مدّد البالوعة ، عام ١٨٠٩ ، تحت شارع سان دونيز ، حتى « ينبوع الابرياء » . وفي عام ١٨١٠ مددها تحت شارع « فروا مانتو » وشارع الـ « سالبيتريير » ، وفي عام ١٨١١ مددها تحت شارع « رو نوف دي بيتيت بير » ، وتحت شارع « ميل » وشارع الـ « ايشارب » ، وتحت القصر الملكي . وفي عام ١٨١٢ مددها تحت « شارع السلام » ، وتحت الـ « شوسيه دانتين » . وفي الوقت نفسه، طهر وأصلح الشبكة كلها . ومنذ السنة الثانية ساعد برونيسو صهرُه نارغو .

وهكذا نظف المجتمع القديم ، منذ مطلع هذا القرن ، قعره المزدوج ، وقام بتجميل بالوعته . ولم يزد تنظيفها في يوم من الأيام عن ذلك المقدار.

كانت بالوعة باريس القديمةُ ملتوية ، متصدعة ، مقتلعة البلاط ، متفلّعة ، معترَضة بالمستنقعات ، محطمة بمنعطفات غريبة ، مرتفعة ومنخفضة على غير منطق ، آسنة ، وحشية ، ضارية ، غارقة في الظلمة الرهيبة ، تعلو الندوب حصباءها والجراح جدرانها . تفرعات في كل اتجاه ، خنادق مهجّنة ، تشعبات ، مفارق طرق ، صدوع كالتي تنشأ عن الالغام ، أزقة غير نافذة ، دروب مسدودة ، عقود مغطاة بملح البارود ، بواليع نتنة ، ترشّح قوبيّ على الجدران ، قطرات ساقطة من السقف ، ظلام ؛ إن شيئاً لم يكن يَعْدِلُ هول هذا السرداب العتيق المفرّغ ، جهاز بابل المضمي ، الكهف ، القبر ، الهاوية التي تخترقها الشوارع ، التل الخلديّ العملاق الذي يتراءى للعقل فيه وكأنه يرى ذلك الخلد الأعمى الهائل — الماضي — يتلمس سبيله وسط الظلام ، في القذر الذي كان زهواً وسناء .

تلك كانت — ونكرر ذلك — بالوعة العهود الماضية .

٥
التقدم الحالي

أما اليوم فالبالوعة نظيفة ، باردة ، مستقيمة ، مضبوطة . انها تكاد تحقق المثل الأعلى لما يُفهم في انكلترة بكلمة « موقر » . إنها لائقة رصينة ؛ مخططة بخيط البناء . بل نكاد نستطيع ان نقول إنها مغرقة في التأنق . انها تشبه ملتزم موئن أصبح مستشاراً للدولة . وفي مستطاع المرء ان يرى فيها بوضوح . أو يكاد . وسلك الوحل مسلكاً لائقاً . وللوهلة الأولى لا بد ان نحسبها تواً احد تلك المجازات تحت الارضية التي كانت في ما مضى شائعة جداً ومفيدة جداً لهرب الملوك والامراء في تلك العهود السالفة الصالحة يوم « كانت الشعوب تحب ملوكها » . البالوعة الحالية بالوعة جميلة ؛ ان الاسلوب الصافي ليهيمن هناك . ويبدو وكأن الوزن الالكسندري الكلاسيكي المستقيم . وقد طُرد من الشعر ، التجأ إلى فن العمارة ، وامتزج بكل حجر من حجارة ذلك العقد الطويل المظلم الضارب لونه إلى البياض . إن كل قناة مفرّغة هي قنطرة . إن شارع ريفولي ليتّخذ قدوةً حتى في البلاليع . وعلى أية حال . فاذا كان للخط الهندسي ان يوجد في اىما مكان فليس من ريب في انه يوجد في الخنادق البرازية الخاصة بالمدن الكبيرة . هناك . يتعين على كل شيء أن يكون خاضعاً للطريق الأقصر . لقد اتخذت البالوعة الآن مظهراً رسمياً . وحتى تقارير البوليس التي تعالج في بعض الاحيان موضوعها . لم تعد يعوزها الاحترام لها . ن الكلمات التي تميزها في لغة الدواوين قد ارتقت وشَرُفت . فما كان يدعى ممراً ضيقاً أمسى يدعى دهليزاً . وما كان يدعى ثقباً أمسى يدعى عيناً . لقد أصبح من المتعذر على فييون * أن يعرف مأواه القديم عند

---

* شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

الحاجة . صحيح ان هذه الشبكة من الأقبية كانت لا تزال محتفظة بسكانها العريقين من القواضم المتكاثرة أكثر من ذي قبل ؛ فبين الفينة والفينة كان احد الجرذان — شاربان عجوزان — يخاطر برأسه عند نافذة البالوعة ويتأمل الباريسيين . ولكن هذه الهوام نفسها كانت قد أمست أليفة ، راضية بحالها ذاك في قصرها القائم تحت الارض . لم يعد للبالوعة شيء من ضراوتها البدائية . ان المطر ، الذي كان يوسخ بالوعة العصور الماضية ، ليغسلُ بالوعة العصر الحاضر . ولكن حذار ان تثق بها أكثر مما ينبغي . إن الأبخرة الوبيئة لا تزال تقطنها . انها مرائية أكثر منها كاملة خلواً من العيب . فقد ذهبت جهود مديرية الشرطة ومفوضية الصحة أدراج الرياح. إنها على الرغم من جميع عمليات التطهير تطلق رائحة غامضة مرتابة مثل تارتوف* ، بعد الاعتراف .

ولنسلم بأن تنظيف الشوارع ، إذا أخذنا جميع الاشياء بعين الاعتبار، طاعة تقدمها البالوعة إلى الحضارة . ولما كان ضمير تارتوف ، من وجهة النظر هذه ، يمثل تقدماً على أصطبل أوغياس** ، فمما لا ريب فيه أن بالوعة باريس قد تحسنت .

إنه أكثر من تقدم . انه تحوّل . إن بين البالوعة القديمة والبالوعة الحاضرة ثورة . من الذي قام بهذه الثورة ؟

الرجل الذي ينساه الناس جميعاً . والذي ألمحنا اليه . برونيسو .

---

* بطل احدى ملاهي موليير ، وقد سبق التعريف به .

** Augias ملك ايليدا وكانت له اصاطب (اصطبلات) تضم ثلاثة آلاف ثور . وقد ظلت هذه الاصاطب ثلاثين عاماً من غير تنظيف فأرسل « أوريستيه » هرقلَ للقيام بهذه المهمة .

٦
التقدم المقبل

إن شق بالوعة باريس لم يكن عملا ضئيلا . فقد اشتغلت القرون العشرة الماضية في حفرها من غير ان تقدر على اتمامها إلا بمقدار ما أكملت باريس . والواقع ان البالوعة تستقبل جميع العواقب الناشئة عن نمو باريس . فهي ، في باطن الأرض ، شبه اخطبوط مظلم ينمو تحت ، كلما نمت المدينة فوق . فما ان تشق المدينة شارعاً ، حتى تبسط البالوعة ذراعاً . وكانت الملكية القديمة قد انشأت ثلاثة وعشرين الفاً وثلاثمئة متر من البواليع ليس غير . وكانت باريس آنذاك في مطلع كانون الثاني عام ١٨٠٦ . وابتداء من ذلك العهد ، الذي سنتكلم عليه في الحال ، استؤنف العمل وأكمل في جدوى ونشاط : فقد انشأ نابوليون — وهذه الارقام ممتعة — اربعة آلاف واربعمئة متر ؛ وانشأ لويس الثامن عشر خمسة آلاف وسبعمئة وتسعة أمتار ؛ وانشأ شارل العاشر عشرة آلاف وثمانمئة وستة وثلاثين متراً ؛ وانشأ لويس فيليب تسعة وثمانين الفاً وعشرين متراً ؛ وانشأت جمهورية ١٨٤٨ ثلاثة وعشرين الفاًوثلاثمئة وواحداً وثمانين متراً ؛ وانشأ النظام الحالي سبعين الفاً وخمسمئة متر . ومجموع ذلك كله ، في الساعة التي نحن فيها ، مئتان وستة وعشرون الفاً وستمئة وعشرة امتار ؛ ستون فرسخاً من البواليع . احشاء باريس الهائلة . تشعّبٌ مظلم هو ابداً قائم على قدم وساق ؛ إنشاء هائل وغير ملحوظ :

وهكذا نرى أن تيه باريس تحت الأرضي هو اليوم عشرة أضعاف ما كان عليه في مستهل القرن أو يزيد . ومن العسير على المرء أن يدرك أي مبلغ من المواظبة والجهد كان ضرورياً للانتهاء بتلك البالوعة إلى نقطة الكمال النسبي الذي بلغتها اليوم . فالادارة الملكية ، ثم الادارة البلدية

في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر لم تستطيعا إلا في صعوبة بالغة ان تشقا البواليع البالغ طولها خمسة فراسخ والتي كانت موجودة قبل عام ١٨٠٦ . إن جميع ضروب العقبات كانت تعوق هذا العمل ، بعضها خاص بطبيعة التربة ، وبعضها ملتحم باهواء سكان باريس المجدّدين واوهامهم نفسها . إن باريس مشيدة على طبقات معدنية في باطن الأرض متمردة تمرداً فريداً على المعول ، والمسحاة ، والمسبار ، والسيطرة الانسانية . وليس ثمة ما هو أعسر من أن تشق وتنفذ إلى هذا التكون الجيولوجي الذي نُضِد فوقه ذلك التكوّن التاريخي الرائع المدعو باريس . فما ان يبدأ العمل ، تحت أي شكل من الاشكال ، ويغامر في ذلك الشارع الغرينيّ حتى تتعاظم المقاومة تحت الارضية . إن ثمة صلصالا مائعاً، وينابيع ماء ، وصخوراً قاسية ، وهذه الوحول الرخوة التي يدعوها العلم التقني « خردلا » . والمعول إنما يتقدم بعناء إلى هذه الطبقات الكلسية التي يتراوح خلالها عروق من الصلصال البالغ الرقة وطبقات مُنضدّية ورقيّة مطعّمة بأصداف من محار عاصرت الاوقيانوسات السابقة لعهد آدم . وفي بعض الاحيان كان جدول يصدّع على نحو مفاجيء عقداً شُرع في تشييده ، ويغمر العمال ، أو يتحرك ذائب من السِّجِّيْل فيندفع ساقطاً بمثل جيَشان شلال ، ساحقاً أعظم عوارض التدعيم الخشبية وكأنها زجاج. وفي فييت ، منذ عهد قريب جداً ، يوم تعيّن على القوم — من غير ان يوقفوا الملاحة أو يُفرغوا القناة — ان يمُروا البالوعة المجمّعة تحت قناة سان مارتين نشأ صدع في حوض القناة . وفاضت المياه فجأة في المشغل القائم تحت الأرض على نحو تجاوز طاقة مضخات النزح كلها . فاضطروا إلى التماس الصدع ، الذي كان في مدخل الحوض الكبير ، بواسطة غطاس ما ، ولم يُرأب إلا بشق النفس . وفي مكان آخر ، قرب ال « سين » ، بل وعلى مسافة ما من النهر ، كما في « بيلفيل » و « غرانـد رو » و « ممر لوينير » مثلا ، نجد رملا ليناً تغوص فيه اقدامنا ، وقد

يغيب المرء وسطه عن العيان . اضف إلى ذلك الاختناقَ بالابخرة الوبيئة ، والتكفن تحت الاتربة المنهارة ، وانخساف القعر فجأة . أضف التيفوس ، الذي يتشربه العمال في بطء . وفي ايامنا هذه ، بعد أن شقوا « دهليز كليشي » ، مع طريق جسريّ لاستقبال انبوب مياه رئيسي من الـ « الأورك » . وهو عمل نُفِّذ في خندق يبلغ عمقه عشرة مترات ؛ وبعد ان قنطروا الـ « بييفر » من « جادة المستشفى » إلى الـ « سين » ، على الرغم من الانهيارات ، وبواسطة الحفريات التي كانت عفنة في كثير من الاحيان ، وبواسطة الدعائم ؛ وبعد ان عمدوا . رغبة في انقاذ باريس من مياه مونمارتر السيليّة ولفتح منفذ لذلك المستنقع النهري البالغة مساحته تسعة هكتارات والذي ركدت مياهه قرب « باب الشهداء » — نقول بعد ان انشىء خط البواليع من « الباب الأبيض » إلى « طريق أوبرفيلييه » ، في اربعة أشهر ، بلياليها . على عمق احد عشر متراً ؛ بعد آن آتم —وهو عمل لم نر له مثيلا من قبل — شق بالوعة كاملة تحت الأرض ، فيشارع « بار دو بيك » ، من غير خندق ، على عمق ستة مترات تحت سطح الأرض ، بعد ذلك كله قضى مراقب الأعمال . مونو ، نحبه . وبعد أن قنطر ثلاثة آلاف متر من البواليع فوق مختلف انحاء المدينة ، من شارع « ترافرسير — سان — انطوان » إلى شارع لورسين ؛ وبعد ان انقذ مفرق « سانسييه موفتار » ، بامتداد آرباليت الفرعي ، من فيضانات الأمطارِ ؛ وبعد ان بنى بالوعة سان جورج على حجارة مرصوفة واسمنت في الرملي اللين ؛ وبعد ان اشرف على التخفيض الرهيب لسطح امتداد « سيدة الناصرة » ، بعد ذلك كله قضى المهندس دولو نحبه . وليس ثمة على اية حال سجل لاعمال البطولة هذه ، أكثر فائدة ، من سفاك الدماء في ميدان المعركة .

إن بواليع باريس كانت في عام ١٨٣٢ مختلفة جداً عما هي عليه اليوم. كان برونيسو قد أثار المسألة ، ولكن الأمر احتاج إلى الكوليرا لـكي

تقرر السلطة إعادة إنشاء البواليع على نحو واسع ، هذه الإعادة التي بدئ بها منذ ذلك الحين . ومن المثير للدهش أن نقول ، مثلا ، انه في عام ١٨٢١ كان جزء من البالوعة المطوّقة ، المدعوة القناة العظمى ، شأنها في البندقية (فينيسيا) ، لا يزال منتناً راكداً ، مكشوفاً في وجه السماء ، في شارع الـ « غورد » . ولم تجد مدينة باريس في جيبها مئتين وستة وستين الفاً وثمانين فرنكاً وستة سنتيمات ، وهو المبلغ الضروري لتغطية هذا العار ، إلا في عام ١٨٢٣ . وآبار الـ « كومبا » والـ « كونيت » و « سان مانديه » المتصة ، بأفواهها المصرّفة ، واجهزتها ، وبواليعها ، وامتداداتها المنقّية لا ترقى إلى أبعد من عام ١٨٣٦ . لقد أعيد بناء قناة باريس المعوية من جديد . وتعاظمت كما قلنا اكثر من عشرة أضعاف خلال ربع قرن .

منذ ثلاثين عاماً ، أيام ثورة الخامس والسادس من حزيران ، كانت البالوعة القديمة لا تزال في كثير من المواطن هي هي تقريباً . إن عدداً كبيراً من الشوارع ، المقنطرة اليوم ، كانت آنذاك طرقاً جسرية جوفاء . وكثيراً ما كنت ترى ، عند النقطة المنحدرة التي تنتهي فيها قنوات شارع أو مفرق طرق ، شباكاً مستطيلة كبيرة ذات أعمدة ضخام يلتمع حديدها وقد صقله وطء أقدام الجماهير ، شباكاً خطرة تزلق عليها العربات ، وتجعل الخيل تكبو . وكانت اللغة الرسمية الخاصة بالطرق والجسور تطلق على هذه المنحدرات والشباك لفظة *Cassis* * المعبّرة . وفي سنة ١٨٣٢ ، في كثير من الشوارع — شارع النجمة ، وشارع سان لويس ، وشارع التامبل ، وشارع فيي دو تامبل ، وشارع سيدة الناصرة ، وشارع فولي ميريكور ، وشارع الـ « كي أو فلو ر » ، الـ « بيتي موسك » ، وشارع نورماندي ، وشارع « بون أو بيش » وشارع الـ « ماريه » ، وضاحية سان مارتين ، وشارع سيدة الانتصارات ،

* وتعني قناة تعبر طريقاً .

وضاحية مونمارتر ، وشارع غرانج باتوليير في الشان زيليزيه ، وشارع جاكوب ، وشارع تورنون — كانت البواليع القوطية القديمة لا تزال تفتح شدقيها في سخرية . كانت فجوات حجرية ضخمة متبلدة ، محاطة في بعض الأحيان بأنصاب حجرية ، ذات قحة بالغة .

كان لباريس ، عام ١٨٠٦ ، عدد البواليع نفسه تقريباً المحقق في نوار عام ١٦٦٣ : خمسة آلاف وثلاثمئة وثماني وعشرين قامة * .
وحسب ارقام برونيسو ، كان ثمة في مطلع كانون الثاني عام ١٨٣٢ اربعون الفاً وثلاثمئة متر . ومن عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨٣١ بني سنوياً ، في المعدل الوسطي ، سبعمئة وخمسون متراً . ومنذ ذلك الحين انشيء في كل عام ثمانية آلاف بل عشرة آلاف متر من الدهاليز ، بمواد بنائية صغيرة ثُبِّتت بكلس من ذلك الضرب الذي يتصلب في سرعة تحت الماء على اساس من الاسمنت .

واذا اعتبرنا نفقات المتر الواحد مئتي فرنك تكون بواليع باريس الحالية البالغ طولها ستين فرسخاً قد كلفت ثمانية واربعين مليوناً .

وإلى جانب التقدم الاقتصادي الذي اشرنا اليه في البداءة ، تتصل بهذا الموضوع الهائل — بالوعة باريس — بعض قضايا « علم الصحة العامة » الخطيرة :

تقع باريس بين ملاءتين اثنتين : ملاءة ماء ، وملاءة هواء . فاما ملاءة الماء ، التي تنبسط على عمق غير يسير تحت الأرض ، والتي وُفقنا إلى بلوغها من ثقبين ، فمزودة بطبقة من رمل أخضر قائمة بين الطباشيرا والكلس الجوراسي ، وفي ميسورنا أن نتصور هذه الطبقة على شكل قرص نصف قطره خمسة وعشرون فرسخاً . إن جمهرة من الأنهار والجداول لتترشح فيها .فنحن نشرب الـ « سين » ، والـ « مارن » ، والـ « يون » ، والـ « واز » ، والـ « إين » ، والـ « شير » ، والـ « فين » والـ « لوار »

* القامة مقياس طوله ستة اقدام.

في كأس ماء من بئر غرونيل . إن ملاءة الماء نافعة للصحة ؛ إنها تنبثق من السماء أولاً ومن الأرض بعد ذلك . أما ملاءة الهواء فغير صحية ؛ انها تنبع من البالوعة . فجميع الابخرة الوبيئة المنبعثة من البواليع تمتزج بتنفس المدنية، ومن هنا ذلك النفس الكريه . والهواء الذي يتنشقه المرء من فوق مزبلة – وهذا ثابت علمياً – أطهر من الهواء الذي يتنشقه من فوق باريس » وفي فترة من الزمن بعينها ، حين يسعف التقدم ، وتبلغ الآلية كمالها ، ويتعاظم النور سوف يكون في ميسورنا ان نصطنع ملاءة الهواء . يعني لغسل البالوعة . ونحن نقصد بغسل البالوعة طبعاً : ارجاع الوحل لى الأرض ، واعادة الزبل إلى التربة ، والقذر إلى الحقول . ولسوف يفيد المجتمع كله ، من هذا العمل البسيط ، إنقاصاً للشقاء وزيادة في الصحة . وفي الساعة التي نحن فيها يمتد اشعاع امراض باريس إلى خمسين فرسخاً حول اللوفر ، بوصفه مركز هذا الدولاب الوبائي .

وفي ميسورنا ان نقول ان البواليع كانت ، طوال عشرة قرون ، داء باريس . ان البالوعة هي الآفة التي تحملها المدينة في دمها . والغريزة الشعبية لا تخطىء ابداً . فقد كادت صناعة البواليع ان تكون في الأيام الماضية خطرة وكريهة إلى الناس كصناعة القصّاب تقريباً ، هذه الصناعة التي ظلت مرهوبة زمناً والتي تُركت للجلاد . ولقد كانت السلطة تضطر إلى دفع راتب عال لكي تقنع بنّاء ما ، بالاختفاء في هذا الخندق النتن ؛ وكانت سلم حافر الآبار تتردد في الغوص فيه . وكان يقال في الامثال : نزول المرء إلى البالوعة كنزوله إلى القبر . وكانت جميع ضروب الخرافات الرهيبة تغطي بالذعر ، كما قلنا ، هذه البالوعة الهائلة ؛ بالوعة مروّعة تحمل آثار ثورات الكرة الأرضية كما تحمل آثار ثورات الناس ، ونقع فيها على آثار للفيضانات العظمى كلها منذ محارة الطوفان حتى خرقة مسارا .

الكتاب الثالث

وحل، ولكن روح

١

البالوعة ومفاجآتها

وفي بالوعة باريس بالذات وجد جان فالجان نفسه .

وشبه آخر بين باريس والبحر . إن الغاطس يستطيع أن يغيب فيها كما يستطيع ان يغيب في الاوقيانوس .

كان الانتقال خارقاً ؛ فمن وسط المدينة ذاته كان جان فالجان قد غادر المدينة ؛ وبطرفة عين ، الوقت الضروري لرفع غطاء واعادته إلى مكانه ، كان قد انتقل من وضح النهار إلى الظلمة الكاملة ، من الظهر إلى منتصف الليل ، من الضوضاء إلى الصمت ، من هزيم الرعد إلى

ركود القبر . وبتحول أكثر إعجازاً من تحول شارع بولونسو نفسه ، من أقصى حدود الخطر إلى أقصى حدود الأمن .

سقوط مفاجىء في قبو ؛ اختفاء في حبس باريس المظلم . كانت لحظة مذهلة تلك التي تعيّن عليه فيها ان يغادر ذلك الشارع الماثل فيه الموتُ في كل مكان الى هذا الضرب من القبر الذي تسري فيه الحياة . وظل بضع ثوان وكأنه مصعوق . وانشأ يصغي منشدهاً . كان فخ السلامة قد انفتح تحته فجأة . وكان اللطف السماوي قد غدر به بمعنى من المعاني . أشراك رائعة تنصبها العناية الالـهية !

مع فارق واحد هو ان الرجل الجريح لم يتحرك قط ، ولم يدرِ جان فالجان ما إذا كان هذا الذي يحمله في ذلك القبر حياً أو ميتاً .

كان احساسه الأول هو العمى . إنه لم يعد يرى شيئاً . فجأة . وبدا له أيضاً انه قد أمسى أصم –في دقيقة واحدة . انه لم يعد يسمع شيئاً . وعاصفة التقتيل المسعورة الثائرة على مسافة بضعة اقدام فوقه لم تصل اليه ، كما قلنا ، بفضل سماكة الارض التي تفصله عنها ، إلا مخنوقة وغير واضحة ، مثلَ ضجة على عمق كبير . لقد استشعر ان الأرض صلبة تحت قدميه . ذلك كان كل شيء . ولكنه كان كافياً . وبسط احدى يديه ، ثم بسط الاخرى ، ومسّ الجدار من الجانبين ، وادرك ان المجاز كان ضيقاً . وزلت قدمه ، وادرك ان البلاط مبلل . وقدّم رجلا في حذر ، خائفاً ان تصادف ثقباً ، أو بالوعة ، أو هوة . واستيقن أن البلاط متصل . وأنبأته هبّة من نتانة اين كان .

وبعد بضع لحظات عاودته القدرة على الابصار . لقد سقط ضياء قليل من المنفذ الذي انزلق منه ، واخذت عينه تألف هذا الكهف . وبدأ يتبيّن شيئاً . كان المجاز الذي ووري فيه – إن اىما كلمة اخرى لا تصور الوضع تصويراً أفضل – موصداً خلفه بجدار . كان واحداً من تلك الدروب غير النافذة التي تدعى في اللغة الفنية امتداداً فرعياً . وأمامه كان جدار

آخر ، جدار الليل . لقد تلاشى الضياء الوافد من المنفذ على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من النقطة التي كان جان فالجان واقفاً فيها ، ولم يكد يُحدث على بضعة أمتار من جدار البالوعة الرطب غير بياض شاحب . ووراء ذلك المكان كانت اللاشفافية كثيفة . وبدا اختراقها رهيباً ، وبدا الدخول اليها أشبه شيء بذهاب المرء ضحية التهام اللجة . بيد انه كان في مسور المرء ان يشق طريقه عبر جدار الضباب هذا ، وان عليه ان يفعل . بل إن عليه ان يعجل . وفكر جان فالجان ان تلك الشبكة الحديدية ، المنظورة من جانبه تحت بلاط الشارع ، يمكن ان يلاحظها الجنود أيضاً ، وإنما كان ذلك كله رهناً بالمصادفة . وكان في استطاعتهم أيضاً أن يهبطوا إلى هذه البئر ويفتشوا فيها . لم تكن ثمة دقيقة يمكن ان تضاع . كان قد وضع ماريوس على الأرض ، فجمع شتاته — وهذا أيضاً هو التعبير الصحيح — واعاد حمله على كتفيه ، وبدأ سيره . لقد دخل تلك الظلمة في عزم .

والحق انهما لم يكونا في نجوة من الخطر إلى الحد الذي خاله جان فالجان . لعل مخاطر من نوع آخر ، ولكنها ليست أقل شأناً ، كانت تنتظرهما . فبعد إعصار المعركة الساطع جاء كهف الابخرة الوبيئة والأشراك. وبعد العماء والاختلاط جاءت البالوعة . كان جان فالجان قد سقط من احدى دوائر الجحيم إلى اخرى .

وعند نهاية الخطوات الخمسين اضطر إلى التوقف . لقد برز سؤال . كان المجاز ينتهي إلى معبر آخر ضيق يلتقي به بالعَرض . وهكذا كان أمامه طريقان . فأيهما يسلك ؟ أيجب عليه ان يستدير إلى الشمال أم إلى اليمين ؟ كيف يتجه في هذا التيه الاسود ؟ كان لهذا التيه ، كما اشرنا من قبل ، مفتاح هو منحدره . وكان التزام المنحدر يعني الذهاب إلى النهر .

وفهم جان فالجان ذلك في الحال .

وقال في ذات نفسه انه ، غالباً ، في بالوعة الاسواق ، وانـه إذا اختار الاتجاه إلى اليسار وتابع سيره في المنحدر ، فعندئذ يصل في أقل من ربع ساعة إلى مصب ما على الـ « سين » بين « جسر الشانج » و « الجسر الجديد » ، يعني انه سيعاود الظهور في وضح النهار في أحفل اجـزاء باريس بالسكان . انه قد ينتهي إلى تجمّع ما لبعض المتسكعين في الشوارع . ويصاب عابرو السبيل بالذهول لرؤيتهم رجلين مخضبين بالدم ينبثقان من باطن الأرض تحت أقدامهم . ويصل رجال الشرطة ، ويدعى الجند في مركز الحراس المجاور إلى تقلد السلاح . ويلقى عليه القبض قبل ان يتمكن من الخروج . كان من الافضل أن يغوص في التيه ، أن يثق بهذه الظلمة ، وان يتكل على العناية الالـهية في هذه المسألة .

واختار الاتجاه إلى اليمين ، وراح يصعد في المرتقى .

حتى إذا انعطف حول زاوية الدهليز ، اختفى ضوء المنفذ الضئيـل القصيّ ، وعاد حجاب الظلمة يجلله من جديد ، وغدا أعمى كرة اخرى ؟ ومع ذلك فقد واصل تقدمه ، وبأقصى ما استطاع من السرعة . كانت ذراعا ماريوس تحيطان بعنقه وكانت قدماه تتدليان خافه . وامساك ذراعي ماريوس باحدى يديه ، وتحسس الجدارَ بالاخرى . ومس خدُّ ماريوس خده والتصق به ، بوصفه دامياً . لقد احس بسيل حار ، منبثـق من ماريوس ، يجري فوقه ويخترق ثيابه . ومع ذلك ، فان دفئاً رطباً عند أذنه ، التي مست فم الرجل الجريح ، كان يؤذن بالتنفس ، ويؤذن من ثم بالحياة . كان المجاز الذي تحرك جان فالجان فيه الآن أقل ضيقه من المجازَ الأول . لقد مشى جان فالجان فيه بصعوبة فلم تكن امطـار اليوم السابق قد صُرِّفت كلها ، وكانت قد أنشأت سيلا صغيراً وسط البالوعة ، وكان مضطراً إلى الالتصاق بالجدار لكي يبقي قدميه خـارج الماء . وهكذا مضى لسبيله في الدجنة . لقد أشبه مخلوقات الليل المتلمسة طريقها في اللامنظور ، الضائعة تحت الأرض في عروق الظلام .

ومع ذلك . فشيئاً بعد شيء ،عاودته القدرة على بعض الإبصار الغامض — سواء بسبب من ان بعض المنافذ بغثت بقليل من الضوء الطافي في هذا الضباب الكثيف ، أو بسبب من أن عينيه أصبحتا تألفان الظلمة — وبدأ يُلم الماماً غامضاً بالجدار الذي كان يمسه . حيناً . وبالعقد الذي كان يمشي تحته ، حيناً آخر . إن الحدقة تتسع في الظلام ، ثم تجد النهار فيه ، كما تتسع الروح في الشقاء وتنتهي باكتشاف الله فيه .

وكان اهتداؤه إلى السبيل عسيراً .

إن تخطيط البواليع ليردد ، إذا جاز التعبير ، صدى تخطيط الشوارع القائمة فوقها . كان في باريس ذلك العهد ألفان ومئتا شارع . فليتخيل كل امرىء ، تحتها ، تلك الغابة من التشعبات المظلمة التي ندعوها البالوعة. ولو أن البواليع التي كانت موجودة في ذلك العهد وُصلت اطرافها في خط مستقيم اذن لبلغ طولها أحد عشر فرسخاً . ولقد سبق منا القول ان الشبكة الحاضرة لا يقل طولها ، بفضل النشاط الاستثنائي الذي تم في السنوات الثلاثين الأخيرة ، عن ستين فرسخاً

وبدأ جان فالجان بغلطة . لقد ظن انه تحت شارع سان دونيز . وكان من سوء طالعه انه لم يكن هناك . ان تحت شارع سان دونيز بالوعة حجرية عتيقة ترقى إلى عهد لويس الثالث عشر ، وتمضي في خط مستقيم إلى البالوعة المجمّعة ، المسماة البالوعة العظمى . وهي ذات منعطف واحد ، إلى اليمين ، على ارتفاع « فناء العجائب » القديم ، وفرع واحد ، بالوعة سان مارتين ، تتقاطع أذرعه الاربعة على شكل صليب . ولكن دهليز الـ « بيتيت ترووانديري » الذي كان المدخل اليه قرب حانة كورنث لم يتصل قط بالجزء القائم تحت الأرض من شارع سان دونيز . إنه ينتهي إلى بالوعة مونمارتر ، وفي هذه البالوعة بالذات كان جان فالجان قد تورط . هناك كانت امكانيات الهلاك موفورة . فبالوعة مونمارتر من أعقد بواليع الشبكة القديمة وادعاها إلى الضلال . ومن حسن حظ

جان فالجان انه كان قد خلّف وراءه بالوعة الاسواق التي يمثل مخططها الهندسي جمهرة من سواري الببغاء المتشابكة . ولكنْ كان أمامه اكثر من لقاء مُربك ، واكثر من زاوية شارع — لأن هذه هي شوارع — تتمثل في الظلمة مثل علامة تعجب . كان إلى يساره ، اولا ، بالوعة الـ « بلاتريير » العريضة ، ضربٌ من الاحجية الصينية ، مُطيلةً ومشوّشة عماءها المؤلف من اشكال تشبه حرفي T و Z تحت الـ « اوتيل دي بوست » وتحت البناء المدور المقبب الخاص بسوق القمح حتى الـ « سين » حيث تنتهي بما يشبه حرف Y . وكان إلى يمينه ، ثانياً ، رواق شـــارع « كادران » الملتوي بأسنانه الثلاث التي تتألف من جمهرة من الطرق غير النافذة . وكان إلى يساره ، ثالثاً ، امتداد الـ « ميل » المشتبك منذ مدخله تقريباً بضرب من امتداد المذراة ، المتقدم في خطوط متعرجة إثر خطوط متعرجة ، لينتهي آخر الأمر إلى سرداب اللوفر المفرّغ الضخم ، المقطّع والمتشعب في جميع الاتجاهات . وأخيراً ، كان إلى يمينه مجاز شـــارع « الجونور » غير النافذ ، عدا المواطـن المنعزلة هنـــا وهناك ، قبل أن يصل إلى البالوعة المركزية التي تستطيع وحدها ان تقوده إلى منفذ ما قصي إلى درجة تجعله آمناً .

ولو قد كان لجان فالجان أي معرفة بما ذكرناه اللحظة اذن لادرك في سرعة ، من مجرد مس الجدار ، انه لم يكن في الدهليز تحت الأرضي من شارع سان دونيز . وبدلاً من الحجر العتيق المنحوت ، وبدلا من الهندسة المعمارية القديمة ، المتعجرفة والملوكية حتى في البالوعة ، ذات الارضية والدواميك الغرانيتية والملاط الكثيف الكلس ، التي تكلف الياردة الواحدة منه ثمانمئة ليرة ، بـدلا من هذا كله كان خليقاً به أن يستشعر تحت يده الرُّخص المعاصر والتدبير الاقتصادي ، وحجارة الرحى المنثورة فوق ملاط مائي على طبقة من الاسمنت يكلف المتر الواحد منها مئتي فرنك ، وهندسة المعمار البورجوازية المعروفة بمواد البناء الصغيرة . ولكنه

ما كان يعرف شيئاً من ذلك كله .

وتقدم إلى أمام ، في حصر ، ولكن في هدوء ، غير مبصر شيئاً ، غير عارف شيئاً ، غائصاً في المصادفة ، يعني مغموراً بالعناية الالـٰهية .

وشيئاً بعد شيء — ويتعين علينا ان نقول ذلك — ساوره شيء من الرعب . لقد دخل الظلام الذي غلّفه إلى عقله . كان يمشي في احجية . ان قناة البالوعة هذه لرهيبة ، إنها تتشابك على نحو يوقع الدوار في الرأس . وإنه لشيء كئيب أن يقع المرء في شرك باريس الظلمة هذه . واضطر جان فالجان إلى أن يكتشف ، بل إلى أن يخترع تقريباً ، طريقه من غير ان يراها . وفي ذلك المجهل كان من الجائز ان تكون كل خطوة يغامر في القيام بها هي الخطوة الأخيرة . كيف السبيل إلى خروجه من هناك ؟ أيتعين عليه ان يجد مخرجاً ؟ وهل سيوفق إلى اكتشافه في الوقت المناسب؟ هل ستجيز له هذه الأسفنجة ، تحت الارضية ، الهائلة ذات الخـلايـا الحجرية ان ينفذ اليها ويخترقها ؟ هل يواجه عقدة ظلام غير متوقعة ؟ هل يلاقي ما هو مستعصٍ وما لا يمكن تجاوزه ؟ هل يموت ماريوس من نزف الدم ، ويموت هو من الجوع ؟ هل يهلكان كلاهما ، هناك ، آخر الأمر ، ويصبحان هيكلين عظميين في زاوية من زوايا ذلك الليل ؟ لم يكن يدري . لقد طرح على نفسه هذه الاسئلة كلها ولكنه عجز عن الجواب . ان مصران باريس هاوية . لقد كان جان فالجان ، شأن النبي ، في جوف الهولة .

وفجأة استبد به الدهش . فلحظة كان اقل ما يكون توقعاً لذلك ، ومن غير ان يكف عن السير في خط مستقيم ، اكتشف انه لم يعـد يصعّد البتة . لقد اخذت مياه الجدول تصدم عقبيه بدلا من ان تصدمه عند أعلى قدميه . لقد انخفضت البالوعة ، الآن . ماذا ؟ هل يصل قريباً إلى «السين» ؟ كان هذا الخطر عظيماً ، ولكن خطر الارتداد كان اعظم . وواصل تقدمه .

إنـه لم يكن يتجه نحو الـ «سين» . والسنام الذي تشكله طوبوغرافيا باريس على الضفة اليمنى يُفرغ احد منحدريه في الـ «سين» ، والآخر في البالوعة العظمى . وقمة هذا السنام التي تعيّن انقسام المياه تتبع خطاً قُلباً إلى حد بعيد . اما الذروة ، التي هي نقطة انقسام السيل ، فهي في بالوعة سان آفوا ، وراء شارع ميشيل دو كونت ، في بالوعة اللوفر، قرب الجادات ، وفي بالوعة مونمارتر ، قرب الاسواق . وإلى تلك الذروة كان جان فالجان قد وصل . كان يتخذ سبيله نحو البالوعـة المطوّقـة ، كان يسلك الطريق الصحيح . ولكنه لم يعرف من ذلك شيئاً .

كان كلما انتهى إلى تشعب جديد تلمّس الزوايا ، فاذا وجد الفتحة أقل عرضاً من الرواق الذي كان فيه لم يدخل ، وتابع طريقه ، مقدراً بحق ان كل طريق أضيق لا بد ان تنتهي إلى زقاق غير نافذ ، وان تبعده عن الهدف ، يعني عن المخرج . وهكذا اجتنب الوقوع في الشرك الرباعي الذي نصبته له في الظلام تلك المتايهُ الأربعة التي عددناها منذ لحظـة .

وفي احدى اللحظات ، استشعر انه يبتعد من تحت باريس التي حجّرتها الفتنة ، حيث عطلت المتاريس حركة المواصلات ، وانه كان يعاود الدخول إلى ما تحت باريس الناشطة السوية . وفجأة ، سمع فوق رأسه صوتاً كالرعد ، قصياً ولكنه موصول . تلك كانت اصداء العربات المنطلقـة .

كان قد سلخ نحواً من نصف ساعة وهو يمشي ، وفقاً لحسابه على الأقل ، ولم يكن قد فكر بعد في الراحة . كل ما في الأمر أنه غيّر اليد التي كانت تحمل ماريوس . كانت الظلمة احلك منها في اي لحظة مضت، ولكن هذا العمق أعاد الثقة إلى نفسه .

وفجأة رأى خياله أمامه . لقد برز فوق احمرار واهن يكاد يكون غير واضح ، خضّب الأرض عند قدميه والعقدَ فوق رأسه بالارجوان

مخضبياً غامضاً ، وانزلق إلى يمينه وإلى يساره على جداري الرواق الدبقين. واستدار في ذهول :

ووراءه ، في ذلك الجزء من الدهليز الذي اجتازه ، وعلى مسافة بدت له هائلة ، توهج — مرسلا اشعته إلى الظلمة الكثيفة ، شبهُ كوكب رهيب بدا وكأنه ينظر اليه .

كانت نجمة البوليس القائمة هي التي اخذت تطلُع في البالوعة .

وخلف هذه النجمة كان يتحرك ، في غير نظام ، ثمانية أو عشرة أشكال سوداء ، مستقيمة ، فظيعة ، غير واضحة .

٢
تفسير

في اليوم السادس من حزيران كانت السلطة قد اصدرت أوامرها بتفتيش البواليع . لقد خشيت أن يفزع اليها المغلوبون ، فكان على مدير الشرطة جيسكيه ان يفتش باريس المستورة ، وكان على الجنرال بوغو أن يكنس باريس العمومية ؛ عملية متشابكة مزدوجة اقتضت استراتيجية مزدوجة من القوات العامة الممثلة في المحل الأعلى بالجيش وفي المحل الادنى بالبوليس . ورادت ثلاث مفارز من رجال الشرطة وعمال البواليع شوارع باريس تحت الأرضية : الأولى رادت الضفة اليمنى ، والثانية رادت الضفة اليسرى ، والثالثة طوّفت في المدينة .

كان رجال الشرطة مسلحين بالبنادق القصيرة الخفيفة ، والنبابيت ، والسيوف ، والخناجر .

وكان الذي وُجّه في هذه اللحظة إلى جان فالجان هو فانوس العسس المطوفين في الضفة اليمنى .

وكان هؤلاء العسس قد زاروا ، منذ لحظة ، الدهليز الملتوي والدروب الثلاثة غير النافذة الممتدة تحت شارع « كادران » . وفيما كانوا يجيلون مشعلهم في قعر هذه الدروب غير النافذة ، كان جان فالجان قد صادف في طريقه مدخل الدهليز ، وكان قد وجده أضيق من المجاز الرئيسي ، فلم يدخله . كان قد تجاوزه ، وكان رجال الشرطة قد ظنوا ، عند دهليز « كادران » ، انهم سمعوا وقع أقدام في اتجاه البالوعة المطوّقة . كان ذلك في الحق وقع خطوات جان فالجان . ورفع قائد العسس فانوسه وشرعت الفرقة تحدق في الظلام إلى حيث انبعث الصوت :

تلك كان لحظة لا سبيل إلى وصفها ، بالنسبة إلى جان فالجان :

واذا كان قد رأى الفانوس جيداً ، فان الفانوس لم يره ، لحسن حظه ، إلا على نحو رديء . كان الفانوس ضياء ، وكان هو ظلاماً : كان بعيداً جداً ، يغمره سواد المكان . وانزوى في جانب الجدار ، ووقف .

ومع ذلك ، فانه لم يكوّن فكرة عما كان يمشي خلفه هناك . كان الأرق والجوع والانفعال قد القت به ، هو ايضاً ، في الحالة الوهمية . لقد رأى التماعاً ، ورأى حول ذلك الالتماع بعض البرقانات * . أي شيء كان ذلك ؟ إنه لم يفهم .

حتى إذا وقف جان فالجان انقطعت الضجة :

واصغى العسس ، فلم يسمعوا شيئاً ، ونظروا ، فلم يروا شيئاً . وتشاوروا .

وكان على هذه النقطة من بالوعة مونمارتر ، آنذاك ، شبه مفرق طرق يدعى « دو مرفيس » ألغي منذ ذلك الحين بسبب من البحيرة الداخلية الصغيرة المتشكلة فيه نتيجة لانحصار مياه الامطار وسيولها ، هناك ، اثناء العواصف القوية : وكان في ميسور العسس ان يتجمعوا في مفرق

* البرقانة ، دودة تتحول الى حشرة .

الطرق ذاك .

ورأى جان فالجان هذه البرقانات تشكل شبه دائرة . وتقاربت رؤوس هذه الكلاب الكبيرة ، وتهامست .

وكانت نتيجة هذا المؤتمر الذي عقدته كلاب الحراسة ان القوم كانوا مخدوعين ، وانه لم تكن ثمة ضجة ، ولم يكن ثمة احد ، وان من العبث الذي لا طائل تحته ان يتورطوا في البالوعة المطوقة ، وان ذلك مضيعة للوقت ، ولكن عليهم أن يسرعوا في اتجاه سان ميرّي ، وانه إذا كان ثمة ما يُعمل واذا كان ثمة « قبعة بحرية » يجب ان يُقْتَصّ اثرها فينبغي ان يتم هذا في ذلك الحي .

فبين الفينة والفينة تضع فرق الجند نعالا جديدة لاهاناتها العتيقة . وفي عام ١٨٣٢ كانت كلمة « قبعة بحرية » *bousingot* تمثل مرحلة الانتقال بين كلمة « يعقوبي » *jacobin* التي كانت قد بليت ، وكلمة « ديماغوجي» *demagogue* التي كانت قد أمست غير مستعملة تقريباً والتي كانت قد أدت منذ ذلك الحين خدمة ممتازة ضخمة جداً .

واصدر الضابط أمره بالانحراف يساراً نحو منحدر الـ « سين » . ولو قد خطر لهم ان ينقسموا فرقتين ويمضوا في كلا الاتجاهين اذن لوقع جان فالجان في الاسر . كان ذلك متوقفاً على هذا الخيط الواهي . واغلب الظن ان تعليمات مديرية البوليس ، وقد توقعت نشوب معركة وقدرت ان يكون عدد المتمردين كبيراً ، حظرت على العسس ان يتفرقوا . واستأنفت الدورية سيرها ، مخلفة جان فالجان وراءها . ومن هذه الحركات كلها لم يحس جان فالجان إلا بكسوف الفانوس الذي استدار في الحال .

ولكي يريح الضابط ضميره البوليسي اطلق نار بندقيته القصيرة ، قبل مغادرته المكان ، في اتجاه النقطة التي كانوا يغادرونها ، اي نحو جان فالجان . وكرّ الدوي من صدى إلى صدى في العقد مثل قرقرة ذلك المعي الهائل . وكان في بعض الجبسين الذي تساقط في السيل فأهاج المياه

هياجاً خفيفاً على بضع خطوات من جان فالجان ما جعله يدرك ان الرصاص كان قد اصاب العقد فوق رأسه .

وتصاَدتْ خطوات بطيئة موزونة على ارض الشارع فترة من الزمن ، وكانت تلك الاصداء تزداد وهناً على وهن كلما تعاظم تباعد المسافة التدريجي ، وغاب الجمع ذو الاشكال السوداء ، وتذبذب وميضٌ وانشأ يطئو ، محدثاً في العقد قوساً ضارباً إلى الحمرة تضاءل ثم اختفى ،وامست الظلمة عميقة كرة اخرى ، وعاد العمى والصمم فاستبدا بالعتمة من جديد . وظل جان فالجان ، ولم يكن قد جرؤ بعد على الحركة ، واقفاً فترة طويلة مولياً الجدار ظهره ، مرهف الاذنين ، متسع الحدقتين ، مراقباً تلاشي دورية الاشباح تلك .

٣
المطاردة المتربصة

وينبغي ان نعترف لشرطة ذلك العهد بأنها كانت تؤدي واجباتها الحراسية والصحية ، حتى في أشد الازمات الشعبية خطراً ، في هدوء ورباطة جأش . انها ما كانت لترى في نشوب الفتنة ذريعة لالقاء حبل الاشرار على غواربهم ، أو لأهمال المجتمع لأن الحكومة في خطر . كان الواجب الاعتيادي يؤدى على احسن وجه بالاضافة إلى الواجب الاستثنائي ، ولم يكن هذا الاخير ليعوق الاول . ففي غمرة من وقوع حدث سياسي ضخم ، وتحت ضغط من ثورة قد تنشب ، كان ضباط الشرطة يطاردون اللصوص في تربص ، غير مجيزين للفتنة وللمتراس ان يصرفاهم عن مهمتهم .

إن شيئاً مثل ذلك بالضبط حدث بعد ظهر اليوم السادس من حزيران

على شاطىء الـ « سين » ، منحدر الضفة اليمنى ، وراء جسر الانفاليد بقليل .

وليس ثمة اليوم منحدر لتلك الضفة ، فقد تغيرت معالم المكان ؛

لقد بدا وكأن رجلين ، تفصل ما بينهما مسافة ما ، كانا يتخالسان النظر ، عند ذلك المنحدر ، ويحاول كل منهما أن يجتنب الآخر . كان الرجل المتقدم يحاول أن يوسع الشقة الفاصلة ، وكان الرجل المتخلف يحاول أن ينقصها .

كان ذلك اشبه بلعبة شطرنج تُلعب من بعيد ، وعلى نحو صامت ؛ ان اياً منهما لم يبد مسرعاً ، ولقد مشيا كلاهما في بطء ، وكأن كلا منهما كان يخشى ان يكون في مبالغته في الاسراع ما يضاعف سرعة خطوات مُلاعبه .

كان في ميسور المرء ان يقول انها شهوة إلى الطعام تطارد فريسة ما ، من غير أن يبدو وكأنها تفعل ذلك عن عمد ؛ وكانت الفريسة مخادعة ، وكانت تلتزم الحذر .

وروعيت النسب المطلوبة بين النمس المطارَد والكلب المطارِد . كان لذلك الذي يحاول ان يفر مشية واهنة ومحيا مهزول . وكان ذلك الذي يحاول المطاردة — وهو رجل فارع الطول — قاسيَ المظهر ، ولا ريب في انه كان قاسي المخبر .

كان الأول ، وقد استشعر انه اضعف الرجلين ، يحاول التخلص من الثاني ، ولكنه كان يفعل ذلك على نحو ضارٍ جداً . ولو قدّر لأحد ان يلاحظه اذن لرأى في عينيه ضغينة الفرار القاتمة ، وجميع ما في الخوف من توعد .

كان الشاطيء مهجوراً . لم يكن ثمة احد من عابري السبيل . بل لم يكن ثمة ربابنة زوارق أو ناقلو بضائع من السفن إلى البر فوق القوارب

المسطحة المربوطة بالأقلاس * هنا وهناك .

ولم يكن في الامكان رؤية هذين الرجلين في يسر إلا من رصيف النهر المقابل . ولقد كان خليقاً بذلك الرجل ، الماشي في المقدمة ، ان يبدو لمن قدّر له ان يراه من تلك المسافة ، وكانه مخلوق شائك ، ممزق الثياب ذليل ، قلق مرتعد تحت درّاعة بالية ، وخليقاً بذلك الرجل الآخر ان يبدو مثل شخص كلاسيكي رسمي يرتدي معطف السلطة مزرراً حتّى الذقن .

ولعله كان في ميسور القاريء ان يعرف هذين الرجلين لو رآهما من مسافة أقرب .

ما كانت غاية الرجل الأخير ؟

لعلها كانت إلباسَ الأول ثياباً أكثر دفئاً .

فحين يطارد رجل يرتدي ملابسه باسم الدولة رجلا يرتدي اسمالا بالية فهو إنما يفعل ذلك لكي يلبسه هو أيضاً ملابس من عمل الدولة . إن اللون وحده هو الذي يقرر المسألة كلها ، فالملابس الزرقاء تضفي عليك المجد ، والملابس الحمراء تثير كراهيتك .

إن ثمة ارجوانَ أعماق .

ولعل الرجل الأول كان يرغب في اجتناب مكروه ما ، أو الفرار من مثل هذا الضرب من الارجوان .

واذا كان الآخر يجيز له ان يتابع سبيله من غير أن يلقي القبض عليه فقد كانت جميع المظاهر تدل على انه كان يفعل ذلك املا في ان يراه ينتهي إلى موعد ذي شأن ، أو إلى عدد من المغانم السمينة . وهذه العملية الدقيقة تدعى « المطاردة المتربصة » .

والذي يرجح هذا الظن هو ان صاحب السترة المحكمة التزرير، وقد لمح من الشاطيء عجلة كراء تمر بالرصيف فارغة ، اشار إلى السائق ،

* القلس : حبل ضخم للسفينة من خوص او غيره .

وفهم السائق ، مدركاً من غير شك من الذي كان يخاطبه ، وادار حصانه ، وشرع يتبع الرجلين في القسم الأعلى من الرصيف باكثر ما تستطيعه العربة من بطء . إن الشخص المبهم الرث الثياب ، الماشي في الجهة الامامية ، لم يلحظ ذلك ؛

وكرت العجلة بحذاء اشجار الشان زيليزيه . كان في امكان المرء ان يرى جذع السائق يتحرك فوق الحاجز ، والسوط في يده .

إن تعليمات الشرطة السرية لرجالها تنطوي على هذه المادة : « ليكن في متناولكم دائماً عربة تستطيعون امتطاءها عند الحاجة . »

وفيما كان هذان الرجلان يناوران ، كل من ناحيته ، باستراتيجيــة خلو من العيب ، اقتربا من احد منحدرات الرصيف الهابطة حــتى الشاطيء ، والتي كانت تساعد سائقي العربات القادمة ، في ذلك العهد ، من « باسي » ، على الذهاب إلى النهر لاطفاء ظمأ خيولهم . ولقد ازيـل هذا المنحدر ، منذ ذلك الحين ، ابتغاء الانسجام . إن الخيل لتموت ظمأ ، ولكن العين قريرة .

لقد بدا أن من المتوقع أن يصعّد الرجل ذو الدراعة في هذا المنحدر لكي يحاول الفرار إلى الشان زيليزيه ، وهو موطن مزدان بالاشجار ، ولكنه غاصّ برجال الشرطة ، حيث كان في إمكان الرجل الآخر أن يقبض عليه بيد قوية .

وهذه النقطة من الرصيف قريبة جداً من المنزل الذي حمله الكولونيل براك من موريه إلى باريس ، عام ١٨٢٤ ، والمدعو بيت فرنسيس الأول. كان ثمة مركز للحراسة قائم على مقربة دانية من هناك .

ولكن الرجل المطارَد لم يتخذ سبيل منحدر المنهل ، مثيراً بذلك دهشة المراقب البالغة . لقد واصل تقدمه على الشاطيء في محاذاة الرصيف .

كان وضعه قد أمسى حرجاً على نحو واضح .

واذا لم يكن يقصد إلى القاء نفسه في الـ « سين » فما الذي يبتغي

أن يفعله ؟

لم يعد ثمة ، منذ الآن، اما وسيلة لارتقاء الرصيف . لم يكن هنالك لا منحدر ولا سلم . وكانا جد قريبين من تلك البقعة التي ينعطف الـ « سين » عندها نحو جسر إيينا ، حيث يضيق الشاطيء شيئاً بعد شيء لينتهي بلسان طويل ، ويغيب تحت الماء . وهناك كان لا بد من ان يجد نفسه محصوراً بين الجدار الشديد الانحدار ، إلى يمينه ، والنهر إلى يساره وتجاهه ، والسلطة وراءه .

صحيح ان أقصى الشاطيء هذا كان محجوباً عن النظر بركام من الردم يتراوح ارتفاعه ما بين ستة أقدام أو سبعة أقدام ، نتيجة لتخريب ما . ولكن أكان هذا الرجل يطمع في الاختباء ، على نحو مفيد ، خلف ركام الردم هذا الذي لم يكن على الرجل الآخر إلا ان يستدير حوله ؟ لقد كان خليقاً بتلك الحيلة ان تكون صبيانية . وليس من ريب في انه لم يفكر بها البتة . إن براءة اللصوص لا تبلغ هذا الحد .

واحدث ركام الردم ضرباً من الرابية ، عند حافة الماء ، تطاول مثل رأس أرضي حتى جدار الرصيف .

وبلغ الرجل المطارَد هذه التلة الصغيرة ، وتجاوزها بحيث لم يعد في ميسور الآخر أن يراه .

واذ لم يعد في ميسور الرجل الآخر أن يرى فانه ما عاد يُرى . وأفاد من هذا الوضع لكي يتخلى عن المواربة كلها ، ولكي يغذّ السير . وما هي إلا بضع ثوان حتى انتهى إلى ركام الردم واستدار حوله . وهناك ، وقف في انشداه . كان الرجل الذي طارده قد اختفى .

لقد ألمّ بالرجل ذي الدراعة كسوف كامل .

ولم يكن طول الشاطيء المتمد خلف ركام الردم ليزيد على ثلاثين خطوة ، ليغوص بعد ذلك في المياه المتلاطمة على جدار الرصيف .

لقد كان من المتعذر على الآبق ان يقذف بنفسه في الـ « سين » ، أو

ان يتسور رصيف النهر من غير ان يراه ذلك الذي كان يتعقبه . ما الذي حل به ؟

ومشى الرجل ذو السترة الطويلة المحكمة الازرار إلى أقصى الشاطيء ، ووقف هناك لحظة مفكراً ، وقد تشنج ُجمعا كفيه ، وشرعت عيناه تبحثان . وفجأة ضرب جبينه براحة يده . كان قد لاحظ في النقطة التي انتهت اليابسة عندها وبدأ الماء ، شبكة حديدية عريضة منخفضة ، مقوسة ، ذات قفل ثقيل وثلاث رزات ضخام . وكانت هذه الشبكة الحديدية ، وهي ضرب من الباب اقيم في قعر الرصيف ، تنفتح على النهر بقدر ما تنفتح على الشاطيء . وجرى من تحتها جدول ضارب إلى السواد . وكان هذا الجدول يصب في نهر السين .

وخلف قضبانها الثقيلة الصدئة كان في استطاعته ان يتبين ضرباً من الرواق المقنطر المظلم .

وطوى الرجل ذراعيه ، ونظر إلى الشبكة الحديدية نظرة توبيخ .

واذ كانت هذه النظرة غير كافية فقد حاول أن يدفع الشبكة . ثم انه هزها ، فقاومت في ثبات . كان من الراجح أنها ُفتحت منذ لحظة ، على الرغم من ان صوتاً ما لم ُيسمع ، وتلك ظاهرة فريدة بالنسبة إلى شبكة حديدية على مثل هذا الصدأ كله . ولكن كان من الثابت انها قد أوصدت كرة اخرى . وهذا ما يؤذن بأن الشخص الذي انفتح هذا الباب في وجهه منذ لحظة لم يكن يحمل ُكلاّباً صغيراً ولكن مفتاحاً .

لقد التمعت هذه الحقيقة الواضحة فجأة في ذهن الرجل الذي كان يبذل قصارى جهده لتحريك الشبكة الحديدية ، وانتزعت منه هذه الخاتمة الحكمية :

— « شيء رائع ! مفتاح من مفاتيح الحكومة ! »

ثم انه هدأ نفسه في الحال ، وعبر عن عالم كامل من الفكرات الباطنية بهذه النفخة من الكلمات الوحيدة المقطع ، الموّقعة توقيعاً يكاد يكون

تهكمياً :

– « حسن ! حسن ! حسن ! حسن ! »

حتى إذا قال ذلك ، وقف على قدم الحذر خلف ركام الردم ، بمثل السّورة الصبور التي يتكشّف عنها كلب من تلك الكلاب التي توقف قرب الطرائد بانتظار وصول الصياد ، وان كان احد لا يدري أكان يرجو من وراء ذلك ان يرى الرجل يخرج من هناك ام أن يرى رجالا آخرين يدخلون .

أما عجلة الكراء ، التي تابعت حركاته جميعاً ، فكانت قد وقفت فوقه قرب الحاجز . واذ توقع السائق انتظاراً طويلا فقد ادخل خطمي فرسيه في كيس الشوفان الرطب الذي يعرفه الباريسيون جيداً ، والذي تصطنعه الحكومات – ولنقل ذلك بين معترضتين – معهم في بعض الاحيان . وأدار بعض عابري السبيل فوق جسر ايينا رؤوسهم ، قبل ان يبتعدوا ، لكي يروا لحظة إلى هذين المنظرين الطبيعيين الجامدين : منظر الرجل على الشاطيء ، ومنظر عجلة الكراء على رصيف النهر .

٤
وهو ايضاً يحمل صليبه

كان جان فالجان قد استأنف تقدمه ، من غير ان يقف كرة اخرى . وغدا هذا التقدم اكثر إجهاداً . إن مستويات هذه العقود لتتفاوت . وان ارتفاعها المتوسط ليبلغ نحواً من خمسة اقدام وست بوصات ، مقدّراً على اساس من قامة رجل من الرجال . واضطر جان فالجان إلى الانحناء لكي لا يصيب ماريوس من العقد اذى ما . كان عليه ان يطأطيء رأسه كل لحظة ، ثم يتصدر من جديد ، ويتلمس الجدار من غير انقطاع ؛

وكانت رطوبة الحجارة ولزوجة الأرض قد جعلت منها نقاط ارتكاز ديئة ، سواء لليد أم للقدم . كان يترنح في مزبلة البلد الرهيبة . وكانت انعكاسات النور المتقطعة المنبعثة من منافذ الضوء لا تتبدى إلا في فترات متباعدة جداً ، وعلى نحو خابٍ إلى درجة جعلت نور الظهيرة يبدو أشبه بضوء القمر . وكان كل ما عدا ذلك ضباباً ، وابخرة وبيئة ، وعدم شفافية ، وسواداً . كان جان فالجان جائعاً وظمآن . وكان ظمآن بوجه خاص ؛ وهذا الموطن ، كالبحر ، مليء بالمياه التي لا يستطيع المرء ان يشربها . وكانت قوته ، الاعجوبية كما نعرف ، والتي لم توهن منها السن ، بفضل حياته العفيفة الزاهدة ، كانت قوته هذه قد بدأت رغم ذلك تضعف وتتراخى . واستبد به التعب ، وكان في تناقص قوته ما زاد في ثقل حمله . كان وزن ماريوس – ولعله قد قضى نحبه – ثقيلا كسائر الاجساد التي لا حياة فيها . لقد حمله جان فالجان على نحوٍ يقي صدره من الضغط ، ويجعل تنفسه حراً ، دائماً ، جهد الطاقة . لقد استشعر انسلال الجرذان السريع بين رجليه . وكان احدها قد ذُعر إلى حد إقدامه على عضه . وكانت تَفدُ عليه ، بين الفينة والفينة ، من خلال مآزر افواه البالوعة ، نسمة هواء جديد تنعشه .

ولعلها كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما وصل إلى البالوعة المطوّقة . ودهش باديء الامر لهذا الاتساع المفاجئ . وفجأة ، وجد نفسه في دهليز ما كانت يداه المبسوطتان لتبلغا جدرانه ، وتحت عقد ما كان رأسه ليمسّه . إن البالوعة العظمى ليبلغ عرضها ، في الحق ، ثمانية اقدام ، وعلوها سبعة .

وحيث تتصل بالوعة مونمارتر بالبالوعة العظمى كان دهليزان تحترضيان* آخران ، دهليز شارع بروفانس ودهليز شارع الآباتوار ، يلتقيان فيشكلان مفرق طرق . ولقد كان خليقاً بايما رجل أقل حكمة من جان

* اي ممتدان تحت الارض .

فالجان ان يتردد امام هذه الطرق الأربع . ولكن جان فالجان سلك السبيل الاعرض ، يعني البالوعة المطوّقة . ولكن السؤال ما لبث ان نشأ ، ههنا ، من جديد : أيهبط ، أم يصعّد ؟ وفكر أن الوضع حرج ، وان عليه ان يبلغ الـ « سين » مهما تكن المخاطر . وبكلمة اخرى ، كان عليه ان يهبط . وانعطف إلى اليسار .

وحسناً فعل . ذلك ان من الخطأ ان نحسب أن للبالوعة المطوقة منفذين أحدهما نحو بيرسي ، والآخر نحو باسي ، وأنها كما يوحي اسمها الحزام التحترضي لباريس الضفة اليمنى . ان البالوعة العظمى التي لا تعدو ان تكون ، كما ينبغي ان نتذكر ، جدول مينيلمونتان العتيق ، تنتهي حين نصّعد فيها إلى زقاق غير نافذ ، يعني إلى منطلقها القديم ، الذي كان ينبوعها ، عند سفح تل مينيلمونتان . وليس ثمة اتصال مباشر يربطها بالامتداد الذي يجمع مياه باريس تحت حي بوبينكور ، والذي يصب في الـ « سين » من طريق بالوعة آميلو فوق جزيرة لوفييه القديمة . وهذا الامتداد ، الذي يتمم البالوعة المجمّعة مفصول عنها ، تحت شارع مينيلمونتان نفسه ، بجدار صلب يعيّن نقطة انقسام الماء إلى مياه عليا ومياه سفلى . ولو قد صعّد جان فالجان في ذلك الدهليز اذن لانتهى بعد ألف جهد ، وقد هده الاعياء واشرف على الهلاك وسط الظلام — إلى سور . لو قد فعل اذن لكان الهلاك مصيره .

وبكلمة دقيقة ، فبالنكوص على عقبيه قليلا ، والدخول إلى مجاز « بنات كالفير » ، إذا لم يتردد عند مفرق بوشيرا ، وباجتياز رواق سان لويس ، ثم — إلى اليسار — ممر سان جيل ، وبعد ذلك بالانعطاف إلى اليمين واجتناب المرور في دهليز سان سيباستيين كان من الممكن ان يبلغ بالوعة آميلو ، ومن هناك — شرط ان لا يضل في ذلك الضرب من حرف الـ F الذي تحت الباستيل — كان من الممكن ان يبلغ المنفذ الذي على نهر السين قرب « دار الصناعة » . ولكن كان يتعين عليه ، حتى يتم

له ذلك ، ان يكون على احسن العلم بتلك البالوعة الهائلة المتشعبة تشعب المرجان ، بجميع امتداداتها وجميع منافذها . بيد أنه ، كما يجب ان نكرر ، ما كان يعرف شيئاً من شبكة السبل الرهيبة هذه التي كان يشق طريقه خلالها . ولو ان امرءاً سأله اين كان ، اذن لكان خليقاً بـه أن يجيب : « في الليل . »

وخدمته غريزته خدمة صالحة . كان الهبوط ، في الواقع هو السبيل الوحيدة إلى الخلاص .

لقد ترك عن يمينه المجازين اللذين يتشعبان على شكل مخلب تحت شارع « لافيت » وشارع سان جورج ، ورواق الـ « شوسيه دانتين » الطويـل المتشعب .

ووراء احد السواعد بقليل ، وكان هذا الساعد في أغلب الظن امتداداً للـ « مادلين » ، كف عن المسير . كان متعباً جداً . وتسرب نور يكاد يكون ناضراً من احدى نوافذ الضوء ، لعلها الثقب الذي في شارع آنجوه ووضع جان فالجان ، بمثل رفق اخ بأخيه الجريح ، ماريوس على حافة البالوعة . وبدا وجه ماريوس المضرج بالدم ، على ضوء النافذة الابيض، وكأنه في قعر قبر . كانت عيناه مغمضتين ، وكان شعره ملتصقا بصدغيه مثل فرشاة جففت في الصبغ الاحمر ، وكانت يداه متدليتين في غـير حياة ، وكانت رجلاه باردتين ، وكان على زوايا فمه دم متخثر . كانت جلطة دم قد اجتمعت في عقدة رباط رقبته . كان قميصه قد انغرس في الجراح ، وكان قماش سترته يمس الجراح الفاغرة فاها في اللحم الحي . وازاح جان فالجان الملابس باطراف أصابعه ، ووضع يده على صدر ماريوس . كان القلب لا يزال يخفق . ومزق جان فالجان قميصـه ، وضمد الجراح أحسن ما استطاع ان يضمدها ، واوقف الدم المتدفق . ثم انه انحنى في ذلك الغسق فوق ماريوس ، الذي كان لا يزال غائباً عن الرشد فاقداً الحياة تقريباً ، ونظر اليه في كراهية لا سبيل إلى التعبير عنها .

وكان قد وجد ، حين فتح ثياب ماريوس ، شيئين اثنين في بعض جيوبه : قطعة الخبز التي نُسيت هناك منذ البارحة ، وحافظة اوراق ماريوس . فأكل قطعة الخبز ، وفتح حافظة الأوراق . وعلى الصفحة الأولى ، وجد الاسطر الاربعة التي خطها ماريوس . إن القاريء ليتذكرها .

— « اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي إلى منزل جدي ، مسيو جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، في الماريه . »

وعلى ضوء منفذ النور ، قرأ جان فالجان هذه الاسطر الاربعة ، ووقف لحظة وكأنه مستغرق في ذات نفسه ، مكرراً في همس : « شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، مسيو جيلنورمان . » واعاد حافظة الأوراق إلى جيب ماريوس . كان قد أكل ، وكانت القوة قد عاودته . وحمل ماريوس على ظهره كرة اخرى ، واضعاً رأسه في عناية فوق كتفه اليمنى ، واستأنف هبوط البالوعة .

ويبلغ طول البالوعة العظمى ، إذا سلك المرء طريق وادي مينيلمونتان ، فرسخين تقريباً . وإن جزءاً كبيراً منها لمعبّد .

إن مشعل اسماء الشوارع الباريسية التي نضيء به للقاريء تقدّم جان فالجان تحت الارضي ، إن هذا المشعل لم يكن جان فالجان يملكه . ان شيئاً ما لم يخبره باي منطقة من المدينة كان يجتاز ، ولا أي طريق كان قد سلك . كل ما في الأمر أن الشحوب المتعاظم الذي أصاب ومضات الضياء ، تلك الومضات التي كان يلمحها بين الفينة والفينة ، آذن بأن الشمس كانت تنسحب من حصباء الطريق ، وان الليل يوشك ان يهبط . ومن جري العربات فوق رأسه . ذلك الجري الذي تحوّل من موصول إلى متقطع والذي انتهى إلى أن ينقطع انقطاعاً كاملا تقريباً ، استنتج انه لم يعد تحت باريس المركزية . وانه يقترب من احدى المناطق المنعزلة ، في جوار الجادات الخارجية أو ارصفة النهر القصية . وحيث تكون المنازل قليلة ، والشوارع قليلة ، تكون

منافذ الضياء أقل في البالوعة . وتكاثفت الظلمة حول جان فالجان . ومع ذلك ، فقد واصل تقدمه ، متلمساً سبيله في الظلمة .

وفجأة ، أمست هذه الظلمة فظيعة .

٥
ان للرمل ، كما للمرأة ، رقة خادعة

لقد استشعر أنه يلج الماء ، وانه لم يعد تحت قدميه حجارة ، ولكن وحـل .

وقد يتفق احياناً ، في بعض شواطيء بريتانيْ أو اسكتلندة ، ان يكون المرء ـ رحالة كان أو صياد سمك ـ ماشياً على الشاطيء ، في فـترة الـجزر ، بعيداً عن الضفة ، فيلاحظ فجأة أنه مشى منذ بضع لحظـات بشيء من العسر . إن الشاطيء تحت قدميه أشبه بالزفت ؛ إن نعله ليلتصق به . إنه لم يعد رملا ، لقد أصبح دبقاً . ان الشاطيء جاف كل الجفاف ، ولكن ما ان يرفع الماشي قدمه ، في كل خطوة من خطاه ، حتى يمتلىء الاثر الذي تخلّفه بالماء . ان العين لم تلاحظ تغيراً ما ، على اية حال ، وإن الشاطي ء الرحب أملس هاديء ، وللرمل كله مظهر واحد ، فليس ثمة ما يميز السطح الصلب عن السطح الذي لم يعد كذلك . وتواصل سحابـة براغيث الرمل الصغيرة البهيجة وثوبها الصاخبَ على رجلي العابر . ويتابع الرجل طريقه . ويتقدم إلى امام ، وينعطف نحو اليابسة ، ويحاول ان يزداد قرباً من الساحل . إنــه ليس قلقاً . قلقــاً من اي شيء ؟ كل مــا هنالك انــه يحس بطريقة ما ، وكأن ثقل قدميــه تزايد اثر كل خطوة يخطوها . وفجأة تغوص قدماه . انهما تغوصان إلى عمق يتراوح ما بين بوصتين وثلاث بوصات . وليس من ريب في انه

لا يسلك الطريق الصحيح . ويقف لكي يحدد اتجاهه . وفجأة . ينظر إلى قدميه . لقد اختفت قدماه . ان الرمل يغطيهما . ويسحب قدميه من الرمل ، ويرغب في النكوص على عقبيه ، ويستدير إلى الوراء . فلا تزداد قدماه إلا غوصاً . إن الرمل ليرتفع إلى كاحليه ؛ وينتزع نفسه وينطرح إلى اليسار ، ويرتفع الرمل إلى منتصف رجله ؛ وينطرح إلى اليمين ، ويرتفع الرمل إلى باطن ركبتيه . وعندئذ يدرك . في ذعر ممتنع على الوصف ، أنه وقع في شرك الرمل الخاسف ، وان تحته ذلك الوسط الرهيب الذي لا يستطيع المرء ان يسير فيه إلا بمقدار ما تستطيع السمكة ان تسبح خلاله . ويطرح حمله إذا كان مثقلاً بحمل ، ويتخفف كما تتخفف السفينة في ساعة الشدة . ولكن الاوان يكون قد فات ؛ ان الرمل قد انتهى إلى ما فوق ركبتيه .

وينادي ، ويلوّح بقبعته أو بمنديله ، ويغمره الرمل اكثر فأكثر . واذا كان الشاطيء مهجوراً ، واذا كانت اليابسة نائية اكثر مما ينبغي ، واذا كانت كومة الرمل ذات شهرة بغيضة أكثر مما ينبغي ، واذا لم يكن في الجوار بطلٌ ما ، فعندئذ ينتهي كل شيء . ويُقضى عليه بالغوص في الرمل المتحرك . إنه مقضيٌ عليه بذلك الدفن الرهيب ، الطويل ، الحقود ، المتعذر ابطاؤه أو تعجيله ، الدفن الذي يدوم ساعات ، والذي لا ينقضي ، والذي يستحوذ عليك وانت قائم ، حر ، وفي كامل عافيتك ، والذي يجرك من قدميك إلى أعمق بعض الشيء كلما بذلت جهداً وكلما أطلقت صيحة ، والذي يبدو وكأنه يعاقبك على مقاومتك بتشديد قبضته على نحو مضاعف ، والذي يعيد المرء ثانية ، في بطء ، إلى التربة تاركاً إياه طوال الوقت ينظر إلى الافق ، والاشجار ، والحقول الخضراء ، ودخان القرى في السهل ، واشرعة السفن في البحر ، والعصافير الطائرة المغردة ، واشعة الشمس ، والسماء . ان الغوص في الرمل المتحرك هو القبر الذي يتحول إلى مد ، والذي يرتفع في اعماق الارض نحو كائن

حي . إن كل دقيقة تكفين لا يعرف الرحمة . ويحاول الضحية ان يجلس ، ان يتمدد ، ان يزحف . إن كل حركة يأتيها تدفنه ؛ ويتصلد ، ويغوص ، ويستشعر ان الارض تبتلعه . ويولول ، ويتوسل ، ويجأر إلى السحب ، ويلتاع توجعاً ، وييأس . انظر اليه غائصاً في الرمل حتى الخصر ؛ إن الرمل ليبلغ صدره ، فهو لا يعدو ان يكون تمثالا نصفياً . ويرفع ذراعيه ، ويطلق أنات حانقة ، وينشب اظافره في الشاطيء ، راغباً في التعلق بتلك القشة ، ويتكئ على مرفقيه ليخرج نفسه من ذلك الغمد المائع ، ويتنهد ، في سعر ؛ ويرتفع الرمل . إن الرمل ليبلغ منكبيه ، إن الرمل ليبلغ عنقه ؛ وإن وجهه وحده هو المنظور الآن . ويصيح الفم ، فيملأه الرمل ؛ ويرين الصمت . وتظل العينان تحدقان . فيغلقهما الرمل ؛ ويسود الظلام . ثم يتناقص الجبين ، ويصفق شعرٌ قليل فوق الرمل ، وتنبثق يد ، وتخرق سطح الشاطيء ، وتتحرك وتلوّح ، وتختفي. امحاء مشؤوم ينتهي به رجل .

واحياناً يغوص الفارس مع فرسه ؛ واحياناً يغوص السائق مع عربته ؛ كل شيء مظلم تحت الشاطيء . إنه الغرق في مكان آخر غير الماء . إنها الأرض تغرق الانسان . إن الارض ، وقد تخللها الاوقيانوس ، لتصبح شَرَكاً . إنها تقدّم نفسها وكأنها سهل ، وتفغر فاها وكأنها مغارة . ان للهوة مثل هذه الخيانات .

وهذه الكارثة المشؤومة ، الممكن حدوثها دائماً في هذا الشاطيء أو ذاك من شواطىء البحر ، كانت ممكنة ايضاً ، منذ ثلاثين سنة ، في بالوعة باريس .

فقبل أن تبدأ الأعمال الهامة عام ١٨٣٣ كانت شبكة باريس تحت الارضية عرضة لانخسافات فجائية .

لقد نفذ الماء إلى بعض البقاع التحتية ، وبخاصة إلى التربة السريعة التفتت . ولقد انطوت الأرضية ، التي كانت من حجارة مرصوفة ، كما

هي الحال في البواليع القديمة ، أو من كلس سريع التصلب على اسمنت، كما هي الحال في الدهاليز الجديدة ، بعد ان فقدت سنادها . والانطواء في أرضية من هذا الضرب هو صدع ، هو انهيار . وانهارت الأرضية في مسافة بعينها . وهذا الانصداع ، انفلاق لجة من الوحل ، كان يدعى في اللغة الخاصة الخسف *fontis* . ما الخسف ؟ انه رمل الشواطيء المتحرك يلقاه المرء فجأة تحت الأرض ؛ إنه شاطيء « جبل سان ميشيل » في بالوعة . ان التربة المنقوعة تكاد تكون ذائبة . وإن جميع جزئياتها لتتدلى في وسط مائع . إنها ليست جزءاً من اليابسة ، وإنها ليست جزءاً من البحر . وقد يكون عمقها عظيماً جداً في بعض الاحيان . وليس ثمة ما هو أدعى إلى الرعب من مثل هذه المصادفة . واذا هيمن الماء فعندئذ يكون الموت رشيق الحركة ؛ إن هناك ابتلاعاً . واذا هيمنت اليابسة فعندئذ يكون الموت بطيئاً ؛ إن ثمة غوصاً في الرمل المتحرك .

هل تستطيع ان تتصور مثل هذه الميتة ؟ وإذا كان الغوص في الرمل المتحرك رهيباً على شاطيء البحر ، فكيف يكون في البالوعة ؟ فبدلا من الهواء الطلق ، والضياء الساطع ، ووضح النهار ، وذلك الافق الصافي ، وتلك الاصوات الرحبة ، وتلك السحب الحرة التي تنسكب منها الحياة ، وتلك القوارب المرئية في المدى البعيد ، وذلك الأمل المتخذ مختلف الأشكال ، وعابري السبيل الممكنين ، والنجدة الممكنة حتى اللحظة الأخيرة — بدلا من ذلك كله تقع هناك على الصمم ، والعمى ، وعلى عقد أسود ، وجوف قبر معدّ سلفاً ، وعلى الموت في الوحل تحت غطاء ! وعلى الاختناق البطيء بالقذر ، وعلى صندوق حجري حيث ينشب الموت اختناقاً مخلبه في الحمأة ويأخذ بخناقك ، وعلى النتانة ممزوجةً بحشرجة الموت . وحل بدلا من الرمل ، هيدروجين مُكَبْرَتٌ بدلا من الأعصار ، واقذار بدلا من الاوقيانوس ! هناك تصرخ منادياً ، وتصر على اسنانك ، وتتلوى توجعاً ، وتناضل ، وتحشرج ، وقد جهلتْ تلك المدينة الهائلةُ القائمة فوق

رأسك كل ما انت فيه من بلاء .

إن الموت على هذا النحو هولٌ لا سبيل إلى وصفه ! وفي بعض الاحيان يكفّر الموت عن قسوته البالغة ببعض الشرف الرهيب . فعلى الخازوق ، وفي السفينة الغارقة ، قد يكون المرء عظيماً . في اللهب ، كما في الزبد ، يكون الوضع البهيّ ممكناً . انك لتتـألق وانت تسقط في تلك الهاوية . ولكنْ ليس هنا البتة . إن الموت هنا قـذر . وان العار من تلفظ انفاسك . إن آخر الرؤى الطافية لحقيرةٌ . الوحل مرادف للعار . إنه وضيع ، بشع ، مرذول . الموت في برميل خمر يونانيّ ، مثل كلارنس * ، قد يكون مقبولا . أما الموت في حفرة رافع الوحل ، مثل ايسكوبلو ، فذلك شيء رهيب . إن النضال في جوف تلك الحفرة لفظيع . ففيما انت تحشرج يصيبك الوحل . ان فيها لظلمة كافية لجعلها جحيماً ؛ وان فيها لوحلا كافياً لجعلها حمأة ليس غير ، ولا يـدري الرجل المحتضر هل سيصبح شبحاً أم علجوماً ** .

القبر مظلم في كل مكان ، أما هنا فهو شائه .

وكان عمق الخسف يتفاوت ، كما يتفاوت طوله وغلاظته ، تبعاً لمدى الرداءة التي يتسم بها باطن الأرض . ففي بعض الاحيان كان عمق الخسف ثلاثة أقدام أو أربعة ، وفي بعضها الآخر كان ثمانية أقدام أو عشرة . واحياناً لم يكن للخسف قرارٌ البتة . كان الوحل ههنا صلباً أو يكاد ، وكان ههناك مائعاً أو يكاد . ففي خسف لونير كان اختفاء المرء يقتضيه يوماً كاملا ، على حين كان في ميسور حمأة « فيليبو » ان تبتلعه في خمس دقائق . وصمود الوحل رهن بكثافته ، إنْ قليلةً فقليل ، وإنْ كثيرة

* Clarence أخو ادورد الرابع ملك انكلترة . ولخيانته هذا الاخير حكم عليه بالموت . ويقولون انهم تركوا له حق اختيار وسيلة الموت ، فاختار الاغراق في برميل ملء بالخمر اليونانية malvoisie (١٤٤٩ — ١٤٧٨)

** العلجوم : ضفدع الجبل .

فكثير . وقد ينجو الطفل حيث يهلك الرجل . وأول قواعد السلامة ان تجرد نفسك من كل حمل . واطّراح كيس الادوات ، أو السلة ، أو حوض الملاط ، هو أول ما يفعله عامل البواليع عندما يستشعر أن الأرض تنخسف تحت قدميه .

وكانت للخسف اسباب مختلفات : سهولةُ تفتتِ التّربة ، وانصداعٌ ما على عمق يعجز المرء عن بلوغه ، وامطار الصيف الغزيرة العنيفة ، وعواصف الشتاء الموصولة ، والرذاذ الرقيق الطويل . وفي بعض الأحيان كانت وطأة البيوت المجاورة على تربة سِجّيلية أو رملية تضغط على عقود الدهاليز تحت الأرضية وتلويها ، وقد يتفق أن تتشقق أرضية الدهليز وتتصدع تحت هذا الضغط الماحق . والواقع ان تثاقل وطأة البانتيون ، بهذه الطريقة ، قد محا ، منذ قرن ، جزءاً من كهوف جبل « سانت جانفييف » . وحين كانت احدى البواليع تنهار تحت ضغط البيوت كان الخلل يتكشّف أحياناً ، فوقُ ، في الشارع ، بضرب من الانفصال بين بلاطات الطريق شبيهٍ بأسنان المنشار . وكان هذا التشقق يتكون في خط لولبي يمتد على طولِ العقد المتصدع ؛ واذ كانت العلة ملحوظة فان في ميسور العلاج ان يكون عاجلا . وكثيراً ما يتفق ايضاً ان لا يتكشف العطل الداخلي من طريق اي ندبة خارجية . والويل لعمال البواليع في هذه الحال . انهم قد يهلكون بسبب من دخولهم إلى البالوعة الغائرة ، في غير ما حذر . والسجلات القديمة تذكر بعض العمال الذي دُفنوا في الخسف ، على هذا النحو . انها تذكر عدة أسماء . ومن بين هؤلاء ذلك العامل الذي هلك في حمأة غائرة تحت قناة شارع « كاريم برونان » ، والذي كان يدعى بليز بوترين . وكان بليز بوترين هذا أخاً لنقولا بوترين الذي كان آخر حفار قبور في الجبانة المدعوة « شارنييه ديزينوسان » عام ١٧٨٥ ، وهو التاريخ الذي ماتت فيه هذه الجبانة .

وكان ثمة ايضاً الفيكونت ديسكوبلو ، الشاب الفاتن ، الذي تحدثنا

عنه ، وهو أحد أبطال حصار ليريدا ، حيث كان المهاجمون مرتدين الجوارب الحريرية ، يتقدمهم عدد من الكمانات * . وتفصيل ذلك ان ديسكوبلو بوغت ذات ليلة عند ابنة عمه الكونتس دو سورديس ، فغرق في مَوحل من مواحل بالوعة بوتريبي كان قد فزع اليه فراراً من وجه الدوق . وحين وُصف موته لمدام دو سورديس طلبت زجاجة الشم ، ونسيت ان تبكي لكثرة ما استنشقت من الاملاح ** . فليس ثمة غرام يصمد في مثل هذه الحال . البالوعة تطفئه . إن هيرو *** ترفض ان تغسل جثة ليياندر . وان تيسبيه تسد انفها امام بيرام **** وتقول : «أف» .

٦
الخسف

لقد وجد جان فالجان نفسه أمام خسف ما .

وكان هذا الضرب من الانهيار مألوفاً آنذاك في تحتربة الشان زيليزيه ، شبه الممتنعة على الاعمال المائية ، والقليلة الصيانة للمنشآت تحت الأرضية، بسبب من ميوعتها المفرطة . وهذه الميوعة تفوق حتى ميوعة رمال حي السان جورج التي ما كان من الممكن التغلب عليها إلا برصف الحجارة في الماء على طبقة من الاسمنت ، وميوعة التربة الطينية المنتنة بالغاز في

* جمع كمان ، الآلة الموسيقية المعروفة .

** يقصد املاح الشم ، وهي التي تستعمل للتخلص من الأغماء والصداع .

*** هيرو Hero وليياندر Léandre عاشقان تروي قصة غرامها قصيدة اغريقية متأخرة ، وكانت هيرو كاهنة لفينوس ، وقد غرق حبيبها ليياندر في الدردنيل .

**** Pyrame شاب بابلي اشتهر بحبه لتيسبيه Thisbé وتروي الاسطورة ان بيرام قتل نفسه حين رأى دماً توهم انه دم تيسبيه ، حتى اذا علمت تيسبيه بالامر انتحرت بدورها .

« حي الشهداء » ، تلك التربة المائعة إلى درجة جعلت شق المعبر تحت دهليز الشهداء غير مُجدٍ إلا باصطناع انبوب معدني . حتى إذا هدموا ، عام ١٨٣٦ ، ابتغاء إعادة بنائها ، البالوعةَ الحجرية العتيقة تحت ضاحية سان أونوريه ، التي نرى جان فالجان في هذه اللحظة متورطاً فيها ، شكّل الرمل المتحرك ، الذي يؤلف التحتربة الممتدة من الشان زيليزيه إلى الـ « سين » ، عقبةً كأداء إلى حد جعلت العمل يستمر ستة اشهر تقريباً ، مما أثار اعتراضات شديدة من أصحاب الاملاك القائمة على ضفة النهر ، وبخاصة من أصحاب الفنادق والعربات الفاخرة . كان العمل أكثر من عسير ، كان خطِراً . ولقد كان ثمة ، في الحق ، اربعة اشهر ونصف من المطر ، وثلاثة فيضانات لنهر السين .

وكان الخسف الذي صادف جان فالجان ناشئاً عن أمطار اليوم السابق ، الغزيرة . وكان انخساف بلاط الشارع ، بعد ان خذله الرمل التحتيّ ، قد أدى إلى احتجاز مياه الامطار . حتى إذا حدث الارتشاح ، تبعه الانخساف . وكانت الأرضية ، المتفككة ، قد اختفت في الوحل . إلى أية مسافة ؟ من المتعذر على المرء أن يحزر . كانت الظلمة أحلك منها في ايما مكان آخر . كانت حفرةً من وحل في مغارة من ليل .

واستشعر جان فالجان البلاط يغور تحته . وولج هذه الحمأة . كانت ماء على السطح ، ووحلاً في القعر . إن عليه ان يجتازها بأية حال . فقد كان الارتداد مستحيلا . كان ماريوس مشرفاً على الموت ، وكان جان فالجان خائر القوى . وإلى أي مكان غيره يستطيع أن يذهب ؟ وتقدّم جان فالجان . وإلى هذا ، فأن الموحل بدا عبر عميق في الخطوات الأولى . ولكن قدميه كانتا تمعنان في الغوص كلما أمعن في التقدم . وسرعان ما وصل عمق الوحل إلى منتصف ساقيه ، وانتهى الماء إلى أعلى من ركبتيه . وتابع سيره ، حاملا ماريوس بذراعيه أعلى ما استطاع حمله فوق الماء .

وانتهى الوحل الآن إلى ركبتيه ، وبلغ الماء خصره . ولم يعد في طوقه أن يرتد . وغاصت قدماه أعمق فأعمق . كان واضحاً ان هذا الوحل ، الكافية كثافته لثقل رجل واحد ، عاجز عن احتمال رجلين اثنين . ولو قد كان كل من جان فالجان وماريوس منفرداً اذن لكان له أمل في النجاة . وواصل جان فالجان تقدمه ، حاملا ذلك الرجل المحتضر ، الذي ربما كان جثة هامدة .

وارتفعت المياه إلى إبطيه ؛ واستشعر أنه يغرق ؛ ولم يوفق إلى التحرك في أعماق الوحل الذي كان فيه إلا في مشقة . فالكثافة ، التي كانت السناد ، كانت هي العقبة ايضاً . كان لا يزال رافعاً ماريوس . وفي بذل للقوة لم يُسبق إلى مثله ، تقدّم إلى أمام ، ولكن قدميه غاصتا أكثر . كان رأسه وحده ، الآن ، خارج الماء ، وكذلك ذراعاه الرافعتان ماريوس . إن بين صور الطوفان القديمة أماً ترفع طفلها على هذا النحو .

وغاص أعمق فأعمق ، وردّ وجهه إلى الوراء اجتناباً للماء ، ولكي يكون في مقدوره أن يتنفس . ولو قدّر لأحد ان يراه في تلك الظلمة اذن لخيل إليه أنه يرى قناعاً عائماً في الظلام . ولم يلمح فوقه رأس ماريوس المنكس ووجهه الشاحب ، إلا على نحو غامض . وبذل جهداً يائساً ، ودفع قدمه إلى أمام . ووقعت قدمه على شيء صلب . كانت نقطة ارتكاز . وكان ذلك في الوقت المناسب .

ونهض ، وتلوى متوجعاً ، وثبت نفسه فوق هذا المرتكز في ضرب من السُّعر . واحس وهو يفعل ذلك وكأنه يضع قدمه على أولى درجات من سلم يصعد به ثانية إلى الحياة .

وهذا المرتكز ، المكتشف في اللحظة الأخيرة وسط الوحل ، كان مستهل منحدر الارضية الآخر ، تلك الأرضية التي كانت قد التوت من غير أن تتحطم ، وتحدبت مثل لوح خشبي وبوصفها قطعة واحدة .

إن الأرضيات المحكمة البناء لتشكل عقداً ، وان لها مثل هذا الرسوخ . وكانت تلك القطعة من أرضية الدهليز ، المغمورة جزئياً ، ولكن الصلبة، منحدراً حقيقياً ، فما يكادان يبلغان هذا المنحدر حتى ينجوا . وارتقى جان فالجان هذا السطح المنحني ، وانتهى إلى الجانب الآخر من الموحل .

وفيما كان يخرج من الماء تعثرت قدمه بحجر . فخرّ على ركبتيه . وبدا ذلك الحادث ملائماً في نظره ؛ وظل على هذا الوضع فترة ، واستغرقت روحه في صلاة للرب غير ملفوظة .

ونهض ، مرتعداً ، مثلوجاً ، آسناً ، محدودباً تحت هذا الرجل المحتضر الذي كان يجره ، وقد سال الوحل من اقطار جسمه كلها ، وامتلأت روحه بضياء عجيب .

٧

قد نجنح الى الشاطىء احياناً حيث نظن اننا نهبط الى اليابسة

واستأنف سيره كرة اخرى .

بيد أنه إن يكن لم يترك حياته في ذلك الخسف فالذي يبدو انه ترك قوّته . كان هذا الجهد الفائق قد أنهكه . وكان خوره من الشدة بحيث امسى مضطراً إلى أن يأخذ نفَساً ، كل ثلاث خطوات أو اربع ، ويستند إلى الجدار . وذات مرة ، تعيّن عليه ان يجلس على الحافة لكي يغير وضع ماريوس ، وخيّل له أن عليه ان يبقى هناك . ولكن إذا كانت قوته قد ماتت ، فأن عزيمته لم تمت . ونهض .

ومشى في يأس ، وفي سرعة تقريباً ، طوال مئة خطوة ، من غير

ان يرفع رأسه ، ومن غير ان يتنفس تقريباً : وفجأة ارتطم بالجدار . كان قد انتهى إلى زاوية البالوعة ، واذ وصل إلى المنعطف منكس الرأس التقى الجدارَ . ورفع عينيه . وعند أقصى الدهليز ، هناك أمامه ، بعيداً بعيداً جداً ، لمح ضوءاً . وهذه المرة ، لم يكن الضوءَ الرهيبَ . كان الضوء الخيّر الابيضَ . كان ضوءَ النهار :

لقد رأى جان فالجان المخرج .

ان النفس الهالكة التي يقدّر لها ، من وسط الاتون ، ان تلمح فجأة مخرجاً من جهنم خليقٌ بها ان تشعر بما شعر به جان فالجان . إنها تطير في سعر ، بالبقية الباقية من جناحيها ، نحو الباب المشع . ولم يعد جان فالجان يستشعر الاعياء ، ولم يحس بثقل ماريوس ، ووجد ركبتيه الفولاذيتين كرة أخرى ، وانطلق راكضاً أكثر منه ماشياً . وفيما هو يقترب ، كان المخرج يتخذ شكلا أوضح فأوضح . كان قوساً دائرياً ، أقل ارتفاعاً من العقد الذي غار شيئاً بعد شيء ، وأقلَّ عرضاً من الدهليز الذي ضاق كلما انخفض العقد . وانتهى النفق ، من داخل ، على شكل قمع . تضييق سقيم ، منقول من بُويبات السجون . تضييقٌ معقول في سجن ، ولكنه غير معقول في بالوعة ، وقد صُحح منذ ذلك الحين .

ووصل جان فالجان إلى المخرج .

وهناك وقف .

كان هو المخرجَ حقاً ، ولكن جان فالجان لم يستطع الخروج منه .

كان القوس موصداً بشبكة حديدية قوية . وكانت الشبكة الحديدية — التي لم تكن تدور ، كما تدل جميع المظاهر ، على رزاتها الصدئة ، إلا نادراً — مشدودة إلى إطار حجري بقفل غليظ بدا ، وقد احمر من الصدأ ، وكأنه آجرة ضخمة . كان في ميسور المرء ان يرى ثقب المفتاح ولسان القفل القوي مغموراً غمراً عميقاً في الرزة الحديدية . كان القفل مغلقاً ، على نحو منظور ، غلقاً مزدوجاً . كان واحداً من أقفال الباستيل

التي كانت باريس العتيقة شديدة السخاء بها .

ووراء الشبكة الحديدية ، كان الهواء الطلق ، والنهر ، وضوء النهار ، والشاطيء – الضيق جداً ولكن الكافي لتمكين المرء من المرور – وارصفة النهر النائية . وباريس – تلك الهوة التي يستطيع المرء الاختفاء فيها بسهولة – والأفق العريض ، والحرية . وتبيّن إلى يمينه ، في سافلة النهر ، جسر ايينا ، وإلى يساره ، في عالية النهر ، جسر الانفاليد . كانت البقعة ملائمة للترصد في الليل وللفرار . كانت احدى نقاط باريس الاكثر انعزالا ، الشاطىء المواجه لـ « غرو كايو » . ودخل الذباب وخرج من خلال قضبان الشبكة الحديدية .

لعلها كانت الساعة الثامنة والنصف مساء . كان الليل قد هبط .

ووضع جان فالجان ماريوس على أرضية الدهليز في محاذاة الجدار ، ثم مضى إلى الشُّباكة الحديدية ، وأمسك بقضبانها بكلتا يديه . كان الهز مسعوراً ، ولكن الاهتزاز كان صفراً . إن الشُّباكة الحديدية لم تتحرك . وقبض جان فالجان على القضبان الحديدية ، واحداً بعد آخر ، راجياً ان يوفق إلى انتزاع أقلها صلابة ، وأن يتخذ منه مخلاً يمكنه من رفع الباب أو كسر القفل . ولكن أياً من القضبان لم يتحرك . إن أسنان النمر ما كانت اكثر صلابة في مغارزها . لا مخل ، لا جهدَ قادراً على الرفع . كانت العقبة عصية لا تقهر . ولم تكن ثمة وسيلة لفتح الباب .

أيتعين عليه ، اذن ، ان يموت هناك ؟ ما الذي يجب ان يفعله ؟ أينقلب على عقبيه ؟ أيرتد سالكاً تحت الطريق الرهيبة التي اجتازها منذ لحظات ؟ لم تكن له القوة الكافية لذلك . وإلى هذا ، كيف السبيل إلى عبور ذلك الموحل . كرة اخرى ، وهو الذي لم ينج منه إلا بمعجزة ؟ وبعد الموحل ألم تكن ثمة دورية الشرطة التي لا يستطيع المرء ، من غير ريب . ان ينجو منها مرتين ؟ وفوق هذا كله ، إلى أين يذهب ؟ أي اتجاه يتخذ ؟ إن هبوط المنحدر ما كان ليُبلغه هدفه . ولو انه انتهى

إلى مخرج آخر ، اذن لوجده مسدوداً بباب أو بشبكة حديدية . كانت جميع المخارج موصدة على هذا النحو من غير شك . كانت المصادفة قد انتزعت الشبكة الحديدية التي دخلا منها ، ولكن مخارج البالوعة الأخرى كانت موصدة من غير جدال . إنه لم يوفق إلى غير الفرار إلى سجن .

لقد قضي الأمر . كان كل ما فعله جان فالجان عقيماً . إن الله لم يشأ .

كانا كلاهما قد علقا في نسيج الموت المظلم الهائل ، وأحس جان فالجان بالعنكبوت الرهيبة تمشي فوق تلك الخيوط السوداء المرتعدة في الظلام .

وادار ظهره إلى الشبكة الحديدية ، وخرّ على الحصباء ، مكباً على وجهه أكثر منه جالساً ، إلى جانب ماريوس الذي كان ما يزال فاقد الحركة ؛ وغار رأسه بين ركبتيه . لا مخرج . تلك كانت آخر قطرة من قطرات الألم النفسي المرير .

فيمن فكر وهو ينوء تحت ذلك الخور البالغ ؟ انه لم يفكر لا في نفسه ولا في ماريوس . لقد فكر في كوزيت .

٨
ذيل السترة الممزق

وفي غمرة من هذا الاعياء مست كتفَه يدٌ . وخاطبه صوت مهموس قائلا :

— « أعطني النصف ! »

شخص في الظلام ؟ ليس كاليأس شيء يشبه الحلم : وخيّل لجان

فالجان أنه يحلم . إنه لم يسمع وقع خطى ما . أكان ذلك ممكناً ؟

رفع عينيه .

كان أمامه رجل .

وكان الرجل يرتدي دُرّاعة ، كان حافي القدمين . وكان يمسك نعليه بيده اليسرى . كان من الواضح انه خلعهما لكي يكون قادراً على الوصول إلى جان فالجان من غير ان يحس به .

ولم يتردد جان فالجان لحظة . ولئن كان ذلك اللقاء غير متوقع البتة . فقد كان هذا الرجل معروفاً عنده . كان هذا الرجل هو تيناردييه .

وعلى الرغم من ان جان فالجان أوقظ . إذا جاز التعبير ، في إجفال فانه — وهو المتعود ان يكون يقظاً وعلى حذر من الضربات غير المتوقعة التي يتعين عليه ان يتقيها بسرعة — استعاد حضور ذهنه الكامل في الحال . وإلى هذا ، فان الاحوال لا يمكن أن تكون اسوأ من ذلك ، فهناك درجة من الشدة تمتنع على الزيادة . وتيناردييه نفسه لم يكن في ميسوره ان يضيف شيئاً إلى سواد ذلك الليل .

وكانت لحظةُ توقُّع .

ورفع تيناردييه يده اليمنى إلى ارتفاع جبينه . وظلل عينيه بها ، ثم زوى ما بين حاجبيه بينا غمزَ بعينيه على النحو الذي يميّز ، مع قرص طفيف للفم ، ذلك الانتباه الثاقب الذي يتكشف عنه رجلٌ يحاول ان يتبين شخصاً آخر . ولم يوفق الى ذلك البتة . لقد أدار جان فالجان ظهره للضوء ، كما قلنا من قبل . وكان فوق هذا مشوَّه الصورة ، ملطخاً بالوحل . مضرجاً بالدم إلى حد خليقٍ بأن يجعل تعرُّفه متعذراً حتى في قلب الظهيرة . أما تيناردييه — وكان الضوء المنبعث من الشبكة الحديدية . وهو ضوء شاحب من غير شك ولكنه دقيق في شحوبه ، ينير وجهه — أما تيناردييه هذا فقفز ، كما تقول الصورة المجازية المبتذلة ، إلى عيني جان فالجان في

الحال . وكان في هذا التفاوت بين الوضعين ما ضمن لجان فالجان شيئاً من الامتياز في تلك المبارزة الخفية التي كانت على وشك أن تنشب بين الوضعين والرجلين . لقد تم اللقاء بين جان فالجان محجّباً وبين تيناردييه منزوعَ القناع .

وأدرك جان فالجان ، في الحال ، أن تيناردييه لم يعرفه .

وحدق أحدهما إلى الآخر ، لحظة ، في ذلك الغسق ، وكأنما كان كل منهما يقيس صاحبه . وكان تيناردييه أسرع إلى قطع حبل الصمت .

— « ما الذي ستعمله من أجل الخروج ؟ »

ولم يجب جان فالجان .

وتابع تيناردييه :

— « من المستحيل فتح القفل بكُلاّب . ومع ذلك ، فأن عليك أن تخرج من هنا . »

فقال جان فالجان :

— « هذا صحيح . »

— « حسن . أعطني النصف . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « لقد قتلتَ الرجل . هذا حسن . أما أنا ، فمعي المفتاح . »

واشار تيناردييه إلى ماريوس . وتابع كلامه :

— « انا لا أعرفك ، ولكني أود أن اساعدك . لا شك انـك صديق . »

وبدأ جان فالجان يفهم . لقد حسبه تيناردييه سفاحاً . وعاد تيناردييه إلى القول :

— « اسمع ، ايها الرفيق ، انت لم تقتل هذا الرجل من غير ان تنظر إلى ما في جيوبه . أعطني حقي في النصف . سـوف افتـح الباب لك . »

وسحب من تحت دراعته الملأى بالثقوب مفتاحاً كبيراً وأبرزه ابرازاً نصفياً ، ثم أضاف :

— « أتحب أن تعرف شكل مفتاح الهرب ؟ دونك إياه . »

« وظل جان فالجان أبله » — والتعبير لكورناي العجوز — إلى حد الشك في ان ما رآه كان حقيقياً . كانت العنايةَ الالـٰهية في قناع من الهول ، والملاكَ الخيّر منبثقاً من باطن الارض على صورة تيناردييه .

واقحم تيناردييه جمع كفه في جيب ضخم مخبوء تحت دراعته ، واخرج حبلا ، وقدمه إلى جان فالجان .

وقال :

— « خذ . لقد أعطيتك الحبل بالاضافة إلى ذلك . »

— « حبل ؟ ولأي غرض ؟ »

— « وتحتاج إلى حجر أيضاً ، ولكنك ستجد حجراً في الخارج . إن هناك ردماً . »

— « حجر ؟ ولأي غرض ؟ »

— « ما دمت ستقذف بجثة الرجل في النهر فانت محتاج إلى حجر وحبل . وإلا عامت على سطح الماء . »

وأخذ جان فالجان الحبل . وليس ثمة شخص لم يتقبل بعض الاشياء على مثل هذا النحو الميكانيكي .

وفرقع تيناردييه أصابعه وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة :

— « والآن ، أيها الرفيق ، ما وسيلتك إلى الخروج من ذلك الموحل الذي هناك ؟ انا لم اجروْ على المغامرة بنفسي فيه . أف ! انت لا تنتم جيداً . »

وبعد فترة ، أضاف :

— « أنا أوجه اليك أسئلة ، ولكنك على حق في عدم الاجابة عنها . إن هذا تدرّبٌ على ربع الساعة اللعينة التي ستقضيها مع قاضي التحقيق .

وإلى هذا ، فانك بعدم الكلام بتاتاً تجتنب مغامرة التحدث بصوت أعلى مما ينبغي . وانك لتخطىء على كل حال إذا حسبت ، لمجرد اني لا ارى وجهك ولا أعرف اسمك ، اني لا أعرف من أنت وماذا تريد . معروف . لقد سحقتَ هذا الرجل ، بعض الشيء . والآن تريد ان تخفيه في مكان ما . انت في حاجة إلى النهر ، مخبأ الحماقة الكبير . ولسوف اخلصك من ورطتك . ان مساعدة فتى طيب نزلت به محنة تُلبسني حذائي . »

وفيما كان يقرّ جان فالجان على اعتصامه بالصمت ، راح يعمل بصورة واضحة على إغرائه بالكلام . لقد دفع منكبه لكي يحاول أن يرى صورته الجانبية ، وهتف ولكن من غير ان يرتفع إلى ما فوق النبرة المعتدلة التي احتفظ بها صوته :

— « وعلى ذكر الموحل ، يبدو لي انك حيوان فخور . لماذا لم تقذف بالرجل هناك .؟ »

واعتصم جان فالجان بالصمت .

واستأنف تيناردييه كلامه ، رافعاً إلى جوزة حلقه تلك الخرقة التي قامت عنده مقام رباط الرقبة ، وهي حركة تتمم سيما الحصافة عند الرجل الجديّ :

— « لعلك ، في الواقع ، تصرفت بحكمة : إن العمال حين يجيئون غداً لكي يسدوا الثقب لا بد ان يجدوا الجثة منسية هناك ، وعندئذ يكون في استطاعتهم ، خيطاً خيطاً ، وقشة قشة ، أن يلتقطوا الاثر ، ويصلوا اليك . هل اجتاز أحد البالوعة ؟ مَن ؟ من اين خرج ؟ هل رآه أحد يخرج ؟ ان للبوليس دماغاً كبيراً . والبالوعة غادرة ، وهي تشي بك . ومثل هذا الاكتشاف نادر ، وهو يلفت الانتباه ، فقليل من الناس يستخدمون البالوعة في اعمالهم ، على حين أن النهر في خدمة الناس جميعاً . ان النهر هو القبر الحقيقي . وفي نهاية الشهر يصيدون الرجل

بشبكات سان كلو . حسن ، ما محصول ذلك ؟ جيفة ، من غير شك ! من قتل ذلك الرجل ؟ باريس . والعدالة لا تكلف نفسها عناء السؤال عن ذلك . لقد احسنت صنعاً . »

وكلما ازداد تيناردييه ثرثرة ازداد جان فالجان بكماً . ودفع تيناردييه كتف جان فالجان كرة اخرى .

— « والآن دعنا ننجز الصفقة . فلنقتسم . لقد رأيتَ مفتاحي فأرني دراهمك . »

كان تيناردييه شكساً ، ضارياً ، مبهماً ، ومتوعداً بعض الشيء . ومع ذلك فقد كان ودياً .

وكان ثمة شيء غريب . فقد كان مسلك تيناردييه غير طبيعي ، إنه لم يبدُ مطمئناً كل الاطمئنان . صحيح أنه لم يصطنع سيما خفية ، ولكنه تكلم في صوت خفيض . فبين الفينة والفينة كان يضع اصبعه على فمه ويغمغم : « صه ! » وكان من العسير على جان فالجان ان يحزر لماذا . فلم يكن هناك احد غيرهما . وفكر جان فالجان ان من الجائز أن يكون بعض قطاع الطرق الآخرين مختبئين في احدى الزوايا المحجوبة غير بعيد عنهما ، وان تيناردييه لم يكن مهتماً بأن يقاسمهم ما يطمع في الحصول عليه .

وعاد تيناردييه إلى الكلام :

— « فلنختم . كم كان في جيوب الرجل ؟ »

وبحث جان فالجان في جيوبه هو .

كان من عادته دائماً ، كما يذكر القارئ ، ان يحمل بعض المال . ذلك ان حياة الحيل المظلمة التي حُكم عليه بأن يحياها جعلت هذا قانوناً بالنسبة اليه . بيد أنه هذه المرة أُخِذ على حين غرة . فحين لبس ، أمس ، ثوب الحرس الوطني كان قد نسي ، في استغراقه الحدادي ذاك ، ان يأخذ حافظة نقوده معه . لم يكن معه غير بعض القطع النقدية في جيب

صدرته ، وكان ذلك يبلغ نحواً من ثلاثين فرنكاً . وجعل داخل جيوبه خارجها ، وكانت كلها منقوعة بالوحل ، وعرض على حافة البالوعة ليرة لويسية ذهبية ، وقطعتين من فئة الفرنكات الخمسة ، وخمس قطع أو ست قطع من فئة الـ « سو » الكبير .

ومد تيناردييه شفته السفلى ، وصعر خده على نحو ذي مغزى .

وقال :

— « لقد قتلته بثمن بخس . »

وبدأ يجس جيوب جان فالجان وماريوس في دالة بالغة . ولم يعارضه جان فالجان ، فقد كان يهمه في المحل الأول ان يدير ظهره للنور . وفيما كان تيناردييه يتحسس سترة ماريوس ، وجد — بمثل حذاقة مشعوذ — الوسيلة ، من غير ان يلفت نظر جان فالجان ، لانتزاع مزقة منها اخفاها تحت دراعته ، معتقداً في أغلب الظن ان مزقة القماش هذه قد تساعده في ما بعد على التعرف إلى القتيل والقاتل . بيد أنه لم يجد اكثر من ثلاثين فرنكاً .

وقال :

— « هذا صحيح . انكما معاً لا تملكان أكثر من ذلك »

واخذ كل شيء ، ناسياً قوله : « اعطني النصف » .

وتردد قليلا أمام قطع الـ « سو » الكبيرة . وبعد تفكير ، اخذها ايضاً مدمدماً :

— « لا بأس ! ذلك يعني قتل الناس بالخنجر بسعر رخيص أكثر مما ينبغي . »

قال ذلك ، وعاود اخراج المفتاح من تحت دراعته .

— « والآن ، ايها الصديق ، يجب ان تخرج . هذا أشبه بالسوق الموسمية حيث يدفع المرء عند خروجه . ولقد دفعت انت ، فاخرج . »

وشرع يضحك .

هل كان ينتوي ، بتقديمه مساعدةً هذا المفتاح لرجل مجهول وبتمكينه شخصاً آخر غيره من الخروج من ذلك الباب — هل كان ينتوي بذلك على نحو خالص ونزيه انقاذ سفاح من السفاحين ؟ ذلك شيء يجيز المرء لنفسه الشك فيه .

وساعد تيناردييه جان فالجان لحمل ماريوس على كتفيه كرة اخرى . ثم مضى على رؤوس أصابعه نحو الشبكة الحديدية ، واشار إلى جان فالجان بأن يتبعه ، ونظر إلى الخارج ، ووضع إصبعه على فمه ، ووقف بضع ثوان وكأنه نهبُ التردد . حتى إذا اتم مراقبته هذه ، وضع المفتاح في القفل . وانزلقَ لسان القفل ، ودار الباب . لم يكن ثمة لا قرقعة ولا صرير . لقد تم ذلك في سكينة بالغة . وكان واضحاً ان هذه الشبكة الحديدية برزاتها ، المزيتة في عناية ، كانت تُفتح على نحو متواتر اكثر مما يُظن . وكانت هذه السكينة مشؤومة . كنت تستشعر الرواح والمجيء السريين ، ودخول رجال الليل وخروجهم الصامتين ، وخطوات الجريمة التي لا صوت لها . لا ريب في ان البالوعة متواطئة مع عصابة خفية ما . كانت تلك الشبكة الحديدية الصموت مخبّئةً للمسروقات .

وفتح تيناردييه الباب نصف فتحة ، بحيث يمكّن جان فالجان من المرور مجرد تمكين ، واغلق الشبكة الحديدية من جديد ، وادار المفتاح في القفل مرتين ، وغاص كرة اخرى في الظلام ، من غير ان يحدث من الضجيج شيئاً أكثر من نفَس . لقد بدا وكأنه يمشي بمثل رجلي النمر المخمليتين .

وبعد لحظة ، كانت تلك « العناية » الرهيبة قد ولجت اللامنظور من جديد .

ووجد جان فالجان نفسه في الخارج :

٩
ماريوس يبدو ميتاً في عيني خبير

وترك ماريوس ينزلق فوق الشاطىء .

كانا في الخارج .

كانت الابخرة الوبيئة ، والظلمة ، والهول ، خلفهما . وكان الهواء الصحي النقي ، الحي ، البهيج ، المستنشق في حرية يغمره من أقطاره . وفي كل مكان حوله كان صمت ، ولكنه الصمت الفاتن المرافق لغروب الشمس في سماء صاحية . كان الغسق قد ران ، وكان الليل قد هبط — الليل ، ذلك المحرر الكبير ، وصديق جميع اولئك الذين يحتاجون إلى رداء من اردية الظلام لكي ينجوا من الألم المرير . وانبسطت السماء من كل ناحية مثل هدوء هائل . واقبل النهر إلى قدميه بمثل صوت قبلة . وسمع محاورة الاعشاش الاثيرية وهي تتبادل التمنيات بقضاء ليلة سعيدة في شجرات الدردار بـ « الشان زيليزيه » . وكانت بضع نجوم مخترقة على نحو باهت زرقة سمت الرأس الشاحبة ، ومنظورة بالتخيل ليس غير — كانت هذه النجوم قد أحدثت تألقات صغيرة لا سبيل إلى ادراكها في الفضاء الرحب . كان المساء ينشر فوق رأس جان فالجان جميع ملاطفات اللانهاية .

كانت تلك الساعة الحائرة البديعة التي تخرج الصمت عن لا ونعم . كان ثمة قدر من الليل كاف لأن يجعل المرء يضيع وسطه على مسافة قصيرة ، وكان لا يزال ثمة قدر من النهار كاف لأن يجعل العين تتبين المرء عن كثب .

وطوال بضع ثوان استبد كل هذا الصفاء الجليل الملاطف بضع لحظات بجان فالجان استبداداً لا سبيل إلى مقاومته . إن ثمة مثل لحظات

النسيان هذه . فالألم يرفض إبرام البائس ، وكل شيء ينكسف في الفكر . ويلف السلامُ الحالمَ وكأنه ليل ، وتحت الغسق الذي يرسل أشعته ، وتقليداً للسماء التي تتهلل ، تشرق النفس اشراق النجوم . ولم يتمالك جان فالجان ان يحدق في ذلك الظل الرحب الصافي المنبسط فوقه . وخلال استغراقه في التفكير اخذ – في صمت السماء الابدية الجليل حمّاماً من الصلاة والنشوة الروحية . ثم انحنى فجأة ، وكأن شعوراً بالواجب قد عاوده ، فوق ماريوس، وغرف قليلا من الماء في باطن يده ونضح وجه ماريوس في رفق ببضع قطرات منه . ولم تنفصل اجفان ماريوس ، ولكن فمه نصف المفتوح تنفس .

وكان جان فالجان يعاود غمس يده في النهر ، كرة اخرى ، عندما استشعر ضيقاً ممتنعاً على الوصف كذلك الضيق الذي نستشعره حين يكون امرؤ واقفاً خلفنا ، من غير ان نراه .

لقد سلفت منا الاشارة إلى هذا الاحساس الذي يعرفه الناس جميعاً .

واستدار .

وكشأنه منذ فترة ، كان شخص ما واقفاً خلفه حقاً .

كان رجل فارع الطول ، ملتف بمعطف طويل ، متصالب الذراعين، يحمل بيده اليمنى هراوة في ميسور المرء ان يلمح الكرة المعدنية التي في رأسها – نقول كان هذا الرجل واقفاً منتصب القامة خلف جان فالجان الذي كان منحنياً فوق ماريوس .

كان ذلك ، بمساعدة من الظلام ، ضرباً من الشبح . ولقد كان خليقاً بالرجل البسيط ان يخافه بسبب من الغسق ، كما كان خليقاً بالرجل المفكر ان يرهبه بسبب من الهراوة .

وعرف جان فالجان جافير .

ولا ريب في ان القارئ قد حزر ان متعقّب تيناردييه لم يكن غير جافير . وكان جافير قد قصد ، بعد ان فارق المتراس على نحو غير

متوقع ، إلى مديرية الشرطة ، فرفع تقريراً شفهياً إلى مدير الشرطة نفسه اثناء مقابلة قصيرة ، ثم انقلب في الحال لأداء مهمته التي انطوت — والقارئ يذكر تلك الورقة التي وجدت في جيبه — على مراقبة لشاطىء الضفة اليمنى من الـ « شان زيليزيه » الذي أثار انتباه البوليس منذ فترة من الزمان . هناك ، كان قد رأى تيناردييه ، وكان قد تعقبه . أما البقية فمعروفة .

ومفهوم أيضاً أن فتح تلك الشبكة الحديدية بكثير من التفضل في وجه جان فالجان كان عملا صدر فيه تيناردييه عن دهاء . لقد استشعر تيناردييه ان جافير كان لا يزال هناك ، فللرجل المراقَب قوة شم لا تَكْذِبُهُ ؛ ان عظماً ينبغي ان يُطرح لذلك الكلب . سفاح ، يا لها من نعمة غير متوقعة ! كان ذلك السفاح هو الفداء الذي لا سبيل إلى رفضه . إن تيناردييه ، باخراجه جان فالجان بدلا عنه ، قدم إلى رجال الشرطة ضحية ، وأبعدهم من طريقه ، وجعلهم ينسونه في غمرة قضية أعظم ، وأثاب جافير على انتظاره ، وهو ما يرضي الجواسيس دائماً ، وكسب ثلاثين فرنكاً ، وتعلقت آماله من غير ريب — من ناحيته هو — بالهرب مستعيناً بهذا الالهاء .

كان جان فالجان قد انتقل من مَهلكة إلى مَهلكة .

وكانت هاتان المصادفتان الموصولتان ، وكان وقوعه من تيناردييه على جافير ، أمراً بالغ القسوة .

ولم يتبين جافير جان فالجان الذي لم يعد ، كما قلنا ، يشبه نفسه ؛ لقد ظل متصالب الذراعين ، ولكنه سارع بحركة غير ملحوظة إلى الأمساك بهراوته بجمع كفه ، وقال في صوت هادىء موجز :

— « من انت ؟ »

— « أنا . »

— « أنت من ؟ »

— « جان فالجان . »

ووضع جافير الهراوة بين اسنانه ، وطوى ركبتيه ، ووضع يـديه القويتين على كتفي جان فالجان ، وتشبثتا به مثل كلابتين ، وحدق اليه فاحصاً ، وعرفه . كاد وجهاهما أن يتماسا . وكانت نظـرة جـافير فظيعـة .

ووقف جان فالجان جامداً تحت قبضة جافير مثل أسد قدّر لـه ان يستسلم لبراثن وشق * .

وقال له :

— « أيها المفتش جافير ، لقد القيت القبض علي . وإلى هذا ، فقد اعتبرت نفسي ، منذ هذا الصباح ، أسيرك . أنا لم أعطك عنواني لكي أحاول الفرار منك . قدني حيث تشاء . ولكنْ تكرّمْ علي بشيء . »

وبدا جافير وكأنه لم يسمع . وسمّر عينه على جان فالجان . كانت ذقنه المتجهمة قد دفعت شفتيه نحو أنفه ، علامة الاستغراق في التفكير على نحو ضار . وأخيراً أفلت جانَ فالجان ، ونهض في مثل استقامـة عصا ، وعاود إمساك هراوته بجمع كفه في قوة ، وطرح هذا السؤال ، مغمغماً وكأنه في حُلم أكثر منه ناطقاً :

— « ماذا تفعل هنا ؟ ومن هذا الرجل ؟ »

وأجاب جان فالجان ، وقد بدا وكأن جرْسه أيقظ جافير :

— « ذلك بالضبط ما أردت ان أحدثك عنه . تصرف بي كما تشاء ، ولكن ساعدني أولاً على ان أحمله إلى منزله . أنا لا اسألك شيئاً غير ذلك . »

وتقلص وجه جافير ، كما يقع له كلما بدا وكأنّ مخاطبه يعتقد أن في مقدوره — هو جافير — التسليم بشيء . ومع ذلك فلم يقل لا .

وانحنى كرة اخرى ، واخرج من جيبه منديلا ، فغمسه في المـاء ،

---

* الوشق حيوان يشبه الفهد .

ومسح به جبين ماريوس المضرج بالدم .

وقال في همس ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « هذا الرجل كان في المتراس . انه ذلك الذي دعوه ماريوس . »

جاسوس من الطراز الأول ، لاحظ كل شيء ، وأصغى لكل شيء ، وسمع كل شيء ، والتقط كل شيء ، وقد اعتقد انه على وشك ان يموت ؛ جاسوس قام بمهمته حتى في حشرجة الموت ، ودوّن ملاحظاته وقد توكأ على الدرجة الأولى من درجات القبر .

وأمسك بيد ماريوس ، مستطلعاً نبضه .

وقال جان فالجان :

— « إنـه جريح . »

فقال جافير :

— « إنه ميت . »

فأجابه جان فالجان :

— « لا . لم يمت بعد . »

ولاحظ جافير :

— « لقد حملته ، اذن ، من المتراس إلى هنا ؟ »

ولا ريب في ان قلقه كان عظيماً اذ لم يلح قط في التساؤل عن ذلك الفرار المربك من خلال البالوعة ، بل لم يلاحظ مجرد صمت جان فالجان بعد سؤاله .

وبدا جان فالجان — من ناحيته — وكأن فكرة وحيدة استبدت به . وأضاف :

— « انه يسكن في الماريه ، شارع فتيات كالفير ، في منزل جده — لقد نسيت اسمه . »

وبحث جان فالجان في سترة ماريوس ، واخرج منها حافظة الأوراق وفتحها عند الصفحة الحاملة خط ماريوس بقلم رصاصي ، وقدمهـا

إلى جافير .

كان لا يزال في الهواء قدرٌ من النور الطافي يمكّن المرء من القراءة . وإلى هذا ، فقد كان في عين جافير ذلك الوهج السنّوري الذي تتميز به طيور الليل . وحل ألغاز الأسطر القليلة التي خطها ماريوس ، وغمغم :

« جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ . »

ثم صاح : « سائق ! »

والقاريء يذكر عجلة الكراء التي كانت تنتظر لوقت الحاجة .

واحتفظ جافير بمحافظة أوراق ماريوس .

وبعد لحظة كانت العجلة ، الهابطة من منحدر المنهل ، قد أمست على الشاطيء . ومُدد ماريوس على المقعد الخلفي ، وجلس جافير إلى جانب جان فالجان في المقعد الأمامي .

وحين أغلق الباب ، انطلقت العجلة في سرعة . مصعّدة في الرصيف باتجاه الباستيل .

وغادروا الرصيف ودخلوا إلى الشارع . وألهب السائق — وكان في مقعده اشبه بصورة ظلية — ألهب بالسوط فرسيه المهزولين . وران الصمت المثلوج على العربة . وبدا ماريوس — الفاقد الحراك ، المستند جسده إلى زاوية العربة ، المنكس رأسه فوق صدره ، المتدلي الذراعين ، المتصلب الرجلين — بدا وكأنه لا ينتظر إلا التابوت . وبدا جان فالجان وكأنه خُلق من ظلام ، وبدا جافير وكأنه خُلق من حجارة . وفي تلك العربة المفعمة بالليل ، والتي تراءى داخلُها كلما مرت بأحد المصابيح وقد شحب شحوباً شديداً ، وكأن ذلك بفعل وميض متقطع — في تلك العربة جمعت المصادفةُ وبدت وكأنها التفت على نحو حدادي ما بين ضروب الجمود الفاجعة الثلاثة : الجثة ، والشبح ، والتمثال .

١٠
عودة الابن الباذل حياته

وعند كل رجة فوق حصباء الطريق كانت قطرة من الدم تسقط من شعر ماريوس .

ولم تصل العجلة إلى رقم ٦ في شارع فتيات كالفير إلا بعد منتصف الليـــل .

وترجل جافير أولا ، وتثبّت بنظرة من الرقم المدوّن فوق بـــاب العربات ، ورفع القارعة الثقيلة المصنوعة من حديد مطاوع ، والمزينة على الطريقة العتيقة بتيس وساطير * يتحدى أحدهما الآخر ، وخفق الباب خفقاً عنيفاً . وفُتح مصراع الباب على نحو جزئي ، ودفعه جافير . وبرز البواب ، متثائباً ، نصف يقظان ، وفي يده شمعة .

كان كل من في البيت نائماً . فالناس يأوون إلى فراشهم باكراً في الـ « ماريه » ، وبخاصة في أيام الفتنة . إن ذلك الحي العتيق الصالح ، الذي اذهلته الثورة ، ليفزعُ إلى الرقاد ، كما يسارع الاطفال إلى اخفاء رؤوسهم تحت الدثار كلما أحسوا بأن « الغول » قد جاء ...

وفي غضون ذلك رفع جان فالجان والسائق ماريوس ، وأخرجاه من العربة . لقد حمله جان فالجان من إبطيه ، وامسك بـــه السائق من ركبتيه .

وفيما كانا يحملان ماريوس على هذا النحو دس جان فالجان يده تحت ثيابه ، التي كانت ممزقة ، وتلمّس صدره ، واستيقن أنه ما يزال يخفق : بل لقد خفق خفقاناً أقل وهناً ، وكـأن حركـة العربة قد قيضت لـــه انبعاثاً جديداً .

---

* الساطير في الخرافات ، انسان ذو رجلين كرجلي التيس كان يسكن الغابات .

وصاح جافير في وجه البواب بتلك النبرة التي تلائم الحكومة ، أمام بواب رجل متمرد :

— « شخص ما ، يدعى جيلنورمان ؟ »

— « إنه هنا . ماذا تريد منه ؟ »

— « نحن نحمل اليه ابنه . »

فقال البواب في انشداه :

— « ابنه ؟ »

— « لقد مات . »

وأومأ جان فالجان — الذي أقبل خلف جافير رث الثياب وسخاً ، والذي نظر اليه البواب في رعب — أومأ اليه برأسه انه لم يكن ميتاً .

وبدا وكأن البواب لم يفهم لا كلمات جافير ، ولا ايماءة جان فالجان .

وتابع جافير كلامه :

— « كان قد ذهب إلى المتراس . وها هو ذا . »

وصاح البواب :

— « إلى المتراس ؟ »

— « لقد جلب على نفسه القتل . اذهب وأيقظ أباه . »

ولم يتحرك البواب .

واندفع جافير يقول :

— « لماذا لا تذهب ؟ »

وأضاف :

— « سوف تكون هنا جنازة غداً . »

ذلك ان احداث الشارع العام الاعتيادية كانت مصنفة ، عند جافير ، تصنيفاً مطلقاً ، هو أساس التبصر والحذر ، ولقد كان لكل طارئ عنده خانته الخاصة . كانت الحقائق المحتملة شبه منضودة في أدراج ، فهي تخرج منها ، وفقاً للمناسبة ، في مقادير متفاوتة ؛ كان في الشارع لغط ، وفتنة ،

وكرنفال ، وجنازة .

واجتزأ البواب بايقاظ باسك . وأيقظ باسك نيقوليت ، وايقظت نيقوليت العمة جيلنورمان . أما الجد ، فتركوه نائماً معتقدين أنه سوف يعرف النبأ وشيكاً ، على أية حال .

وحملوا ماريوس إلى الدور الأول ، ولكن من غير أن يلمح ذلك احد في أقسام المنزل الاخرى ، ووضعوه على مقعد عتيق في غرفـــة الانتظار الخاصة بمسيو جيلنورمان . وفيما ذهب باسك لاستدعاء أحــد الاطباء ، وراحت نيقوليت تفتح خزائن الملابس التحتية ، أحس جان فالجان بأن جافير يمس كتفه . وفهم ، وهبط السلم ، تتعقبــه خطى جافير .

ورآهما البواب ينصرفان كما رآهما يصلان ، في نعاس مذعور .

وامتطيا العربة من جديد ، وجلس السائق في مقعده الخاص .

وقال جان فالجان :

— « ايها المفتش جافير . تكرّم عليّ ، بعدُ ، بشيء واحد . »

فسأله جافير في خشونة :

— « ما هو ؟ »

— « دعني أذهب إلى منزلي لحظة . ثم افعل بي بعد ذلك مـــا تريــد . »

واعتصم جافير بالصمت بضع ثوان ، وقد أخفى ذقنه في قبة سترته الطويلة ، ثم انزل زجاج النافذة الامامي .

وقـال :

— « ايها السائق ، إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

١١
ارتجاج في المطلق

ولم يعاود اي منهما فتح فمه طوال الطريق .

ما الذي كان يريده جان فالجان ؟ أن يتم ما كان قد بدأه ؛ ان يخبر كوزيت ، ان يقول لها اين ماريوس ، وربما ان يعطيها بعض المعلومات المفيدة الاخرى ، ان يتخذ — إذا استطاع — بعض التدابير النهائية . أما في ما يتصل به ، أما في ما كان يعنيه شخصياً ، فكان كل شيء قد انقضى . لقد قبض عليه جافير ، ولم يقاوم . ولعل امرءاً غيره كان جديراً بأن يفكر ، في تلك الحال ، تفكيراً غامضاً بذلك الحبل الذي اعطاه إياه تيناردييه وبالقضبان الحديدية الخاصة بأول حبس مظلم ضيق سوف يدخله . ولكن منذ ان تعرّف إلى الاسقف ، كان قد نشأ في ذات نفس جان فالجان ، تجاه اي محاولة عنيفة ، ولو كانت ضد حياته — ولنكرر ذلك — نقول كان قد نشأ في ذات نفسه تردد خشوعي عميق .

كان الانتحار ، ذلك الهجوم الخفي على المجهول ، والذي قد ينطوي إلى حد ما على موت النفس ، شيئاً متعذراً على جان فالجان .

وعند مدخل شارع الرجل المسلح ، وقفت العربة ، فقد كان ذلك الشارع أضيق من أن تلجه العربات . وترجل جافير وجان فالجان .

وفي اتضاع أبان السائق « للسيد المفتش » ان مخمل عربته الموسوم بمخمل اوترخت قد تلوث كله بدم القتيل ، ووحل القاتل . ذلك ما كان قد فهمه . وأضاف قائلا إنه يستحق تعويضاً . وفي الوقت نفسه ، اخرج دفتره من جيبه ورجا السيد المفتش ان يتكرم بأن يكتب له «شهادة صغيرة بهذا المعنى» .

ورد جافير الدفتر الذي قدمه السائق اليه وقال :

— « كم ينبغي ان تأخذ بما في ذلك انتظارك ورحلتك ؟ »

فأجاب السائق :

— « لقد مضت سبع ساعات وربع ، ولقد كان مخملي جديداً تماماً. ثمانون فرنكاً ، يا سيدي المفتش . »

واخرج جافير من جيبه اربع ذهبيات نابوليونية ، وصرف العربة .

وظن جان فالجان ان في نية جافير ان يقوده مشياً على الاقـــدام إلى مخفر « بلان مانتو » او إلى مخفر « الآرشيف » القريبين جداً .

ودخلا الشارع . كان مقفراً كشأنه دائماً . وتبع جافير جان فالجان. ووصلا إلى رقم ٧ . وقرع جان فالجان . وفُتح الباب .

وقال جافير :

— « حسن . إصعد . »

وأضاف في نبرة غريبة ، وكأنما كان يبذل جهداً في الكلام علـى هذا النحو :

— « سوف أنتظرك هنا . »

ونظر جان فالجان إلى جافير . كان هذا الاسلوب قليل الانسجام مع عادات جافير . ومع ذلك ، فلم يَعجَب جان فالجان كثيراً لأن يكون جافير يستشعر ضرباً من الثقة المتعجرفة فيه ، ثقة الهرة التي تمنح الفأرة حرية بطول برثنها ، برغم صدق عزيمته على الاستسلام وإنهاء كل شيء . وفتح الباب ، ودخل المنزل ، وخاطب البوابَ الذي كان في فراشه ، والذي كان قد جذب الحبل من غير ان ينهض بقوله : « هذا أنا » ، وارتقى السلم .

وعند وصوله إلى الدور الأول ، وقف . إن لجميع الممرات الأليمة مواقفها . وكانت النافذة المطلة على المنبسَط — وهي نافذة منزلقة — مفتوحةً ، وكانت السلم تستقبل الضوء ، شأنها في كثير من البيوت القديمة ، وكانت تطل على الشارع . وكان مصباح الشارع ، القائم تجاه الســلم

مباشرة ، يلقي عليها شيئاً من الضوء ، مما كان يحدث اقتصاداً في الانارة .

وأطل جان فالجان من هذه النافذة ، إما لكي يأخذ نفساً أو على نحو آلي . وانحنى مشرفاً على الشارع . إنه شارع قصير ، ولقد كان المصباح يضيئه من أقصاه إلى أقصاه . واستبد الذهول بجان فالجان . لم يكن ثمة أحد هناك .

كان جافير قد مضى لسبيله .

١٢
الجد

كان باسك والبواب قد حملا ماريوس إلى حجرة الاستقبال ، وكان طوال تلك الفترة ممدداً على المقعد الذي وضع عليه عند مجيئه . وكان الطبيب الذي استدعي قد وصل . وكانت العمة جيلنورمان قد استيقظت .

وذرعت العمة جيلنورمان الغرفة جيئة وذهوباً ، مذعورة ، شابكة يديها ، غير قادرة على ان تعمل شيئاً إلا القول : « يا الـهي ، أهذا ممكن ؟ » وكانت تضيف بين الفينة والفينة : « كل شيء سوف يغطى بالدم ! » وحين زايلها الذعر الأول ، اشرقت على عقلها فلسفة للحادث ، وعبرت عن نفسها بهذه الصيحة : « كان لا بد لذلك من ان ينتهي على هذا الشكل ! » ولم يبلغ بها ذلك إلى حد القول « هذا ما كنت أقوله دائماً » ، وهي العبارة المألوفة في مثل هذه المناسبات .

وبناء على أمر الطبيب ، كان سرير ذو سيور قد وضع قرب المقعد . وفحص الطبيب ماريوس . وبعد ان قرر ان قلبه ما يزال ينبض ، وأن

الجريح لم يكن مصاباً بأي جرح بليغ في صدره ، وان الدم الذي حول زوايا شفتيه انبثق من تجويف الانف ، مدده على السرير ، من غير وسادة ، ورأسه على مستوى واحد مع جسده ، بل اكثر انخفاضاً بعض الشيء ، وقد عُرّي صدره ، لكي يسهّل التنفس . وانسحبت الآنسة جيلنورمان عندما رأتهم ينزعون ثياب ماريوس . وراحت تصلي في غرفتها مستعينة بالسبحة .

ولم يكن الجسد قد أصيب بجرح باطني . كانت الرصاصة قد انحرفت بعد ان اوهنتها حافظة الاوراق ، واستدارت حول الضلوع محدثة خرقاً فظيعاً ، ولكنه غير عميق ، وبالتالي غير خطر . وكان السير الطويل تحت الارض قد أتم انخلاع لوح الكتف المكسورة ، وكانت اختلالات خطيرة هناك . كانت ثمة جراحات سيف على الذراعين . ولم تشوه ندبة ما وجهه . بيد ان رأسه بدا وكأنه مغطى بحزوز وفروض . اي اثر سوف تتركه هذه الجراح على الرأس ؟ هل وقفت عند جلدة الرأس ؟ هل اثرت في الجمجمة ؟ ذلك ما لم يكن ثمة سبيل إلى الاجابة عنه وكان من الاعراض الخطيرة انها سببت الاغماء ، والناس لا يثوبون إلى رشدهم ، عادة ، من مثل هذه الغيبوبة . وإلى هذا ، فقد كان نزف الدم قد استنفد قوى الجريح . وابتداء من الخصر ، كان القسم الأدنى من الجسد مصوناً خلف المتراس .

ومزق باسك ونيقوليت الاقمشة البيضاء وصنعا منها ضمادات . كانت نيقوليت تخيطها ، وكان باسك يطويها . واذ لم يكن ثمة نسالة ، فقد اوقف الطبيب تدفق الدم من الجراح ، موقتاً ، بلفافات من القطن المندوف . وإلى جانب السرير ، كانت ثلاث شمعات تضيء فوق طاولة نشرت عليها الادوات الجراحية . وغسل الطبيب وجه ماريوس وشعره بماء بارد . واستحال دلو الماء المملوء أحمر ، في الحال . ووقف البواب ، والشمعة في يده ، يبدد بها الظلام .

وبدا الطبيب وكأنه يفكر في كآبة . وكان يهز رأسه بين الفينة والفينة، وكأنما يجيب عن سؤال ما ، كان قد طرحه على نفسه باطنياً . وهذه المحاورات الخفية التي تدور بين الطبيب وبين ذاته نذير للمريض بسوء .

ولحظة كان الطبيب يمسح الوجه ويمس بأصبعه ، وفي رفق ، الاجفان التي ما تزال مغمضة ، فُتح باب في الطرف الاقصى من حجرة الاستقبال ، وبرزت صورة طويلة شاحبة .

كان هو الجد .

كانت الفتنة قد اثارت مسيو جيلنورمان إلى ابعد الحدود وأسخطته واستأثرت بتفكيره كله طوال يومين اثنين . إنه لم ينم الليلة الماضية ، وكانت الحمى تستبد به طوال النهار . وفي المساء ، كان قد أوى إلى فراشه في ساعة مبكرة جداً ، موصياً بأن توصد جميع ابواب البيت بالحديد ، واستسلم للرقاد بعد ان هدّه الأعياء .

ان رقاد الرجال العجائز ميسور الانقطاع . كانت حجرة مسيو جيلنورمان محاذية لغرفة الاستقبال . وكانت الضجة قد أيقظته برغم الاحتياطات التي اتخذوها . واذ ادهشه النور الذي رآه من خلال شق الباب ، نهض من فراشه ، وانشأ يتلمس طريقه تلمساً .

كان على العتبة ، واضعاً احدى يديه على تفاحة الباب نصف المفتوح، ناكس الرأس بعض الشيء متذبذباً ، متلفعاً بمنامة بيضاء مستقيمة ليس فيها ثنيات فهي أشبه ما تكون بالكفن . كان مشدوهاً ، وكانت تبدو عليه سيما شبح ينظر إلى قبر .

ولمح السرير ، ولمح على الحشية ذلك الفتى الدامي ، ابيضَ بلون الشمع ، مغمض العينين ، فاغر الفم ، شاحب الشفتين إلى حد بعيد ، عارياً حتى الخصر ، مثخناً جسده كله بالجراح الحمراء ، جامداً لا حراك به ، مضاء على نحو ساطع .

وسرت في جسم الجد ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، رعدة كانت أعنف ما يمكن للاوصال التي استحالت إلى عظم أن تعرفه . وكانت عيناه ، اللتان اصفرت قرنيتهما بالشيخوخة ، محجوبتين بضرب من اللمعان الزجاجي . وفي لحظة ، اتخذ وجهه تلك الزوايا الترابية التي تميز رأس الهيكل العظمي ، وتدلت ذراعاه وكأن نابضاً قد كسر فيهما ، وتجلى انشداهه بتباعد أصابع يديه العجوزين المرتعشتين ، والتوت ركبتاه إلى امام كاشفتين من خلال فتحة منامته ، عن رجليه العاريتين المهزولتين الشائكتين بالشعر الأشيب . وغمغم :

— « ماريوس ! »

فقال باسك :

— « سيدي ، لقد جيء اللحظة بسيدي إلى المنزل . كان قد ذهب إلى المتراس ، و ... »

وصاح الرجل العجوز في صوت فظيع :

— « ومات ! آه ، يا لقاطع الطريق ! »

ثم ان ضرباً من التحول القبري جعل هذا الرجل العجوز منتصب القامة مثل فتى في ريق الشباب .

وقـــال :

— « سيدي ، أنت الطبيب . قل لي شيئاً واحداً . لقد مات ، أليس كذلك ؟ »

واذ كان يستبد بالطبيب حصرٌ نفسي بالغ ، فقد اعتصم بالصمت .

والتاع مسيو جيلنورمان ألماً وانفجر ضاحكاً على نحو رهيب :

— « لقد مات ! لقد مات ! لقد عرّض نفسه للقتل في المتاريس . لكرهه اياي . لقد فعل ذلك برغمي ! آه ، يا لشارب الدماء ! تلك هي الطريقة التي يرجع بها الي ! يا لشقاء حياتي ، لقد مات ! »

ومضى إلى نافذة ، وفتحها على مصراعيها وكأنه يختنق . لقد وقف

أمام الظلام ، وانشأ يتكلم موجهاً الخطاب إلى الشارع والليل .

— « إنه مثقّب ، مثخن بضربات السيف ، ذبيح ، مستأصَل ، ممزق ، مقطّع إرباً اربأ . هل رأيتموه ، المتشرد ! لقد عرف جيداً اني سوف اكون في انتظاره ، واني قد اعددت غرفته لاستقباله ، واني قد علقت رسمه الراجع إلى عهد طفولته فوق سريري ! لقد عرف جيداً أن ليس عليه إلا أن يعود ، واني سلخت سنوات وانا أناديه ، واني قعدت في الليالي امام الموقد ويداي على ركبتيّ ، غير عارف ماذا أعمل، واني أصبت بالعُتْه من أجله ! كنت تعرف جيداً انه ليس عليك إلا ان تدخل وتقول : « هذا أنا » ، وانك سوف تصبح سيد البيت ، وانني سوف اطيعك ، وانك تستطيع ان تعمل ما تشاء بهذا الجد العجوز البليد . لقد عرفتَ ذلك جيداً ، وقلتَ : « لا ، إنه ملكيّ ، لن اذهب! » وذهبت إلى المتاريس، وعرّضت نفسك للقتل بسبب من عناد الاولاد ! لكي تنتقم لنفسك مما قلته لك عن الدوق دو بيري . هذا شيء معيب . اذهب إلى فراشك ، اذن ، ونم نوماً هادئاً . لقد مات . وهذه هي يقظتي . »

فلم يكن من الطبيب ، الذي امسى قلقاً من ناحيتين ، إلا ان ترك ماريوس لحظة ، ومضى إلى مسيو جيلنورمان ، وأمسك بذراعه . واستدار الجد ، ونظر اليه بعينين بدتا منتفختين داميتين ، وقال في تؤدة :

— « اشكرك يا سيدي . أنا رابط الجأش ؛ انا رجل ؛ لقد شهدت موت لويس السادس عشر ؛ انا اعرف كيف اتحمل المصائب . ولكن هناك شيئاً واحداً فظيعاً ، ان تفكر ان جرائدك هي التي تسبب الاذى كله . سوف تحصل على مؤلفين مكثرين في اسفاف ، وعلى محدثين ، ومحامين ، وخطباء ، ومنابر ، ومناقشات ، وتقدُّم ، وانوار ، وحقوق الانسان ، وحرية الصحافة ، وهذه هي الطريقة التي يحملون بها أولادك إلى بيتك . آه ! ماريوس ! هذا فظيع ! أينطرح قتيلا ، ميتاً أمام ناظري ! متراس ! آه ، يا لقاطع الطريق ! ايها الطبيب ، أنت تقطن

في الحي ، على ما أظن . اوه ، انا اعرفك جيداً . أنا ارى عربتك تمر تحت نافذتي . سوف اقول لك . إنك تخطىء إذا اعتقدت اني غاضب . إن المرء لا يغضب من ميت ، تلك حماقة . ان هذا طفل أنا نشأته . لقد كنتُ عجوزاً عندما كان لا يزال صغيراً جداً . وكان يلعب في التويلري بعجرفته الصغيرة وكرسيه الصغير . ولاجتناب توبيخ المراقبين كنت املأ بعصاي تلك الحفر التي أحدثها في الارض بعجرفته . وذات يوم صاح : « فليسقط لويس الثامن عشر ! ومضى لسبيله . انها لم تكن غلطتي . كان شديد تورّد الوجنتين ، شديد الشقرة ، وكانت امه قد ماتت . هل قدّر لك ان تلاحظ ان جميع الاطفال الصغار شقر ؟ ما سبب ذلك ؟ إنه ابن واحدٍ من قطاع طرق اللوار ؛ ولكن الاطفال ابرياء من جرائم آبائهم . انا اذكر حين كان على مثل هذا الطول . انه لم يكن يحسن النطق بحرف الدال . كان كلامه ناعماً جداً وغامضاً جداً حتى لقد كان يخيل اليك انه عصفور . واذكر انهم تحلقوا حوله ، أمام الـ « هيركول فارنيز » وانشأوا يحدقون اليه في اعجاب ودهش ؛ لقد كان طفلا جميلا ! كان له رأس كذلك الذي نراه في اللوحات الفنية . كنت اتحدث اليه بصوتي الخشن ، وكنت اروّعه بعصاي ، ولكنه يعرف جيداً اني كنت امزح . وفي الصباح ، حين كان يدخل إلى غرفتي ، كنت أوبخه ، ولكن ذلك كان أشبه بأشعة الشمس بالنسبة الي . انك لا تستطيع ان تدافع عن نفسك أمام هؤلاء الصغار . انهم يغضبون عليك ؛ انهم يتشبثون بك ؛ انهم لا يفلتونك ابداً . والحق أقول ، انني لم أعرف حباً كمثل حبي لذلك الطفل . والآن ، ما الذي ينبغي ان أقوله في لافاييت ، وبنجمان كونستان ، وتيركوير دوكورسيل الذين قتلوه ! ان الوضع لا يمكن ان يستمر هكذا . »

واقترب من ماريوس ، الذي كان لا يزال شديد الشحوب جامداً لا حراك فيه ، والذي كان الطبيب قد رجع اليه ، وبدأ يتلوى ألماً .

وتحركت شفتا الرجل العجوز البيضاوان وكأنهما تتحركان اوتوماتيكيـاً ، وأطلقتا كلمات تكاد تكون غير واضحة ، كلمات اشبه بهمسات فـي حشرجة ، كانت لا تُسمع إلا بشق النفس : « آه ، يا عديم القلب ! آه ، يا عضو النوادي ، آه ، ايها الأثيم ! آه ، أيها الأيلولي ! » تقريعات يهمسها رجل محتضر في أذن جثة باردة .

وشيئاً بعد شيء — إذ لا بد للتفجرات الباطنية ان تنطلق دائماً — استعادت كلماته تسلسلها ، ولكن الجد بدا وكأنه فقد القدرة على النطق بها . وكان صوته خافتاً مخنوقاً إلى درجة بدا معها وكأنه ينبعث من الجانـب الآخر من احدى الحفر .

— « سيان عندي ، أنا سوف أموت أيضاً . وأن يقال انه لم يكن في باريس مخلوقة صغيرة كان يسعدها ان تجعل هذا المسكين سعيداً ! وغدٌ ذهب إلى القتال ، بدلاً من ان يعبث ويستمتع بالحياة ، وعرّض نفسه لقذائف المدافع مثل بهيمة من البهائم . ومن أجل من ؟ ومن اجل ماذا ؟ من أجل الجمهورية ! بدلاً من ان يذهب ليرقص فـي الـ « شوميير » كما ينبغي للشباب أن يفعلوا . ان كون المرء في العشرين من العمر لأمر يستحق العناء . الجمهورية ، تلك الحماقة الجميلة اللعينة . ايتها الامهات المسكينات ، أنجبن اذن اولاداً وسيمين . ولكنْ ، لقد مات . ذلك يعني جنازتين تمران بباب العربات . واذن ، فقد قمت بذلك كله اكراماً لعيني الجنرال لامارك الجميلتين ! ما الذي صنعه من اجلك ، الجنرال لامارك هذا ؟ جندي لا يفقه شيئاً من فنون الحرب ! ثرثار ! تعرّض نفسك للقتل من أجل رجل ميت ! اذا لم يكن في هذا ما يخبّل المرء فما الذي يخبّله ! فكر في ذلك ! في العشرين من العمر ! ومن غير ان يدير رأسه لكي يرى ما إذا كان يترك وراءه شخصاً ما ، أم لا ! ها هم العجائز المساكين الذين كُتب عليهم ان يموتوا وحيدين . مت في زاويتك ، ايها البومة ! حسناً ، نعم هذا في الواقع . ذلك ما

كنت أرجوه ، إنه سوف يقضي عليّ قضاء كاملا . أنا هرم اكثر مما ينبغي . إن عمري مئة عام ، إن عمري مئة الف عام . ولقد كان من حقي ان أموت منذ عهد بعيد . وبهذه الضربة ، ينتهي كل شيء . لقد قضي الأمر اذن ، يا للسعادة ! أي فائدة من حمله على تنشق محلول النشادر وجميع هذه الكومة من العقاقير ؟ إنك تضيع تعبك ، ايهـا الطبيب الأحمق ! تابعْ ؛ انه ميت ، ميت مثل صخر . أنا أفهم ذلك ، أنا الميت أيضاً . إنه لم يقم بالأمر على نحو جزئي . اجل هذه الايام شائنة ، شائنة ، وهذا هو رأيي فيك ، وفي افكارك ، وفي انظمتك ، وفي سادتك ، وفي حكمائك ، وفي أطبائك ، وفي كتّابك الادنياء ، وفي فلاسفتك الشحاذين ، وفي جميع الثورات التي روعت طوال ستين عاماً أسراب الغربان في التويلري ! ولما كنتَ من عدم الرحمة بحيث تعرّض نفسك للقتل على هذه الشاكلة ، فلن أستشعر ولو مجرد حزن على وفاتك ، أفهمت ، أيها السفاح ؟ »

وفي هذه اللحظة ، رفع ماريوس جفنيه في بطء ، واستقر نظره ، الذي ما يزال محجباً بدهشه السُّباتي ، على مسيو جيلنورمان .

وصاح الرجل العجوز :

— « ماريوس ! ماريوس ! يا صغيري ماريوس ! يا ولدي ! يا بنيّ الحبيب ! انت تفتح عينيك ، انت تنظر الي ، انت حيّ ، شكراً . »

وخرّ مغشياً عليه .

الكتاب الرابع

جافير يتنكّب الطريق

كان جافير قد ابتعد في خطى وئيدة ، عن شارع الرجل المسلح .

لقد مشى ناكس الرأس ، للمرة الأولى في حياته ، ويداه خلف ظهره ، للمرة الأولى في حياته أيضاً .

فحتى ذلك اليوم كان جافير قد اصطنع من مسلكيْ نابوليون الاثنين ، ذلك الذي يعبر عن العزم ليس غير : شبْك الذراعين على الصدر . أما ذلك الذي يعبر عن التردد — شبْك الذراعين خلف الظهر — فلم يكن معروفاً عنده . والآن ، كان ثمة تغيرٌ قد حدث ؛ كان شخصه كله ،

شخصه المتباطئ الكالح ، يحمل طابع الحصر النفسي .

وغاص في الشوارع الصامتة .

ومع ذلك ، فقد اتخذ اتجاهاً واحداً .

لقد اتخذ الطريقَ الأقصر نحو الـ « سين » ، وبلغ الـ « كي ديزوورم » ، وسار في محاذاة رصيف النهر ، واجتاز الـ « غريف » ، ووقف على مسافة قصيرة من مخفر ساحة الـ « شاتيليه » ، عند زاوية جسر « نوتر دام » . ان الـ « سين » يشكّل هناك بين جسر « نوتر دام » وجسر الـ « شانج » من ناحية ، وبين رصيف الـ « ميجيسّري » و « رصيف الازهار » من ناحية ثانية — نقول ان الـ « سين » يشكل شبه بحيرة مربعة يخترقها تيار مائي سريع .

هذه النقطة من نهر الـ « سين » يرهبها الملاحون . ان شيئاً ليس اكثر خطراً من هذا التيار ، الذي حُصر في تلك الحقبة واستثير غيظه بالاوتاد المدعّمة لمطحنة الجسر ، التي لم يعد لها وجود اليوم . والجسران ، القريب أحدهما من الآخر إلى أبعد حدود القرب ، يزيدان الخطر حدة ، وقد اخذت المياه تسرع تحت العقود على نحو رهيب . إنها تتدحرج في ثنيّات عريضة مروعة . إنها تتجمع وتتراكم . ويُفرغ الفيضان جهده عند دعائم الجسر وكأنما يريد ان يقتلعها بحبال ضخمة مائعة . إن من يسقط هناك لا تراه العين بعدُ أبداً . إن خير السابحين ليغرقون في تلك اللجج .

وأسند جافير كلا مرفقيه إلى الحاجز ، مطوقاً ذقنه بيديه ، وفيما كانت أصابعه منشبة ميكانيكياً في لحية عارضَيْه ، انشأ يفكر .

كان يعتمل في أعماق وجوده شيء جديد ، ثورة ، كارثة . وكان فيها ما يدعو إلى فحص الضمير .

كان جافير يقاسي آلاماً رهيبة .

فمنذ بضع ساعات وجافير في حال غير طبيعية . كان قلقاً مشغول

البال . وكان ذهنه ، الشديد الصفاء في عماه ، قد فقد شفافيته . كان ثمة سحابة في هذا البلور . لقد استشعر جافير ان الواجب كان قد شرع يضعف في ضميره ، ولم يكن في ميسوره ان يخفي ذلك عن نفسه . فحين التقى جان فالجان ، في كثير من عدم التوقع ، فوق شاطئ الـ «سين» ، كان في ذات نفسه شيء من الذئب ، الذي يمسك بفريسته من جديد ، والكلب الذي يعثر على سيده كرة اخرى :

لقد رأى أمامه طريقين متماثلين في الاستقامة . ولكنه رأى طريقين ؛ وقد روّعه ذلك – روّعه هو ، هو الذي لم يعرف قط في حياته غير طريق مستقيم واحد . وكان مما اورثه الألم الممضّ ان هذين الطريقين كانا متناقضين . إن واحداً من هذين الطريقين الاثنين ينفي الآخر . اي الطريقين هو الطريق الصحيح ؟

كانت حالته تمتنع على الوصف :

كان الذي جندله ان يكون مديناً بحياته لشرير ، وان يرتضي ذلك الدين ويفيه ؛ وان يكون ، بالرغم منه ، على مستوى واحد مع هارب من العدالة ؛ وأن يبادله خدمة بخدمة ؛ وان يجيز له ان يقول: « امض لسبيلك ! » ويقول له هو ، بدوره ، « أنت مطلق السراح ! » ؛ وان يضحي بالواجب ، تلك الفريضة العمومية ، على مذبح الدوافع الشخصية ؛ وان يستشعر في هذه الدوافع الشخصية شيئاً عمومياً أيضاً ، وربما شيئاً سامياً ؛ وان يخون المجتمع لكي يكون وفياً لضميره ؛ وان تتحقق هذه الاستحالات كلها ، وان تتراكم عليه هو .

كان شيء قد أثار دهشه : أن يكون جان فالجان قد غفر له ؛ وكان شيء قد حجّره : أن يكون هو ، جافير ، قد غفر لجان فالجان .

أين كان ؟ والتمس نفسه ، فلم يجد نفسه .

ما الذي يتعين عليه ان يفعله الآن ؟ أيسلم جان فالجان إلى السلطات ؟

ان ذلك شر . أيترك جان فالجان طليقاً ؟ ان ذلك شر أيضاً . ففي الحال الأولى يهبط رجل السلطة إلى أحط من درك الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وفي الحال الثانية يرتفع الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى مستوى أعلى من مستوى القانون ويدوسه بقدمه . وفي كلتا الحالين عار عليه ، هو جافير . وأياً ما كانت الطريق التي سيسلكها فثمة زلة . إن للاقدار بعض الحدود القصوى المتحدرة على المستحيل ، والتي لا تعدو الحياة ان تكون ، وراءها ، هوة ليس غير . كان جافير قد بلغ واحداً من تلك الحدود القصوى .

وكان من أسباب حصره النفسي انه كان مكرهاً على التفكير . كان مجرد عنف هذه العواطف كلها يجبره على ذلك . وكان التفكير شيئاً غير مألوف عنده ، فهو أليم إلى حد فريد .

إن ثمة دائماً قدراً معيناً من الثورة الباطنية في الفكر . ولقد هاجه ان يجد ذلك في ذات نفسه .

كان التفكير في ايما موضوع ، مهما يكن ، خارج نطاق وظيفته الضيق – كان هذا التفكير ، في جميع الاحوال ، حماقة في نظره ومدعاة للتعب . ولكن التفكير في اليوم الذي تصرّم منذ فترة يسيرة كان عذاباً ونكالا . ويتعين عليه ، مع ذلك ، ان يلقي نظرة على ضميره بعد صدمات مثل هذه ، وان يقدم حساباً عن نفسه إلى نفسه .

كان ما قد صنعه اللحظة قد أوقع الرعدة في أوصاله . كان قد ارتأى هو جافير ، ان من الخير ان يقرر ، برغم أنظمة الشرطة جميعاً ، وبرغم التنظيم الاجتماعي والقضائي كله ، وبرغم القانون كله ، إطلاق سراح متهم . كان ذلك قد أرضاه ، لقد قدم مصالحه الخاصة على المصالح العامة . أليس هذا شراً لا سبيل إلى وصفه ؟ كان كلما واجه هذا العمل الذي لا اسم له ، هذا العمل الذي ارتكبه ، يرتعد من قمة رأسه إلى اخمص قدميه . ما الذي ينبغي له ان يقرره الآن ؟ لم تبق أمامه غير

سبيل واحدة : أن يرجع في الحال إلى شارع الرجل المسلح ، ويلقي القبض على جان فالجان . كان واضحاً ان ذلك هو ما يتعين عليه فعله . ولكنه لم يستطع .

لقد سد شيء ما ، الطريقَ في وجهه من هذه الناحية .

شيء ما ؟ ماذا ؟ وهل ثمة في العالم شيء غير المحاكم ، وأحكام القضاء ، والشرطة ، والسلطة ؟ واضطرب ذهن جافير .

محكوم مقدس بالاشغال الشاقة ! محكوم تقصر يد العدالة عن الوصول اليه ! ومن المسؤول عن ذلك ؟ هو جافير !

أليس فظيعاً ان ينتهي جافير وجان فالجان ، الرجل الذي خلق للقسوة والرجل الذي خلق للخضوع ، أليس فظيعاً ان ينتهي هذان الرجلان ، اللذان كان كل منهما شيئاً من أشياء القانون ، إلى نقطة يضعان فيها نفسيهما كليهما فوق القانون ؟

ماذا اذن ؟ أتقع مثل هذه الفواحش ولا يعاقب أحد ؟ أمن الجائز ان يتعين عليه تحرير جان فالجان ، وقد أمسى اقوى من النظام الاجتماعي كله ، ثم يواصل هو ، جافير ، أكل خبز الحكومة !

وشيئاً بعد شيء غدت هذه الافكار رهيبة .

وكان في ميسوره ، من خلال هذه التأملات أيضاً ، ان يقرع نفسه قليلا في ما يتصل بذلك المتمرد الذي حُمل إلى شارع فتيات كالفير . ولكنه لم يفكر في هذا . لقد ضاعت الخطيئة الصغرى في الخطيئة الكبرى. وإلى هذا ، فقد كان واضحاً ان ذلك المتمرد رجل ميت ، والموت — في عرف الشرع — يخمد الملاحقة .

واذن فجان فالجان كان هو الحمل الذي يُثقل عقله .

لقد أذهله جان فالجان . إن جميع الحقائق البدهية التي تنهض عليها حياته كلها قد انهارت أمام هذا الرجل . لقد ارهقه إحسان جان فالجان اليه ، هو جافير . وعاودته بعض الاعمال ، التي تذكّرها والتي كان

يعتبرها حتى ذلك الحين اكاذيب وحماقات ، وتبدت له بوصفها حقائق . وبرز مسيو مادلين ، كرة اخرى ، خلف جان فالجان ، والتقت الصورتان حتى شكلتا صورة واحدة ، صورة جليلة جديرة بالاحترام . واستشعر جافير ان شيئاً رهيباً كان ينفذ إلى روحه . الاعجاب بمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . الاحترام لعبد من عبيد سجن الاشغال الشاقة ... هل هذا معقول ؟ وارتعد لتلك الفكرة ، ومع ذلك فلم يستطع ان يزحزحها . كان النضال عبثاً لا طائل تحته ، وكان قد اضطر إلى الاعتراف أمام محكمته الباطنية الخاصة بسمو هذا الرجل البائس . وكان ذلك بغيضاً اليه .

شرير محسن ؛ محكوم عليه بالاشغال الشاقة يملأ قلبه الحنان ؛ عذب ؛ معوان ؛ حليم ؛ يقابل الشر بالخير ؛ ويرد على البغض بالعفو ؛ محب للرأفة اكثر من حبه للانتقام ؛ يؤثر تحطيم نفسه على تحطيم خصمه ؛ وينقذ ذلك الذي طعنه ، ويركع على قمة الفضيلة ؛ أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر . لقد اضطر جافير إلى الاعتراف بأن هذا الكائن الجبار موجود .

وما كان لهذه الحال ان تستمر هكذا .

وليس من ريب — ونحن نصرّ على ذلك — في أنه لم يستسلم من غير ما مقاومة لذلك الجبار ، لذلك الملاك المرذول ، لذلك البطل الشنيع ، الذي كان جافير مشمئزاً ساخطاً عليه بقدر ما كان مشدوهاً به تقريباً . فعشرين مرة ، فيما كان في تلك العربة وجهاً لوجه مع جان فالجان ، زمجر النمر التشريعي في ذات نفسه . وعشرين مرة سولت له نفسه ان ينقضّ على جان فالجان ، وينشب اظفاره فيه ، ويلتهمه ، يعني ان يلقي القبض عليه . وهل ثمة ما هو أبسط من ذلك حقاً ؟ أن يصيح لدن وصوله إلى أول مخفر اجتازاه : « هو ذا هارب من وجه العدالة ، مخالف للحكم الصادر بحقه ! » ، ان ينادي رجال الدرك ويقول لهم :

« هذا الرجل ملك لكم ! » ويمضي لسبيله ، ان يخلّف هذا الرجل الهالك هناك ، وان يتجاهل الباقي ، ويقطع كل صلة له به . إن هذا الرجل هو أسير القانون إلى الأبد ، ولسوف يفعل القانون به ما يشاء . اي شيء أكثر عدالة من ذلك ؟ كان جافير قال ذلك كله في ذات نفسه ، كان قد رغب في ان يذهب إلى أبعد من هذا ، ان يعمل ، ان يلقي القبض على الرجل ؛ وفي ذلك الحين ، شأنه الآن ، عجز عن ذلك . وكلما ارتفعت يده على نحو متشنج نحو عنق جان فالجان ارتدت وكأنها مثقلة بحمل هائل . وكان قد سمع في أعماق عقله صوتاً ، صوتاً غريباً يخاطبه بقوله : « حسن . اطلق سراح منقذك . وجئ بحوض بيلاطس البنطي * ، واغسل براثنك . »

ثم ارتد تفكيره إلى نفسه . وإلى جانب جان فالجان ، المعظّم ، رأى نفسه ، هو جافير ، مهيناً ذليلاً .

كان المحسن اليه رجلا محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

ولكن لماذا اجاز لهذا الرجل ان ينقذ حياته ؟ كان من حقه ، في ذلك المتراس ، ان يُقتل . ولقد كان ينبغي له ان يفيد من هذا الحق . ولقد كان خيراً له لو دعا المتمردين الآخرين إلى مساعدته على جان فالجان ، وان يحصل بالقوة على رصاصة يموت بها .

وكان ألمه الأعظم ناشئاً عن فقدانه اليقينَ كله . لقد استشعر انه مقتلَع من جذوره . لم يعد القانون غير أرومة في يده . ولقد كان عليه ان يواجه وساوس من نوع مجهول . لقد أُلهِم إحساساً مختلفاً كل الاختلاف عن توكيد القانونِ ، مقياسِهِ الوحيد حتّى ذلك الحين . إن التزامه فضيلته

---

* هو حاكم « اليهودية » من قبل الرومان ، وقد أسلم يسوع المسيح الى قضاته الدينيين بالرغم من عدم اقتناعه بانه اقترف جريمة ما . ولكي يُفهم اليهود انه يحملهم تبعة موت يسوع طلب شيئاً من الماء ، وغسل يديه وقال : « انا بريء من دم هذا البارّ . »

القديمة لم يكن كافياً . لقد نشأ نظام كامل مؤلف من حقائق غير متوقعة، وهيمن عليه . لقد تبدى لروحه عالم جديد بالكلية . إحسان يُقبَل ويُردّ ؛ تفانٍ ؛ حنان ؛ رأفة ؛ اعمال عنف تشنها الشفقة على الصرامة؛ احترام الاشخاص ؛ لا قضاء نهائياً بعد الآن ؛ لا لعنة أبدية ؛ إمكانية ترقرق الدمعة في عين القانون ؛ عدالة خفية وفقاً للرب متناقضة مع العدالة وفقاً للبشر . لقد لمح في الظلام الاشراقَ الرهيب لشمس اخلاقية مجهولة . لقد روعته واصابت عينيه بالجهر . بومة تضطر إلى ان تنظر نظرات نسر .

وقال لنفسه ان ذلك صحيح اذن ، وان ثمة شواذ ، وان السلطة قد تصاب بالقلق ، وان القاعدة قد تتعطل فجأة امام عمل من الاعمال ، وان نص القانون لا ينتظم كل شيء ، وان غير المتوقع قد يفرض سلطانه حتى الخضوع ، وان فضيلة احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة قد تنصب شركاً لفضيلة الموظف ، وان الرهيب قد يكون إلهياً ، وان للقدر مكامن كهذه ، وفكّر في يأس أنه نفسه ليس في نجوة من الحيرة والانشداه .

واكره على الاعتراف بوجود الرفق . لقد كان هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة رجلا رفيقاً ، وكان هو نفسه — وهو أمر غريب — رفيقاً أيضاً . وإذن فقد فسُد .

وألفى نفسه نذلا خسيساً . كانت نفسه توقع الرعب في نفسه .

لم يكن مثل جافير الأعلى أن يصبح انسانياً ، ان يصبح عظيماً ، ان يصبح سامياً . كان مثله الأعلى ان يصبح خلواً من العيب .

وها هو ذا الآن قد اخفق :

كيف انتهى إلى هذه النقطة ؟ كيف حدث ذلك كله ؟ لقد عجز عن ان يجيب نفسه : وطوف رأسه بكلتا يديه ، ولكن على غير طائل : إنه لم يستطع ان يفسر ذلك لنفسه .

وكان يعتزم دائماً ، من غير شك ، ان يعيد جان فالجان إلى القانون الذي كان أسيره ، والذي كان هو جافير عبداً رقيقاً له . ولم يكن قد اقر بنفسه ، لحظة واحدة ، فيما كان ممسكاً به ، أنه فكر باطلاق سراحه . لقد اتفق ليده بطريقة ما ، وعلى غير علم منه ، ان انفتحت وأطلقته .

وتراقصت أمام عينيه علامات الاستفهام على اختلاف ضروبها . لقد طرح على نفسه ، ولقد أجاب ، عن تلك الاسئلة ؛ وروعته أجوبته تلك . لقد سأل نفسه : « هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هذا الرجل اليائس ، الذي لاحقته حتى الاضطهاد ، والذي وجدني مرة تحت قدميه ، والذي كان في ميسوره ان ينتقم لنفسه ، والذي كان يتعين عليه ان يفعل ذلك إرواء لانتقامه وضماناً لسلامته في وقت معاً — هذا الرجل ، ما الذي فعله عندما منحني الحياة ، عندما عفا عني ؟ واجبه ؟ لا . شيئاً اكثر . والآن ، بعفوي عنه مقابل ذلك ، ما الذي فعلته ؟ واجبي ؟ لا . شيئاً اكثر . واذن ، فثمة شيء اكثر من الواجب . » وأجفله ذلك . لقد اختلت موازينه . إن احدى الكفتين قد هبطت في الهاوية ، وان الأخرى قد صعدت في السماء ، واستشعر جافير من تلك المصعّدة بقدر من الذعر متكافىء مع ذلك الذي استشعره من تلك الهابطة . ومن غير ان يكون بحال من الاحوال ما يدعى فولتيرياً ، أو فيلسوفاً ، أو زنديقاً ، وعلى الرغم من انه كان على عكس ذلك شديد الاحترام ، بالغريزة ، للكنيسة الراسخة ، فلقد عرفها بوصفها جزءاً فخيماً من الكل الاجتماعي ليس غير . كان النظام عقيدته الجوهرية ، وكانت تلك العقيدة تكفيه . فمنذ ان بلغ مبلغ الرجال والموظفين ، كان قد وقف دينه كله على الشرطة . وذلك بأنه كان جاسوساً — ونحن نستعمل الكلمات هنا في أحفل معانيها بالجد ، ومن غير ايما أثارة من السخرية — كما يكون الناس كهاناً . كان له رئيس ، هو مسيو جيسكيه . وكان نادراً ما فكر ، حتى تلك اللحظات ، بذلك الرئيس الآخر : الله .

هذا الرئيس الجديد ، الله ، أحس به جافير بغتة . واربكه ذلك الاحساس .

وأوقعه ذلك الوجود غير المتوقع في حيرة : ولم يدر ما الذي يتعين عليه ان يفعله بهذا الرئيس ، هو الذي لم يكن يجهل ان المرؤوس مضطر دائماً إلى الخضوع ، وان عليه ان لا يعصي ، أو يلوم ، أو يناقش ، وانه ليس للمرؤوس من سبيل — في حضرة رئيس يثير دهشهُ اكثر مما ينبغي — غير الاذعان .

ولكن أنى له ان يبعث باستقالته إلى الله ؟

وكيفما كان ذلك ، وكان يرجع إلى هذا على نحو موصول ، فأن شيئاً واحداً سيطر عنده على كل شيء ، وهو انه ارتكب منذ لحظات خرقاً رهيباً للقانون . كان قد غض طرفه عن آثم آخر صادر في حقه حكمٌ ما لبث ان نقضه . كان قد اطلق سراح محكوم عليه بالاشغال الشاقة . لقد فعل ذلك . ولم يستطع ان يفهم نفسه . إنه لم يكن واثقاً من ان شخصيته ما تزال هي هي . لقد غابت عنه اسباب عمله نفسها . ولم يبق له منها غير دُوارها . كان قد عاش حتى تلك اللحظة بذلك الايمان الاعمى الذي تنجبه النزاهة المظلمة . ولكن هذا الايمان كان قد زايله ، ولكن هذه النزاهة كانت قد أعوزته . كان كل ما سبق له ان آمن به قد تبدد . وحاصرته حقائق لم يكن راغباً فيها حصاراً لا يعرف الرحمة . ولا ريب في أنه قد أمسى منذ ذلك الحين رجلا آخر . وعانى تلك الآلام الغريبة التي يقاسيها ضمير اجريت له ، فجاءة ، جراحة لانتزاع الماء الازرق . لقد رأى ما اشمأز من رؤيته . لقد أحس انه مستنزَف ، عديم الفائدة ، مقتلع من حياته السالفة ، مخلوع ، منحلّ . لقد ماتت السلطة فيه . ولم يبق ثمة ما يبرر وجوده .

حالة رهيبة ! أن تحركك العاطفة .

ان تكون صواناً ، وأن تشك ! ان تكون تمثال العقاب مفرَغاً بوصفك

قطعةً مفردة في قالب القانون ، ثم تلمح فجأة ان تحت صدرك البرونزي شيئاً مستحيلا ، عصياً يكاد يشبه قلباً من القلوب ! وان يقودك ذلك القلب إلى أن تجزي الخير بالخير ، على الرغم من انك ربما اعتدت ان تقول ، حتى ذلك اليوم ، ان هذا الخير كان شراً ! ان تكون كلب الحراسة ثم تداهن ! ان تكون ثلجاً ثم تذوب ! ان تكون كلاّبة وتنقلب إلى يد ! ان تستشعر اصابعك تنفتح على نحو مفاجئ! ان تُرخي قبضتك ، شيء رهيب !

أن لا يعرف « الرجل القذيفة » سبيله بعد الآن ، وان ينكص على عقبيه .

أن يضطر إلى الاعتراف بهذا : أن العصمة من الضلال ليست معصومة؛ وأنه قد يكون في العقيدة الجوهرية خطأ ما ؛ وان القانون حين يتكلم لا يقول كل شيء ؛ وان المجتمع ليس كاملا ؛ وان السلطة مشوبة بالتردد ؛ وأن التصدع في ما هو غير قابل للتغير ممكن ؛ وان القضاة ناس من الناس ؛ وان القانون قد يُخدع ؛ وأن المحاكم قد تخطىء ! أن يرى صدعاً في بلور القبة الزرقاء الهائل .

ان ما كان يجري في ذات نفس جافير كان تخلخُل ضمير مستقيم ، واقصاء نفس عن طريقها ، وسحق صلاحٍ أطلِق ، على نحو لا يقاوم، في خط مستقيم وانكساره عند الله . وليس من ريب في ان ذلك كان عجيباً : أن تجندل وقّاد النظام ،مهندسَ السلطة ، الممتطي متن فرس الطريق الصلب الحديدية العمياء ، بضعُ خيوط من الضياء ! أن يكون في إمكان المنيع ، المباشر ، القويم ، الهندمي ، السلبي ، الكامل ، أن يلتوي ! ان يكون ثمة طريق تنتهي بالقاطرة إلى دمشق !

الله ، النفسي دائماً بالنسبة إلى الأنسان ؛ المستعصي ، وهو الضمير الحق ، على الضمير الباطل ، المحرّم على الشرارة ان تنطفىء ، الآمر الشعاعَ بأن يذكر الشمس ؛ الموصي النفسَ بان تعترف بالمطلق الحقيقي

حين تواجه المطلق الوهمي : الله الذي هو الانسانيةُ خالدةً ، والقلب البشري باقياً ؛ هذه الظاهرة السّنية — ولعلها أجمل اعاجيبنا الباطنية — هل فهمها جافير ؟ هل نفذ اليها جافير ؟ هل كوّن جافير فكرة عنها ؟ لا ، من غير ريب . ولكنْ تحت ضغط من هذا الممتنع على الفهم ، غير المماري فيه ، استشعر جافير ان جمجمته تكاد تنفجر .

كان ضحيةَ هذه المعجزة أكثر منه متحولا بواسطتها إلى شخص أكثر سمواً . لقد خضع لها ، ساخطاً . إنه لم ير فيها غير صعوبة وجود هائلة . لقد بدا له أن تنفسه سوف يكون منذ اليوم مُعوقاً إلى الابد .

إنه لم يألف أن يُصلت المجهول فوق رأسه .

فحتى تلك اللحظة كان كل ما فوقه سطح أملس ، بسيط ، رائق في نظره . لا شيء مجهولا هناك ، لا شيء غامضاً . لا شيء مما هو غير محدود ، غير متسق ، غير منظم ، غير مضبوط ، غير دقيق ، غير واضح الحدود ، غير مقيد ، غير منغلق ، غير متنبأ به كله . كانت السلطة شيئاً مسطحاً ، لا تعثّر فيه ، ولا دوران أمامه . إن جافير لم يقدّر له من قبل ان يرى المجهول إلا تحت . كان الشاذ ، وغير المتوقع ، ومنفذ العماء * غير المتسق ، وإمكان الانزلاق إلى هاوية — كان ذلك كله خاصاً بالمناطق الدنيا ، بالثائرين ، بالاشرار ، بالبؤساء . أما الآن فقد انقلب جافير إلى الوراء ، ولقد رُوّع فجأة بهذه الرؤيا الرهيبة : هوةٌ فوق .

ماذا اذن ؟ لقد دُمرت أسواره تدميراً كاملا ! لقد أسقط في يده بالكلية ! بأي شيء يتعين عليه ان يثق ؟ لقد انهار ذلك الذي كان مقتنعاً به !

ماذا ؟ أيمكن ان يكتشف بائس شهم نقص المجتمع ؟ ماذا ؟ أيمكن

* chaos

لخادم مخلص من خدم القانون ان يجد نفسه فجأة بين جريمتين : جريمة اطلاق سراح رجل ، وجريمة القاء القبض عليه ! إن كل شيء لم يكن يقينياً في الأمر الذي تصدره الدولة إلى الموظف ! قد يكون ثمة في الواجب دروب غير نافذة ! ماذا اذن ! اكان ذلك كله حقيقياً ؟ اكان صحيحاً ان يوفّق لص عتيق ، مثقل بالأحكام القضائية ، إلى ان ينهض وإلى أن يكون آخر الأمر على حق ؟ أكان ذلك ممكن التصديق ؟ اكان ثمة ، اذن ، حالات يتعين فيها على القانون ان يتراجع أمام جريمة مجلببة بالسناء ، وهو يغمغم بالمعاذير ؟

أجل ، كان ثمة حالات مثل هذه ! ولقد رآها جافير ! ولقد مسها جافير ! إنه لم يكن عاجزاً عن إنكارها فحسب ، بل لقد كان له فيها دور أيضاً . كانت حقائق . وكان من المقيت ان يكون في ميسور الحقائق الفعلية أن تبلغ هذا المبلغ من الشناعة .

ولو ان الحقائق أدتْ واجبها اذن لاجترأت بأن كانت براهين القانون : الحقائق ، إن الله هو الذي يرسلها . اكانت الفوضوية اذن على وشك ان تهبط من الأعالي ؟

وهكذا – وتحت قوة الألم المرير المضخمة ، وفي وهم الانشداه البصري ، تلاشى كل ما كان في ميسوره أن يقيد انطباعته ويصححها ، ومنذ ذلك الحين اختُصر المجتمع ، والجنس البشري ، والكون في عينيه في مظهر واحد بسيط وفظيع – وهكذا فان العقاب ، والشيء المحاكم ، والقوة الجدير بالقانون ان يتمتع بها ، وقرارات المحاكم السيدة ، والقضاء ، والحكومة ، والاحتياط والقمع ، والحكمة الرسمية ، والعصمة التشريعية ، ومبدأ السلطة ، وجميع المعتقدات الجوهرية التي تستند اليها السلامة السياسية والمدنية ، والسيادة ، والعدالة ، والمنطق المنبثق من القانون ، والمطلق الاجتماعي ، والحقيقة العمومية ، كل هذه هي فوضى ، واختلاط ، وعماء . وأنه ، هو جافير ، شرطي النظام ،

العامل بنزاهة في خدمة البوليس ، درواس* العناية الالـهية المسخر لصالح المجتمع ، قد قُهر وُهزم . وكان يقف فوق هذا الدمار كله رجل يعتمر بقلنسوة خضراء وتحيط بجبينه هالة من نور . ذلك هو الانقلاب الذي كان قد انتهى اليه . تلك كانت الرؤيا الرهيبة التي كانت في ذات نفسه .

هل كان في الامكان الصبر على ذلك ؟ لا .

حالة غير طبيعية ، اذا كان ثمة شيء مثل ذلك . ولم يكن هناك غير سبيلين اثنين للخروج منها . الأول ان يمضي في حزم إلى جان فالجان ويعيد الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى المحبس المظلم . والثاني...

وغادر جافير الحاجز . واتخذ طريقه ، في خطى ثابتة ، غير منكس الرأس هذه المرة ، نحو المخفر الذي كان احد المصابيح يشير اليه في بعض زوايا ساحة الـ « شاتيليه » .

حتى إذا بلغه ، رأى من خلال النافذة شرطياً ، ودخل . إن رجال الشرطة يعرف بعضهم بعضاً من مجرد الطريقة التي يدفعون الباب بها . واعلن جافير عن نفسه ، وابرز بطاقته للشرطي ، وجلس إلى طاولة المخفر ، حيث كانت تشتعل شمعة . كان على الطاولة ريشة ، ومحبرة من رصاص ، وبعض الورق المعد للتقارير الطارئة ، والاوامر الموجهة إلى العسس .

وهذه الطاولة ، المصحوبة دائماً بكرسيها القشيّ ، هي في الواقع مؤسسة . إنها موجودة في جميع مخافر الشرطة . وهي مزدانة على نحو لا يتغير بصُحَيفة من خشب البقس ملأى بالنُشارة ، وصندوق من الورق المقوى مليء ببرشامات حمراء للختم ، وهي الدرجة الدنيا من الأسلوب الديواني .. إن أدب الدولة انما يبدأ فوقها .

* الدرواس : الكلب العظيم الرأس .

وأمسك جافير بالريشة وبقصاصة من الورق ، وبدأ يكتب . ودونك هذا الذي كتبه :

بعض الملاحظات لخير المصلحة

« أولا ، أرجو سيدي مدير الشرطة أن يلقي نظرة على هذا .

« ثانياً : إن السجناء ، عند عودتهم من الاستنطاق ، ينزعون أحذيتهم ويظلون واقفين حفاة ، على البلاط ، ريثما يفتّشون . إن كثيراً منهم ليسعلون حين يرجعون إلى السجن . وهذا يكلف الدولة نفقات مستشفى .

« ثالثاً : الملاحقة المترصدة حسنة ، على أن يحل بعض رجال الشرطة محل بعضهم الآخر بين الفينة والفينة . ولكن يجب ان يكون ثمة ، في الحالات الخطيرة ، شرطيان لا يرفع احدهما بصره عن الآخر ، بحيث إذا ما ألمّ الضعف بواحد منهما ، لأيما سبب مهما يكن ، راقبه الآخر وقام مقامه .

« رابعاً : من العسير على المرء ان يفهم لماذا يحظر النظام الخاص بسجن المادلونيت اعطاء السجين كرسياً ، ولو دفع اجراً على ذلك .

« خامساً : في سجن المادلونيت لا يوجد غير قضيبين حديديين لنافذة المحل الخاص ببيع المأكولات للسجناء ، مما يمكن البائعة من ان تدع السجناء يمسون يدها .

« سادساً : إن السجناء ، الذين يدعونهم النابحين ، والذين ينادون السجناء الآخرين إلى حجرة الاستقبال ، يُكرهون السجين على ان يدفع اليهم درهمين ثمناً لرفع صوتهم باسمه في وضوح . إن هذه سرقة .

« سابعاً : إنهم يستبقون عشرة « سو » من أجر السجين ، في دكان الحياكة ، مقابل الخيط المهمل . وهذا ظلم من جانب المتعهد ، لأن جودة القماش لم تتأثر »

« ثامناً : من المزعج ان يضطر زائرو سجن لا فورس إلى ان يعبروا « ساحة الاطفال » لـكي يصلوا إلى حجرة استقبال « القـديسة مـريم المصرية » .

« تاسعاً : من الثابت ان رجال الدرك يُسمعون كل يوم وهم يقصّون في فناء مديرية الشرطة ، استنطاقات اولئك الذين سيقوا للمثول بين يدي القضاة . إن الدركي الذي يكرر ما سمعه في حجرة الاستنطاق – والذي كان ينبغي له ان يصون هذه الاقوال بوصفها مقدسة – إنما يرتكب خطأ خطيراً .

« عاشراً : إن مدام هنري امرأة أمينة . ان نافذة دكانها الخاص ببيع المأكولات للسجناء نظيفة جداً ، ولكن من غير الحسن أن تحرس امرأة بُويبَ الباب المسحور الخاص بحجيرات السجن السرية . ان ذلك غير لائق بسجن أمة ذات حضارة عظيمة . »

كتب جافير هذه الأسطر بخطه الاكثر هدوءاً وضبطـاً ، غير مهمل فاصلة ، جاعلا الورقة تصوّت في قوة ، تحت ريشته . وتحت السطر الأخير وقّع :

« جافير
« مفتش شرطة من الدرجة الاولى
« مخفر ساحة الشاتيليه
« ٧ حزيران ، ١٨٣٢ حوالى الساعة الواحدة صباحاً .

وجفف جافير حبر الورقة الطريء ، وطواها كما تطوى الرسالة ، وختمها ، وكتب على ظهرها : « مذكرة للادارة » ، وتركهـا على الطاولة وغادر المخفر . وانغلق الباب المزجيج المقضّب بالحديد خلفه .

واجتاز ساحة الـ « شاتيليه » . على نحو قَطْري ، كرة اخرى ، وانتهى إلى رصيف النهر ، وعاد في دقة آلية إلى النقطة نفسها التي غادرها قبل ربع ساعة ، واتكأ هناك ، فألفى نفسه في الوضع ذاته ، على بلاطة الحاجز نفسها . لقد بدا وكأنه لم يتحرك قط .

كانت الظلمة كاملة . وكان ذلك في اللحظة القبرية التي تعقب منتصف الليل . لقد حجب النجومَ سقف من السحب . ولم تكن السماء غير عمق مشؤوم . لقد أطفئت جميع بيوت المدينة . وخلت الشوارع من عابري السبيل . كان كل ما استطاع أن يراه من الشوارع ومن رصيف النهر مهجوراً . وبدت نوتردام وأبراج قصر العدل وكأنها ملامح الليل . وحمّر مصباحٌ حافةَ الرصيف . وتشوهت صور الجسور الظلية في الضباب ، بعضُها خلف بعض . وكانت الأمطار قد ضخمت النهر .

وكان الموطن الذي اتكأ جافير عنده ، كما يذكر القاريء ، واقعاً فوق تيارات السين تماماً ، على خط عمودي فوق تلك الدوامة الرهيبةالتي تنحل ثم تنعقد ثانية مثل لولب لا نهاية له .

وحنى جافير رأسه ، ونظر . كان كل شيء أسود ، ولم يكن في ميسوره ان يتبين شيئاً . وسمع صوت الزبد ، ولكنه لم ير النهر . وبين الفينة والفينة ، في ذلك العمق الذي يوقع الدوار في الرأس ، تبدّى وميض وتمعجَ على نحو غامض ، اذ ان للماء هذه القوة التي تمكّنه في أشد الليالي حلكة ، من اقتباس الضياء — وليس يدري احد من أين — وتحويله إلى أفعوان . وتلاشى الوميض ، وعاد كل شيء غامضاً من جديد . وبدا اللامحدود مفتوحاً هناك . إن ما كان تحته لم يكن ماء ولكن هاوية : وبدا جدار الرصيف — موجزاً ، مختلطاً ، ممزوجاً بالبخار ، وقد غاب عن البصر فجأة — وكأنه منحدر اللانهاية .

لم ير شيئاً ، ولكنه استشعر برودة الماء البغيضة ، ورائحة الحجارة الندية التافهة . لقد انبعثت ريح ضارية من تلك الهوة . وكان تضخم

النهر ، المحزور حزراً بأكثر مما كان ملموحاً لمحاً ، وهمسُ الفيضان الفاجع ، واتساع قناطر الجسر على نحو حدادي ، والسقوط المتخيَّل في ذلك الفراغ الـكالـح ـ كان ذلك الظلام كله مفعماً بالهول .

وظل جافير بضع دقائق جامداً من غير حراك ، محدقاً إلى فتحـــة الظلام تلك . لقد تأمل في اللامنظور بتركيز يشبه الانتباه . وخرّ الماء . وفجأة ، رفـع جافير قبعته ، ووضعها على حافة الرصيف . وبعد لحظة، بدا واقفاً على الحافة شكلٌ أسود كان خليقاً بعابر سبيل متأخر ان يحسبه عن بعد شبحاً من الاشباح . وانحنى ذلك الشكل نحو الـ « سين » ، ثم انتصب ، وسقط في الظلمات على نحو عمودي . وسُمع هدير مـوج خافت . وكان الظلام وحده في مكنون تشنجات ذلك الشكل المربدّ الذي اختفى تحت الماء .

الكتاب الخامس

الحفيد والجد

١

حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك كرة اخرى

بعد فترة وجيزة انقضت على الاحداث التي رويناها منذ لحظات استشعر السيد بولاتروويل انفعالا عارماً .

ولعل القاريء يذكر ان بولاتروويل كان رجلا منهمكاً في اشياء كدرة متباينة . كان يكسر الحجارة وينزل الاذى بالمسافرين على الطريق العام . وبوصفه حفاراً ولصاً كان يراوده حلم . كان يؤمن بالكنوز الدفينة في غابة مونفيرماي . وكان يرجو ان يجد المال ذات يوم ، في

بطن الارض ، عند سفح شجرة من الاشجار . وفي انتظار ذلك ، كان يرغب في البحث عن ذلك المال في جيوب عابري السبيل .

ومع ذلك ، فقد اصطنع الحكمة موقتاً . كان قد نجا ، منذ قريب ، من موقف حرج . فنحن نعرف انه كان اصطيد في كوخ جوندريت الحقير مع قطاع الطرق الآخرين . وتلك جدوى الرذيلة : كان سُكره قد انقذه . فلم يكن في ميسور الشرطة ان تجزم أكان سارقاً أم مسروقاً . كان قد أطلق سراحه أمرٌ بمنع المحاكمة بني على حالته الثملة المثبتة اثباتاً واضحاً ليلة الكمين . لقد استعاد حرية الغابات . ورجع إلى طريقه الموصلة بين غانيي ولانيي لكي يكسر الحجارة لحساب الدولة ، تحت الاشراف الاداري ، منكّس المحيا ، مستغرقاً في التفكير ، وقد خمد شوقه بعض الشيء للسرقة ، التي كادت تُنزل الخراب بساحته ، وانصرف في شغف أشد نحو الخمر ، التي انقذته منذ فترة يسيرة .

أما الانفعال العارم الذي ألمّ به بُعيد عودته إلى الاستظلال بسطح كوخه الخاص بعمال الطرق ، المصنوع من العشب ، فهو هذا :

ذات صباح ، فيما كان بولاترورويل ماضياً إلى عمله وفقاً لعادته ، ولعله كان يترصد أحداً ، لمح وسط الاغصان رجلا لم يكن في ميسور عامل الطرق ان يرى غير ظهره ، ولكن مشيته ، في ما بدا له ، من خلال البعد والغسق ، لم تكن غريبة عنه بالكلية . فقد كان لبولاترورويل ، برغم ادمانه الخمر ، ذاكرة دقيقة جلية ، وهو سلاح دفاعي لا يستغني عنه كل من كان على صراع ضئيل مع النظام الشرعي .

وساءل نفسه :

— « أين رأيت ، بحق الشيطان ، شيئاً مثل هذا الرجل ؟ »

ولكنه لم يستطع أن يجيب نفسه إلا بالقول إنه يشبه شخصاً انطبعت له في ذاكرته صورة غامضة .

وأجرى بولاترورويل ، خارج نطاق الهوية التي لم يستطع ان يتذكرها

آجيد ، بعض المقارنات والحسابات . ان هذا الرجل لم يكن من ابناء تلك الديار . كان قد وفد اليها . سعياً على قدميه ، من غير شك . فليس من عربة عمومية تجتاز مونفيرماي في تلك الساعة . كان قد مشى طوال الليل . من أين كان قد جاء ؟ من مكان غير بعيد جداً . إذ انـــه لم يكن يحمل لا جراباً ولا صرة . من باريس ، بلا شك . لم كان في تلك الغابة ؟ لم كان هناك في مثل هذه الساعة ؟ ما الذي جـــاء بـــه إلـى هنـــاك ؟

وفكر بولاتروويل في الكنز . وبفضل التنقيب العميق الذي اجراه في ذاكرته تذكر أنه استشعر ، منذ بضع سنوات ، مثل هذا الرعب فيما يتصل بشخص بدهه انه قد يكون هذا الرجل نفسه .

وفيما كان يتأمل حنى رأسه ، تحت وطأة ذلك التأمل نفسه ، وهو امر طبيعي ، ولكنه ليس أريباً جداً . حتى اذا رفع رأسه من جديد لم يعد ثمة شيء . كان الرجل قد اختفى في الغابة والغسق .

فقال بولاتروويل :

— « يا للشيطان ! سوف أجده من جديد . سوف اكتشف أبرشية هذا الابرشي . إن لهذا الرجل سراً ، ولسوف اهتدي إلى ذلك . لن يكون لأحد سر في غاباتي من غير ان يكون لي اصبع فيه . »

وحمل معوله الذي كان حاداً جداً .

وغمغم :

— « ههنا شيء تحفر الارض به ، ورجُل . »

وكما يصل امرؤ خيطاً بخيط ، ظالعاً جهده في الطريق الذي لا بـــد ان يكون الرجل قد سلكه ، اتخذ سبيله خلال الغابة .

وما إن تقدم نحواً من مئة خطوة حتى ساعده الفجر الذي كان قد أخذ بالانبلاج . كانت آثار الاقدام المنطبعة على الرمل ههنا وههناك ، والعشب المدوس ، والخلنج المسحوق ، والأفنان الملوية في الدغل والمنتصبة من

جديد في بطء لطيف ، مثل ذراعي امرأة جميلة تتمطى عند النهوض من النوم — كان ذلك كله يدله على طريق ما . واتبع هذه الطريق ، ثم ضل عنها . كان الوقت ينقضي . وتابع تقدمه في الغابة ، وانتهى إلى شبه رابية . وأوحى اليه قناص صباحي يجتاز من بعيد ممراً ويصفر لحن الـ « غويلري » ، بفكرة تسلق شجرة. وعلى الرغم من شيخوخته ، فقد كان رشيقاً . كانت على مقربة منه شجرة مُرّان فارعة الطول جديرة بتيتيروس * وبولاترولويل . وتسلق بولاترولويل شجرة المران أعلى ما يستطيع ان يتسلقها .

كانت الفكرة جيدة . فمن طريق ريادة المكان الموحش من الناحية التي كانت الغابة متشابكة فيها إلى أبعد الحدود ، ضارية إلى أبعد الحدود ، لمح بولاترولويل الرجلَ فجأة .

ولم يكد يلمحه حتى غاب عن بصره .

ودخل الرجل ، أو على الأصح ، انزلق إلى بقعة جرداء نائية ، محجبة باشجار باسقة ، ولكن بولاترولويل كان يعرفها جيداً ، إذ كان قد لاحظ هناك ، قرب ركام كبير من حجارة الرحى ، شجرة كستناء جريحة ومعصوبة بصفيحة من الزنك مسمرة على لحائها . وهذه البقعة الجرداء هي تلك التي كانت تدعى في السابق ارض بلارو . ان ركام الحجارة ، المعدّ لأمر لا يعرفه أحد ، والذي كان في ميسور المرء ان يراه هناك قبل ثلاثين سنة ، لا يزال ثمة من غير ريب . وليس في العالم ما يضاهي ركام الحجارة طولَ عمرٍ ، إلا ان يكون ركامَ حجارة خاص بسياج خشبي . إنه هناك إلى حين . وايّ داع إلى البقاء !

وفي رشاقة البهجة ، سقط بولاترولويل عن الشجرة ، ولا نقول هبط منها . لقد اكتُشِف جحرُ الأرنب ، وكانت المسألة تقتضيه الآن الامساك بالطريدة . لعل كنز أحلامه الشهير كان هناك .

---

* Tityre احد راعيين ورد ذكرهما في اولى قصائد فيرجيل الرعائية .

ولم يكن الوصول إلى تلك البقعة الجرداء أمراً هيناً . فمن طريق الممرات الممهدة ، والمشكّلة ألفَ خط متعرج متاكد ، كان بلوغها يقتضيه ربع ساعة تماماً . أما اذا سار في خط مستقيم ، من خلال الأجمة ، التي كانت هناك كثيفة جداً ، شائكة جداً ، وعدوانية جداً ، فكان الوصول اليها يقتضيه نصف ساعة بطولها . وتلك كانت غلطة بولاتروويل . لقد آمن بالخط المستقيم . وهمٌ بصريّ جليل ، ولكنه يقضي على كثير من الناس . لقد بدت الأجمة في نظره ، برغم انها كانت شائكة جداً ، وكأنها الطريق الفضلى .

وقال :

— « فلنسلك شارع ريفولي الخاص بالذئاب » .

وارتكب بولاتروويل ، المتعود ان يسير في انحراف ، غلطة السير في خط مستقيم هذه المرة .

واندفع في عزم نحو اكثف الأدغال .

كان عليه ان يواجه آساً برياً ، وقُرّاصاً ، وزعروراً ، ونسريناً ، وشوكَ جِمال ، وعوسجاً قوياً سريع الغضب . وخُدّش جلده تخديشاً .

وفي قعر المسيل ، وجد جدولا يتعين عليه عبوره .

واخيراً وصل ، بعد اربعين دقيقة ، إلى بقعة بلارو الجرداء ، راشحاً بالعرق ، مبلل الثياب ، لاهثاً ، ممزقاً ، ضارياً .

ولم يكن في البقعة الجرداء احد .

وركض بولاتروويل إلى ركام الحجارة . كان الركام لا يزال في مكانه : إن أحداً لم يكن قد نقله .

أما الرجل ، فكان قد اختفى في الغابة . كان قد فر . إلى أين ؟ من اية ناحية ؟ في اي دغل ؟ كان من المتعذر عليه ان يحزر .

وزاده مضاضةً أن وجد خلف ركام الحجارة ، أمام الشجرة ذات

صفيحة الزنك ، تربة نُبشت منذ قريب ، ومعولا منسياً أو مهجوراً ، وحفرة .

كانت هذه الحفرة فارغة .

وصاح بولاتروويل ، وهو يهز كلتا قبضتيه في وجه الافق :

— « اللص ! »

٢
ماريوس ، وقد نجا من الحرب الاهلية ، يستعد للحرب المنزلية

ظل ماريوس فترة طويلة متأرجحاً بين الموت والحياة . لقد استبدت به طوال بضعة اسابيع حمى مصحوبة بهذيان ، وأعراض دماغية خطيرة نشأت عن الارتجاج الذي احدثته جراحات رأسه اكثر مما نشأت من الجراحات نفسها .

وكرر اسمَ كوزيت لياليَ بطولها في ثرثرة الحمّى الحِدادية وعناد الحشرجة الكالح . وكانت ضخامة بعض الجراح تشكل خطراً عظيما — لأن تقيّح الجراح البليغة معرّض دائماً للامتصاص ثانية ، ومن ثم إلى قتل المريض — بفعل بعض العوارض الجوية . فعند كل تغير في حالة الجو ، وعند هبوب اضأل العواصف ، كان القلق يستولي على الطبيب ، فهو يكرر : « عليكم ، فوق كل شيء ، ان تجنبوا المريض الاهتياج والانفعال . » كانت الضمادات معقدة صعبة ، اذ لم يكن ربط العصائب باللّزوق قد ابتُدع في تلك الحقبة . وقالت نيقوليت انها اصطنعت نُسالة من غطاء سرير « ضخم كالسقف » . ولم تتمكن ضروب الغسول المُكَلْوَرة

ونترات الفضة من ان تضع حداً للغنغرينة إلا بشق النفس . وطوال مدة الخطر كان مسيو جيلنورمان ، الشارد اللب أمام سرير حفيده ، مثل ماريوس : لا هو يميت ، ولا هو يحيّ .

وكل يوم ، وفي بعض الاحيان مرتين كل يوم ، كان رجل حسن البزة ، أبيض الشعر — ذلك هو الوصف الذي أعطاه البواب — يفد لكي يطمئن على صحة الجريح ، ويترك رزمة كبيرة من النسالة للضمادات .

واخيراً ، وفي السابع من أيلول ، بعد اربعة اشهر انقضت على ذلك اليوم الذي حُمِل ماريوس فيه وهو محتضر إلى بيت جده ، أعلن الطبيب زوال الخطر عنه . وبدأ دور النقاهة . ومع ذلك ، فقد تعين على ماريوس ان يظل اكثر من شهرين ممدداً على كرسي طويل ، بسبب من الطوارئ الناشئة عن انكسار لوح الكتف . ان ثمة دائماً جرحاً اخيراً مثل هذا يأبى ان يندمل ، ويخلّد الضمادات ، مثيراً اعظم السخط في نفس المريض .

وعلى أية حال ، فان هذا المرض المتطاول ، وهذه النقاهة المتطاولة ، انقذاه من الملاحقة . ففي فرنسة ، ليس ثمة غضب ، ولو حكومياً ، لا تخمده اشهر ستة . إن الفتن ، في أوضاع المجتمع الحاضرة ، تقع تبعتها على الناس جميعاً بحيث تعقبها حاجة ما إلى اغماض العينين .

ولنضف ان قرار غيسكيه الشائن ، الذي فرض على الاطباء أن يبلغوا السلطة عن المرضى ، كان قد أثار سخط الرأي العام ، بل ونقمة الملك قبل غيره من الناس . وتدرّع الجرحى واحتموا بهذا السخط . وباستثناء اولئك الذي أُسِروا على ارض المعركة نفسها لم تجرؤ المحاكم العرفية على ازعاج احد . وهكذا تُرك ماريوس في سلام .

وعرف مسيو جيلنورمان بادئ الأمر صنوف الألم المرير جميعاً ، ثم صنوف الانخطاف جميعاً . لقد وجدوا عسراً شديداً في منعه من قضاء

الليل كله ، يومياً ، مع الرجل الجريح . كان يطلب اليهم ان ينقلوا كرسيه الكبير ذا الذراعين إلى جانب سرير ماريوس . وكان يصر على أن تتخذ ابنته من أنفس ما في البيت من أقمشة عصائبَ وضمادات . والتمست الآنسة جيلنورمان — بوصفها الشخص الأرشد الحكيم — الوسيلةَ إلى توفير تلك الاقمشة النفيسة ، فيما اوقعت في نفس الجد ان اوامره قد نُفذت . ولم يسمح مسيو جيلنورمان لامرىء بأن يشرح له أن القماش القصبي ليس اجود ، في صنع النسالة ، من الكتان الخشن ، وان القماش الجديد ليس اجود من القماش العتيق . لقد أشرف بنفسه على وضع جميع الضمادات ، وهو ما كانت الآنسة جيلنورمان تنأى بنفسها عنه في حياء . وحين كان اللحم الميت يُقطع بالمقص ، كان يقول : « آيي ! آيي ! » ولم يكن ثمة ما هو أدعى إلى التأثر من رؤيته يقدّم إلى الجريح ، بارتعاشته العذبة الهرمة ، كأساً من مغليّ ماء الحشائش . لقد أثقل كاهل الطبيب بالاسئلة . ولم يكن ينتبه إلى أنه كان يسأل دائماً الاسئلة نفسها .

ويوم أعلنه الطبيب ان ماريوس اجتاز مرحلة الخطر ، أصيب الرجل العجوز بهذيان . لقد أنعم على بوابه ببشارة مقدارها ثلاث لويسيات ذهبية . وفي المساء ، حين أوى إلى غرفته ، رقص رقصة الـ «غافوت» جاعلا من إبهامه وسبابته صناجتين ، وراح ينشد هذه الاغنية :

جانّ مولودة في فوجير
عشّ حقيقي لراعية
أنا أعبد تنورتها
المغناج .

ايها الحب ، انت تحيا فيها ؛
ذلك انك تضع في
حدقتيها ، هي ، كنانتك .

الماكرة !

أما أنا ، فاني أغني
وأحب اكثر من ديانا نفسها ،
جان" وثدييها
البروتانيين .

ثم انحنى على احد الكرامي ، وكان باسك – الذي راقبه من خلال الباب نصف المفتوح – واثقاً من انه يصلي .

وكان حتى تلك اللحظة لا يؤمن بالله البتة .

ومع كل وجه جديد من وجوه التحسن ، الذي ازداد تجلياً يوماً بعد يوم ، كان الجد يهذي . لقد قام بعشرات من الاعمال الميكانيكية المفعمة بالجذل . كان يرتقي السلم ويهبطها من غير أن يدري لماذا . ودهشت احدى جاراته ، وكانت امرأة جميلة ، اذ تلقت ذات صباح باقة من الزهر ، كان مسيو جيلنورمان هو الذي ارسلها اليها . وعصفت الغيرة بالزوج فغضب وثار . وحاول مسيو جيلنورمان ان يُقعد نيقوليت على ركبتيه . واطلق على ماريوس لقب « السيد البارون » . وهتف : « فلتحي الجمهورية ! »

وفي كل لحظة كان يسأل الطبيب : « لم يبق من خطر ، أليس كذلك ؟ » ونظر إلى ماريوس بعينَي جَدّ . كان يحضنه وهو يأكل . ولم يعد يعرف نفسه ، ولم يعد يتكل على نفسه . كان ماريوس هو سيد البيت . وكان في ابتهاجه تنازل . كان حفيدَ حفيده .

وفي هذا الطرب الذي عراه ، كان اكثر الاطفال توقيراً . فلخوفه من ان يُتعب الشاب الناقه أو يزعجه كان يقف خلفه لكي يبتسم له . كان سعيداً ، مبتهجاً ، منتشياً ، فاتناً ، غض الأهاب . وخلع شعره الاشيب جلالا عذباً على الضياء البهيج الطافح به وجهُه . وحين

تجتمع الطلاوة والتجاعيد يصبح الوجه ساحراً حتى العبادة . إن ثمة فجراً عجيباً في الشيخوخة السعيدة .

أما ماريوس فكانت تستحوذ على ذهنه ، فيما كان يمكنهم من أن يضمدوا جراحه ويعنوا بحاله ، فكرة متسلطة : كوزيت .

ومنذ ان زايلته الحمى والهذيان ، لم يكن قد نطق بذلك الاسم . ولعلهم قد حسبوا انه ما عاد يفكر فيه . لقد اعتصم بالصمت لسبب واحد . هو ان روحه كانت هناك .

انه لم يدر ما الذي حل بكوزيت . كانت قضية شارع الـ « شانفريري » كلها أشبه بسحابة في ذاكرته . كانت ظلال ، غامضة تقريباً . تطفو في ذهنه : ايبونين ، غافروش ، مابوف ، تيناردييه وزوجته ، وجميع اصدقائه وقد امتزجوا على نحو حدادي بدخان المتراس . وكان مرور مسيو فوشلوفان الغريب في تلك المأساة الدامية قد خلّف في ذات نفسه مثل أثر الاحجية في عاصفة . إنه لم يفهم شيئاً في ما يتصل بحياته هو . انه لم يدر كيف ، وبفضل من ، نجا . وما كان احد من الذين حوله يعرف ذلك . كل ما استطاعوا ان يقولوه إنه حُمل ليلا إلى شارع فتيات كالفير في عربة كراء . كان الماضي ، والحاضر . والمستقبل لا تعني كلها ، عنده ، غير ضباب فكرة غامضة . ولكن كان في هذا الضباب نقطة غير متحركة ، ملمَح واضح دقيق ، شيء من صوان ، عزم ، إرادة : أن يجد كوزيت من جديد . كانت فكرة الحياة عنده غير منفصلة عن فكرة كوزيت . كان قد قرر في فؤاده ان لا يقبل احداهما بدون الاخرى ، وكان قد وطد العزم اقوى ما يكون التوطيد على ان يطلب إلى كل من قد يرغب في اكراهه على الحياة ــ سواء أكان المكره جده ، أو القدر ، أو الجحيم ــ ان يعيد اليه فردوسه الضائع .

ولم يخفِ عن نفسه ما في ذلك من مصاعب .

ولنؤكد نقطة واحدة هنا : إن عناية جده كلها ولطف جده كله لم يعطفا قلبه ولم يلطفا من حاشيته إلا قليلا . إنه لم يكن ، في المحل الأول . جاهلا ذلك كله . ثم إنه ، في استغراقه وهو على فراش المرض ، في التفكير ، الذي ربما كان لا يزال محموماً ، كان قليل الثقة بهذا اللطف ، بوصفه شيئاً جديداً وغريباً ، الغرضُ منه إخضاعه . وظل بارداً . لقد أنفق الجد ابتسامته المسكينة العجوز على غير طائل . وقال ماريوس في ذات نفسه ان كل شيء حسن ما دام هو ، ماريوس ، لم يتكلم ولم يبدِ مقاومة ما . ولكن ما إن تُبحث مسألة كوزيت حتى يجد محيا آخر ، وحتى ينزع القناع عن مسلك جده الحقيقي . وعندئذ سوف يشهد انتكاساً رهيباً إلى المسائل العائلية ، وسوف يواجه ضروب التهكم كلها ، وضروب المعارضة كلها دفعة واحدة : فوشلوفان ، كوبلوفان ، الثروة ، الفقر ، البؤس ، والأثقال في العنق ، والمستقبل . مقاومة عنيفة . والنتيجة ، الرفض . وتوترت أعصاب ماريوس مقدماً .

ثم إنه ، كلما رسخت قدمه أكثر في الحياة ، عاودته الاحزان القديمة ، وتفتحت قروح ذاكرته العتيقة ، وفكر في الماضي كرة اخرى . وبرز الكولونيل بونميرسي ، مرة ثانية ، بين مسيو جيلنورمان وبينه هو ، ماريوس . ومع الصحة ، عاوده ضرب من الخشونة نحو جده . واحتمل العجوز ذلك في دعة .

ولاحظ مسيو جيلنورمان ، من غير أن يظهر ذلك بأية حال ، ان ماريوس ، منذ أن حُمل إلى البيت واستعاد وعيه لم يقل له مرة « يا أبي » . إنه لم يقل « مسيو » ، هذا صحيح ، ولكنه وجد الوسيلةَ إلى أن لا يقول هذه أو تلك من طريق ادارة الجمل على نحو ما .

كان واضحاً أن أزمة توشك ان تعصف .

وكما يحدث دائماً ، تقريباً ، في مثل هـذه الاحوال ، قـام ماريوس ، لكي يختبر نفسه ، ببعض المناوشات قبل أن يقـاتل . وذات صباح ، اتفق لمسيو جيلنورمان ، بعد ان وقعت صحيفة بين يديه ، ان تحدث في استخفاف عن « المؤتمر الوطني » ، وقذف دانتون ، وسـان جوست ، وروبسبيير ، بخاتمة حكمية ملكية . فقال ماريوس في قسوة : « لقد كان رجال ١٧٩٣ عمالقة » . واعتصم الشيخ بالصمت ، ولـم يهمس بقيةَ النهار .

ورأى ماريوس ، الماثلة في ذهنه ابـداً صورة الجد العنيد الذي عرفه في السنوات الخالية — رأى في هذا الصمت تركيزاً للغضب كثيفاً ، وتوقّع ان يعقبه صراع حادّ ، وضاعف استعداداته للمعركة ، في زوايا فكره الخلفية .

وقرر ، في حـال الرفض ، أن يمزق ضماداته ، ويخلع كتفه ، ويعرّي سائرَ جراحه ويفتحهـا ، ويرفض كل غذاء . كانت جراحه هي عتاده الحربي . فأما كوزيت ، وإما الموت .

وانتظر اللحظة الملائمة في أناة المريض المدارية .

وسنحت اللحظة .

٣
ماريوس يهاجم

وذات يوم انحنى مسيو جيلنورمان — فيما كانت ابنته ترتب القناني والكؤوس على ظهر الخوان الرخامي — فوق ماريوس وقال له في جرْسه الاكثر رقة :

— « أترى ، يا صغيري ماريوس ، لو كنت مكانك لآثرت ان

آكل اللحم بدلا من السمك . إن سمكة موسى مقليةً استهلالٌ ممتاز لدور النقاهة . ولكن المريض يحتاج ، لكي يقف على قدميه ، إلى ضلع جيّد محشو . »

واستجمع ماريوس ، الذي كان قد استعاد كامل قواه تقريباً ، جميع هذه القوى ، واتخذ في سَريره جلسة مستقيمة ، واسند قبضتيه المتشنجتين إلى غطاء الفراش ، وحدق النظر إلى وجه جده ، وغلبت عليه سيما رهيبة ، وقال :

— « هذا يقودني إلى أن أقول لك شيئاً . »

— « ما هو ؟ »

— « هو أني اريد ان أتزوج . »

— « موافق . »

قال الجد ذلك ، وانفجر ضاحكاً .

— « موافق ؟ كيف ؟ »

— « اجل ، موافق . إنك سوف تفوز بفتاتك . »

وذهل ماريوس ، وغلب عليه الانشداه ، وارتعدت اوصاله جميعا. وتابع مسيو جيلنورمان :

— « اجل سوف تفوز بفتاتك الصغيرة ، الحلوة الوسيمة . إنها تجيء كل يوم في شكل رجل عجوز لتطمئن عنك . ومنذ ان جُرحتَ ، وهي تنفق وقتها في البكاء وصنع النسالة . لقد تقصيتُ حالها . انها تسكن في شارع الرجل المسلح ، رقم سبعة . آه ، اننا على استعداد ! حسناً . سوف تفوز بها ! هذا يوقعك في الشرك . لقد بَيَّتَّ مؤامرتك الصغيرة ؛ لقد قلتَ في ذات نفسك : سوف اقذف بهذا ، بعزم ، في وجه ذلك الجد ، في وجه مومياء عهدَيْ الوصاية والادارة تلك ، في وجه ذلك الوسيم العتيق ، في وجه دورانت الذي أمسى جيرونت ؛ لقد كان له هو أيضاً طيشه ، وغرامياته الموقتة ، ومحبوباته

المغناجات ، و « كوزيتاته » . كان له عهد تباهى فيه بنفسه ، عهدٌ كان له فيه جناحان ، عهد أكل فيه خبز ربيعه ، إن عليه ان يذكر ذلك جيداً . سوف نرى . معركة . آه ، إنك تمسك الخنفساء من قرنيها . هذا حسن ، انا اقترح ضلعاً محشواً ، فتجيب أنت : « بالمناسبة ، اريد ان اتزوج . » هذا ما ادعوه انتقالا . آه ، لقد اعتمدتَ على شيء من الخصام الطفيف . انك لم تعرف اني كنت جباناً عجوزاً . ما قولك في ذلك ؟ أنت مغتاظ . إنك لم تتوقع ان تجد جدك اكثر بلاهــة منك نفسك ؛ انك تخسر الخطاب الذي اعددته لي ، يا سيدي المحامي . ذلك يثير السخط . حسناً ، لا بأس ، إستشطْ غضباً . انا أفعل ما ترغب فيه ، فذلك يفحمــك ، ايها المخبول . اسمع . لقد قمــت ببعــض التحقيقات ؛ أنا مــاكر أيضاً . إنها فاتنة ؛ إنها حسنة السيرة ؛ الرمّاح غير مصيب . لقد صنعتْ اكواماً من النسالة ؛ إنها جوهرة ؛ إنها تعبدك ولو انك مت ، اذن لكنا ثلاثة . وعندئذ يصاحب نعشها نعشي . ولقد عزمت ، منذ ان تماثلتَ للشفاء ، ان اركزها بكل بساطة أمام سريرك ، ولكنْ في الروايات فحسب يقدّمون الفتيات ، في غير احتفال ، إلى سرير الجرحى الوسيمين الذين يهمهم شأنهم . هذا غير ممكن . اي شيء كان خليقاً بعمتك ان تقوله ؟ لقد كنتَ عارياً تماماً ، ثلاثة ارباع الوقت ، يا صاحبي . اسأل نيقوليت ، التي لم تفارقك دقيقة ، ما اذا كان بامكان امرأة أن تكون هنا . وإلى هذا ، فــأي شيء كان خليقاً بالطبيب ان يقوله ؟ ان الفتاة الجميلة لا تشفي من الحمى . وأخيراً ، هذا حسن ، فلنقلع عن الكلام على هذا الموضوع . لقد تم كل شيء ؛ لقد قضي الامر ؛ لقد أنجــز . خذها . تلك هي قساوتي . أترى ؟ لقد ادركتُ انك لم تحبني . فقلتُ : ما الذي استطيع ان أفعله اذن لكي احمل هذا الحيوان على حبي ؟ وقلتُ : إسمع ! إن كوزيت الصغيرة تحت يدي . ولسوف أعطيه اياها وعندئذ لا ريب في انه سوف يحبني بعض الشيء ،

أو يخبرني لماذا . آه ، لقد حسبتَ ان الرجل العجوز سوف يثور ، ويصطنع الصوت الغليظ ، ويصرخ « لا » ، ويرفع عصاه فوق هذا الفجر كله . على الاطلاق . كوزيت ؟ فليكن . الحب ؟ فليكن . انا لا اطمع في ما هو أفضل . انهض بعبء الزواج ، يا سيدي . كن سعيداً ، يا طفلي الصغير . »

حتى إذا قال ذلك ، عصفت بالعجوز عاصفة من النحيب .

وأمسك برأس ماريوس ، وشده بين ذراعيه إلى صدره العجوز ، وانخرط كل منهما في البكاء . ذلك شكل من اشكال السعادة العليا .

وهتف ماريوس :

— « أبي ! »

فقال العجوز :

— « آه ، انت تحبني اذن ! »

وتصرمت لحظةٌ لا سبيل إلى وصفها . وخنقتهما الدموع ، ولم يستطيعا كلاماً .

واخيراً غمغم العجوز :

— « كفى ! لقد انحلت العقدة . لقد ناداني يا ابي ! »

وحرر ماريوس رأسه من بين ذراعي جده ، وقال في رقة :

— « ولكن أما وقد استعدت صحتي الآن ، يا أبي ، فأن في استطاعتي ان اراها . »

— « موافق أيضاً . سوف تراها غداً . »

— « أبي ! »

— « ماذا ؟ »

— « ولم لا يكون ذلك ، اليوم ؟ »

— « حسن ، اليوم . ليكن ذلك ، اليوم . لقد ناديتني « يا ابي » ثلاث مرات ، وهذه المناداة تستحق ذلك . سوف أتولى ذلك . سوف نجيء

بها اليك . قلت لك اني موافق . لقد صيغ ذلك شعراً قبل اليوم . إنه خاتمة مرثية اندريه شينييه الموسومة بـ « المريض الفتى » ، اندريه شينييه الذي قتله الآثم ... أعني عمالقة عام ١٧٩٣ »

وحسب مسيو جيلنورمان أنه لمح على جبين ماريوس عبوساً طفيفاً ، على الرغم من ان الفتى في الواقع – كما ينبغي ان نقول – لم يعد يصغي اليه ، بعد ان استحوذ عليه الانخطاف الروحي ، واستغرق في التفكير بكوزيت اكثر من استغراقه في التفكير بعام ١٧٩٣ . وسارع الجد ، مرتعشاً لأقحامه اسم اندريه شينييه إقحاماً غير موفق ، إلى القول من جديد :

– « إن « قتله » ليست هي الكلمة المناسبة . الواقع ان العبقريات الثورية الكبيرة ، والذين لم يكونوا اشراراً – هذا امر لا خلاف فيه – والذين كانوا ابطالا ، وحق الاله ، وجدوا ان اندريه شينييه ازعجهم بعض الشيء ، فساقوه إلى المقصلة ... يعني ان اولئك الرجال العظام ، في اليوم السابع من ترميدور ، ومن اجل السلامة العامة ، قد توسلوا إلى اندريه شينييه ان يتفضل بالذهاب ... »

وغص مسيو جيلنورمان بجملته نفسها ، وعجز عن متابعة الكلام . واذ لم يستطع ان يتم الجملة أو ان يستدركها ، فيما كانت ابنته تسوي الوسادة خلف ماريوس ، فقد قذف الرجل العجوز بنفسه – وقد غمرته ضروب من الانفعالات كثيرة – إلى خارج حجرة النوم ، باسرع ما مكنته شيخوخته ، من ذلك . ورد الباب خلفه ، ارجواني الوجه ، مختنقاً ، مزبداً ، جاحظ العينين ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام باسك الامين الذي كان يصقل الاحذية في غرفة الانتظار . واخذ بخناق باسك ، وصرخ في وجهه بأعلى صوته ، في سعر : « وحق نساء الشيطان الثرثارات المئة الف ، إن قطاع الطرق اولئك قد قتلوه ! »

– « من ، يا سيدي ؟ »

— « اندريه شينييه ! »
فقال باسك ، في ذعر :
— « نعم ، يا سيدي . »

٤
الانسة جيلنورمان تنتهي بان لا تجد غضاضة في دخول مسيو فوشلوفان الى البيت متأبطاً شيئاً ما

وكحل كل من كوزيت وماريوس عينيه ، كرة اخرى ، برؤية الآخر .

أما اللقاء فنحجم عن وصفه . إن ثمة اشياء يتعين على المرء ان لا يحاول تصويرها . والشمس في عداد هذه الاشياء .

كانت الاسرة كلها ، وفيها باسك ونيقوليت ، مجتمعة في حجرة ماريوس ، عندما دخلت كوزيت .

لقد برزت على العتبة . ولقد بدا وكأنها هالة من نور .

وفي تلك اللحظة بالضبط كان الجد على وشك ان يتمخط . وكفّ عن ذلك في الحال ، ممسكاً بأنفه خلف منديله ، وناظراً إلى كوزيت من فوقه .

وهتف :

— « فاتنة ! »

ثم تمخط في صوت مرتفع .

كانت كوزيت نشوى ، مسلوبة الفؤاد ، ذاهلة ، في الجنة . كانت

مذعورة بقدر ما يصاب المرء بالذعر بسبب من السعادة . وتمتمت ، شديدة الشحوب ، شديدة التورد ، راغبة في ان تلقي بنفسها بين ذراعي ماريوس ، غير متجرئة على ذلك . لقد استحيت أن تظهر حبها أمام هؤلاء الناس جميعاً . اننا لا نعرف الرحمة للمحبين السعداء ، اننا نبقى هناك حين يكونون على اشد الرغبة في ان يخلو احدهم إلى الآخر إنهم ، مع ذلك ، في غير حاجة إلى الناس ، على الاطلاق .

ومع كوزيت ، ووراءها ، دخل رجل أشيب ، وقور ، يبتسم برغم ذلك ، وإن تكن ابتسامته غامضة ممضة . كان هو « مسيو فوشلوفان » ، كان هو جان فالجان .

كان حسن البزة جداً ، كما سبق للبواب ان قال ، وكان يرتدي بذلة سوداء جديدة ، ورباط رقبة ابيض .

وكان البواب على بعد الف فرسخ من ان يتبين في هذا البورجوازي القديم ، في الكاتب العدل المحتمل هذا ، حاملَ الجثة الرهيب ذاك الذي ترجل عند بابه ليل السابع من حزيران ، رث الثياب ، ملطخاً بالوحل ، مروَّعاً ، شرساً ، مقنعاً وجهُهُ بالدم والقذر ، حاملاً ماريوس الفاقد الوعي بين ذراعيه . ومع ذلك فقد أوقظ عنده ذكاء البواب . فحين أقبل مسيو فوشلوفان مع كوزيت لم يتمالك البواب ان يسرّ هذه الملاحظة إلى زوجته : « لست أدري لماذا يخيل الي أني رأيت ذلك الوجه في مكان ما . »

وفي غرفة ماريوس ، ظل مسيو فوشلوفان قرب الباب ، وكأنه بمعزل . كان يتأبط رزمة شبيهة بمجلد من قطع الثُّمن ، ملفوف بورقة . كانت ورقة الظرف ضاربةً إلى الخضرة ، ولقد بدت عفنة .

وفي صوت خفيض وجهت الآنسة جيلنورمان ، التي لم تكن تحب الكتب قط ، هذا السؤال إلى نيقوليت :

— « هل يتأبط هذا الرجل الكتب على هذا النحو دائماً ؟ »

وبالنبرة نفسها أجاب مسيو جيلنورمان الذي كان قد سمطها :

– « حسناً ، إنه عـالم . ثم ماذا ؟ اهي غلطته ؟ إن مسيو بولارد الذي عرفتـه ، ما كان يغادر بيته ، هو الآخر ، من غير كتاب ، وكان من دأبـه ان يضم إلى فؤاده على هـذه الصورة مجلداً عتيقاً . »

وانحنى ، وقال في صوت عال :

– « مسيو ترانشلوفان .... »

ولم يفعل الأب فوشلوفان ذلك عن عمد ، ولكن الغفلة عن اسماء العلم كانت عنده احدى العادات الارستوقراطية .

– « مسيو ترانشلوفان ، يشرفني أن اطلب منك يد الآنسة لحفيدي السيد البارون ماريوس بونميرسي . »

وانحنى مسيو ترانشلوفان .

وقال الجد :

– « قضي الأمر . »

والتفت نحو ماريوس وكوزيت ، بـذراعين مبسوطتين مباركتين ، وهتف :

– « في ميسور كل منكما أن يعبد الآخر . »

ولم يتركا له مجالا لأن يقولها مرتين . وبدأت الزقزقة . لقد تحدثا في صوت خفيض ، وقد اتـكأ ماريوس على كرسيه الطويل ، ووقفت كوزيت إلى جانبه . وغمغمت كوزيت : « آه ، يا الـهي ! أنـا اراك كرة اخرى ! هذا انت ! هذا أنت ! وذهابك إلى القتال على هذا النحو ! ولكن لماذا ؟ ذلك شيء رهيب ! لقد كنت ميتة طوال اربعة أشهر . أوه ، كم كان قبيحاً منك أن تشترك في تلك المعركة ! اي ذنب اقترفته نحوك ؟ أنا اغفر لك ، ولكنك لن تعود إلى مثلها ثانية . وفي هذه اللحظة ، حين جاءوا يدعوننا إلى الحضور اعتقدت كرة اخرى اني سوف اموت ، ولكن الموت كان من شدة الفرح . كنت محزونة جداً .

أنا لم اضع اي وقت في ارتداء ملابسي . لا شك ان منظري يوقع الرعب في النفوس . ما الذي سوف يقوله اقرباؤك حين يرونني وقد ارتديت طوق عنق بالياً . ولكن تكلم الآن . انت تتركني أتكلم وحدي . نحن لا نزال نسكن في شارع الرجل المسلح . يبدو أن كتفك ... كان ذلك فظيعاً . لقد اخبروني انه كان في استطاعتهم ان يضعوا جُمع كفهم في داخلها . ثم يبدو انهم قطعوا لحمك بالمقراض . ان هذا هو الامر الرهيب . لقد بكيت ، أنا لم تبق لي عينان . من المضحك أن يكون في ميسور المرء ان يتألم على هذه الشاكلة . إن لجدك مظهراً يدل على طيبة بالغة . لا تزعج نفسك ، لا تتكىء على مرفقك ، حذار ، انك سوف تؤذي نفسك . اوه ، ما أعظم سعادتي ! واذن فقد انقضى البلاء كله ! انا بلهاء إلى ابعد الحدود . كنت أودّ ان اقول لك اشياء ، ولكني نسيتها نسياناً كاملا . الا تزال تحبني ؟ اننا نسكن في شارع الرجل المسلح . ليس هناك حديقة . أنا أنفق وقتي كله في صنع النسالة . انظر يا سيدي ، إنها غلطتك ، لقد تصلبت اصابعي . » فقال ماريوس : « ملاك ! »

ان كلمة « ملاك » هي الوحيدة التي لا تبلى بين كلمات اللغة كلها . إن أيما كلمة اخرى لا تستطيع أن تصمد لاستعمال العشاق لها على نحو لا يعرف الشفقة .

وإذ كان ثمة أناس في الغرفة ، فقد كفّا عن الكلام ، ولم ينطقا بايما لفظة اخرى ، مكتفيين بلمس احدهما يد الآخر في رقة بالغة .

والتفت مسيو جيلنورمان نحو كل من كان في الغرفة وصاح :

— « تكلموا ، انتم الآخرون ، بصوت عال . أحدثوا بعض الضجة ، خلف الكواليس . هيّا . شيئاً من الضجة ، يا للشيطان ! حتى يستطيع هذان الطفلان ان يتطارحا الحديث من غير انزعاج . »

واقترب من ماريوس وكوزيت ، وقال لهما في صوت خفيض جداً :

— « تغازلا . لا ترتبكا . »

وشهدت العمة جيلنورمان ، في ذهول ، هذا الغزو الذي قام بـه الضياء لباطنها العجوز . ولم يكن هذا الذهول عدوانياً البتة . إنه لم يكن، بأية حال ، تلك النظرة المكلومة الحاسدة التي تلقيها بومة على يمامتين . كانت نظرة بليدة تلقيها فتاة بريئة مسكينة في السابعة والخمسين مـن العمر . كانت هـي الحياة الناقصـة ناظرة إلى ذلك النصر : الحب .

وقال لها أبوها :

— « ايتها الآنسة جيلنورمان الكبرى ، لقد قلت لك في وضوح ان ذلك سوف يحدث . »

وظل صامتاً لحظة ، ثم أضاف :

— « انظري إلى سعادة الآخرين . »

ثم التفت نحو كوزيت ، وقال :

— « ما أجملها ! ما أجملها ! إنها لوحة من لوحات « غروز » * . واذن فسوف تنعم بها وحدك ، ايها الولد الطائش ! آه ، ايها الوغد ، لقد نجوت من موقف حرج معي ؛ انك لمحظوظ ؛ ولو لم اكن اكبر مما ينبغي بخمسة عشر عاماً لتبارزنا بالسيف لنرى أينا يجب ان يفوز بها . اسمعي ! أنا متيم بك ، ايتها الآنسة . هذا طبيعي جداً . هذا حقك . آه ، يا للعرس الصغير الجميل الفاتن الذي سوف ينتج عن هذا الحب! إن « سان دونيز دو سان ساكريمان » هي ابرشيتنا . ولكني سوف انتزع إعفاء يمكنك من الزواج في « سان بول » . الكنيسة افضل . لقد شيدها اليسوعيون . ذلك اكثر دلالا . انها تقع تجاه نبـع الكاردينال دو بيراغ . ان رائعة فن العمارة اليسوعي هي في نامور . انها تدعى « سان لو » . يجب ان تذهبي إلى هناك حين تتزوجين . ان تلك الكنيسة تستحق الرحلة ايتها الآنسة ، أنا من رأيك تماماً . أنا أريد من الفتيات ان يتزوجن ،

* Grause رسام فرنسي امتاز برسم صور الاشخاص (١٧٢٥ – ١٨٠٥)

لقد خلقن من أجل ذلك . إن ثمة قديسة اسمها « سانت كاترين » احب ان اراها دائماً حاسرة الرأس . ان صيرورة المرأة عانساً شيء رائع ، ولكنه بارد . الكتاب المقدس يقول : « تكاثروا ! » . لكي ننقذ الشعب نحتاج إلى جان دارك ، ولكن لكي نصنع الشعب نحتاج إلى الام جيغونتي . وهكذا تزوجن ، ايتها الجميلات . انا في الواقع لا ارى فائدة ما في إحجام المرأة عن الزواج حتى تصبح عانساً . انا اعرف جيداً ان ثمة معبداً مستقلا في الكنيسة ، وانهم يتحدثون كثيراً عن أخوية العذراء ، ولكني اقسم بحق الشيطان ان الزوج الوسيم – الفتى الصالح – وان الطفل الممتلىء الاشقر ، الذي يرضع ثديك ، عند انقضاء عام ، في ابتهاج ، والذي تحفل رجلاه بطبقات من الدهن ، والذي يعتصر اللبن من ثديك حفنات حفنات باظفاره الصغيرة الوردية ، فيما هو يضحك كالفجر ، ان هذا افضل ، على اية حال ، من حمل شمعة في صلاة العصر أو الغروب وإنشاد « السور العاجي ! *Trris eburnea* »

ورقص الجد على رجل واحدة ، على عقب رجله البالغ عمرها تسعين عاماً ، وشرع يتحدث من جديد مثل نابض ينطلق ثانية :

وهكذا ، بتضييق حقل احلامك
يا آلسيب ، سوف تتزوجين حقاً عما قريب .

– « وبالمناسبة ! »
– « ماذا ، يا ابي ؟ »
– « ألم يكن لك صديق حميم ؟ »
– « نعم . كورفيراك . »
– « ما الذي حل به ؟ »
– « لقد مات . »
– « حسن . »

وجلس قربهما ، وأجلس كوزيت ، وأمسك أيديهما الأربع بيديه العجوزين المتجعدتين .

— « إنها للذيذة ، هذه الفتاة اللطيفة . ان كوزيت هذه رائعة ! إنها فتاة صغيرة جداً ، وسيدة عظيمة جداً . إنها لن تصبح إلا بارونة ، هذا نزول عن مرتبتها الخاصة ، فقد ولدت مركيزة . يا ولديّ ، ثبّتا في رأسيكما انكما على صواب . ليحب احدكما الآخر . كونا مخبولين في ذلك . الحب هو حماقة الناس ، وحكمة الله . ليعبد كل منكما الآخر . ولكن » — اضاف الجد وقد اغتم فجأة — « يا للمصيبة ! هذا ما أفكر فيه ! إن اكثر من نصف ما أملك هو رُقبى أتمتع بها ما دمت حياً . فما دمت على قيد الحياة ، فسوف يكون كل شيء على ما يرام . ولكن عقب موتي ، بعد عشرين عاماً ، آه ، يا ولديّ المسكينين ، لن تنالا دانقاً واحداً . ان يديك الجميلتين البيضاوين ، يا سيدتي البارونة . سوف يكون لهما شرف شده من ذنبه . »

— « إن عند الآنسة اوفرازي فوشلوفان ستمئة الف فرنك . »

كان ذلك الصوت صوت جان فالجان .

لم يكن قد نطق بعد بكلمة ، بل ان احداً لم يبد وكأنه كان يعرف انه هناك ، وانه كان واقفاً من غير حراك خلف هؤلاء الناس السعداء جميعاً .

وتساءل الجد ، مشدوهاً :

— « ومن هي الآنسة اوفرازي هذه ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « أنا . »

واضاف مسيو جيلنورمان :

— « ستمئة الف فرنك ! »

فقال جان فالجان :

— « ناقص اربعة عشر الف فرنك أو سبعة عشر الف فرنك ، ربمـا »

ووضع على الطاولة تلك الرزمة التي حسبتها العمة جيلنورمان كتاباً .

وفتح جان فالجان الرزمة بنفسه . كانت حزمـة اوراق نقديـة . وتصفحوها ورقة ورقة ، وأحصوهـا . كانت تتألف من خمسمئة ورقة من ذوات الالف فرنك ، ومئة وثماني وستين ورقة من ذوات الخمسمئة فرنك .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « هذا كتاب نفيس . »

وغمغمت العمة :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! »

ثم إن الجد أضاف :

— « هذا سوف يسوي الأمور أحسن تسوية ، اليس كذلك ايتهـا الآنسة جيلنورمان الكبرى ؟ لقد وجد لك ماريوس الشيطان مليونـيرة مغناجة في شجرة الاحلام ! واذن فلتكن لك ثقة في غراميات الجيـل الطالع ، هذه الأيام ! الطلاب يجدون طالبات يملكن ستمئة الف فرنك . الكروبيم * يشتغل احسن مما يشتغل روتشيلد . »

وكررت الآنسة جيلنورمان في همس :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! خمسمئة واربعة وثمانون! وفي استطاعتك ان تقول انها ستمئة الف حقاً ! »

أما ماريوس وكوزيت فكانا يتبادلان النظرات طوال تلك الفترة . إنهما لم يوليا هذه النقطة إلا أقل الاهتمام .

* من الملائكة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس .

٥

لأن تستودع مالك غابة ما ، خير لك من ان تستودعه كاتباً عدلا ما

لا ريب في ان القاريء قد ادرك ، من غير أن يحتاج إلى شرح مسهب ، ان جان فالجان استطاع ، بعد قضية شانماتيو — وبفضل هربه الأول الذي استمر بضعة أيام — ان يشخص إلى باريس ، وان يسحب المال الذي كسبه باسم مسيو مادلين ، في مونتروي سور مير ، من مصرف لافيت في الوقت المناسب . وأنه ، كان قد خبأ — خشية ان يقبض عليه من جديد ، وهو ما حدث فعلا بعد فترة قصيرة — ودفن ذلك المال في غابة مونفيرماي ، في الموطن المعروف بأرض بلارو . وكانت تلك الثروة ، البالغة ستمئة وثلاثين الف فرنك ، والمؤلفة كلها من اوراق نقدية ، ذات حجم صغير . وكانت موضوعة ضمن علبة . ولكي يقي العلبة من الرطوبة ، وضعها في صندوق من خشب البلوط ، مليء بنشارة الكستناء . وفي الصندوق نفسه ، كان قد وضع كنزه الآخر : شمعدانَيْ الاسقف . والقاريء يذكر انه كان قد حمل هذين الشمعدانين عند هربه من مونتروي سور مير . وكان الرجل الذي لمحه بولاتروويل ذات مساء ، أول مرة ، هو جان فالجان . وفي ما بعد ، كان جان فالجان كلما احتاج إلى مال ، قصد الى بقعة بلارو الجرداء التماساً لشيء منه. ومن هنا غيابه المتكرر الذي تحدثنا عنه . كان عنده معول في ناحية ما من الدغل ، في مخبأ ليس يعرفه أحد غيره . وحين رأى إلى ماريوس ينعم بالنقاهة ، واستشعر اقتراب الساعة التي قد يصبح فيها ذلك المال ذا فائدة ، مضى التماساً له أيضاً . وكان هو الذي رآه بولاتروويل

آنذاك في الغابة ، ولكن صباحاً هـذه المرة ، لا مساء . وورث بولاتروويل المعول .

كان المبلغ الحقيقي خمسمئة واربعة وثمانين الفاً وخمسمئة فرنك . ولقد اخذ جان فالجان خمسمئة فرنك لنفسه . وفكر : « سوف نرى في ما بعد . »

وكان الفرق بين هذا المبلغ والستمئة وثلاثين الف فرنك المسحوبة من مصرف لافيت يمثل نفقات عشر سنوات ، من ١٨٢٣ إلى ١٨٣٣ . إن السنوات الخمس التي قضاها في الدير لم تكلفه غير خمسة آلاف فرنك.

ووضع جان فالجان الشمعدانين الفضيين على الموقد ، حيث أضاءا ، موقعين في نفس توسين أعظم الاعجاب .

وإلى هذا ، فقد عرف جان فالجان انه قد أنقذ من جافير . كان قد ذُكر على مسمع منه ، وكان قد تثبّت من صحة الواقعة من طريق صحيفة « المونيتور » التي نشرت أن مفتش شرطة يدعى جافير وُجد غريقاً تحت مركب احدى الغسالات بين جسر ال « شانج » و « الجسر الجديد » ، وان ورقة تركها هذا الرجل ، الذي كان خلواً من العيب متمتعاً بأعظم التقدير من رؤسائه ، قادت إلى الاعتقاد بأنه انتحر اثر نوبة جنون أصابته . وقال جان فالجان في ذات نفسه : « الواقع ، انه ما دام قد اطلق سراحي بعد ان قبض علي ، فلا ريب في أنه كان قد اصيب قبل ذلك بالخبل . »

٦
العجوزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ، لكي تكون كوزيت سعيدة

واتخذت جميع الاستعدادات للزواج . وحين استشير الطبيب أعلن ان

في الامكان عقده في شباط . وكان القوم آنـذاك في كانون الاول . وتصرمت بضعة أسابيع فاتنة من السعادة الكاملة .

ولم يكن الجد اقلهم سعادة . كان يقضي بين الفينة والفينة فترة تزيد على ربع ساعة وهو يحدق إلى كوزيت .

وهتف مرة :

— « يا للفتاة الجميلة الرائعة ! ويا ما أعذب اخلاقها وأطيبهـا ! وليس ثمة فائدة ، يا حبيبي ، في ان اعبر لك عما يختلج في فؤادي . إنها اجمل فتاة رأيتها في حياتي . وإلى هذا فانها سوف تحمل اليك فضائل ذات عبير اشبه بعبير البنفسج . إنها نعمة ، حقاً . ليس في استطاعتك الا ان تحيا ، في نبل ، مع مخلوقة كهذه . ماريوس ، يا بني انت بارون ، انت غني ، لا تمارس المحاماة بغير نجاح ، أتوسل اليك . »

كانت كوزيت وماريوس قد انتقلا فجأة من القبر إلى الجنة . ولم يكن في ذلك الانتقال غير حذر ضئيل . ولقد كان جديراً بهما ، لو لم يصبهما الجهر ، ان يصابا بدوار .

وقال ماريوس لكوزيت :

— « هل تفهمين شيئاً من ذلك ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « لا . ولكن يخيل الي أن الله اللطيف يحيطنا بعنايته . »

وعمل جان فالجان كل شيء ، وسوّى كل شيء ، وأصلح كل شيء ، وسهّل كل شيء . لقد اسرع نحو سعادة كوزيت بمثل اللهفة ، وفي ما يبدو بمثل البهجة ، التي اندفعت بها كوزيت نفسها .

واذ كان في ما مضى عمدة ، فقد عرف كيف يحل مشكلة دقيقة كان هو وحده واقفاً على سرها : مشكلة وضع كوزيت المدني . فلو انه ذكر اصلها في قساوة اذن لحال ذلك — من يدري ؟ — دون الزواج .

لقد اخرج كوزيت من المصاعب كلها . ولقد نظم لها أسرة من الموتى، وهي وسيلة مضمونة لعدم إثارة اعتراض ما ؛ وكانت كوزيت هي البقية الباقية من تلك الاسرة البائدة ؛ إن كوزيت لم تكن بنته ، ولكن بنت فوشلوفان آخر . كان أخوان من آل فوشلوفان قد عملا بستانيين في دير بيكبوس الصغير . وذهب القوم إلى هذا الدير . وكانت الأدلة الفضلى والشهادات الأحفل بالاحترام موفورة هنـــاك . فالراهبات الصالحات لمتمتعات باقل القدرة على سبر قضايا الأبوة واقـل الرغبة في ذلك ، واللواتي ما كن يفهمن الخبث على الاطلاق ، لم يعرفن قط على وجه الضبط ابنة ايٍّ من الفوشلوفانين كانت كوزيت . لقــد قلن مـا كان مطلوباً منهن ، وقلن ذلك في اندفاع . وحُرر محضر بهذا أمام الـكاتب العدل . واصبحت كوزيت ، امام القانون ، الآنسة اوفرازي فوشلوفان. لقد أعلِنت يتيمــةَ الاب والام . ورتب جان فالجان الاشياء بحيث يُنص على انه ، تحت اسم فوشلوفان ، وصي على كوزيت،وان مسيوجيلنورمان وكيل بي عليها .

أما الخمسمئة والاربعة والثمانون الف فرنك فكانت هبة بوصية ، تركها لكوزيت شخص ميت كان قد أبدى رغبته في أن يظل مجهولا . وكانت الهبة الأصلية خمسمئة واربعة وتسعين الف فرنك ، ولكن عشرة آلاف فرنك كانت قد انفقت على تعليم الآنسة اوفرازي ، منها خمسة آلاف فرنك دفعت إلى الدير نفسه . وكان لهذه الهبة ، المودعة في يدي فريق ثالث ، ان تقدَّم إلى كوزيت عند بلوغها سن الرشد ، أو عند زواجها . وكان هذا كله مقبولا جداً ، كما نرى ، وبخاصة على اساس من نيف ونصف مليون . وكانت ههنا وههناك ، في الواقع ، بعض الاشياء الغريبة ، ولكن احداً لم يلاحظها . كان احد المعنيين بهذا الأمر معصوب العينين بالحب ، وكان الآخر معصوب العينين بالفـرنـكات الستمئة الف .

وعلمت كوزيت انها لم تكن بنت ذلك العجوز الذي دعته أباها طوال فترة مديدة . لقد كان مجرد نسيب من أنسبائها ؛ كان أباها الحقيقي فوشلوفان آخر . ولقد كان خليقاً بهذا ، في أيما وقت آخر ، أن يكسر فؤادها . ولكنه لم يكن في تلك الساعة ، الممتنعة على الوصف ، غير ظل ، غير اربداد ، ولقد كانت تنعم بقدر من البهجة كبير جعل تلك السحابة قصيرة الأجل . كان لها ماريوس . لقد جاء الرجل الشاب ، وامحى الرجل العجوز . تلك هي الحياة .

وإلى هذا ، فقد اعتادت كوزيت ، طوال سنين عديدة ، ان ترى نفسها محاطة بالاحاجي . وكل من كانت طفولته غامضة خفية يكون أبداً على استعداد لبعض التنازلات .

وعلى كل حال ، فقد ظلت تقول لجان فالجان : « يا ابي » .

وكانت كوزيت ، في جذلها البالغ ، كلفة بالجد جيلنورمان . صحيح أنه أثقلها بالقصائد الغزلية القصيرة وبالهدايا . وبينا كان جان فالجان يبني لكوزيت وضعاً سوياً في المجتمع ، وملكاً لا مرية فيه ، كان مسيو جيلنورمان يسهر على هدية العرس . وما كان ليسره شيء بقدر جعلها فخمة رائعة . وكان قد قدم إلى كوزيت ثوباً من البريم المعروف بـ « بريم بينش » تحدر اليه من جدته . وقال : « لقد درجت هذه الازياء من جديد . إن الناس جميعاً يميلون إلى الاشياء العتيقة ، وهكذا فأن فتيات شيخوختي الصغيرات يلبسن مثل عجائز طفولتي . »

ونهب خزائنه الجليلة المستديرة الكروش ، المصقولة بلكّ * كورمنديل والتي لم تفتح منذ سنوات عديدة ، وقال : « فلنحمل هذه الارامل على الاعتراف . ولنر ما الذي تنطوي عليه » . وهكذا افترع ، في صخب ، تلك الادراج العميقة الملأى بحلى زوجاته جميعاً ، وخليلاته جميعاً ، وجداته جميعاً . واخرج منها منسوجات حريرية موشاة من نوع

* اللك laque ضرب من الصمغ كانوا يتخذون منه مادة لصقل الخزائن الثمينة .

« بيكين » ، ودمقساً ، وانسجة حريرية صينية ، ومنسوجات متموجة مزدانة بالتصاوير ، واثواباً من حرير « تور » المتوهج ، ومناديل هندية موشاة بذهب يمكن غسله ، واقمشة من نوع « دوفين » مصقولة الوجهين لم يمسها مقص ، وتخاريم جنوا وآلانسون ، وحلى عتيقة ، وعلب ملبس عاجية مزدانـة بمعارك ميكروسكوبية ، وملابس ، وعصائب ، وأغدقها كلها على كوزيت . وحلمت كوزيت – المنشدهة ، المحبة لماريوس حباً عارماً ، العامر صدرها بعرفان للجميل طاغ نحو مسيو جيلنورمان – حلمت بسعادة لا حدود لهـا مجلببـة بالأطلس والمخمل . وتراءت لها صلة عرسها وقد حملتها ايدي الساروفيم * . لقد حلقت روحها في اللازورد على اجنحة من تخاريم مالين **

ولم يكن ثمة ما يضارع نشوة العاشقين ، كما قلنا ، غير انخطـاف الجـد . لكأن انغام الابواق كانت تصدح في شارع فتيات كالفير .

وكل صباح كانت كوزيت تتلقى من الجد هدية جديدة من تلك النفائس العريقة . ونورت ضروب الحلي على اختلافها ، من حولها ، تنويراً بهياً .

وذات يوم ، قال ماريوس الذي كان مولعاً بالكلام في رصانة وسط سعادته ، وذلك لمناسبة حادث لست اعرف ما هو :

– « إن رجال الثورة هم عظام إلى درجة جعلتهم ينعمون منذ زمن بتقدير الأجيال ، مثل « كاتون » *** ، و « فوسيون » **** وكل منهم

---

* ارواح سماوية تعتبر في الطبقة الاولى بين الملائكة ، عند اليهود والمسيحيين .

** Maline مدينة بلجيكية اشتهرت بوشيها وتخريمها .

*** Caton حد مشاهير الرومان ، وكان معروفاً بعدائه لقرطاجة ، حتى لقد كان يناديه دائماً بضرورة تدميرها . ٢٣٢ – ١٤٧ ق.م)

**** Phocion جنرال وخطيب اثيني ، وكان شهيراً بنزاهته وحبه للسلم . وقد حكم عليه ان يشرب الشوكران السام حوالى ٤٠٠ – ٣١٧ ق.م)

يبدو وكأنه ذكرى عريقة في القدم . » (*mémoire antique*)

فهتف العجوز :

— « منسوجات متموجة عريقة في القـــدم ! (*moire antique*) شكراً لك ، يا ماريوس . تلك هي ، على وجه الضبط ، الفكرة التي كنت أبحث عنها . »

وفي اليوم التالي أضيف إلى سلة عرس كوزيت ثوب رائع مصنوع من نسيج متموج عتيق شبيه لونـــه بلون الشاي .

واستخرج الجد حكمة من هذه الأسمال :

— « الحب ، هذا شيء حسن . ولكنه في حاجة إلى هذه . ان السعادة لا تستغني عن غير المفيد . السعادة ليست إلا الضروري ليس غير فتبّلوهـا لي تتبيلا هائلا بكل ما هو فضلة . قصرٌ وقلبُهـا . قلبهـــا واللوفر . قلبهـــا ومناهل فرساي الغزيرة . اعطوني راعيّي ولتكن دوقة إذا أمكن . إيتوني بفيليس متوجةً بزهرات نبات الجُليجلة ، وأضيفوا اليها مئة الف ليرة من الدخل السنوي . افتحوا لي قصيدة ريفية في نجوة من الانظار تحت صف من أعمدة رخامية . أنا اوافق على القصيدة ، كما اوافق على صنيـع الجن في الرخام والذهب . السعادة الجافة اشبه بالخبز الجاف . اننا نأكل ، ولكننا لا نتعشى . انا ارغب في ما هـو زائد ، في غير المفيد ، في الغريب الأهوس ، في المبالغ فيه ، في ذلك الذي لا يصلح لشيء . انا اذكر اني شاهدت في كاتدرائية ستراسبورغ ساعة يبلغ ارتفاعها ارتفاع بيت ذي ثلاثة ادوار ، ساعة تعين الوقت ، أو تتفضل بتعيين الوقت ، ولكنها لا تبدو وكأنها جُعلت لمثل ذلك . ساعة ما ان تعلن حلول الظهر أو نصف الليل — الظهر ، موعد الشمس ، ونصف الليل ، موعد الحب — أو اي ساعة تشاء انت ، حتى تعطيك

القمر والنجوم ، والبر والبحر ، والأطيار والاسماك ، وفيبوس* وفيبيه** وجمهرة من الاشياء تخرج من كوة ، والرسل الاثني عشر ، والامبراطور شارل الخامس (شارلكان) ، وايبونين *** وسابينوس ، ومجموعة من الرجال الضئيلي الأجسام ، المذهّبين ، النافخين في البوق ، فضلا عن ذلك . هذا إذا لم نذكر قرع الاجراس المتناغم الفاتن الذي كانت تبدده في الهواء ، في جميع المناسبات ، من غير ان يدري احد لذلك سبباً . هل نستطيع القول ان الساعة الشريرة العارية عرياً كاملا ، والتي تجتزيء بالدلالة على الوقت ، تساوي هذه الساعة ؟ اما أنا ، فأتفق في الرأي مع ساعة ستراسبورغ الضخمة ، وافضلها على « الساعة الوقواق » في الغابة السوداء . »

وهذى مسيو جيلنورمان في موضوع الزفاف على نحو خاص ، ومرت كيفما اتفق ، جميع مرايا القرن الثامن عشر القائمة بين الكوى ، من خلال مدائحه المغالى فيها .

وصاح :

— « انتم تجهلون فن الافراح . انتم لا تعرفون كيف تحيون يوماً من أيام البهجة في هذا العصر . ان قرنكم التاسع عشر قرن ضعيف . إن الافراط يعوزه . وهو ينكر ما هو غني ، وينكر ما هو نبيل . إنه مجزوز في كل شيء جزاً مفرطاً . ان طبقتكم الثالثة **** لا طعم لها ، ولا لون ، ولا رائحة ، ولا شكل . أحلام بورجوازيتكم التي

---

* Phébus اسم يطلق على ابولو ، الـٰه الضياء والفنون عند الاغريق والرومان .

** Phébé اسم مستعار للالاهة الاغريقية آرتيميس والقمر .

*** Eponine بطلة من الغاليين (الفرنسيين القدماء) ، كانت زوجة لسابينوس ، الوارد ذكره في المتن ايضاً . وكانت قد عاهدت نفسها على ان تنقذ الغاليين من نير الرومان ، ولكنها أخفقت ، فحكم عليها بالموت .

**** المقصود بالطبقة الثالثة ، هنا ، طبقة العوامّ .

تقيم بناء ، كما يقولون : بهو للسيدات صغير وجميل ، مزدان منذ عهد قريب بخشب بنفسجي اللون وبنسيج قطني . أفسحوا ! أفسحوا ! السيد غريغو يتزوج الآنسة غريبيسو . زهو وبهاء ! لقد الصقوا ليرة لويسية ذهبية إلى احدى الشموع . ذلك هو العصر . انا أرجو ان أفر إلى ما وراء بلاد « السارمات » * آه ، في سنة ١٧٨٧ تنبأت بأن كل شيء قد ضاع ، يوم رأيت الدوق دو روهان ، والبرنس دو ليون ، والدوق دو شابو ، والدوق دو مونبازون ، والمركيز دو سوبيز ، والفيكونت دو توار ، مير فرنسة ، يقصدون إلى لونشان في عربة صغيرة ذات مقعدين ! لقد آتى ذلك ثماره . ففي هذا القرن ، يتاجر المرء ويقامر ، بالبورصة ، ويكسب المال ، ويغلب عليه البخل الشديد . الناس في هذا العصر يعنون بالظاهر ويصقلونه . إنهم يغالون في التأنق ، انهم يغسلون بشرتهم بالماء ، وبالصابون ، إنهم يكشطون جلودهم ويحلقون ذقونهم ، ويسرحون شعورهم ، إنهم مشمّعون ، مملّسون . مُفَرْشَوْن ، منظفون من خارج ، منزهون عن العيب ، مصقولون مثل الحصاة ، أصحاب فطنة ، شديدو النظافة ، وفي الوقت نفسه — وحق خليلتي — يحملون في اعماق ضميرهم مزابل وبواليع خليقة بأن تجفل راعية بقر اعتادت ان تتمخط باصابعها . أنا امنح العصر الحاضر هذا الشعار : نظافة قذرة . ماريوس ، لا تغضب ، دعني اتكلم ، أنا لا أهين الشعب ، كما ترى ، ان فمي مليء من شعبك ، ولكني اجد من الخير ان اضرب البورجوازية بعض الشيء . أنا واحد منهم . إن من يحب كثيراً ، يضرب كثيراً . وعلى هذا ، فاني اقولها من غير مجاملة : ان الناس يتزوجون اليوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتزوجون . آه ، هذا صحيح ، أنا آسف على الطرق الجميلة التي كانت متبعة في الايام الخالية . أنا آسف عليها كلها.

---

* اصقاع واسعة في اوروبة الشرقية كان يقطنها في ما مضى شعب يعرف بالشعب السارماتي . وقد قضي القوط على قوتهم في القرن الثالث الميلاد .

تلك الاناقة ، تلك الفروسية ، تلك الاساليب المصقولة الفاتنة ، ذلك الترف البهيج الذي كان ينعم به كل انسان ، والموسيقى وقد ألفت جزءاً من العرس ، السيمفونية فوق ، وقرع الطبول تحت ، وضروب الرقص ، والوجوه المستبشرة الجالسة إلى المائدة ، والقصائد الغزلية المعقدة ، والاغاني ، والاسهم النارية ، والضحك المرسل ، وإبليس وحاشيته ، وعُقَد العصائب الكبيرة . أنا آسف على رباط ساق العروس . ان رباط ساق العروس ابن عم لحزام فينوس . ما الذي هاج حرب طروادة ؟ الذي هاجها ، وحق السماء ، رباط ساق هيلانة . لماذا يتقاتلون ؟ لماذا يحطم ديوميد * الالـهي تلك الخوذة البرونزية الضخمة ذات الرؤوس العشرة على رأس ميريونس ؟ لماذا يتبادل أخيل وهكتور طعنات حراب بليغة ؟ لأن هيلانة مكنت « باريس » من ان يأخذ رباط ساقها . وبرباط ساق كوزيت كان خليقاً بهوميروس ان يبدع الالياذة . كان خليقاً به ان يدخل في قصيدته ثرثاراً عجوزاً مثلي ، وان يسميه نسطور . ايها الاصدقاء ، في الايام الخالية ، في تلك الايام الجميلة الخالية ، كان الناس يتروجون على نحو علميّ ، كانوا يوقعون عقداً صالحاً ، ثم يمدون مائدة صاخبة صالحة . فما إن يخرج كوجا ** حتى يدخل غاماش *** . ولكن المعدة هي ، حقاً ! ، حيوان لطيف يطالب بحقه ، ويرغب في ان يعقد زفافه أيضاً . كانوا يتناولون عشاء دسماً ، وكانوا يضعون قريباً منهم ، إلى المائدة ، جارة جميلة ، لا ترتدي لباس صدر ، ولا تخفي جيدها إلا باعتدال ! اوه ، يا للافواه العريضة الضاحكة ، ويا للبهجة البالغة التي

---

* Diomedes أحد المقاتلين الاغريق في حرب طروادة ، وهو الذي ساعد اوديسيوس على سرقة خيل ريسوس وتمثال البالاديوم .

** Cujas متشرع فرنسي شهير (١٥٢٢ — ١٥٩٠)

*** Gamache فلاح غني ورد ذكره في رواية دونكيشوت ، وقد أقام عند زواجه مأدبة باذخة ضرب بها المثل في الاسراف البالغ .

كانت تتكشف عنها في تلك الأيام . كان الشباب باقــة . كان كل شاب ينتهــي بغصن من الليلك أو بحزمة من الورود . فاذا كان المرء مقاتلا ، كان راعياً . واذا اتفق ان كان قائداً من قواد الفرسان التنانين ، كـــان يجد وسيلة لأن يدعى فلوريان . * كانوا يصطنعـــون كل شيء لكي يتحلوا بالجمال . كانوا يوشّون انفسهم ، وكانوا يصبغون انفسهــــم بالارجوان . كان للبورجوازي مظهر زهرة ، وكان للمركيز مظهر حجر كريم . ان المرء ما كان يشد سيوراً تحت حذائه ، انه ما كان يلبس حذاء ذا رقبة . كان المرء أنيقاً ، مصقولا ، متموجاً ، اسمر ذهبياً ، مرفرفاً ، لطيفاً ، مغناجاً ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من ان يحمل في جنبه سيفاً . ان للطائر الطنـــان منقاراً وأظفاراً . كان ذلك عصر « جزر الهند الغزلة » . كان الناعم هو أحد جانبي العصر ، وكان البهـي هو جانبه الآخر . وكان المرء ، وحق الشيطان ، يلهو ويعبث . اما اليــوم فالناس جديون . البورجوازي بخيل ، والبورجوازية مغالية في التعفف ؛ إن عصركم منكود الحظ . فالناس قد يطردون آلهات الجـ ل ** لمجرد ان اثوابهن تكشف عن اجيادهن بعض الشيء . وا أسفاه ! انهم يخبئون الجمال وكأنه قبح . ومنذ الثورة ، أمسى كل شيء يرتـــدي البنطلون ، حتى الراقصات . ان على الراقصة ان تكون رصينة . إن رقصاتكم مذهبية . ينبغي أن نكون أجلاء . اننا نغضب إذا لم تكن ذقوننا مقحمة في أربطة اعناقنا . والمثل الأعلى الذي يطمح اليه الصبي الــذي يتزوج ، وهو في العشرين من العمر ، ان يكون مثل مسيو روايــه كولار . وهل تدري لى م سوف ننتهـي بهذا الجلال ؟ لى أن نصبح صغاراً . تعلّم هذا : الابتهاج ليس بهيجـاً فحسب ؛ إنه عظيم أيضاً .

---

* Florian من كلمة fleur وتعني الزهر .

** Graces في الميثولوجيا اليونانية . وهي ثلاث : آغلاييه Aglaé ، وطالي Thalie وافروزين Euphrosine .

فكونوا اذن عاشقين في بِشر ، يا للشيطان ! وتزوجوا ، حين تتزوجون بحمّى السعادة ، ودوارها ، ولغطها ، وفوضاها ! الرصانة في الكنيسة ، ليكن ذلك . ولكن ما إن ينتهي القداس ، حتى يتعين علينا ان نجعل الحلم يعصف من حول العروس . الزواج ينبغي ان يكون ملوكياً وخيالياً . ينبغي ان يسير في موكب من كاتدرائية ريمس إلى هيكل اصنام شانتلو . إن الذعر ليلفتني من العرس البليد . كونوا في الاولمب ، ذلك اليوم فحسب على الاقل . كونوا آلهة . آه ، في استطاعة المرء ان يكون جناً ، ان يكون الـ ـه بهجة ، أن يكون آرچيراسبيد . انتم عفاريت . يا اصدقائي ، إن على كل زوج جديد ان يكون البرنس آلدو براندينِي . فأفيدوا من هذه اللحظة الفريدة من حياتكم لكي تفروا إلى عِليين مع الأوز والنسور ، على ان تبقى لكم حريتكم في ان ترتدّوا ، في غد ، إلى بورجوازية الضفادع . لا تقتصدوا في الزفاف أبداً ، لا تقلّموا بهاءه ، لا تقتّروا اليوم الذي تشعّون فيه . الزفاف ليس تدبير منزل . اوه ، لو اردت ان اطيع هواي ، اذن لكان ذلك أنيقاً ظريفاً ، كنت اسمعكم انغام الكمان تُعزف في الاشجار . ذلك هو برنامجي : زرقة سماوية وفضة . لو اردت ان اطيع هواي لأدخلت الالاهات الريفيات في الحفلة ، ولدعوت اليها جنيات الأحراج وحوريات البحر . اعراس آمفيتريت * ، سحابة وردية ، إلاهات مياه رُتّب شعرها احسن ترتيب عارية عرياً كاملا ، وعضو في الاكاديمية يقدم الرباعيات إلى الالاهة ، عربة تجرها هُولات بحرية :

إن سمندر الماء قد خب فدام ، واستل من صدفه
اصواتاً كانت من الفتنة بحيث تفتن كا:: من كان .

إن للحفلات برامج ، وهوذا واحد منها ، وإلا لم تكن لي معرفة بها ، وحق الشيطان ! »

---

* Amphitrite الاهة البحر ، وزوجة نبتون في الميثولوجيا القديمة .

وفيما كان الجد ، المتدفق تدفقاً غنائياً كاملا ، يصغي لنفسه ، كانت كوزيت وماريوس منتشيين بتبادل النظرات في حرية .

وشهدت العمة جيلنورمان ذلك كله في وداعتها الهادئة . كانت قد عرفت منذ خمسة اشهر أو ستة اشهر عدداً من الانفعالات . لقد رجع ماريوس ؛ لقد أعيد ماريوس دامي الجراح ؛ لقد حُمل ماريوس من احد المتاريس ؛ ماريوس قد مات ؛ ثم عاش ؛ ماريوس قد استُرضي ؛ ماريوس قد خُطب له ؛ ماريوس يتزوج شحاذة ؛ ماريوس يتزوج مليونيرة . وكانت الستمئة الف فرنك هي آخر مفاجآتها . ثم إن لامبالاتها التناولية الأولى عاودتها . كانت تذهب على نحو نظامي إلى القداس ؛ وكانت تُمرّ حبات سبحتها تحت أصابعها ؛ وتقرأ في كتاب صلواتها ؛ وتهمس بـ « السلام الملائكي » في جانب من المنزل ، بينا كان يُهمس بـ « أحبك » في الجانب الآخر ، وكانت ترى ماريوس وكوزيت وكأنهما طيفان . كانت هي نفسها الطيف .

إن ثمة حالة من النسك العادم الحركة حيث النفس ، المعادَلة بالخدَر ، الغريب على ما نستطيع ان ندعوه مسألة العيش ، لا تلمح — باستثناء الزلازل والكوارث — أياً من الانطباعات البشرية . سواء منها الانطباعات المستحبة ، والانطباعات الاليمة . وقال الجد جيلنورمان لابنته : « هذا التُقى يطابق زكاماً في الرأس . انت لا تشم شيئاً من الحياة . لا رائحة كريهة ، ولكن لا رائحة زكية أيضاً . »

وإلى هذا ، فان الستمئة الف فرنك كانت قد حسمت تردد العانس . كان ابوها قد اعتاد ان لا يدخلها في حسابه إلى حد جعله يُغفل استشارتها في موضوع الموافقة على زواج ماريوس . كان قد تصرف في تهور ، وفقاً لهواه ، وقد سيطرت على عقله — وهو الطاغية الذي أمسى عبداً — فكرة واحدة ، هي ارضاء ماريوس . أما العمة ، أما ان العمة كانت موجودة ، وانه قد يكون لها رأي ، فذلك ما لم يفكر فيه مجرد تفكير . وعلى الرغم من انها كانت نعجة بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد غاظها ذلك . واذ ثارت بعض الشيء باطنياً ، ولكنها احتفظت

بامتناعها على التأثر ، خارجياً ، فقد قالت في ذات نفسها : « ان والدي قد بتّ في مسألة الزواج بمعزل عني ، ولسوف ابتّ في مسألة الميراث بمعزل عنه . » كانت موسرة ، في الواقـع ، ولم يكن ابوها موسراً . وهكذا كانت قد احتفظت بقرارها في شأن ذلك . وكان من المحتمل ، لو كان الزفاف هزيلا ، ان تتركه هزيلا . فلأم السيد ، ابن اخي ، المبـّـل ! انه يتزوج شحاذة ، فليكن شحاذاً . ولكن نصف المليـون الذي كانت تملكه كوزيت سرّ العمة ، وغيّر مشاعرها نحو هـذيـن العاشقين . إن علينا أن نولي بعض الاعتبار لستمئة الف فرنك ، وكان واضحاً انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً غير ترك ثروتها إلى هذين الشابين ، ما داما قد أمسيا في غير حاجة اليها .

واتخـذت الترتيبات لكي يسكن الزوجان في منزل الجد . واصـر مسيو جيلنورمان اصراراً شديداً على إعطائهما غرفته ، وهي أجمل غرف المنزل . وأعلن قائلا : « إن ذلك سوف يجدد شبابي . هذا مشروع قديم . لقد كنت دائماً افكر في اقامة عرس في غرفتي . » . وملأ هذه الغرفة بمجموعة كبيرة من الاثاث القديم الانيق . وجلل الجدران والسقف بقماش نادر كان يحتفظ بثوب منه كامل ، وكان يعتقد أنه من أوترخت : خلفيّة من أطلس مع حوذان ذهبي وآذان دب مخملية . * وقـال : « بمثل هذا القماش جـُلل سرير دوقة آنفيل في الـ « روش غويون » . ووضع على الموقد دمية من دمى ساكس تحمل فرواً من فراء اليدين فوق بطنها العاري .

وأمست مكتبة مسيو جيلنورمان مكتب المحاماة الذي كان ماريوس في حاجة اليه . وكان هذا المكتب ، كما يذكر القراء ، شيئاً تحتمه قواعد النظام المتبع .

* الحوذان وآذان الدب نوعان من النبات .

٧
آثار حلم ممزوج بالسعادة

ورأى كل من المحبَّين صاحبه يومياً . كانت كوزيت تفد مع مسيو فوشلوفان . وقالت الآنسة جيلنورمان : « إنه لعكسٌ لطبيعة الاشياء ان تجيء المخطوبة إلى البيت لكي تغازَلَ على هذا النحو . » ولكن نقاهة ماريوس كانت قد قادت إلى نشوء هذه العادة . كما ان الكراسي ذوات الاذرع في شارع فتيات كالفير ، وهي اكثر ملاءمة للاحاديث الطويلة من الكراسي القشية التي في شارع الرجل المسلح ، كانت قد جذَّرتها . واجتمع كل من ماريوس ومسيو فوشلوفان ، ولكنهما ما كانا يتبادلان الأحاديث . وبدا ذلك أمراً مفهوماً . فكل فتاة في حاجة إلى رفيق حارس . وما كان في ميسور كوزيت ان تجيء من غير ان يصاحبها مسيو فوشلوفان . كان مسيو فوشلوفان هو ، عند ماريوس ، شرطَ كوزيت . وقبِل ذلك الشرط . ومن طريق التعرض لقضايا السياسة ، على نحو غامض وعام ، من زاوية الرغبة في التحسين الشامل لأوضاع الناس جميعاً ، وُفِّقا إلى أن يقولا شيئاً اكثر قليلا من تبادل لفظتي « نعم » و « لا » . وذات يوم ، وكان الموضوع موضوع التعليم ، الذي اراده ماريوس مجانياً والزامياً ، مضاعفاً تحت الاشكال جميعاً ، مغدقاً على الجميع كالهواء واشعة الشمس ، وبكلمة واحدة ، ممكناً تنشُّقه من جانب الناس جميعاً — نقول في ذلك اليوم انتهيا إلى ألفة ، بل كادا يتطارحان حديثاً . ولاحظ ماريوس في تلك المناسبة ان مسيو فوشلوفان يجيد الحديث ، بل يجيده في شيء من سمو اللغة . ولكن كان ثمة شيء يعوزه . على كل حال . كان في مسيو فوشلوفان شيء اقل من رُجل مجتمع ، وشيء اكثر .

وباطنياً ، وفي أعماق نفسه ، أحاط ماريوس مسيو فوشلوفان هذا ، الذي كان بالنسبة اليه محسناً وبارداً ليس غير ، بمختلف ضروب الاسئلة الصامتة . وبين الفينة والفينة ، كانت تساوره شكوك حول ذكرياته هو . كان في ذاكرته خرم ، موطنٌ أسود ، هوة جوفتها اربعة اشهر من العذاب الاليم . كانت اشياء كثيرة قد ضاعت فيها . وانتهى إلى ان سأل نفسه ما اذا كان صحيحاً ، انه قد رأى ، حقاً ، مسيو فوشلوفان ، مثلَ هذا الرجل ، البالغ الجد والبالغ الهدوء ، في المتراس .

بيد أن هذا لم يكن هو الغيبوبة الوحيدة التي خلفها في عقله مثول الماضي واختفاؤه . وينبغي أن لا نفترض انه أنقِذ من جميع تلك الفكرات المتسلطة التي تكرهنا ، حتى ونحن في غمرة من السعادة والرضا، على الالتفات إلى وراء في غم وكآبة . إن الرأس الذي لا يلتفت نحو آفاق الماضي ، لا ينطوي لا على فكر ولا على حب . وبين حين وآخر ، كان ماريوس يغطي وجهه بيديه ، وكان الماضي الغامض يخترق ، في صخب ، ذلك الغسق الذي ملأ ذهنه . لقد رأى مابوف يخر على الأرض من جديد ، وسمع غافروش يغني تحت نيران القذائف، واستشعر على شفتيه برودة جبين ايبونين ، ونهض آنجولراس،وكورفيراك، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وبوسوويه ، وغرانتير وجميع اصدقائه — نهضوا امامه ، ثم تبددوا . هذه الكائنات ، الغالية ، المحزونة ، الباسلة، الفاتنة أو الفاجعة ، هل كانت أحلاماً ؟ هل وُجدت حقاً ؟ كانت الفتنة قد لفت كل شيء بدخانها . إن لهذه الحمّيات الكبيرة أحلاماً كبيرة . واستجوب نفسه ؛ وتلمّس طريقه في ذات نفسه ؛ كانت هذه الوقائع المتلاشية قد أصابته بدوار . أين كانوا كلهم اذن ؟ هل صحيح أنهم أمسوا كلهم أمواتاً ؟ كان السقوط في الظلمة قد قضى عليهم جميعاً ، باستثنائه هو . وبدا له أن كل شيء قد اختفى وكأنه خلف ستار في مسرح . إن ثمة مثل هذه الستر التي تُسدل في الحياة . الرب ينتقل إلى

الفصل الثاني .

وهو ، اكان لا يزال الرجلَ نفسه ؟ كان – هو الفقير – قد أمسى غنياً . كان – هو المتخلى عنه – ذا أسرة . وكان – هو اليائس – في سبيله إلى الزواج من كوزيت . لقد بدا له وكأنه اجتاز قبراً ، وأنه دخل إلى هذا القبر اسود ، وخرج منه أبيض . وفي هذا القبر كان الآخرون قد بقوا . وفي بعض الاحيان ، كانت جميع كائنات الماضي هذه ، العائدة الماثلة ، تشكل حلقة حوله وتوقع في نفسه الغم . وعندئذ كان يفكر في كوزيت ، فتعاوده بشاشته . ولكن لم يكن في ميسور شيء أقل من هذه السعادة أن يمحو تلك الكارثة .

وكان لمسيو فوشلوفان موضع ، تقريباً ، بين هذه الكائنات المتلاشية . وتردد ماريوس في الاعتقاد بأن فوشلوفان المتراس كان هو نفسه فوشلوفان هذا ، بلحمه ودمه ، الجالس في كثير من الرصانة قرب كوزيت : كان الأول ، في أغلب الظن ، واحداً من تلك الكوابيس التي تروح وتجيء مع ساعات هذيانه ؛ وفوق هذا ، فلما كانت طبيعتاهما وعرتين ، فما كان من الممكن أن يوجّه اما سؤال من ماريوس إلى مسيو فوشلوفان . بل ان مجرد الفكرة لم تخطر له ببال . ولقد سبقت منا الاشارة إلى هذه الحادثة المميِّزة .

رجلان يجمعهما سر مشترك ، ولا يتبادلان – بضرب من التفاهم المضمَر – كلمة واحدة في الموضوع . ان شيئاً مثل ذلك هو أقل ندرة مما يظن المرء .

ومرة واحدة ليس غير ، قام ماريوس بمحاولة . لقد أدخل شارع الـ « شانفريري » في المحادثة . التفت نحو مسيو فوشلوفان ، وقال له :

– « هل تعرف ذلك الشارع جيداً ؟ »

– « أي شارع ؟ »

— « شارع الشانفريري ؟ »

فأجاب مسيو فوشلوفان بنبرة ليس اكثر منها طبيعيــة في العالم :

— « ليس عندي أية فكرة عن اسم ذلك الشارع . »

وبدا الجواب ، الذي دار على اسم الشارع ، لا على الشارع نفسه — بدا لماريوس جازماً اكثر مما كان .

وفــكر · « لا ريب في انني كنت أحلم . لقــد ألمّت بي هلوسة . كان ذلك شخصاً آخر يشبهه . مسيو فوشلوفان لم يكن هناك ؟ »

٨

رجلان من المتعذر الاهتداء اليهما

ولم تمحُ الرُّقيــة ، على الرغم من ضخامتها ، شواغلَ اخرى مــن ذهن ماريوس .

ففي خلال الاستعداد للزفاف ، وفيما كان ينتظر الميقات المضروب ، أجرى بعض المباحث الارتدادية العسيرة ، الدقيقة .

كان مديناً بالمعروف من عدة نواح . كان مديناً ببعض ذلك المعروف بسبب من أبيه ، ومديناً ببعضه لحسابه هو .

كان ثمة تيناردييه ، وكان ثمة ذلك الرجل المجهول الذي حمله ، هو ماريوس ، إلى منزل مسيو جيلنورمان .

وحرص ماريوس على العثور على هذين الرجلين ، غير معتزم أن يتزوج ، ان يكون سعيداً ، ان ينساهما ، وخائفاً ان تلقي ديون الواجب غير المسددة هــذه ، ظلا على حياته التي امست مشرقة منذ اليوم . كان من المتعذر عليه ان يخلّف كل هذا الدين وراءه ، من غير سداد . ولقد اراد ، قبل ان يدخــل إلى المستقبل ، ان يبرىء ذمتــه مــن

الماضي .

وكون تيناردييه مجرماً لا يغير شيئاً من هذه الواقعة ، وهي انه انقذ الكولونيل بونمرسي . كان تيناردييه قاطع طريق ، في عيني كل انسان ، ما عدا ماريوس .

ثم ان ماريوس ، الجاهل حقيقة ما وقع في ميدان واترلو ، لم يعرف هذه النقطة الفريدة ، وهي ان اباه كان في ما يتصل بتيناردييه على هذا الوضع الغريب : كان مديناً له بالحياة من غير ان يكون مديناً له بعرفان الجميل .

ولم ينجح احد من الرجال الذين استخدمهم ماريوس في الاهتداء إلى أثر تيناردييه . لقد بدا الامحاء كاملا من هذه الناحية ؛ كانت تيناردييه الزوجة قد ماتت في السجن خلال التحقيق في الجريمة . وكان تيناردييه وابنته آزيلما ، الاثنان الوحيدان اللذان بقيا من هذا المجموع الفاجع ، قد غاصا في الظلام كرة اخرى . كانت لجة « المجهول الاجتماعي » قد أطبقت في صمت على هذين المخلوقين . بل لم يعد في امكان احد ان يرى ، على السطح ، تلك الدوائر المشتركة المركز ، المرتعشة ، المرتجفة ، الغامضة ، التي تعلن ان شيئاً قد سقط هناك ، وان في ميسورنا أن نلقي بالمسبار .

واذ ماتت تيناردييه الزوجة ، وأبعد بولاترووبل من القضية ، واختفى كلاكسو ، وفر المتهمون الرئيسيون من السجن ، فان النظر في دعوى كمين بيت غوربو العتيق كان جهيضاً تقريباً . لقد تُركت القضية في ظلام عميق . واضطرت محكمة الجنايات إلى الاجتزاء بمشاركين ثانويين في الجريمة ، بانشو المعروف بـ « برانتانييه » أو « بيغروناي » و دومي ليبار المعروف بـ « « دو مييار » اللذين حوكما وحكم عليهما بالحبس عشر سنوات في سجن الاشغال الشاقة . ولفظت المحكمة حكم الاشغال الشاقة مدى الحياة على شركائهما الذين فروا وابوا المثول بين يدي القضاة .

وحكم على تيناردييه ، بوصفه رئيساً للعصابة ، بالموت لانه أبى المثول امام المحكمة أيضاً . وكان هذا الحكم هو كل ما بقي من تيناردييه ، ملقياً على هذا الاسم الدفين وهجه المشؤوم ، مثل شمعة إلى جانب نعش .

وإلى هذا فأن ذلك الحكم ، بارجاعه تيناردييه إلى الاعماق السفلى ، خشية أن يُقبض عليه ثانية ، زاد في كثافة الظلمة التي اكتنفت هذا الرجل .

أما الشخص الآخر ، اما الرجل المجهول الذي انقذ ماريوس ، فقد انتهت المباحث عنه بادىء الامر إلى نتيجة ما ، ثم توقفت فجأة . لقد وفقوا إلى العثور على عربة الكراء التي حملت ماريوس إلى شارع فتيات كالفير ليل السادس من حزيران . واعلن السائق انه « جُمّد » في اليوم السادس من حزيران ، بأمر من احد ضباط البوليس ، من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الليل ، على رصيف الشان زيليزيه ، فوق منفذ البالوعة العظمى ؛ وان شُباكة البالوعة المؤدية إلى شاطىء النهر فتحت حوالى الساعة التاسعة مساء ؛ وان رجلا قد خرج منها ، حاملا رجلا آخر على كتفيه كان يبدو وكأنه ميت ؛ وان ضابط البوليس الذي كان يراقب في تلك النقطة ألقى القبض على الرجل الحي وأمسك بالرجل الميت ؛ وأنه استقبل ، هو السائق ، بناء على أمر الضابط ، « كل هؤلاء الناس » في عربته ؛ وانهم شخصوا أولا إلى شارع « فتيات كالفير » ؛ وانهم تركوا الرجل الميت هناك ؛ وان الرجل الميت كان مسيو ماريوس ، وأنه هو – السائق – قد عرفه جيداً ، على الرغم من انه كان حياً ، « هذه المرة » ؛ وانهم امتطوا بعد ذلك متن عربته من جديد ، وأنه الهب خيله بالسوط ، وانه قد طُلب اليه أن يتوقف على بضع خطوات من باب « الارشيف » ؛ وانه قد قبض اجرته ، هناك في الشارع ، ومضى لسبيله؛ وان ضابط البوليس اقتاد الرجل الآخر ؛ وأنه ما كان يعرف شيئاً

اضافياً ، وان الليل كان دامساً .

ولم يتذكر ماريوس ، كما قلنا ، شيئاً من ذلك . كل ما تذكره ان يداً قوية أمسكت به من خلاف لحظةَ سقط على ظهره وسط المتراس ، وبعدها امحى كل شيء بالنسبة اليه . إنه لم يستعد وعيه إلا في منزل مسيو جيلنورمان .

وتاه في الاحداس والظنون .

إنه لم يستطع ان يشك في هويتـه . ولكن ، كيف اتفق له ، وهو الذي سقط في شارع الـ « شانفريري » ، أن يلتقطه ضابط البوليس ، على ضفة الـ « سين » ، قرب جسر الانفاليد ؟ إن شخصاً ما ، قـد حمله من حي الاسواق إلى الشان زيليزيه . وكيف ؟ عبر البالوعة . تفانٍ لم يُسبق إلى مثـله من قبل .

شخص ما ؟ من هو ؟

كان هذا الرجل هو الشخص الذي يبحث عنه ماريوس .

ولم يجد من هذا الرجل ، الذي كان منقذه ، شيئاً . لم يجد اثراً . لم يجد اقل اشارة تدل عليه .

ودفع ماريوس مباحثه حتى ادارة الشرطة ، على الرغم من انه كـان مضطراً إلى اصطناع كثير من الحيطة في هذا المجال . ولكن المعلومـات التي حصل عليها هناك لم تكن ادعى إلى انارته من تلك التي فاز بها من مصادر اخرى . كانت ادارة الشرطة تعرف أقل مما عرفه سائق العربة . إنها لم تعرف بأي اعتقال تم في السادس من حزيران عند شباكة البالوعة العظمى . إنها لم تتلق من رجالها ايما تقرير حول هذه الواقعة ، الـتي اعتُبرت — في ادارة الشرطة — مجرد خرافة. وعزا رجال الشرطة اختراع هذه الخرافة إلى السائق. فالسائق الذي يطمع في مبلغ اضافي فوق الاجرة قادر على كل شيء ، حتى على الخيال . ومع ذلك ، فقد كانت هـذه الواقعة ثابتة ، ولم يكن في وسع ماريوس ان يشكّ فيها ، إلا اذا شك

في هويته ، كما اشرنا منذ لحظة .

كل شيء في هذه الاحجية الغريبة كان ممتنعاً على التفسير .

هذا الرجل ، هذاالرجل الخفي، الذي رآهالسائق ينبثق من شباكةالبالوعة العظمى حاملا ماريوس الغائب عن الوعي على ظهره ،والذي اعتقله ضابط الشرطة المراقب متلبساً بجريمة إنقاذ متمرد من المتمردين ، ما الذي حل به ؟ ما الذي حلّ بضابط الشرطة نفسه ؟ لماذا اعتصم هذا الضابط بالصمت ؟ هل وفق الرجل إلى الفرار ؟ هل رشا ضابط البوليس ؟ لماذا لم يتكشف هذا الرجل عن ايما أمارة من أمارات الحياة لماريوس المدين له بكل شيء ؟ إن نزاهته لم تكن اقل اثارة للعجب من تفانيه . لمَ لمْ يعاود هذا الرجل الظهور ؟ لعله كان فوق الثواب ، ولكن ليس ثمة احد فوق عرفان الجميل . هل مات ؟ اي نوع من الرجال كان ؟ ما شكله ؟ لم يكن في ميسور احد ان يحزر . لقد اجاب سائق العربة قائلا : « كان الليل دامساً . » وكان باسك ونيقوليت قد اكتفيا ، في غمرة انشداههما ، بالنظر إلى سيدهما الشاب مضرجاً بالدم . وكان البواب، الذي أضاءت شمعته وصول ماريوس الفاجع ، هو وحده الذي لاحظ ذلك الرجل ، وهذا هو الوصف الذي وصفه به : « كان هذا الرجل رهيباً . »

وكان ماريوس قد احتفظ بالملابس الدامية التي كان يلبسها لحظة أعيد إلى منزل جده ، رجاةَ ان يستمد منها العون في مباحثه . وعند فحصه السترة لاحظ ان أحد أهدابها كان ممزقاً على نحو عجيب . كان يعوزها قطعة ما .

وذات مساء ، تحدث ماريوس ، أمام كوزيت وجان فالجان ، عن هذه المغامرة الفريدة كلها ، وعن المباحث التي قام بها ، وعن ذهاب جهوده ادراج الرياح . وكان في محيا « مسيو فوشلوفان » البارد ما جعله يفقد صبره . وهتف في حيوية كادت تنطوي على ارتجاج الغضب :

— « اجل ، ذلك الرجل ، كائناً من كان ، كان ماجداً . هـل تعرف ماذا فعل ، يا سيدي ؟ لقد تدخّل مثل ملاك اكبر « ولا ريب في أنه قد ألقى بنفسه في غمرة المعركة ، وانتزعني منها ، وفتح البالوعة، وقادني اليها ، وحملني عبرها ! ولا بد انه سار أكثر من فرسخ ونصف خلال دهاليز تحترضية رهيبة ، ملوياً ، منحنياً ، في الظلام ، فـي البواليع ، اكثر من فرسخ ونصف يا سيدي ، وعلى ظهره جثة ! ولأي غرض ؟ ابتغاء إنقاذ تلك الجثة ليس غير . وكنت أنا تلك الجثة ! لقد قال في ذات نفسه : « لعله لا يزال ههنا ومضة من حياة . سوف اخاطر بحياتي من اجل تلك الشرارة البائسة ! » وحياته هذه لم يخاطر بها مرة واحدة ، ولكن عشرين مرة ! وكل خطوة كانت محفوفة بالخطر . والدليل على ذلك أنه ما إن خرج من البالوعة حتّى اعتقـل . هـل تعرف ، يا سيدي ان ذلك الرجل قد فعل ذلك كله ؟ ولم يكن في ميسوره ان يتوقع ثواباً ما . اي شيء كنت انا ؟ متمرداً . اي شيء كنت أنا ؟ رجلا مغلوباً . اوه ، لو كانت آلاف كوزيت الستمئة لي .... »

فقاطعه جان فالجان :

— « إنها لك . »

فأضاف ماريوس :

— « حسن ، اذن لدفعتها ثمناً للعثور على ذلك الرجل ! »

واعتصم جان فالجان بالصمت .

الكتاب السادس

الليلة البيضاء

١

١٦ شباط ، عام ١٨٣٣

كان ليل السادس عشر من شباط ، عام ١٨٣٣ ، ليلا مباركاً . ففوق ظلمته ، كانت ابواب السماء قد ُفتحت . كان موعد زواج ماريوس وكوزيت .

كان النهار رائعاً .

إنه لم يكن العيد السماوي الزرقة الذي حلم به الجد : مشهداً جنيّاً يختلط فيه الملائكة وآلهة الحب فوق رأسي العروسين ، ولكنه كان عذباً طروباً .

إن زي الزواج لم يكن ، عام ۱۸۳۳ ، ما هو اليوم . لم تكن فرنسة قد استعارت بعد ، من انكلترة ، تلك اللطافة البالغة التي تجعل الزوج يخطف زوجته ، ويفر عند مغادرته الكنيسة ، ويختبيء خجلا من سعادته الشخصية ، ويمزج ما بين سلوك المفلس وتهللات نشيد الاناشيد . إن الفرنسيين لم يكونوا قد تعلموا اي عفة ، واي روعة ، واي ظرف ينطوي عليه رج المرء فردوسه في عربة بريد ، وتفصيل لغزه بالتكتكات ، وحسبان سرير الحانة سرير العرس ، وأن يترك الانسان وراءه ، في المخدع المبتذل في كثير من الليالي ، اقدس ذكريات الحياة الفوضوية مع مناجاة سائق العربة العمومية وخادمة الحانة .

في هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي نعيش فيه لم يعد يكفينا العمدة ووشاحه ، والكاهن وحلة قداسه ، والشريعة والله ؛ إن علينا ان نتم هؤلاء جميعاً بسائق عربة لونجومو ؛ صدرة زرقاء ذات اطراف حمراء ، وازرار جلاجل ، وصفيحة تطوق الذراع ، وسروال من جلد أخضر ، وشتائم موجهة إلى خيل نورمندية معقودة الأذيال ، وضفائر زائفة ، وقبعة مشمعة ، وشعر خشن منضوح بالذرور ، وسوط ضخم ، وحذاء ثقيل . وفرنسة لمّا تذهب بعد بالاناقة إلى حد إمطار عربة العرس ، كما يفعل نبلاء الانكليز ، بعاصفة من البوابيج المثنيّة إلى الداخل ، والاحذية العتيقة ، إحياء لذكرى تشرشل ، ثم مارلبورو ، أو مالبروك ، الذي هوجم يوم زفافه بغضبة من عمة حملت اليه حظاً سعيداً . إن الاحذية البالية والبوابيج لم تصبح بعد جزءاً من احتفالاتنا الاعراسية ولكن صبراً ، فما دام الذوق الرفيع يواصل انتشاره ، فلا بد ان ننتهي إلى ذلك .

وفي عام ۱۸۳۳ لم يكن الزواج يتم على وجه السرعة .

كان القوم لا يزالون يتخيلون في تلك الحقبة — وهو أمر غريب

حقاً – ان الزواج عيد حميم واجتماعي ، وان المائدة الأبوية لا تفسد الجلال المنزلي ، وأن الابتهاج ، ولو مفرطاً ، شرط ان يكون لائقاً ، لا يؤذي السعادة . واخيراً أن من الجلال والخير ان يبدأ التحام هذين المصيرين ، اللذين سوف تنبثق منهما أسرة ، في المنزل ؛ وأن تكون غرفة العرس شاهداً على الزواج منذ اليوم .

وكان عندهم القحة لأن يتزوجوا في المنزل .

واذن ، فقد تم الزواج ، وفقاً لذلك الزي الذي أصبح الآن مماتاً ، في منزل مسيو جيلنورمان .

وبرغم ان مسألة الزواج هذة كانت امراً طبيعياً وعادياً إلى ابعد الحدود ، فان الاعلان الذي ينبغي أن ينشر في الكنيسة والصكوك التي ينبغي ان تحرر ، ومقر العمدة ، والكنيسة ، تجعلها دائماً معقدة بعض الشيء . ولم يكن في ميسورهم ان يكونوا على استعداد قبل السادس عشر من شباط .

واتفق – ونحن نذكر ذلك لمجرد الرغبة في الدقة – ان ذلك اليوم السادس عشر كان يوم ثلاثاء المرفع . وكان تردد ، ووساوس ، وبخاصة من جانب العمة جيلنورمان .

وهتف الجد :

– « ثلاثاء المرفع . هذه زيادة في الخير . ان ثمة مثلا يقول :

من يتزوج في ثلاثاء المرفع
لا يُرزق اولاداً عاقين ابداً .

فلنمض في سبيلنا . ليكن ذلك في السادس عشر ! هل تريد ان تؤجله انت يا ماريوس ؟ »

فأجاب العاشق :

– « لا ، طبعاً . »

فقال الجد :

— « فلنتزوج اذن . »

وهكذا تم الزواج في اليوم السادس عشر ، برغم الابتهاج الشعبي . لقد امطرت السماء ذلك اليوم ، ولكن في السماء دائماً رقعة صغيرة زرقاء في خدمة السعادة ، رقعة يراها العشاق ، على الرغم من ان سائر الخليقة قد تكون تحت مظلة من المظلات .

وفي الليلة السابقة ، كان جان فالجان قد قدم إلى ماريوس ، في حضرة مسيو جيلنورمان ، الخمسمئة والاربعة والثمانين الف فرنك .

واذ اجري الزواج وفقاً لقانون التعاقد على جعل بعض املاك الزوجين مشاعاً بينهما ، فقد كانت الاجراءات بسيطة .

وأمست توسين ، منذ ذلك الحين ، عديمة الفائدة لجان فالجان . كانت كوزيت قد ورثتها ، ورفعتها إلى مرتبة وصيفة .

أما جان فالجان ، فكانت ثمة في منزل جيلنورمان غرفة جميلة أثثت خصيصاً من أجله ، وكانت كوزيت قد قالت له : « ابي ، أتوسل اليك » وقالتها على نحو لا يقاوَم إلى درجة جعلته يعِدُ ، أو يكاد ، بأن يجيء ويحتلها .

وقبل بضعة أيام من اليوم المحدد للزواج وقع حادث لجان فالجان . لقد سُحق إبهام يده اليمنى بعض الشيء . ولم يكن ذلك خطيراً ، ولم يجز لأحد ان ينشغل به ، أو أن يضمده ، بل ان يرى إلى الاذى النازل به ، حتى كوزيت نفسها . بيد أن ذلك اضطره إلى أن يلف يده بعصابة ، وان يرفع ذراعه إلى صدره ، ومنعه من التوقيع على اي شيء .

ولن نقود القاريء لا إلى مقر العمدة ولا إلى الكنيسة . إننا نادراً ما نتبع العشاق إلى ذلك المدى ، ونحن في العادة نولي الرواية ظهرنّا حالما تضع باقةَ العريس في عروته . ولسوف نجتزىء بذكر حادثة وسمت ، على

الرغم من ان شهود العرس لم يلاحظوها ، تقدَّمَ الموكب من شارع فتيات كالفير إلى كنيسة القديس بولس .

كانوا يعيدون ، في ذلك الوقت ، تعبيد الطرف الشمالي من شارع سان لويس . وكـــان قـــد سُيج ابتداء من شارع « بارك رويال » . وكان من المتعذر على عربات العرس ان تمضي إلى كنيسة القديس بولس مباشرة . كان من الضروري ان يغيروا الطريق ، وكانت أقصر الطرق تقتضيهم أن ينعطفوا من ناحية الجادة . ولاحظ أحد المدعوين أنهم كانوا في ثلاثاء المرفع ، وان الجادة خليقة بأن تكون غاصة بالعربات . وتساءل مسيو جيلنورمان : « لماذا ؟ » — « بسبب من الاقنعة » . فأجاب الجد : « ممتاز . فلنمض من هناك . هذان الشابان على عتبة الزواج ؛ إنهما يوشكان أن يدخلا إلى أشياء جدية في الحياة . وإنه لمما يهيئهما لذلك أن يريا شيئاً من المساخر . »

وسلكوا طريق الجادة . كانت اولى عربات العرس تنتظم كوزيـــت والعمة جيلنورمان ومسيو جيلنورمان وجان فالجان . أما ماريوس ، الذي كان ما يزال مفصولا عن خطيبته ، وفقاً للعادة ، فكان يتبعهـــم في العربة الثانية . وامتزج موكب العرس ، لدن مغادرته شارع بنات كالفير، في صف العربات الطويل الذي شكل سلسلة لا نهاية لها من الـ « مادلين » إلى الباستيل ، ومن الباستيل إلى الـ « مادلين » .

وغصت الجادة بالاقنعة . وامطرت السماء ، بين الفينة والفينة ، على غير طائل . كان المهرجون والمُجـان عنيدين . ففي دماثة شتاء عـــام ١٨٣٣ ذاك ، كانت باريس قد تقنعت بقناع فينيسيا . إننا لا نرى ثلاثاء مرفع كهذا ، في هذه الأيام . لأنه بعد ان أصبح كل شيء كرنافالا شائعاً ، لم يبق ثمة اىما كرنافال .

كانت الازقة الجانبية غاصة بالسابلة ، وكانت النوافذ غاصة بالفضوليين ، وكانت السطائح التي تتوج اروقة المسارح المعمَّدة مهـدّبة بالمشاهدين .

وإلى جانب الاقنعة ، لاحظوا صف العربات المختلفة الاصناف ، ذلك الصف المميز لثلاثاء المرفع ولونشان أيضاً : عجلات كراء ، وعربات «سيتادين» ، وعربات نزهة ضخام ، وعربات صغيرة ذات دولابين ومظلة ، وعربات خفيفة ، تمشي كلها في نظام ، وقد ثُبّتت احداه خلف الاخرى في قساوة ، نزولا على أوامر الشرطة ، فكأنها تمشي على خطوط حديدية . وكل من يمتطي احدى تلك العربات يكون مشاهِداً ومشاهَداً في وقت معاً . وأبقى رجال الشرطة هذين الصفين المتوازيين اللانهائيين على الجوانب الدنيا من الجادة — أبقوهما متحركين حركة متعاكسة ، وراقبوهما بحيث لا يعوق شيء هذا التيار المزدوج الممثل في جدولي العربات الجاريين : احدهما نزولا ، والآخر صعوداً ؛ احدهما نحو مرتفع آنتين ، والآخر نحو ضاحية سان انطوان . ولزمت عربات نواب فرنسة والسفراء ، تلك العربات المنقوش عليها شعارات الشرف ، منتصف الطريق ، فهي تروح وتجيء في حرية . وتمتعت بعض المواكب الفخمة البهيجة ، وبخاصة موكب «الثور السمين» ، بالامتياز نفسه . وفي فرحة باريس هذه ، تعاظمت انكلترة ؛ إن عربة اللورد سيمور ، المغيظة بلقب شعبي ، اجتازت الطريق في جلبة بالغة .

وفي ذلك الخط المزدوج ، الذي خب رجال الحرس البلدي على طوله مثل كلاب الراعي ، كانت بعض العربات العائلية الأمينة ، المثقلة بالجدات والجدود ، تعرض عند ابوابها مجموعات طريئة من الاطفال المقنعين ، مهرجين في السابعة من العمر ، ومهرجات في السادسة ، مخلوقات صغيرة فاتنة ، شاعرة بانها كانت رسمياً جزءاً من الجذل الشعبي ، متأثرة بجلال تهريجها ، ومصطنعة وقار الموظفين .

وبين الفينة والفينة كانت تعترض موكب العربات عقبة ، وكان هذا الصف الجانبي أو ذاك يتوقف ريثما تحل العقدة . إن عربة معوقة كانت كافية لأن تشل الخط كله . ثم ان العربات كانت تستأنف السير

بعد ذلك .

وكانت عربات العرس في الصف المتجه نحو الباستيل ، والمتحرك في محاذاة الناحية اليمنى من الجادة . وعند شارع الـ « بون أو شو » توقف السير فترة . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، في الناحية الاخرى من الجادة ، توقف الصف الآخر المتجه نحو الـ « مادلين » ، أيضاً . كان في هـــذه النقطة من الخط حِمل عربة من الأقنعة .

وهذه العربات ، أو على الاصح ، أحمال الـكارّات هذه ، يعرفها الباريسيون جيداً . فاذا لم تظهر في ثلاثاء المرفع ، أو منتصف الصوم الكبير ، توقّع الناس شيئاً ، وقالوا : « ان وراء الأكمة ما وراءها . لعل الوزارة سوف تتغير . » . ركام من العجائز المضحكين ، والمزاحين اللابسين اثواباً مخيطة من رقـع مختلفة الالوان ، يرتـجّ فوق عـابري السبيل . مختلف ضروب الصور المضحكة ، من التركي إلى المتـوحش ، هراقلة * تسند مركيزات ، ونساء غليظات الكلام خليقات بأن يجعلن رابليه ** يوصد اذنيه ، كما حملت السكيرات الفواجر آريستوفان على ان يغمض عينيه . شعر مستعار من مُشاقة الكتان ، واقمطة زهراء ، وقبعـــات متظرفين ، ونظارات متصعرين ، وقبعات « جانو » ثلاثيـــة القرون تزعجها فراشة من الفراشات ، وصيحات موجهـــة إلى المشاة ، وأذرع على الخواصر ، وأوضاع غير محتشمة ، واكتاف عارية ، ووجوه مقنّعة ، ووقاحات منزوعة الكمامات ، وعماء من السفاهة يطوف بـــه سائق متوج بالازهار . تلك هي هذه المؤسسة .

---

* جمع هرقل ، وهي تعني هنا الجبابرة.

** ديب فرنسي كبير سبق التعريف به ، وكان معروفاً باسلوبه المقـذع الحافل بالالفاظ غير المهذبة .

كانت بلاد الاغريق محتاجة إلى مركبة تيسبيس * . وفرنسة في حاجة إلى عربة فاديه ** .

كل شيء يمكن ان يزوّر ، حتى التزوير نفسه . ان أعياد الـ‍ـه الزمان عند الرومان ، تصعّر الجمال العتيق ذاك ، قد تطورت تدريجياً إلى ثلاثاء المرفع . وأعياد الـ‍ـه الخمر ، التي كانت متوجة في الايام الخالية باغصان الكرمة ، مغمورةً باشعة الشمس ، كاشفةً عن اثداء من الرخام في شبه عري الـ‍ـهي ، والتي أمست اليوم مائعة تحت أسمال الشمال المبللة ، انتهت بأن تدعو نفسها الـ *Chie — en — lie*

وتقليد عربات الاقنعة يرقى إلى أقدم عهود الملكية . فحسابات الملك لويس الحادي عشر تمنح قاضي البلاط « عشرين سو مضروبة في مدينة « تور » من اجل ثلاث من عربات التنكر في زوايا الشوارع . » وفي ايامنا ، تُحمل هذه الحشود الصاخبة ، عادة ، في عربة عتيقة ما ، يُثقلون أعلاها ، أو يُبهظون بجمعهم الضاج عربة من عربات الضرائب ذات غطاء ممزق . ان عشرين منهم يحتلون عربة تتسع لستة اشخاص . إنهم يمتطون المقعد ، والكرسي الصغير ، وقوسي الغطاء ، ومِجرّ العربة . بل انهم يمتطون مصابيح العربة . فانت تراهم واقفين ، منطرحين ، قاعدين ، منطويةً معاطف سيقانهم ، متدلية ارجلهم . إن النسوة ليجلسن على رُكب الرجال . وإن المرء ليرى اهرامهم المجنونة ، من مسافة بعيدة ، فوق تمهر الرؤوس . إن أحمال العربات هذه لتحدث جبالا من الفرح الشديد وسط الحشود . وإن كوليه *** ، وباناز **** ،

---

* Thespis شاعر يوناني يعتبر مبدع التراجيديا الاغريقية . (القرن السادس قبل الميلاد) .

** Vadé شاعر فرنسي يعتبر مبدع النوع المعروف بالـ poissard اي القصيدة الفاحشة الملأى بالالفاظ التي يعوزها الاحتشام .

*** Collé مؤلف أغان ، وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٠٩ — ١٧٨٣)

**** Panard مؤلف اوبيرات وأغاني فرنسي (١٦٧٤ — ١٧٦٥)

وبيرون * ليسيلون منها ، ولكن على نحو غني بلغة السوقة . انهم يبصقون التعليم الديني المقذع على رؤوس الناس . ان لهذه العربة ، وقد غدت لانهائية الاتساع بالحمل الرازحة تحته ، سيما الفاتحين . فالهدير في مقدمتها والفوضى في مؤخرتها . انهم يصخبون فيها ، ويغنون ، وينبحون ، وينفجرون ، ويتلوون بالسعادة . ان البهجة تزأر هناك ، وان السخرية تتوهج ، وان المزاج الفرح لينتشر وكأنه داء الحصبة . إن فرسين غير أصيلين يقودان التمثيلية المضحكة المتهللة بالتمجيد . إنها مركبة الضحك المظفرة .

ضحك مبالغ في السخرية بحيث يتعذر عليه ان يكون صريحاً . والواقع أن هذا الضحك موضع الريبة . إن لهذا الضحك رسالة . ومهمته ان يثبت الكرنافال للباريسيين .

هذه العربات الخالعة العذار ، التي نستشعر فيها ظلمة تمتنع على التحديد ، تدعو الفيلسوف إلى التفكير . فيها نضع اصبعنا على ملاءمة خفية بين الرجال الداعرين ، والنسوة العاهرات .

وليس من ريب في انه لمن المحزن ان تقدم هذه القباحات المركومة حاصلا من البهجة ، وان يُجتذب الشعب بتكديس الخزي فوق العار ؛ وان يؤدي التجسس العامل في خدمة البغاء وتدعيمه إلى إلهاء الحشود فيما هو يهينها ، وان تولع الجماهير بتتبّع سير هذه الكومة الرهيبة من الأحياء ، التي هي أسمال وبهارج في وقت معاً ، والتي نصفها قذر ونصفها ضياء ، والتي تعوي وتغني فوق عجلات العربة الأربع ؛ وان يصفق الناس لهذا المجد المؤلف من كل ضرب من ضروب العار ؛ وان لا يكون للجماهير عيد إلا إذا عرض البوليس وسطهم هذا الضرب من افعوان الابتهاج ذي المئة رأس . ولكن ما العمل ؟ إن عربات الوحل الموشح المزدان بالازهار ليهينها الضحك العام ويغفر لها . والضحك الاجماعي

* Piron شاعر فرنسي الف عدداً كبيراً من الاغاني والأهاجي (١٦٨٩-١٧٧٣)

شريك السخط العام في الجريمة . إن بعض الاعياد الوخيمة تفسد الشعب، وتجعله سوقة . والسوقة ، كالطغاة ، في حاجة إلى مهرجين . إن للملك روكولور ، وللشعب باياس . وباريس هي المدينة الحمقاء الكبرى ، كلما اخفقت في ان تكون المدينة الجليلة الكبرى . ان الكرنافال جزء من سياستها . إن باريس – وعلينا ان نسلم بذلك – تزود نفسها ، مختارة ، بالملهاة من طريق الفحشاء . إنها لا تسأل أسيادها – حين يكون لها أسياد – غير شيء واحد : « زوّقوا لي الوحل ! » وروما كان لها المزاج نفسه . لقد احبت نيرون . كان نيرون ناقلا عملاقاً ينزل البضائع من السفينة إلى البر .

وشاءت المصادفة – كما ذكرنا اللحظة – ان تقف احدى هذه الحزم الشائهة ، حزم المقنّعين والمقنّعات ، المنقولة في عربة ضخمة ذات اربع دواليب ، إلى يسار الجادة فيما وقف موكب العرس إلى يمينها . ومن جانب الجادة إلى جانبها نظرت العربة المحملة بالاقنعة إلى العربة المواجهة، التي كانت تُقلّ العروس .

وقال قناع :

– « انظروا ! عرس ! »

فأجاب آخر :

– « عرس زائف . نحن العرس الحقيقي . »

واذ كان القناعان أبعد من أن يقدرا على استجواب المحتفلين بالزفاف ، واذ خافا إلى جانب ذلك صيحة رجال الشرطة ، فقد حولا نظرهما إلى مكان آخر .

وبعد لحظة قامت العربة المقنّعة كلها بأعمال كثيرة جعلت الجماهير تصوت لها ساخرة ، وتلك هي ملاطفة الرعاع لجماعة المتنكرين . واضطر القناعان اللذان تكلما اللحظة إلى ان يوجها وجهيهما نحو الشارع ، مع سائر رفاقهما ، ولم يكن عندهم قدر كاف من قذائف الاسواق المدخرة

يمكنهم من الاجابة على ضربات شدق الشعب الهائلة . وتبادلت الاقنعة وافراد الحشد سيلا رهيباً من التعابير المجازية .

وفي الوقت ذاته كان قناعان من اقنعة العربة نفسها : رجل اسباني ضخم الانف ، ذو محيا مسنّ بعض الشيء وشاربين اسودين هائلين ، وامرأة مقذعة اللغة مهزولة – فتاة طرية العود ذات قناع من مخمل أسود – كان هذان القناعان قد لاحظا المحتفلين بالزفاف أيضاً . وفيما كان رفاقهم وعابرو السبيل يتبادلون الاهانات ، دار بينهما حوار في صوت خفيض .

وطغت الضجة على حديثهما المنفرد ، فضاع فيها . كان المطر قد بلل العربة المكشوفة كشفاً كاملاً ؛ إن ريح شباط ليست حارة ، وحتى فيما كانت الفتاة تجيب الاسباني ارتجفت ، في ثوبها الكاشف عن أعلى الصدر ، وضحكت ، وسعلت .

وكان هذا الحوار :

– « قولي ، اذن . »

– « ماذا يا ابي ؟ »

– « هل ترين هذا الرجل العجوز ؟ »

– « اي رجل عجوز؟ »

– « هناك ، في العربة الأولى من عربات العرس الواقفة إلى جانبنا . »

– « الرجل ذو اليد المعلقة برباط عنق أسود ؟ »

– « نعم . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « أنا واثق من انني أعرفه . »

– « آه ! »

– « اود لو ان احداً يحتز حنجرتي وان اكون لم اقل

قط في حيـاتي أنتِ أو أنـا إن كنت لا اعرف هذا البانتيني . * »
— « إن باريس اليوم هي بانتين . »
— « هل تستطيعين ان تري العروس اذا انحنيت قليلاً ؟ »
— « لا . »
— « والعريس ؟ »
— « ليس هناك عريس في تلك العربة . »
— « أشك في ذلك . »
— « إلا اذا كان هو الرجل العجوز الآخر . »
— « انحني جيداً إلى أمام وحاولي ان تري العروس . »
— « لا أستطيع . »
— « على كل حال ، انا واثق من اني أعرف هذا الرّجل المصاب بشيء في يده . »
— « وماذا تفيدك معرفته ؟ »
— « لا احد يدري . أحياناً ! »
— « أما أنـا فـلا ارى متعـة كبيرة فـي العجـائـز مـن الرجـال . »
— « أنا أعرفه ! »
— « إعرفـه على مهلك . »
— « ما الذي جاء به — يا للشيطان ! — إلى العرس ؟ »
— « وها نحن نفسنا فيه أيضاً . »
— « من أين أقبل موكب العرس هذا ؟ »
— « وهل أعرف ؟ »
— « إسمعي . »
— « مـاذا ؟ »

* يقصد الباريسي .

– « يجب أن نصنع شيئاً . »
– « مـاذا ؟ »
– « اخرجي من عربتنا ، واتبعي موكب العرس . »
– « لمـاذا ؟ »
– « لنعرف إلى أين يذهب وما هو . عجلي في الخروج . اركضي ، يا بنيّتي ، فأنت صغيرة . »
– « لا أستطيع ان أغادر العربة . »
– « ولم لا ؟ »
– أنا مستأجَرة . »
– « آه ، يا للشيطان ! »
– « أنا مدينة بيومي هذا لادارة الشرطة . »
– « هذا صحيح . »
– « إذا غادرت العربة ، فان أول شرطيّ يراني يلقي القبض علي . انت تعرف ذلك جيداً . »
– « أجل ، اعرف . »
– « لقد اشترتني الحكومة اليوم . »
– « سيان . إن ذلك العجوز يضجرني . »
– « الرجال العجائز يضجرونك . انت لست مع ذلك فتـاة صغيرة . »
– « إنه في العربة الأولى . »
– « ثم ماذا ؟ »
– « في عربة العروس. »
– « وبعد ؟ »
– « اذن فهو أبوها . »
– « واي شأن لي بذلك ؟ »

— « اقول لك انه ابوها . »

— « ليس هناك أب آخر . »

— « إسمعي . »

— « ماذا ؟ »

— « من ناحيتي ، أنا لا أكاد استطيع الخروج إلا إذا كنت مقنّعاً . أنا مخبوء هنا ؛ ان احداً لا يعرف أني هنا . ولكنْ غداً ، لن تبقى اقنعة . إنه اربعاء الرماد . سوف اعرض نفسي للاعتقال . يجب ان أعود إلى ثقبي . أما انت فطليقة . »

— « ليس إلى حد بعيد . »

— « أكثر مني ، على كل حال . »

— « حسن ، ثم ماذا ؟ »

— « يجب ان تحاولي أن تعرفي إلى أين يذهب موكب العرس هذا . »

— « إلى أين يذهب ؟ »

— « نعم . »

— « أنا اعرف ذلك . »

— « إلى اين يقصد اذن ؟ »

— « إلى الكادران بلو . »

— « قبل كل شيء ، ان الكادران بلو ليس في هذا الاتجاه . »

— « حسن ! إلى لا رابيه . »

— « أو إلى مكان آخر . »

— « إنه حر . الاعراس حرة . »

— « هذا ليس كل شيء . اقول لك ان عليك ان تعرفي لي ما هو هذا العرس ، وإلى من ينتسب هذا العجوز ، واين يسكن أصحاب العرس . »

— « هذا شيء مضحك على الأغلب ! إنه ملائم ان يعثر الانسان ،

بعد ثمانية أيام ، على موكب عرس مر بباريس في ثلاثاء المرفع ! دبوس في مستودع هشيم ! هل هذا ممكن ؟ »

— « مهما يكن ، فأن عليك ان تحاولي . هل سمعت ، يا آزيلما؟»

واستأنف صفّا العربات حركتهما في اتجاهين متعاكسين على جانبي الجادة ، ولم يعد في ميسور عربة الاقنعة ان ترى عربة العروس .

٢

جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه الى صدره

تحقيق الحلم الذي يدغدغ المرء . من الذي أنعِم عليه بذلك ؟ لا شك في ان ثمة انتخابات في السماء تدور حول هـذا الموضوع . اننا جميعاً مرشحون غير واعين ، وإن الملائكة لتقترع . لقد انتُخبت كوزيت وماريوس .

وكانت كوزيت في مقر العمدة وفي الكنيسة ، ساطعة ومؤثرة : كانت توسين ، تساعدها نيقوليت ، قد ألبستها ثياب العرس .

وارتدت كوزيت ، فوق تنورة من نسيج حريري أبيض ، ثوبها المخيط من بريم بينش * ، وحجاباً من تخريم انكلترة ، وعقداً من جواهر رقيقة ، وتاجاً من زهر الليمون . وكان ذلك كله ابيض ، وكانت هي — في هذا البياض — متألقة . كانت سلامةً سريرة طيبةً انبسطت وتحولت إلى سطوع . كان خليقاً بكل من يراها ان يقول انها كانت

* Binche بلدة في بلجيكا .

عذراء على وشك ان تصبح إلاهة .

كان شعر ماريوس الجميل مصقولا معطراً . وههنا وههناك كان في ميسور المرء ان يتبين ، تحت كثافة الغدائر ، خطوطاً شاحبة كانت هي ندوب المتراس .

وكان الجد بهياً ، مرفوع الرأس ، مازجاً في زينته ومسالكه ، اكثر من أي وقت مضى ، كل ما في عصر بارا * ؛ وكان يقود كوزيت . لقد حل محل جان فالجان الذي لم يستطع ان يعطي يده إلى العروس إذ كانت ذراعه مرفوعة إلى صدره .

وتبعهم جان فالجان ، مرتدياً ثوباً أسود ، وابتسم .

وقال له الجد :

— « مسيو فوشلوفان ، هذا يوم سعيد . أنا اعطي صوتي لانهاء الكروب والاحزان . يجب ان لا يبقى ثمة اما حزن في اما مكان ، منذ اليوم . وحق الالـه ! أنا اصدر امري بأن يعم الابتهاج ! ليس للشر حق في أن يكون . إن وجود أناس بائسين هو ، في الحق ، عار على السماء الزرقاء . الشر لا يصدر عن الانسان ، الذي هو — في الواقع — خيّر . إن جميع ضروب الشقاء الانساني حاضرتها وحكومتها المركزية جهنم ، المدعوة بطريقة أخرى « تويلري الشيطان » . حسن . ها أنا ذا اقول كلمات دماغوجية الآن ! أما أنا ، فلم تبق لي اية آراء سياسية . كل ما أطلبه هو أن يكون جميع الناس أغنياء ، يعني ان يكونوا سعداء . »

وبعد أن أتمّا جميع الطقوس ، وبعد أن لفظا أمام العمدة والكاهن كل نعم ممكنة ، وبعد أن وقّعا على سجلات البلدية والسكرستيّا ، وبعد أن تبادلا خاتميهما ، وبعد ان ركعا — ومرفق احدهما

* Barras سياسي فرنسي كان عضواً في المؤتمر الوطني ثم في حكومة الادارة . وقد وضع مذكرات ممتعة . (١٧٥٥ — ١٨٢٩)

إلى مرفق الآخر – تحت النقاب المصنوع من نسيج متموج ابيض ، في دخان المبخرة ، وقد تشابكت يداهما ، وأعجب بهما القوم كلهم وحسدهما القوم كلهم ، وتقدمهما – ماريوس في ثوب أسود ، وهي في ثوب ابيض – الحاجب المزدان بكتافتي كولونيل ، ضارباً الأرض بحربته ، بين سياجين من المشاهدين المنشدهين ، ووصلا إلى باب الكنيسة المفتوح على مصراعيه ، واستعدا لامتطاء متن العربة كرة ثانية وقد انتهى كل شيء – بعد هذا كله لم يكن في ميسور كوزيت ان تصدق ذلك . لقد نظرت إلى ماريوس ، ونظرت إلى الحشد ، ونظرت إلى السماء . لقد بدا وكأنها كانت تخشى اليقظة . وأضفت عليها تلك السيما المندهشة الذاهلة فتنة لا سبيل إلى وصفها . ولكي يعودوا أدراجهم صعدوا إلى العربة نفسها : ماريوس إلى جانب كوزيت ، ومسيو جيلنورمان وجان فالجان تجاههما . كانت العمة جيلنورمان قد تراجعت خطوة واحدة ، فهي تمتطي العربة الثانية . وقال الجد : « يا ولديّ ، ها انتما السيد البارون والسيدة البارونة ، ومعكما ثلاثون الف فرنك في العام . » وانحنت كوزيت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى ماريوس وداعبت أذنه بهذه الهمسة الملائكية : « صحيح اذن . انا أدعى ماريوس . أنا قرينتك . »

وتألق هذان المخلوقان . كانا في اللحظة المحتومة وغير المكتشفة ، في النقطة المُعْشِية التي يتلاقى عندها الشباب كله والبهجة كلها . لقد حققا أبيات جان بروفير . فهما – مجتمعَين – لم يكونا قد بلغا الأربعين من العمر . كان الزواج متسامياً ، وكان هذان الطفلان زنبقتين . ان احدهما لم ير الآخر ؛ لقد تأمل أحدهما الآخر . ورأت كوزيت ماريوس في هالة من نور ، ورأى ماريوس كوزيت فوق مذبح . وفوق ذلك المذبح ، وفي تلك الهالة ، وقد امتزج التمجيدان ، في الخلفية ، على نحو خفيّ ، وراء سحابة بالنسبة إلى كوزيت ، وفي تلألؤ بالنسبة إلى ماريوس ، كان

المثلُ الأعلى ، الشيء الواقعـي ، موعـدُ القبلة والحلم ، وسـادةُ العرس .

إن جميـع الآلام التي ألمـت بهما عاودتهما الآن في نشوة . لقد بدا لهما ان الاحزان ، والارق ، والدموع ، والآلام النفسية المريرة ، والذعر ، واليأس ، وقد أمْست ملاطفات وإشعاعاً ، قد زادت الساعة الفاتنة التي كانت تقترب سحراً على سحر ، وان احزانهما كانت خدماً لا يحصون يشاركون في تزيين فرحتهما . يا للآلام التي تنزل بالانسان في سالفات أيامه ما أحسنها ! لقد أحاط الأسى الماضي سعادتهما الحاضرة بهالة من نور . ان آلام حبهما النفسية المبرحـة قـد انتهت إلى سمو .

كان في هذين النفسين التهللُ عينه ، مظللا باللذة عند ماريوس ، وبالحياء عند كوزيت . وقال أحدهما للاخر في همس : « سوف نذهب ونرى حديقتنا الصغيرة في شارع بلوميه ، كرة اخرى . » كانت ثنيّـات ثوب كوزيت فوق ماريوس .

إن يوماً مثل هذا لهو مزيـج من الحلم واليقين لا سبيل إلى وصفه. إن المرء ليملك ، وإنه ليفرِض . وإن مجال الخيال لا يزال مفتوحـاً امامه . وانها لعـاطفة تمتنع على التعبير ، في ذلك اليوم ، ان يكون المرء في الظهيرة ، وان يفكر بمنتصف الليل . ولقد فاضت بهجة هذين القلبين على الحشد ، وخلعت المسرة على عابري السبيل .

ووقف الناس ، في شارع سان انطوان أمام كنيسة القديس بولس ليروا ، من خلال نافذة العربة ، إلى زهرات البرتقال ترتجف على رأس كوزيت .

ثم انهم رجعوا إلى شارع فتيات كالفير ، إلى بيتهم . وصعـد ماريوس — جنباً إلى جنب مع كوزيت ، مظفَّراً متألقـاً — تلك السلم التي حُمـل عليها محتضراً . وتجمّع الفقراء امام الباب ، وباركوهمـا بعد أن شاركوهما في ما كانا يحملان من مال . وكانت الازهار في كل

مكان . إن المنزل لم يكن اقل عبقاً بالرائحة الزكية من الكنيسة ، فبعد البخور ، جاء دور الورود . وحسبا انهما سمعا اصواتاً تنشد في اللانهاية؛ كان الله في قلبيهما ، وبدا القدر في أعينهما مثل سقف من الكواكب ؛ لقد رأيا فوق رأسيهما وميض شمس مشرقة . وفجأة دقت الساعـة . ونظر ماريوس إلى ذراع كوزيت العارية ، الفاتنة ، وإلى الاشياء الوردية التي لمحها على نحو باهت من خلال الوشي الذي ازدان به النصف الأعلى من ثوبها .وحين رأت كوزيت نظرة ماريوس شاع الدم في وجهها حتى اطراف أذنيها .

كان عدد كبير من اصدقاء اسرة جيلنورمان القدماء قد دُعوا . وتزاحموا حول كوزيت في لهفة . وتنافسوا في دعوتها « السيدة البارونة » .

وكان الضابط ، تيبودول جيلنورمان ، وقـد أمسى الآن رئيسـاً (كابتن) قد وفد من شارتر ، حيث كان مرابطاً مع الحامية ، ليشهد عرس ابن عمه بونميرسي . ولم تعرفه كوزيت .

أما هو ، المتعود ان تراه النساء جميل الطلعة ، فلم يتذكر كوزيت اكثر من تذكره ايما فتاة اخرى .

وقال الجد جيلنورمان في ذات نفسه : « لقد كنت على حق في عدم تصديق حكاية الرمّاح تلك . »

ولم تكن كوزيت في يوم من الأيام اكثر رقة مع جان فالجان . وكانت على تناغم مع الجد جيلنورمان . ففيما كان هو يجسّد البهجة في حكم موجزة وجوامع كلم ، كانت هي تتضوع بالحب والحنان مثل عطر من العطور . السعادة تريد ان يكون الناس جميعاً سعداء .

وارتدّت ، في حديثها مع جان فالجان ، إلى جرْس صوتها الذي كان لها وهي بعد فتاة صغيرة . ولاطفته بابتساماتها .

وكانت مائدة قد مُدت في حجرة الطعام .

والاغراق في الاضاءة من لوازم البهجة الكبيرة . فالسعداء يرفضون

الغسق والظلمة . انهم لا يوافقون على ان يكونوا مظلمين . الليل ، نعم. أما الظلمة ، فلا . فاذا لم يكن ثمة شمس ، فيتعين على المرء ان يصنع شمساً .

كانت حجرة الطعام بوتقة اشياء بهيجة . ففي الوسط . فوق المائدة البيضاء المتألقة ، كانت ثريا من ثريات فينيسيا ذات صفائح مسطحة ، مزدانة بجميع ضروب الطير الملونة ، من زرقاء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وخضراء ، جاثمة وسط الشموع . وحول الثريا كانت شمعدانات مشعّبة ، وفوق الجدار كانت مرايا تزيينية ذات اغصان مثلثة ومخمسة . وكانت المرايا ، والبلور ، والزجاجيات ، وآنية المائدة ، والآنية الصينية ، والخزف المطليّ ، والفخار ، والآنية الذهبية والفضية — كانت كلها تتلألأ وتبتهج . وكانت المسافات التي بين الشمعدانات المشعبة ملأى بباقات الزهر ؛ يعني انه حيث لم يكن ضوء كانت زهرة .

وفي حجرة الانتظار كانت ثلاث كمانات ومزمار تعزف بعض رباعيات هايدن في صوت خفيض .

وجلس جان فالجان على كرسي في حجرة الاستقبال ، خلف الباب ، الذي انطوى مصراعاه عليه على نحو يكاد يخفيه . وقبل بضع لحظات من اتخاذهم مقاعدهم إلى المائدة أقبلت كوزيت ، وكأنما كان ذلك بحافز مفاجيء ، وانحنت له في احترام ، ناشرة ثوبها العرائسي بيديها الاثنتين ، وسألته في نظرة تنضح بالمرح الحنون :

— « أبي ، هل انت راض ؟ »

فقال جان فالجان :

— « نعم ، أنا راض . »

— « حسن ، اذن فاضحك . »

وبدأ جان فالجان يضحك .

وبعد بضع لحظات أعلن باسك ان المائدة قد مدت .

ودخل الضيوف حجرة الطعام ، يتقدمهم مسيو جيلنورمان متأبطاً ذراع كوزيت ، واتخذوا مقاعدهم ، وفقاً للنظام المعين ، حول المائدة .

ووُضع كرسيان كبيران ذوَا أذرع عن يمين العروس وعن يسارها ، الأول لمسيو جيلنورمان ، والثاني لجان فالجان . واتخذ مسيو جيلنورمان مقعده . وظل الكرسي الآخر ذو الذراعين شاغراً .

وبحثت الأعين كلها عن جان فالجان .

إنه لم يكن هناك .

ونادى مسيو جيلنورمان باسك ، وسأله :

— « هل تعرف أين مسيو فوشلوفان ؟ »

فأجاب باسك :

— « السيد ، تماماً . السيد فوشلوفان اخبرني ان اقول لسيدي انه يتألم قليلا من يده العليلة وانه لا يستطيع ان يتناول طعام العشاء مع سيدي البارون وسيدتي البارونة . وانه يرجوهما ان يعذراه ، وانه سوف يرجع غداً صباحاً . لقد مضى منذ لحظة . »

هذا الكرسي الشاغر اوقع القشعريرة ، لحظة ، في عشاء العرس . ولكن إذا كان مسيو فوشلوفان غائباً ، فان مسيو جيلنورمان كان هناك ، ولقد تألق الجد تألق اثنين . لقد أعلن أن مسيو فوشلوفان أحسن صنعاً في مضيّه إلى الفراش باكراً ، اذا كان متألماً ، ولكن ذلك لم يكن غير « خدش » . وكان هذا التصريح كافياً . وإلى هذا ، فأي شأن لزاوية ظلام واحدة في هذا الطوفان من البهجة ؟ كانت كوزيت وماريوس في احدى اللحظات الانانية والمباركة حين لا تكون لنا غير القدرة على رؤية السعادة . ثم إن جيلنورمان خطرت له فكرة . « وحق الاله ، إن هذا الكرسي شاغر . تعال إلى هنا يا ماريوس . ان عمتك ، على الرغم من ان لها حقاً فيه ، سوف تجيز لك ذلك . هذا الكرسي ذو الذراعين لك .

هذا شرعي ، وهذا لطيف . السعيد إلى جانب السعيدة » . تصفيق من ارجاء المائدة جميعاً . وحل ماريوس محل جان فالجان قرب كوزيت . واستقامت الامور على نحو جعل كوزيت ، المحزونة باديء الأمر لغياب جان فالجان ، تشعر آخر الامر بالارتياح لذلك . فمنذ ان امسى ماريوس بديلا من جان فالجان لم يكن في ميسور كوزيت ان تتحسر . لقد وضعت قدمها الصغيرة الناعمة المغلفة بالاطلس الابيض فوق قدم ماريوس .

وما ان احتل ماريوس الكرسي ذا الذراعين حتّى محي مسيو فوشلوفان . ولم يكن ثمة غائب ما . وبعد خمس دقائق كانت المائدة كلها تضحك ، من اقصاها إلى اقصاها ، بكامل حميا النسيان .

وحين جاء دور الحلوى والفاكهة وقف مسيو جيلنورمان ، وفي يده كأس من الشامبانيا نصف مليء حتّى لا تهرقه ارتعاشات سنيه الاثنتين والتسعين ، وشرب نخب العروسين .

وهتف :

— « إنكما لن تفلتا من عظتين . ففي هذا الصباح سمعتما عظة الكاهن ، وفي هذه الليلة سوف تسمعان عظة الجد . أصغيا اليّ ، فلسوف اقدم اليكما نصيحة : تبادلا الحب حتّى العبادة . أنا لن أبني ركاماً من الكلمات المزوقة . إنني أسرع إلى الغاية : كونا سعيدين . ليس في الخليقة من عقلاء غير القماريّ . الفلاسفة يقولون : اقتصدوا في مباهجكم . اما انا فأقول : أطلقا لها العنان . كونا متيمين كالابالسة . كونا مسعورين . الفلاسفة يهذون . اني لاتمنى لو أعيد فلسفتهم إلى حناجرهم . أمن الممكن ان يكون ثمة قدْر اكثر مما ينبغي من العطور ، قدْر اكثر مما ينبغي من الأكمام المنوِّرة ، قدر أكثر مما ينبغي من العنادل المغردة ، قدر أكثر مما ينبغي من الاوراق الخضراء ، قدر أكثر مما ينبغي من الفجر في الحياة ؟

هل يستطيع العاشقان ان يتحابا أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيعان ان يتوادا أكثر مما ينبغي ؟ خذي حذرك ، يا ايستيل ، انت وسيمة اكثر ممـا ينبغي ! وخذ حذرك ، يا نيمورين ، انت جميل اكثر مما ينبغي ! يا للبلاهة النادرة ! هل يستطيع العاشقان ان يفتن احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يلاطف احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يسحر احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع المرء ان يكون متمتعـاً بالحيوية أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع ان يكون سعيداً أكثر مما ينبغي ؟ اقتصدوا في مباهجكم ! آه ، هذا سخيف ! فليسقط الفلاسفة ! التهلل هو الحكمة . تهللوا ! تهللوا ! هل نحن سعداء لاننا صالحون ، ام نحن صالحون لاننا سعداء ؟ هل دعيت الـ « سانسي » باسم « سانسي » لأنها كانت ملكاً لهارلي دو سانسي * أم لأنها كانت تزن مئة وستة (*cent - six*) قراريط ؟ لست ادري شيئاً من ذلك . الشيء المهم هو ان تملك الماسة ، والسعادة . كونا سعيدين من غير مماحكة . أطيعـا الشمس طاعة عمياء . ما هي الشمس ؟ انها الحب . ومن قال الحب فكأنه قال النساء . آه ! آه ! ان ثمة شيئاً واحداً كلي القدرة ؛ إنـه المرأة ، اسألوا ماريوس الديماغوجي هذا أليس هو العبد الـرقيق لهـذه الطاغية المدعوة كوزيت ؟ وبكامل موافقته ، يا له من جبان ! المرأة ! ليس ثمة روبسبيير يستطيع ان يصمد ؛ المرأة تتربع على العرش . انا لم أعد ملكياً باستثناء هذا الضرب من الملكية . ما آدم ؟ إنه مملكة حواء. ليس ثمة عام ١٧٨٩ بالنسبة إلى حواء . كان هناك الصولجان الملـكـي المتوج بزهرة الزنبق ؛ كان هناك الصولجان الامـبراطوري المتـوج بكرة أرضية ؛ كان هناك صولجان شارلمان الذي كان من حديد ؛ كان هناك صولجان لويس الرابع عشر الذي كان من ذهب ، ولكن الثورة

---

* Harley de Sancy رجل دولة فرنسي كان يملك ماسة مشهورة دعيت باسمه (١٥٤٦ - ١٦٢٩).

لوتها كلها بين إبهامها وسبابتها مثل قشتين من تبن لا تساويان دانقين . لقد انتهت تلك الصوالجة جميعاً ؛ لقد تحطمت ؛ إنها على الأرض ؛ لم يبق ثمة صولجان ؛ ولكن أعطوني بعض الثورات على هذا المنديل الصغير الموشى العابق برائحة البتشول ! اود أن أراكم تفعلون . جربوا ! ما الذي يجعله وطيداً ؟ كونه خرقة . آه ، أنتم القرن التاسع عشر ! حسن ، ثم ماذا ؟ نحن القرن الثامن عشر ، ولقد كنا على مثل ما انتم عليه من الحماقة . لا تتخيلوا انكم غيرتم شيئاً كثيراً في الكون لأن هواءكم الأصفر غير المعدي يدعى الكوليرا ؛ ولأن رقصة البوريه تدعى عندكم رقصة الكاشوشا . لا بد انكم في أعماق قلوبكم مقيمون على حب النساء . انا أتحداكم ان تقلعوا عن ذلك . إن هاته الشيطانات هن ملائكتنا . أجل . الحب ، المرأة ، القبلة ، تلك هي الحلقة التي أتحداكم ان تخرجوا منها . أما أنا ، فالحق اني شديد التوق إلى أن أعاود الدخول اليها . اي منكم رأى الكوكب الزهرة (فينوس) ، مغناجةَ الهاوية الكبيرة ، « سيليمين » الاوقيانوس ، ترتفع إلى اللانهاية ، مهدئة كل ما تحتها ، محدقة إلى الامواج مثل امرأة ؟ الاوقيانوس آلسيست * جافية . حسن ، إنه يوبخ عبثاً . وتبرز فينوس ، فهو مضطر إلى أن يبتسم . ان ذلك الوحش ليذعن . نحن كلنا هكذا . غضب ، عاصفة ، رعود ، وزبد حتى السماء . وتدخل المسرح امرأة ، ويطلع كوكب ، فتخر مكباً على وجهك ! كان ماريوس يقاتل ، منذ ستة اشهر ، في الميدان ، اما اليوم فأنه يتزوج . ولقد أحسن صنعاً . اجل ، يا ماريوس ، اجل ، يا كوزيت ، انكما على حق ، ليعش احدكما ، بجسارة ، من أجل الآخر ؛ تبادلا الغزل ، واجعلانا نموت من الغيظ لأننا لا نستطيع ان نفعل قدر ما تستطيعان ؛ ليعبد كل منكما الآخر . إلتقطا بمنقاريكما كل

* Alceste ابنة « بيلياس » وزوجة « آدميت » ، وقد ارتضت الموت انقاذاً لزوجها . ثم ان هرقل ، كما تقول الاسطورة ، دخل الى جهنم لكي يخرجها منها .

ما على الأرض من قش السعادة الصغير ، وابنيا لنفسيكما عشاً مدى الحياة . وحق الالـه ، لأن يكون الانسان عاشقاً ، ولأن يكون معشوقاً، ولأن ينعم بمعجزة كونه غض الأهاب ! لا تتصورا انكما اخترعتما هذا . أنا ، أيضاً ، كانت لي نفس أشبه بضياء القمر . الحب طفل عمره ستة آلاف سنة . الحب يستحق لحية طويلة بيضاء . وميتوشالح ليس غير فتى لا خلاق له أمام كوبيد . ومنذ ستين قرناً والرجل والمرأة يتخلصان من الورطة بتبادل الحب . إن الشيطان ، الذي هو خبث ، شرع يبغض الرجل ؛ والرجل ، الذي هو اشد خبثاً ، شرع يحب المرأة . وبهذه الطريقة عاد على نفسه بخير يفوق ما أنزله به الشيطان من أذى . وهذه الحيلة إنما اكتُشفت في عهد الفردوس الأرضي . ايها الصديقان ، الاختراع عتيق ، ولكنه جديد تماماً ، أفيدا منه . كونا دافنيس وكلوويه * ، في انتظار ان تصبحا فيليمون وبوسيس ** وهكذا تصرّفا بحيث لا يعوزكما ، حين تلتقيان ، شيء البتة ، وبحيث تكون كوزيت هي الشمس لماريوس، ويكون ماريوس هو الكون لكوزيت . كوزيت ، ليكن الجو الجميل ، في نظرك ، ابتسامةَ زوجك . ماريوس ، ليكن مطرك دموعَ زوجتك . واجتهدا ان لا يكون ثمة في منزلكما مطرٌ البتة . لقد سرقتما الرقم الرابح في اليانصيب : زواج الحب . لقد فزتما بالجائزة الكبرى ، فحافظا عليها جيداً . أقفلا عليها ؛ لا تبعثراها ؛ ليعبد كل منكما الآخر ، ولا تهتما بالباقي . صدقا ما أقوله لكما . إنه منطق سليم . والمنطق السليم لا يقوى على الكذب . ليكن احدكما ديناً بالنسبة إلى الآخر . إن لكل امرىء طريقته في عبادة الله . وحق الشيطان ، إن خير طريقة لعبادة الله ان يحب المرء زوجته . انا احبك ؛ ذلك هو تعليمي الديني . وكل من يحب هو

* Daphnis et Chloé بطلا رواية عاطفية ريفية تحمل هذا الاسم .

** Philémon et Baucis زوجان شهيران في الميثولوجيا . وقد اصبح اسماهما رمزاً للحب الزوجي .

مستقيم الرأي . إن تجديف هنري الرابع يضع القداسة بين الشراهة والسكْر . « مذهب البطن الثمل المقدس » . انا لست على دين ذلك التجديف . فالنساء منسيَّة فيه. هذا ما يثير عجبي في ما يتصل بتجديف هنري الرابع . ايها الصديقان ، فلتحي المرأة ! يقولون اني شيخ ؛ ومدهش كيف اشعر اني اعود شاباً من جديد . إني لأحب ان أمضي وأصغي إلى مزامير القرَب في الغابات . وان الاطفال الذين ينعمون بالجمال والسعادة ليفقدونني صوابي . وانه لخليق بي ، انا نفسي ، ان اتزوج إذا ما رغب احد في ذلك . ومن المتعذر علينا ان نتخيل ان الله قد خلقنا لغرض غير هذا : أن نحب ، أن نهدل ، ان نتبرج ، ان نكون حمائم ، ان نكون ديكة ، أن نلتقط حَب غرامنا من الصباح إلى المساء ، أن نفتخر بزوجاتنا الصغيرات ، ان نكون مختالين ، ان نكون مظفرين ، ان نكون متعجرفين ؛ تلك هي غاية الحياة . ذلك ، ولا يسوءكما ما أقول ، ما كنا نعتقده ، نحن العجائز ، في أيامنا حين كنا شباباً . آه ، وحق الشيطان ، كم كان في تلك الحقبة من نساء فاتنات ، ومن وجوه صبيحة ، ومن فتيات صغيرات ! هناك كنت امارس فساد اخلاقي . وإذن فليحب أحدكما الآخر . وإذا لم يحب بعض الناس بعضاً فعندئذ لا أرى أي فائدة من وجود شيء اسمه الربيع. وعندئذ يكون خليقاً بي ان اصلي لله كي يحزم جميع الاشياء التي يرينا اياها ، ويستردها منا ، ويعيد الازهار ، والطيور ، والفتيات الجميلات إلى صندوقه . يا ولديّ ، تقبّلا بركة الرجل العجوز . »

كانت الليلة حية ، بهيجة ، أنيسة . وكانت دماثة الجدّ المهيمنة قد حددت اللحن للحفلة كلها ، ولقد كيّف كل امريء نفسه وفقاً لمحبة الجد القلبية التي يبلغ عمرها قرناً من الزمان أو يكاد . ورقصوا قليلا ، وضحكوا كثيراً . كان عرساً صالحاً طفلياً . ولقد كان خليقاً بهم ان يدْعوا الرجل الطيب القلب « **الماضي** ». والحق انه كان هناك في شخص

الجد جيلنورمان .

كان ثمة صخب ، ثم صمت .

واختفى العروسان .

وبعد منتصف الليل بقليل أمسى منزل مسيو جيلنورمان هيكلا .

وهنا نقف . إن ملاكاً مبتسماً ، واضعاً إصبعه على شفته ، ليقف على عتبة ليالي الأعراس .

وتستغرق الروح في التأمل أمام هذا المعبد ، الذي يُحتفل فيه بعيد الحب .

ينبغي ان يكون ثمة أشعة فوق هذه البيوت . إن الابتهاج الذي تنطوي عليه يجب ان يفر في الضياء من خلال حجارة الجدران ، ويشع على نحو قاتم في الظلمة . ومن المستحيل ان لا يبعث هذا العيد المقدس ، المحتوم، إشعاعاً سماوياً إلى اللانهاية . الحب هو البوتقة السَّنية التي يتم فيها اتحاد الرجل والمرأة . إن الكائن الواحد ، الكائن الثلاثي ، الكائن النهائي، الثالوث البشري لينبثق منه . وولادة هذه النفس الواحدة من نفسين اثنتين لا بد ان توقع في نفس الظلمة اضطرابا . إن المحب كاهن ، وان العذراء المستغرقة في الانخطاف ليصيبها الذعر . وبعض هذا الابتهاج يمضي إلى الله. فحيث يكون زواج صحيح ، يعني حيث يكون الحب ، فهناك يمتزج المثل الاعلى به . إن سرير الزفاف يرسم هالة في الظلام . ولو قد قُيض للعين التي هي من لحم ان ترى المشاهد الرهيبة الساحرة الخاصة بالحياة العليا اذن لرأينا ، في أغلب الظن ، اشكال الليل ، والغرباء المجنحين ، وعابري سبيل اللامنظور الزُّرق ، ينحنون — على هيئة حشد من الرؤوس القاتمة — فوق البيت النيّر ، سعداء ، مباركين ، يدل بعضهم بعضاً على العروس العذراء ، المروَّعة في رفق ، وقد بدا على وجوههم الالـهية انعكاس السعادة البشرية . ولو قُدر ، في تلك الساعة السَّنية ، للعروسين اللذين اصابتهما البهجة بالجهر وظنا نفسيهما منفردين — لو قدر لهما ان

يصغيا ، اذن لسمعا في غرفتهما حفيف اجنحة مضطربة . ان السعـاد الكاملة تنطوي على تماسك الملائكة . وإن ذلك المخدع الصغير الغامض يتخذ من السماء كلها سقفاً له . فحين يقترب فمان ، جعلهما الحـب مقدسين ، ابتغاء الخلق والابداع ، فمن المتعذر ان لا يكون فوق تلك القبلة ، التي لا توصف ، قشعريرة في لغز النجوم الهائل .

تلك هي السعادات الحقيقية . ولا بهجة وراء هذه المباهج . الحب هو وحده الانخطاف الروحي ، وكل ما عداه يبكي .

حسبُ المرء ان يحِب وان يحَب . فـلا يطلبنّ احد شيئاً اكثر . ليس ثمة جوهرة اخرى يمكن ان يُعثر عليها في ثنايا الحياة المظلمة . إن الحب إنجاز .

٣
ممتنعة الانفصال

ما الذي كان قد حل بجان فالجان ؟

فبُعَيْد ضحكه ، نزولا عند طلب كوزيت الرفيق ، ومن غير ان يلاحظه أحد ، كان قد نهض من مقعده ، وانتهى إلى حجرة الاستقبال . كانت هي الحجرة نفسها التي سبق له ان دخلها قبل ثمانية اشهر ، أسـوَد بالوحل ، والدم ، والبارود ، حاملا الحفيد إلى منزل الجد . كـانت ألواح الجدران الخشبية القديمة مكللة بالاوراق والأزهار ؛ وكان الموسيقيون جالسين على المقعد الذي مُدد عليه ماريوس من قبل . وكان باسك يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً قصيراً ، وجوربين ابيضين ، وقفازين ابيضين أيضاً . وكان يرتب تيجان الزهور حول كل من الاطباق التي كانت على وشك أن يُسكب فيها الطعام . وكان جان فالجان قد أراه يده المرفوعة

إلى صدره ، وعهد اليه في ان يفسر للقوم سبب غيابه ، ومضى لسبيله .

كانت نوافذ حجرة الطعام تطل على الشارع . ووقف جان فالجان ، بضع دقائق ، من غير حراك ، في الظلمة ، تحت تلك النوافذ المشعة . واصغى . لقد انتهت اليه اصداء المأدبة المختلطة . ولقد سمع كلمات الجد العالية ، والآمرة ، والحان الكمانات ، وقعقعة الاطباق ، ورنين الكؤوس ، ودويّ الضحك . ومن خلال ذلك الصخب البهيج كله ميّز صوت كوزيت العذب الجذلان .

وغادر شارع بنات كالفير ، ورجع إلى شارع الرجل المسلح .

ولكي يرجع ، اتخذ سبيله من شارع سان لويس ، وشارع « كولتور سانت كاترين » وشارع الـ « بلان مانتو » . كانت تلك الطرق أطول بعض الشيء ولكنها كانت الطريق التي اعتاد طوال ثلاثة اشهر — ابتغاء تجنب العوائق والوحول في شارع « فييْ دو تامبل » — ان يسلكها كل يوم في ذهابه من شارع الرجل المسلح إلى شارع فتيات كالفير ، مع كوزيت .

كانت هذه الطريق التي سارت عليها كوزيت قد نفت عنده كل طريق اخرى .

ورجع جان فالجان إلى منزله . واضاء شمعته وارتقى السلم . كانت الشقة شاغرة . إن توسين نفسها لم تعد هناك . واحدثت خطى جان فالجان ضجة في الغرف اعظم من المألوف . كانت جميع الخزائن مفتوحة . ومضى إلى حجرة كوزيت . لم يكن ثمة أغطية على السرير . كانت الوسادة ، المجردة من غطائها ومن وشيها ، مطروحة على الاغطية المطوية عند قدم الحشية التي بدا قماشها والتي ما كان لأحد أن يرقد فيها بعد . كانت جميع الاشياء الانثوية الصغيرة التي تعلقت بها كوزيت قد نُقلت . لم يبق ثمة غير الاثاث الثقيل والجدران الأربعة . كان فراش

توسين قـد عُري أيضاً . كان سرير واحـد معداً ليس غير ، ولقد بدا وكأنه ينتظر شخصـاً مـا . وكان ذلك السرير هو سرير جـان فالجـان .

ونظر جان فالجان إلى الجدران ، واغلق بعض ابواب الخزائن ، واخذ يروح ويجيء من غرفة إلى اخرى .

ثم انه وجد نفسه كرة ثانية في غرفته ، ووضع شمعتـه علـى الطـاولة .

كان قد أطلق ذراعه من رباطها ، وأنشأ يستعين بيده اليمنى وكأنه ما كان يتألم منها .

واقترب من سريره ، ووقعت عينه – اكان ذلك مصادفة ؟ اكان ذلك عن عمد ؟ – على « ممتنعة الانفصال » التي كانت كوزيت تغار منها ؛ وقعت عينه على صندوق الامتعة ذاك الصغير ، الذي ما كـان يفارقه ابداً . وفي اليوم الرابع من حزيران ، لدن وصوله إلى شـارع الرجل المسلح ، كان قد وضعها على الطاولة المدورة القائمة على عمود في وسطها ، قرب مقدّم سريره . لقد مضى إلى تلك الطاولة في ضرب من الرشاقة ، واخرج من جيبه مفتاحاً ، وفتح الحقيبة .

واخرج منها ، في بطء ، تلك الثياب التي غادرت فيها كوزيت ، قبل عشر سنوات ، مونفيرماي ؛ الثوبَ الصغير الاسود اولا ، ثم منديل العنق الاسود ، ثم الحذاء الضخم الثقيل التي كانت كوزيت عاجزة تقريباً عن انتعاله لشدة صغر قدميها ، ثم الصدرة المصنوعة من نسيج قطني غليظ ، ثم التنورة المسرودة ، ثم المئـزر ذا الجيوب ، ثم الجوربين الصوفيين . وكان هذان الجوربان – اللذان ما يزال منطبعـاً عليهما ، في رفق ، شكل الرِجل الصغيرة – لا يكادان يبلغان طول يـد جان فالجان . وكانت هذه الملابس كلها سوداء ، وكان جان فالجان هو الذي حمل لها تلك الثياب إلى مونفيرماي . حتى إذا أخرجها من الحقيبة ،

وضعها على السرير . كان يفكر . لقد تذكّر . كان ذلك في الشتاء ، في شهر من شهور ديسمبر القارسة ، ولقد ارتعدت نصف عارية في الأسمال ، واحمرت قدماها الصغيرتان البائستان احمراراً كاملا في حذائها الخشبي . وكان هو ، جان فالجان ، قد جردها من تلك الاسمال لكي يلبسها هذا الثوب الحدادي . ولا ريب في أن الأم كانت سعيدة في قبرها لرؤيتها ابنتها مرتدية ثوب الحداد عليها ، وان ترى بخاصة انهـا كانت كاسية ، وانها كانت تنعم بالدفء . وفكر في غابة مونفيرماي تلك . كانا قد اجتازاها معاً ، كوزيت وهو . وفكر في الحالة الجوية ، في الاشجار الجرداء ، في الغابة العاطلة عن الطيور ، في السماء التي لا شمس فيها . سيان ؛ فقد كان ذلك كله فاتناً . ورتب الاشيـاء الصغيرة على السرير : منديلَ العنق إلى جانب التنورة ، والجوربين إلى جـانب الحذاء ، والصدرة إلى جانب الثوب ، وانشأ ينظر اليها واحداً بعد آخر: ان كوزيت لم تكن اطول من هذا المقدار ؛ كانت تحمل دميتها الكبيرة بين ذراعيها ؛ وكانت قد وضعت ليرتها اللويسية الذهبية في جيب هذا المئزر ؛ لقد ضحكت ، ولقد سارا وقد امسك احدهما بذراع الآخر ؛ لم يكن لها غيره في الوجود .

ثم ان رأسه ، الأبيض الجليل ، سقط على السرير ، وتفطّر ذلك القلب العجوز الثّبت ، وغُمر وجهه – إذا جاز التعبير – في ثياب كوزيت : ولو قـد مر احـد بالسلم في تلك اللحظـة اذن لسمـع نحيبـاً رهيبـاً .

٤
جيكور الخالد

ومن جديد ، بدأ الصراع المروِّع القديم ، الذي رأينا عــدداً من وجوهــه .

لقد تصارع يعقوب والملاك ليلة واحدة ليس غير . وا أسفاه ، كم مرة رأينا جان فالجان وقد أمسك به ضميره — جسداً لجسد — وسط الظلام ، فهو يصارع ذلك الضمير على نحو يائس !

صراع لم يُسبق إلى مثله . في بعض اللحظات تزلّ القــدم ، وفــي بعض اللحظات تميد الارض . كم مرةٍ اخذ ذلك الضمير ، المسعور أمام الحق ، بخناقه وطرحه ارضاً ! كم مرةٍ ركزت الحقيقة ، التي لا تعرف الشفقة ، قدمها على صدره ! كم مرةٍ صاح ، وقد طرحه النور ارضاً ، ملتمساً منه الرحمة ! كم مرة ، عمدَ ذلك النور الحقود ، الذي أضرمه الاسقف في ذات نفسه ومن فوقه ، إلى ان يوقع الجهرَ في عينيه كلما رغب في ان يكون اعمى لا يرى ! كم مرةٍ نهض في ذلك الصراع ، مشدوداً إلى الصخر ، متكئاً على السفسطة ، متمرغاً في التراب ، وقــد تمكّن من ان يقهر ضميره حيناً ، وتمكن ضميره من ان يقهره حينــاً آخر ! كم مرة ، بعد كلام مبهم ، بعد تفكير أناني غادر مموّه ، سمع ضميره الهائج يصيــح في اذنه : « زلة ! ايها الشقــي ! » كم مرة حشرج فكره المتمرد حشرجة متشنجة تحت دليل الواجب ! مقاومة الرب . عرَق مــأتمي ! كم جرحٍ خفي استشعر هو وحده انهــا كانت تدمى ! كم خــدش لوجوده البائس ! كم مرة نهض من فراشه دامياً ، مثخناً ، محطماً ، مضاءاً ، يفعم اليأس قلبه وتملأ الطلاقة روحه ! مهزوماً ، شاعراً أنه هو المنتصر . وبعد أن قطّع الضمير أوصاله ،

ومزقه ، وحطمه ، وقف فوقه ، رهيباً ، نيراً ، هادئاً ، وقال له : « والآن ، امض في سلام ! »

ولكن أيّ سلام حدادي هذا الذي واجهه لدن خروجه من ذلك الصراع الكالح إلى هذا الحد ، وا أسفاه !

ومع ذلك ، فقد استشعر جان فالجان أنه كان يخوض ، تلك الليلة ، معركته الأخيرة .

لقد برز له سؤال ممض .

إن التقادير ليست مستقيمة كلها ، انها لا تتكون على صورة شارع مستقيم أمام من كُتبت عليه . انها دروب غير نافذة ، أمعاء معوجة ، منعطفات مظلمة ، مفارق مربكة تتكشف عن طرق متعددة . كان جان فالجان قد وقف في هذه اللحظة عند أخطر تلك المفارق .

كان قد انتهى إلى التمازج الأخير بين الخير والشر . كان ذلك التقاطع المظلم امام عينيه . وهذه المرة أيضاً ، كما قد اتفق له من قبل في أزمان أليمة اخرى ، انفتحت أمامه طريقان اثنتان : الأولى فاتنة ، والثانية راعبة . فأي الطريقين يتعين عليه أن يسلك ؟

لقد نصحه بسلوك الطريق الراعبة ذلك الأصبع الخفي المشير الذي نلمحه ، جميعاً ، كلما ركزنا اعيننا على الظلام .

كان على جان فالجان ان يختار ، كرة اخرى ، بين الملاذ الرهيب ، والشرَك المبتسم .

اذلك صحيح اذن ؟ ان النفس قد تشفى ؛ أما المصير فلا . شيء رهيب ! قدَر عضال !

وكان السؤال الذي واجهه هو هذا :

بأي طريقة يتعين على جان فالجان ان يسلك تجاه سعادة كوزيت وماريوس ؟ هذه السعادة كان هو الذي رغب فيها ، وكان هو الذي صنعها . كان قد أقحمها في فؤاده ، وكان خليقاً ان يستشعر ، في هذه

اللحظة ، وقد نظر اليها ، مثل ارتياح صانع أسلحة يرى طابع مصنعه على مُدية فيما هو يستلها ، وقد خضب الدم جسمه كله ، من صدره .

لقد فازت كوزيت بماريوس ، ولقد امتلك ماريوس كوزيت . كانا يتمتعان بكل شيء ، حتى بالثروة ، وكان ذلك من صنعه .

ولكن ما الذي كان ينبغي ان يفعله ، هو جان فالجان ، بهذه السعادة ، بعد أن تحققت ، وبعد أن أمست هناك ؟ أيفرض نفسه على هذه السعادة ؟ ايعاملها وكأنها مِلك له ؟ لا ريب في ان كوزيت كانت لرجل آخر ؛ ولكن ايتعين عليه ، هو جان فالجان ، ان يحتفظ من كوزيت بكل ما استطاع ان يحتفظ به ؟ أينبغي ان يظل ذلك الضرب من الأب ، الذي يُرى نادراً ولكنه ينعم بالاحترام ، والذي كانه حتى تلك اللحظة ؟ هل يقدّم نفسه ، في هدوء ، إلى منزل كوزيت ؟ هل يحمل ماضيه ، من غير ان يقول كلمة ، إلى هذا المستقبل ؟ هل يمثُل هناك بوصفه صاحب حق ، وهل ينبغي له ان ان يفد ويتخذ مقعده ، محجّباً ، في تلك الدار المتألقة ؟ هل يمسك بأيدي هذين المخلوقين البريئين — فيما هو يبتسم لهما — بيديه الفاجعتين ؟ هل يضع على مساند الحطب الآمنة ، في حجرة استقبال مسيو جيلنورمان ، قدميه اللتين كانتا تجران خنهما ظالمة القانون الشائنة ؟ هل يدخل في مشاركة بالحظوظ مع كوزيت وماريوس ؟ هل يتعين عليه ان يكثّف الظلمة فوق رأسه والسحابة فوق رأسيهما ؟ هل يجعل من نكبته رفيقاً لسعادتهما ؟ هل يظل معتصماً بالصمت ؟ وبكلمة ، ايجوز له ان يكون ، إلى جانب هذين المخلوقين السعيدين ، أبكمَ القدَر المشؤوم ؟

إن علينا ان نكون معوّدين لقاء الاقدار لكي نجروٴ على رفع أعيننا حين تجابهنا بعض المسائل في عريها الرهيب . ان الخير أو الشر ليكمن

وراء علامة الاستفهام القاسية هـذه . ويسأل أبو الهول : « مـا الذي سوف تصنعه ؟ »

وكانت لجان فالجان هذه الألفة مع التجربة . لقد حدق إلى أبي الهول على نحو موصول .

وقلّب المشكلة القاسية على اختلاف وجوهها .

وكانت كوزيت ، ذلك الوجود الفاتن ، هي قارب النجاة في ذلك الغرق . ما الذي ينبغي ان يفعله ؟ ايتشبث بالقارب ، أم يفلته ؟

إذا تشبث بـه نجا من الـكارثة ، وارتفـع كرة اخرى إلى الشمس ، وترك الماء يرشح من ثيابه وشعره ، ونجا ، وعاش .

أما إذا أفلته ؟

فعندئذ ينتهي إلى الهاوية .

وهكذا راح يستشير أفكاره ، في مرارة . أو على الأصح ، يتصارع معها . لقد عصفت في ذات نفسه ثورة ، وانشأ ينقضّ على ارادته حيناً ، وعلى يقينه حيناً آخر .

وكان من حسن حظ جان فالجان أنه استطاع البكاء . لعل ذلك قد أضفى عليه شيئاً من النور . ومع ذلك ، فقد كانت البداءة ضارية . لقد انطلق في صميمه إعصار أشد عنفاً من ذلك الذي كان قد ساقه في وقت مضى إلى آراس . لقد عاوده الماضي وجهاً لوجه مع الحاضر . وقارن ، وانتحب . وما إن فُتح سد الدموع ، حتى تلوّى الرجل اليائس ألمـاً وحسرة .

لقد شعر أنه قد أوقِف .

وأسفاه ! ففـي هذه الملاكمة المستميتة بين انانيتنا وواجبنا ، حين نتراجع هكذا خطوة اثر خطوة أمام مثلنا الأعلى المنيـع ، ذاهلين ، هائجين ، حانقين للاستسلام ، متصارعين مع الارض ، تواقين إلـى امكانية الفرار ، ملتمسين مخرجاً ما — في هذه الملاكمة المستميتة كم تكون

مقاومة الجدار الذي خلفنا مفاجئة ومشؤومة !

إننا نستشعر الظل المقدس يعترض الطريق .

اللامنظور الذي لا يعرف الرحمة ! يا له من فكرة متسلطـة علـى العقـل !

واذن فليس لنا مع الضمير نهاية البتة . فاختر سبيلك ، وفقـه ، يا بروتوس ، واختر سبيلك ، وفقـه ، يا كاتون . إنه – بما هـو الله – لا قرار له . إننا نلقي في هذه البئر عمل حياتنا كلها ، إننا نلقي فيها حظنا ، نلقي فيها ثروتنا ، نلقي فيها نجاحنا ، نلقي فيها حريتنا أو وطننا ، نلقي فيها هناءتنا ، نلقي فيها راحتنا ، نلقي فيها سعادتنا . اكثر ! اكثر ! اكثر ! أفرغ الاناء ! أملِ الجرة ! إن علينا آخـر الأمر ان نلقي فيها فؤادنا .

إن ثمـة في مكان ما من ضباب الجهنمات القديمة مثل هذا البرميل .

اليس يُعذر المرء إذا ما رفض آخر الأمر ؟ هل يستطيع الممتنع على النضوب ان يدّعي شيئاً ؟ اليست السلاسل التي لا نهاية لها فوق القوة البشرية ؟ ومن ذا الذي يلوم ، اذن ، سيسيفوس * أو جان فالجان اذا ما قال : « في هذا كفاية ! »

ان عبودية المادة محدودة بالاحتكاك ؛ أليس ثمة حد لعبودية الروح ؟ إذا كانت الحركة السرمدية مستحيلة فهل يكون التفـانـي السرمـديّ مطلوبـاً ؟

ان الخطوة الأولى ليست شيئاً،الخطوة الاخيرة هي العسيرة . اي شيء كانت قضية شانماتيو إذا ما قورنت بزواج كوزيت وكل ما انطوى عليه ؟ واي شيء كان هذا : الذهاب إلى سجن الاشغال الشاقة ، بالقياس إلى هذا :

* Sisyphe ، في الميثولوجيا ، ابن ايبول Eole وملك كورنث . كان قاسياً شديد الوحشية وقد حكم عليه بعد موته بان يرفع ، في الجحيم ، صخرة ضخمة الى قمة جبل ، ولكن الصخرة كانت ترتد ، كل مرة ، الى الهاوية ...

الدخول في العدم ؟

ايه ايتها الدرجة الأولى من درجات النزول ، كم أنت داكنة ! ايه ايتها الدرجة الثانية كم انت سوداء !

كيف يستطيع ان لا يدير رأسه هذه المرة ؟

الاستشهاد تسام ، تسام قارض . إنه تعذيب يكرس ويرسم . انك قد تقره في الساعة الأولى وتجلس على عرش الحديد الحامي حتى الاحمرار، وتضع على جبينك تاج الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتتلقى الكرة الارضية المصنوعة من الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتأخذ صولجان الحديد الحامي حتى الاحمرار ، ولكن لا يزال عليك ان ترتدي معطف اللهب، افلا يكون ثمة لحظة يثور فيها اللحم المسكين ، ويتنازل فيها المرء عن النكال والتعذيب ؟

واخيراً دخل جان فالجان في سكينة اليأس .

لقد راز ، ولقد فكر ، ولقد تأمل مختلف السبل التي يخيره بينها ذلك الميزان الخفي ، ميزان النور والظلام .

أن يفرض سجن اشغاله الشاقة على هذين الطفلين الفاتنين ، أو أن يستهلك بنفسه غرقه العضال . في ناحية : التضحية بكوزيت ؛ وفي ناحية: التضحية بنفسه .

عند أي حل وقف ؟ ايّ قرار اتخذ ؟ ما كان ، في صميم ذاته ، جوابه الاخير عن طلب القدّر العفيف ؟ ايّ باب اعتزم أن يقرع ؟ اي جانب من حياته وطن النفس على أن يوصد أو يسد ؟ ومن بين جميع هذه الهوى التي لا غور لها ، والتي تحيط به ، ايّ واحدة اختار؟ اي طرف ارتضى ؟ لأي من هذه اللجج حنى رأسه ؟

لقد استمر تفكيره ، الموقع الدوار في الرأس ، طوال الليل .

وظل هناك حتى الفجر ، في الوضع نفسه ، منطوياً طيتين فوق السرير، ساجداً تحت ضخامة القدّر ، ولعله كان مسحوقاً ، وأسفاه ، متشنج

الاصابع ، مبسوط الذراعين على زاوية قائمة ، مثل رجل نُزع عن الصليب وطُرح على وجهه فوق الأرض . لقد ظل اثنتي عشرة ساعة — اثنتي عشرة ساعة طويلة من ساعات ليلة من ليالي الشتاء — مثلوجاً ، من غير ان يرفع رأسه ، ومن غير ان ينبس بكلمة . كان جامداً مثل جثة ، فيما كان فكره يتلوى على الأرض ويطير ، حيناً كالثعبان ، وحيناً كالنسر. ولو رأته عين هكذا من غير حراك اذن لظنته ميتاً . وفجآة ، ارتعش في تشنج ، وقبل فمه ثياب كوزيت ، وكان مسمّراً عليها . وعندئذ كان جديراً بتلك العين ان ترى أنه حي .

اية عين ؟ ما دام جان فالجان وحده ، وما دام احد لم يكن هناك ؟

« العين » التي في الظلام .

الكتاب السابع

آخر قطرة في الكأس

١

الدائرة السابعة والسماء الثامنة

ان اليوم الذي يلي العرس يومٌ تكتنفه العزلة . فنحن نحترم خلوة السعيدين ، ومن هنا فقليلا ما نعوق رقادهما. وصخب الزيارات والتهنئات لا يبدأ إلا في ما بعد . وفي صباح اليوم السابع عشر من شباط كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعض الشيء عندما سمع باسك ، وكان يرتب قاعة الانتظار متأبطاً مئزره ومنفضة غباره ، قرعاً خفيفاً على الباب . إن احداً لم يقرع الجرس ، وهو شيء ينم عن التكتم في يوم كهذا . وفتح باسك الباب ، ورأى مسيو فوشلوفان . وأدخله إلى قاعة

الاستقبال ، التي كانت ما تزال مزدحمة مقلوبة رأساً على عقب ، والتي بدت عليها سيما الميدان الذي شهد مباهج احتفال الليلة الفائتة .

ولاحظ باسك :

— « وحق الالـه ، يا سيدي ، لقد افقنا في ساعة متأخرة . »

وسأله جان فالجان :

— « هل استيقظ سيدك ؟ »

فأجاب باسك :

— « كيف حال ذراع سيدي ؟ »

— « أحسن . هل استيقظ سيدك ؟ »

— « ايهما ؟ القديم أم الجديد ؟ »

— « مسيو بونميرسي . »

فقال باسك متصدراً :

— « سيدي البارون ؟ »

ان المرء ليكون باروناً عند خدمه قبل كل شيء . إن شيئاً من ذلك ينعكس عليهم . فهم يملكون ما يستطيع الفيلسوف ان يدعوه « رشاش اللقب » ، وهم بذلك يعتزون . ولنقل ههنا ، بين معترضتين ، ان ماريوس الجمهوري المناضل ، ولقد اقام الدليل على ذلك ، كان الآن باروناً بالرغم منه . كانت ثورة صغيرة قد نشبت في الاسرة حول هذا اللقب . ففي الوقت الحاضر كان مسيو جيلنورمان هو الذي تشبث به ، وكان ماريوس هو الذي استخف به . ولكن الكولونيل بونميرسي كان قد كتب « ان ابني سوف يحمل لقبي » . وأطاع ماريوس . ثـم ان كوزيت ، التي بدأت المرأة تشرق في أعطافهـا ، كانت تستشعر اعظم الحبور لكونها بارونة .

وكرر باسك :

— « سيدي البارون ؟ سوف اذهب وأرى . سوف اقول له ان

مسيو فوشلوفان هنا . »

— « لا . لا تقل له ذلك . قل إن شخصاً ما ، يسأل ان يتحدث اليه على انفراد ، ولا تذكر له اي اسم . »

فقال باسك :

— « آه ! »

— « أود ان أبادره بمفاجأة . »

فأضاف باسك :

— « آه ! »

معطياً نفسَه آهته الثانية كتفسير لآهته الأولى .

وغادر الحجرة .

وظل جان فالجان منفرداً .

وكانت الفوضى كما قلنا ، تسود حجرة الاستقبال . لقد بدا وكأن المرء كان لا يزال قادراً ، إذا ما ارهف سمعه ، على ان يسمع جلبة العرس الغامضة . كان ثمة مختلف ضروب الازهار ، التي سقطت من الاكاليل ومن القبعات ، على الارض . وكانت الشموع ، التي اشتعلت حتى محاجرها ، قد اضافت إلى بلور الثريات رواسب من شمع . لم تكن قطعة من قطع الاثاث في مكانها . وفي الزوايا ، كانت كل ثلاثة أو اربعة من الكراسي ذوات الاذرع قد تقاربت وشكلت دائرة ، وبدا وكأنها ما تزال تواصل حديثاً ما . وكان مجموع ذلك ضاحكاً . إن ثمة جمالا ما في الأعياد الميتة . لقد كانت هذه الحجرة سعيدة . وعلى تلك الكراسي المختلطة ، وبين هذه الازهار الآخذة في الذبول ، وتحت هذه الاضواء المنطفئة ، كان القوم قد فكروا افكاراً بهيجة . لقد خلفت الشمس الثريا ، ولقد دخلت في بشر إلى حجرة الاستقبال .

وتصرمت بضع دقائق . كان جان فالجان جامداً من غير حراك في النقطة التي تركه باسك فيها . كان شاحباً جداً . وكانت عيناه غائرتين

في محجريها ، بسبب من الأرق ، إلى درجة جعلتهما لا تكادان تبدوان إلا في عسر . وكانت ترين على سترته السوداء تلك التغضنات المرهقة التي تبدو عادة على السترة التي سلخت الليل بطوله . وكان مرفقاه قد ابيضّا بذلك الزغب الناشىء عن دعك القماش . كان جان فالجان ينظر إلى النافذة التي رسمتها الشمس ، عند قدميه ، فوق ارض الحجرة .

وسمع ضجة لدى الباب ، ورفع عينيه .

ودخل ماريوس ، مرفوع الرأس ، باسم الثغر ، مشرق الوجه بنور لا سبيل إلى وصفه ، وضاح الجبين ، مظفّر العين . إنه هو الآخر لم يعرف النوم .

وهتف لدن رؤيته جان فالجان :

— « هذا أنت ، يا ابي ! يا لباسك الأحمق الذي رانت على وجهه سيماء خفية ! ولكنك جئت مبكراً جداً . فلم تنقض على الظهر غير ساعة واحدة . ان كوزيت لا تزال نائمة . »

تلك الكلمة « ابي » يقولها ماريوس لمسيو فوشلوفان كانت تعني : السعادة العظمى . لقد كان ثمة بينهما دائماً ، كما نعرف ، حاجز وبرود وتحفظ ، ثلج للكسر أو للذوبان . كان ماريوس قد انتهى إلى تلك المرحلة من النشوة التي يأخذ الحاجز عندها بالسقوط ، والثلج بالذوبان ، وكان مسيو فوشلوفان بالنسبة اليه ، شأنه بالنسبة إلى كوزيت ، أباً .

وتابع . لقد فاضت الكلمات منه ، وهو ما يميز نهايات الابتهاج الالـهية هذه :

— « ما أعظم سعادتي برؤيتك ! لو كنت تعرف كيف افتقدناك أمس ! صباح الخير ، يا ابي . كيف يدك ؟ أحسن ، أليس كذلك ؟ »

وإذ قنع بالجواب الخيّر الذي قدمه هو نفسه ، مضى يقول :

– « لقد اكثرنا ، كلانا ، من الحديث عنك . إن كوزيت تحبك حباً جماً ! أنت لن تنسى ان غرفتك هنا . نحن لا نريد شارع الرجل المسلح بعد اليوم . لا ، لا نريده بعد اليوم البتة . كيف استطعت ان تذهب وتقطن في شارع مثل ذاك ، شارع مريض ، شارع مدمدم ، شارع بشع ، شارع يقوم عند احد طرفيه حاجز ، حيث تصاب بالبرد ، وحيث لا تستطيع ان تدخل ؟ سوف تأتي ، وتستقر هنا . ولسوف تفعل ذلك اليوم . وإلا نشأ بينك وبين كوزيت نزاع . إنها تعتزم ان تقودنا كلنا من انوفنا ؛ انا احذرك . لقد رأيت غرفتك ؛ إنها جد قريبة إلى غرفتنا، وهي تطل على الحديقة ؛ لقد جعلنا لها قفلا ، وأقمنا السرير ، وكل شيء جاهز . وليس عليك إلا ان تجيء . لقد وضعت كوزيت كرسياً قديماً واسعاً ذا وسادة من مخمل اوترخت إلى جانب سريرك وخاطبته قائلة : «أبسط ذراعيك له . » وكل ربيع يأتي عندليب الى مجموعة شجر الأكاسيا المواجهة لنوافذك . إنك سوف تقع عليه بعد شهر . وعندئذ يكون عشها إلى يسارك ، وعشّنا إلى يمينك . ويغرد لك العندليب ليلا ، وتتحدث كوزيت نهاراً . إن غرفتك قائمة إلى الجنوب تماماً . ولسوف ترتب لك كوزيت كتبك هناك ، « رحلة الكابتن كوك » ، و « رحلة فانكوفيه » ، وسائر أشيائك . وهناك ، في ما اعتقد ، حقيبة صغيرة انت حريص عليها جداً ، ولقد اخترت لهذه زاوية شرف . لقد قهرتَ جدي ، انت تناسبه . انتما سوف تعيشان معاً . هل تعرف الهويست * ؟ انك سوف تأنس إلى جدي إذا عرفت الهويست . ولسوف تصحب كوزيت إلى النزهة يوم أكون غائباً في قصر العدل ، ولسوف تعطيها ذراعك ، كما تعلم ، شأنك في حديقة اللوكسومبورغ ، في ما مضى . لقد عقدنا العزم عقداً مطلقاً على ان نكون سعيدين جداً . وانت جزء من سعادتنا ، أتفهم ، يا أبي ؟ آه ، قل لي ، هل تتناول طعام

* Whist ضرب من لعب الورق .

الصباح معنا اليوم ؟ »

فقال جان فالجان :

— « سيدي ، ان عندي شيئاً واحداً أقوله لك . أنا رجل حُكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة . »

إن حدود الاصوات الحادة المدرَكة يمكن ان يتجاوزها العقل بمثل السهولة التي تتجاوزها فيها الأذن . إن هذه الكلمات « انا رجل حكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة » ، خارجةً من فم مسيو فوشلوفان داخلةً في اذن ماريوس ، إنما ذهبت إلى أبعد من الممكن . ولم يسمع ماريوس . لقد بدا له ان شيئاً قد قيل له اللحظة ؛ ولكنه لم يدر ما هو . لقد وقف فاغر الفم .

ثم انه ادرك ان الرجل الذي يحدثه كان رهيباً . إن الجهَر الذي اصاب عينيه كان قد حجب عنهما ، حتى تلك اللحظة ، ذلك الشحوب الفظيع .

وفك جان فالجان رباط العنق الأسود الذي كان يسند ذراعه ، ونزع القماش الملفوف حول يده ، وعرّى إبهامه ، وأراه لماريوس .

وقال :

— « ان يدي سليمة . »

ونظر ماريوس إلى الابهام :

وتابع جان فالجان :

— « وهي لم تكن غير سليمة في يوم من الايام . »

لم يكن ثمة ، في الواقع ، أيما أثر لجرح .

وواصل جان فالجان :

— « كان من الأفضل ان لا أحضر زفافك . ولقد تغيبت اكثر ما استطعت ان أتغيب . لقد تظاهرت بهذا الجرح لكي لا اقوم بتزوير ، لكي لا أدخِل البُطلان على وثائق الزواج ، لكي أعفى من التوقيع . »

وتلجلج ماريوس :

— « ماذا تريد ان تقول ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « اريد ان اقول انني كنت في سجن الاشغال الشاقة . »

فهتف ماريوس في ذعر :

— « انت تجعلني مخبّلا ! »

وقال جان فالجان :

— « مسيو بونميرسي ، لقد سلخت تسع عشرة سنة في سجن الاشغال الشاقة . بسبب من السرقة . ثم حكم علي بالسجن مدى الحياة . بسبب من السرقة . بسبب من تكرر الجرم . إني في هذه اللحظة هارب من العدالة . »

وكان من غير المجدي ان يرتدّ ماريوس أمام الحقيقة ، ان يرفض الواقعة ، أن يقاوم الدليل ، لقد اضطر إلى الاذعان . وشرع يفهم ؛ وكما يقع دائماً في مثل هذه الاحوال ، فهم ما وراء الحقيقة . لقد استشعر رعدة وميض باطني رهيب . لقد خطرت بباله فكرة جعلته يرتجف . لقد لمح في المستقبل قدراً رهيباً مقدوراً له .

— « قل كل شيء ، قل كل شيء ! انت والد كوزيت . »

وارتد إلى الوراء في سيماء من الذعر لا سبيل إلى وصفها .

ورفع جان فالجان رأسه ، في جلال جعله يبدو وكأنه يرتفع إلى السقف .

— « من الضروري ان تصدقني في هذا ، يا سيدي . على الرغم من ان أيمان امثالنا غير مقبولة في نظر العدالة . »

وهنا اعتصم بالصمت . ثم إنه اضاف ، في ضرب من السلطان المهيمن ، القبريّ ، لافظاً الكلمات في بطء ، ومؤكداً مقاطعها :

— « .... سوف تصدقني . أنا والد كوزيت . أما أمام الله ، فلست

والدها . سيدي البارون بونميرسي ، أنا فلاح من فافيرول . لقد كنت اكسب رزقي من تشذيب الأشجار . إن اسمي ليس فوشلوفان . انـي ادعى جان فالجان . أنا لا أمتّ بنسب إلى كوزيت . اطمئن ! »

وتمتم ماريوس :

— « ومن يثبت ذلك لي ؟ »

— « أنا . ما دمت اقول ذلك . »

وحنى جان فالجان رأسه وكأنه يقسم يميناً . ثم تابـع كلامه قائلا :

— « ايّ صلة تربطني بكوزيت ؟ صلة عابر السبيل . قبل عشر سنوات ، لم اكن أعلم أنها في الوجود . انا أحبها ، هذا صحيح . اننا حين نبلغ سن الشيخوخة نحب الطفلة التي سبق لنا ان رأيناها وهي صغيرة . وحين يبلغ الرجل سناً عالية يحس أنه جد لجميع الأطفال . ان باستطاعتك في ما يخيل الي ان تفترض ان لي شيئاً يشبه الفؤاد . لقد كانت يتيمة . يتيمة من غير أب أو ام . كانت في حاجة الي . ذلك هو السبب الذي من اجله بدأت أحبها . إن الاطفال هم من الضعف بحيث يستطيع ايما امريء ، وحتّى ولو كان رجلا مثلي ، ان يكون لهم حامياً . وقد قمت بهذه المهمة في ما يتصل بكوزيت . ولست احسب ان احداً يستطيـع حقاً ان يدعو هذا الشيء الضئيل جداً عملا صالحاً . ولكن اذا كان هو عملا صالحـاً فاذكر اني انا الذي قمت به . دوّن هذا الظرف المخفّف . إن كوزيت تغادر اليوم حياتي . ان سبيلينا يفترقان . انا لست بقادر على ان اؤدي لها ايما خدمة اضافية ، منذ اليوم . انها مدام بونميرسي . لقد تغير حاميها . ولقد كسبت كوزيت بهذا التغير . كل ذلك حسن . اما الستمئة الف فرنك فانت لم تحدثني عنها ، ولكني استطيـع ان اعرف ما الذي يجول في خاطرك . إنها وديعة . كيف انتهت هذه الوديعة إلى يدي؟ واي أهمية لذلك ؟ انا اسلم الوديعة إلى أهلها . ان شيئاً اكثر من ذلك لا يمكن ان يطلب مني . انا أتم الاعادة بالنص على اسمي الحقيقي .

وهذا شيء يتعلق بي أيضاً . فأنا نفسي ارغب في ان تعرف من أنا . »

ونظر جان فالجان إلى ماريوس في وجهه .

كان كل ما استشعره ماريوس مبلبلا غير متلاحم الاجزاء . إن بعض هبّات القدر لتحدث مثل هذه الامواج في نفوسنا .

لقد عرفنا ، كلنا ، مثل لحظات الاضطراب هذه ، التي يتبدد خلالها كل شيء في ذوات نفوسنا . إننا نقول أول الاشياء التي ترد على ذهننا ، وهي ليست دائماً ، على وجه الضبط ، ما ينبغي ان نقوله . ان ثمة ضروباً من الكشف المفاجيء عن الاسرار لا نستطيع ان نحتملها ، فهي تسكرنا مثل خمر مهلكة . لقد شُدِه ماريوس امام الحالة الجديدة التي كُشفت لعينيه إلى درجة جعلته يخاطب هذا الرجل وكأنه غاضب عليه أو يكاد ، لاعترافه ذاك .

وصاح :

— « ولكن ، لمَ تقول لي ذلك كله ؟ ما الذي يكرهك على ان تفعل ذلك ؟ كان في استطاعتك ان تحتفظ بالسر لنفسك . إن احداً لم يشِ بك ، ولست ملاحقاً او متعقَّباً . ان عندك سبباً يدعوك إلى ان تكشف عن هذا السر ، طوعاً واختياراً . أكمل . هناك شيء آخر . بمناسبة أي شيء تدلي بهذا الاعتراف ؟ بدافع من اي شيء ؟ »

فاجاب جان فالجان ، في صوت خفيض وغائر إلى درجة كانت تجيز للمرء ان يزعم انه كان يتحدث إلى نفسه لا إلى ماريوس :

— « بدافع من اي شيء ؟ حقاً ، بدافع من اي شيء يجيء هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ويقول : انا محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ حسن ، اجل ! الدافع غريب . إنه دافع الشرف . اجل ، إن سوء حظي حبل احمله هنا في قلبي ، فهو يُحكم وثاقي . وحين يبلغ المرء سن الشيخوخة تكون هذه الحبال قوية بخاصة . إن الحياة كلها لتبيد من حولها ، ولكنها تصمد وتقاوم . ولو كنت قادراً على ان اقتلع هذا

الحبل ، ان اقطعه . ان أحل العقدة ، أو أقطعها ، أن أقصد إلى مكان بعيد ، اذن لنجوت ، ولم يكن علي إلا أن امضي لسبيلي . ان ثمة عربات عامة في شارع بولوا ؛ انتما سعيدان ، فلامض لسبيلي . لقد حاولت ان اقطع ذلك الحبل ، لقد شددته ، ولكنه قاوم في ثبات ؛ إنه لم ينقطع ؛ لقد كنت اقتلع قلبي معه . ثم قلت : إني لا استطيع ان احيا بعيداً عن هذا المكان . يجب ان أبقى . اجل ، ولكنك على صواب ، انا مخبول ، فلماذا لا أبقى بكل بساطة ؟ انت تقدم الي غرفة في المنزل . والسيدة بونمبرسي تحبني كثيراً ، وهي تقول لذلك الكرسي ذي الذراعين : ابسط ذراعيك له ، وجدك لا يطمع في اكثر من ان اكون إلى جانبه . فأنا الاثمه ، ولسوف نحيا كلنا معاً ، ونأكل كلنا معاً ، ولسوف أعطي ذراعي لكوزيت ... إلى السيدة بونمبرسي ، عفواً . فانا اقول ذلك بحكم العادة ، ولن يكون لنا غير سقف واحد ، ومائدة واحدة ، ونار واحدة ، وزاوية الموقد نفسها في الشتاء ، والنزهة نفسها في الصيف ، تلك هي البهجة ، تلك هي السعادة ، ذلك هو كل شيء . سوف نحيا كأسرة واحدة ، كأسرة واحدة ! »

وعند هذه الكلمة غدا جان فالجان ضارياً . لقد طوى ذراعيه ، وحدق إلى الأرض ، عند قدميه ، وكأنه كان يود ان يحفر هوة فيها . وغدا صوته ثاقباً على نحو مفاجىء .

— « اسرة واحدة ! لا ، أنا رجل بلا أسرة . أنا لست من اسرتكم. انا لست من اسرة الناس . ففي البيوت التي يكون فيها الناس بين اهليهم اكون انا فضلة زائدة . هناك أسَر ، ولكنها ليست لي . انا البائس : أنا خارج النطاق . هل كان لي اب وأم ؟ أنا أكاد اشك في ذلك . ويوم زوجتُ هذه الطفلة انتهى كل شيء . لقد رأيت انها سعيدة ، وأنها مع الذي أحبت ، وان ثمة عجوزاً صالحاً ، أسرة من ملاكَيْن ، وان جميع المباهج في هذا المنزل ، وان كل شيء

حسن ، قلت لنفسي : لا تدخل . لقد كان في استطاعتي ان اكذب ، هذا صحيح ، ان اخدعكم جميعاً ، ان أظل مسيو فوشلوفان . لقد كان في ميسوري أن اكذب ما كان الكذب من أجلها ، اما وقد أصبح الكذب من أجلي أنا فليس ينبغي لي ذلك . وكان حسبي ان أظل صامتاً ، هذا صحيح ، وعندئذ يستمر كل شيء . انت تسألني ما الذي يكرهني على الكلام ؟ شيء غريب : ضميري . لقد كان من اليسير جداً ، على اية حال ، أن اظل صامتاً . ولقد سلخت الليل وانا احاول إقناع نفسي بذلك . انت تطلب مني اعترافاً ، وما جئت لاخبرك به هو من الغرابة بحيث يكون من حقك ان توجه الي هذا الطلب . اجل ، لقد سلخت الليل وانا اقدم إلى نفسي اعذاراً ، ولقد قدمت اليها اعذاراً جيدة جداً ، لقد بذلت جهدي ، ولكن على غير طائل . بيد أنه كان ثمة شيئان لم أوفق اليهما . أنا لم اوفق لا إلى قطع الحبل الذي يجعل فؤادي مثبّتاً ، مسمّراً ، مرسّخاً هنا ، ولا إلى إخراس ذلك الذي يتحدث الي في صمت حين اخلو إلى نفسي . وذلك هو الذي يجعلني اجيء واعترف لك بكل شيء هذا الصباح . بكل شيء ، أو بكل شيء تقريباً . فمن غير المجدي ان اخبرك بما يهمني أنا وحدي . إني احتفظ بذلك لنفسي . الشيء الاساسي انت تعرفه . وهكذا أخذت لغزي ، وحملته اليك . ولقد بقرتُ سري امام عينيك . ولم يكن ذلك قراراً يسهل اتخاذه . فطوال الليل كنت في صراع مع نفسي . آه ، انت تحسب اني لم أقل لنفسي ان هذه القضية لا تشبه قضية شانماتيو . واني باخفائي اسمي لا اؤذي احداً ، وان اسم فوشلوفان قد اعطاني اياه فوشلوفان نفسه عرفاناً منه لجميل أسديته اليه ، وان في ميسوري ان احتفظ به ، واني سوف اكون سعيداً في هذه الغرفة التي تقدمها الي ، واني لن اتدخل في شيء ، واني سوف اكون منتحياً زاوية صغيرة ، وانه فيما تمتلك انت كوزيت ينبغي ان تراودني فكرة البقاء معها في البيت نفسه . وعندئذ كان خليقاً بكل

مريء ان ينعم بنصيبه الحق من السعادة . كان الاستمرار في انتحال شخصية فوشلوفان جديراً بأن يسوي كل شيء . اجل ، ما عدا روحي . كان ثمة بهجة تحيط بي من كل جانب ، ولكن اعماق نفسي كانت لا تزال سوداء . ليس يكفي المرء ان يكون سعيداً ، إن علينا ان نكون راضين عن أنفسنا . ولو اني بقيت مسيو فوشلوفان اذن لكنت اخفي وجهي الحقيقي ؛ اذن لكنت ، في حضرة جذلكم ، احمل لغزاً ؛ اذن لكنت ظلمة في وضح نهاركم ؛ اذن لكنت ادخلت سجن الاشغال الشاقة إلى منزلكم من غير أن أطلق كلمة التحذير في صراحة ؛ اذن لجلست إلى مائدتكم وأنا افكر بانكم لو عرفتم من أنا لطردتموني من هنا ؛ اذن لاجزت لنفسي ان يقدم الي الطعام خدم لو عرفوا لقالوا : يا للهول ! ، اذن لكنت لمستك بمرفقي الذي يحق لك ان تشمئز منه ؛ اذن لكت اختلست جُمع كفك ! لو فعلت ، اذن لكان في منزلكم قسمة للاحترام بين شعر أبيض جليل ، وشعر أبيض يلفّه العار . وفي لحظاتكم الاكثر حميمية ، حين تحسب قلوبكم كلها ان بعضها منفتح لبعضها الآخر حتى الاعماق ، وحين نكون اربعتنا معاً ، جدك ، وانتما الاثنان ، وأنا ، فعندئذ يكون ثمة رجل غريب مجهول . لو فعلت ، اذن لكنت جنباً إلى جنب معكم في وجودكم وليس لي غير همّ واحد هو أن لا أزيح غطاء بئري الفظيعة ابداً . وهكذا اكون أنا ، انا الرجل الميت ، قد فرضت نفسي عليكم ، انتم الأحياء . وعندئذ اكون قد قسرتها على الارتباط بي إلى الأبد . وعندئذ تصبح انت ، وكوزيت ، وأنا ثلاثة رؤوس في قلنسوة خضراء ! ألا ترتعد ؟ أنا لست الآن إلا أكثر الناس بؤساً ، ولو احتفظت بشخصيتي المنتحلة اذن لأصبحت اكثر الناس فظاعة . واذن لتعيّن علي ان ارتكب هذه الجريمة كل يوم ! واذن لتعيّن علي ان اكذب هذه الكذبة كل يوم ! واذن لتعين علي ان احمل وجه الليل هذا كل يوم ! واذن لكنت قدمت اليكم نصيبكم من عاري كل يوم !

كل يوم ! اليكم انتم ، يا أحبتي ، انتم ، يا اولادي ، انتم ياابريائي! الاحتفاظ بالسكينة هين ؟ الاعتصام بالصمت بسيط ؟ لا ، انه ليس هيناً ولا بسيطاً . إن ثمة صمتاً يكذب . ولو قد لجأت إلى الصمت اذن لتجرعت كذبي ، وخداعي ، وخزيي ، وجبني ، وخيانتي ، وجريمتي ، قطرة قطرة ، واذن لتعين علي ان ابصقها ، ثم اتجرعها من جديد ، واذن لانتهيت في منتصف الليل وبدأت من جديد عند الظهيرة ، واذن لكانت تحيتي التي أطلقها في الصباح كاذبة ، وتحيتي التي اطلقها في المساء كاذبة ، واذن لكنت انام عليها ، وآكلها مع خبزي ، واذن لنظرت إلى كوزيت في وجهها وأجبت عن ابتسامة الملاك بابتسامة الملعون ، واذن لكنت مداجياً مرذولا ! ولمَ افعل ذلك ؟ لكي اكون سعيداً ! وهل لي ، أنا ، الحق في ان اكون سعيداً ؟ أنا خارجَ الحياة ، يا سيدي . »

وكفَّ جان فالجان عن الكلام . واصغى ماريوس . مثل هذه السلسلة من الافكار والآلام النفسية المبرحة لا يمكن ان تقاطع . وخفض جان فالجان صوته من جديد ، ولكنه لم يعد ذلك الصوت الغائر ، لقد أمسى صوتاً مشؤوماً :

— « أنت تسأل لماذا أتكلم . أنت تقول ان احداً لم يش بي ، واني لست مطارداً ولا متعقباً . اجل ! لقد وُشي بي ! اجل ! أنا مطارد ! اجل ! أنا متعقب ! ممن ؟ من نفسي . اني انا نفسي الذي اوصد الطريق في وجه نفسي ، وانا اجرّ نفسي ، وانا أدفع نفسي ، وانا اوقِف نفسي ، وأنا أعدِم نفسي . وحين يكون قياد المرء في يده هو يكون قياده ذاك في يد أمينة . »

وأمسك بسترته هو بيده المطبقة في إحكام وقال وهو يسحبها نحو ماريوس :

— « انظر إلى هذه اليد الآن . ألا ترى أنها تمسك برقبة هذه

السّرة على نحو لا سبيل إلى الافلات معه ؟ حسن ، ان الضمير لا يعدو ان يكون قبضة يـد أخرى ! إذا اردنا ان نكون سعداء ، يا سيدي ، فينبغي أن لا نفهم الواجب ابداً ، إذ ما إن نفهمه حتّى يمسي حقوداً . وقد نستطيع القول انه يعاقبك لفهمك اياه . ولكن لا ، انه يكافئك على هذا ، ذلك بأنه يضعك في جحيم تستشعر فيه ان الله إلى جانبك . وما إن يتمزق فؤادك حتى يُعقد الصلح بينك وبين ذاتك . »

وفي توكيد مرير أضاف :

— « مسيو بونميرسي ، هذا ليس منطقاً عاقلا ، ولكني رجل مستقيم. إني بتحقيري لنفسي في عينيك أرفع من قدرها في عيني . ولقد حدث لي ذلك مرة من قبل ، ولكنه كان أقل إيلاماً ، آنذاك ؛ انه لم يكن شيئاً . أجل ، رجل مستقيم . وما كنت لأكون رجلا مستقيماً لو أقمتَ بسبب من خطأي ، على احترامي . اما الآن ، وقد أصبحت تحتقرني ، فاني رجل مستقيم . لقد كتب عليّ هذا القدَر : لما كنت عاجزاً إلى الابد عن الفوز باكثر من الاحترام المسروق فأن ذلك الاحترام يذلني ويرهقني باطنياً ؛ ولكي احترم نفسي يتعين علي ان اكون موضع الازدراء . ثم إني تصدرت . انا عبد رقيق من ارقاء الاشغال الشاقة يطيع ضميره . إني اعرف جيداً ان هذا بعيد الاحتمال . ولكن ما الذي تريدني ان افعله ؟ إن الامر لكذلك . لقد اخذت عهوداً على نفسي، واني لأفي بها . إن ثمة احداثاً تقيدنا ، إن ثمة مصادفات تقودنا إلى واجبات . اترى ، يا مسيو ماريوس ، لقد وقعت لي في حياتي أحداث . »

وتمهل جان فالجان كرة اخرى ، بالعاً ريقه في عسر ، وكأنما كانت لكلماته خُلفة مريرة ، ثم استأنف الكلام :

— « حين يكون المرء مثقلا بمثل هذا الهول فليس يملك الحق في ان يجعل الآخرين يشاركونه إياه من غير علمهم ؛ ليس له الحق في ان

يعذبهم بطاعونه ؛ ليس له الحق في ان يجعلهم ينزلقون إلى هاويته من غير ان يحذرهم منها ؛ ليس له الحق في ان يترك قلنسوته الحمراء تنسحب فوق رؤوسهم ؛ ليس له الحق في ان يزعج سعادة الآخرين ، على نحو أمراء ، بشقائه هو . ان اقترابك من السالمين ومسّك اياهم ، في الظلام ، بقرحتك اللامنظورة شيء رهيب . لقد أعارني فوشلوفان اسمه عبثاً ؛ أنا لم يكن لي الحق في ان أفيد منه . كان في استطاعته ان يعطيني اياه ، ولكن لم يكن في استطاعتي ان آخذه . ان الاسم هو الأنا . اجـل ، يا سيدي ، لقد فكرت بعض الشيء ، ولقد طالعت بعض الشيء ، على الرغم من انني فلاح ، وانت ترى انني اعبر عن نفسي على نحو مقبول: أنا اكوّن فكرتي الخاصة عن الاشياء . ولقد زودت نفسي بثقافة خاصة بي . اجل ، إن اختلاس اسم ما والاختباء تحته عمل غير شريف . إن احرف الابجدية يمكن ان تُسرق مثل حافظة نقود أو ساعة سـواء بسـواء . أن تكون امضاء مزوراً بلحم ودم ، أن تكون مفتاحاً مقلداً حياً ، أن تدخل إلى بيوت الشرفاء من الناس بتزوير أقفالهم ، أن لا تنظر بعد اليوم البتة ، بل ان تنظر بحوَل ، ان تكون شائناً في قرارة نفسك ، لا ! لا ! لا ! من الافضل ان تتألم ، أن تدمى ، ان تبكي ، أن تنتزع الجلد بالاظافر عن اللحم ، ان تسلخ الليالي بالتلوي ألمـاً ، بالوجـع النفسي المرير ، أن تبلى جسداً وروحاً . هذا هو السبب الذي حملني على ان اجيء واخبرك بهذا كله . انني افعل ذلك بمجرد طوعي واختياري ، كما تقول . »

وتنفس في صعوبة ، وقذف هذه الكلمة الاخيرة :

— « لكي أعيش ، سرقت ذات يوم رغيفاً . واليوم ، لكي اعيش، لا اريد ان اسرق اسماً . »

فقاطعه ماريوس :

— « لكي تعيش ! انت في غير ما حاجة إلى ذلك الاسم لـكي

تعيش ! »

فأجابه جان فالجان وهو يرفع رأسه ويخفضه عدة مـــرات علـــى التعـــاقب :

— « آه ، لقد فهمت . »

وران السكوت . لقد اعتصم كل منهما بالصمت ، لقد غرق كل منهما في هاوية من الافكار. وكان ماريوس قدجلس إلى جانب احدى الطاولات، وكان يسند زاوية فمه على احدى أصابعه الملوية . وكان جان فالجان يذرع الحجرة جيئة وذهوباً . ثم انه وقف أمام احدى المرايا وظل جـــامداً من غير حراك . واخيراً قال ، ناظراً إلى تلك المرآة التي لم ير فيهـــا نفسه ، وكأنما كان يجيب عن حجة باطنية :

— « على حين أنني ، في الوقت الحـــاضر ، استشعر الراحـــة والعـــزاء . »

واستأنف سيره ، ومضى إلى الطرف الآخر من حجرة الاستقبال . ولم يكد يستدير حتى لمح ان ماريوس كان يراقب سيره . وقال له في نبرة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— « انا اجر احدى قدمي بعض الشيء . انت تعرف سبب ذلـــك الآ ن . »

ثم استدار نحو ماريوس :

— « والآ ن ، يا سيدي ، تصور هذا : أنني لم أقل شيئاً ، أنني ظللت مسيو فوشلوفان ، أنني أخذت مكاني في بيتكم ، انني واحـــد منكم . انني في غرفتي ، انني أجيء لتناول طعام الصباح في مباذلي ، اننا نذهب ثلاثتنا عند هبوط الليل إلى المسرح ، انني اصحب السيـــدة بونميرسي إلى التويلري وإلى القصر الملكي ، واننا كلنا معاً ، وانكـــم تحسبونني نظيراً لكم . وفيما اكون ذات يوم هناك ، وفيما تكونون انتم هناك ، وفيما نحن نتحدث ، وفيما نحن نضحك ، تسمعون صوتاً يصيح

بهذا الاسم : جان فالجان ! وترون تلك اليد الرهيبة ، البوليس ، تنبثق من الظلام وتنزع القناع فجأة عن وجهي ! »

وكف عن الكلام كرة اخرى . كان ماريوس قد نهض في رعدة : واستأنف جان فالجان حديثه :

— « ما قولك ؟ »

وكان صمت ماريوس جواباً .

واضاف جان فالجان :

— « انت ترى جيداً اني على حق في عدم الاعتصام بالصمت . امض، كن سعيداً ، كن في الفردوس ، كن ملاكاً لملاك . كن مغموراً باشعة الشمس ، وكن راضياً بذلك . ولا تزعج نفسك بالطريقة التي يصطنعها رجل هالك مسكين لكي يفتح صدره ويؤدي واجبه . ان أمامك رجلا بائساً ، يا سيدي . »

وعبر ماريوس حجرة الاستقبال في تؤدة ، حتى إذا أمسى على مقربة من جان فالجان بسط يده له .

ولكن كان على ماريوس ان يأخذ تلك اليد التي لم تعرض نفسها ؛ إن جان فالجان لم يمانع ، ولقد بدا لماريوس انه يصافح يداً من رخام .

وقال ماريوس :

— « ان لجدي اصدقاء . ولسوف احصل لك على العفو . »

فأجاب جان فالجان :

— « لا فائدة . إنهم يحسبونني ميتاً ، وهذا كاف . الأموات غير خاضعين للمراقبة . إن من المفروض ان تصيبهم العفونة في سكينة . الموت صنو العفو . »

وسحب يده من يد ماريوس المتشبثة بها ، وأضاف في ضرب من الوقار الذي لا يعرف الرحمة :

— « وإلى هذا فأن قيامي بواجبي هو الصديق الذي افزع اليه . وأنا

في غير ما حاجة إلا إلى عفو واحد ، هو عفو ضميري . »

وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب في رفق عند الطرف الآخر من حجرة الاستقبال . وأطل رأس كوزيت . انهما لم يريا غير وجهها العذب؛ كان شعرها أشعث على نحو فاتن، وكانت عيناها ما تزالان متورمتين بالرقاد. وأطلقت حركة اشبه بحركة طائر يخرج رأسه من عشه ، ونظرت أولا إلى زوجها ، ثم إلى جان فالجان ، وخاطبتهما ضاحكة ، حتى لقد كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى ابتسامة في اعماق وردة :

— « انا اراهن انكم تتحدثون في السياسة . يا للحماقة ! بدلا من ان تكونوا معي ! »

وارتعد جان فالجان .

وتلجلج ماريوس :

— « كوزيت ! »

ثم سكت . ولو قد رآهما امرؤ لحسب أنهما مجرمان .

وواصلت كوزيت ، متألقة ، النظر اليهما جميعاً . كان مرح الجنة في عينيها :

وقالت :

— « لقد قبضت عليكما متلبسين بالجرم المشهود . لقد سمعت اللحظة من خلال الباب ، ابي فوشلوفان يقول : « الضمير ... أداء الواجب...» هذه سياسة ، هذه . انا لا اريدها ، ما كان ينبغي لكما ان تتحدثا في السياسة في مثل هذا اليوم . هذا شيء لا يجوز . »

فأجاب ماريوس :

— « انت مخطئة ، يا كوزيت . نحن نتحدث في التجارة . اننا نتدارس افضل الطرق لتوظيف فرنكاتك الستمئة الف .... »

فقاطعته كوزيت :

— « هذا ليس كل شيء . أنا آتية . هل ترغبان في وجودي هنا ؟ »

واجتازت الباب في عزم ، ودخلت إلى حجرة الاستقبال : كانت ترتدي ثوباً صباحياً أبيض فضفاضاً ، ذا ألف ثنية ، وذا ردنين عريضين ؛ ثوباً يبتدىء من العنق ويهبط حتى القدمين . إن في السماوات الذهبية التي نقع عليها في اللوحات القوطية القديمة مثل هذه الاثواب الفاتنـة يرتديها الملائكة .

ورأت نفسها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين في مرآة ضخمة ، ثم هتفت في تفجّر نشوة روحية تمتنع على الوصف :

— « كان في غابر الزمان ملك وملكة : أوه ، ما أشد سعادتي ! »

قالت ذلك ، وحنت رأسها احتراماً لماريوس ولجان فالجان .

واضافت :

— « ها أنا ذا أستقر ، بالقرب منكما ، على كرسي ذي ذراعين . سوف نتناول طعام الفطور بعد نصف ساعة ، وعندئذ تقولان كل ما ترغبان في قوله . أنا اعرف جيداً ان الرجال يجب ان يتكلموا ، ولسوف اكون عاقلة جداً . »

وامسك ماريوس بذراعها وقال لها في حب :

— « نحن نتحدث في مسائل تجارية : »

فأجابت كوزيت :

— « بالمناسبة ، لقد فتحت نافذتي فوجدت مجموعة كبيرة مـن الـ pierrots (عصافير الدوري أو الاقنعة) في الحديقة . عصـافير أعني ، لا أقنعة . اليوم اربعاء الرماد ، ولكن ليس للطيور : »

— « اقول لك انا نتحدث في مسائل تجارية ؛ اذهبي ، يا حبيبتي كوزيت : دعينا لحظة . نحن نتحدث حول الارقام . إن ذلك سوف يتعبك . »

— « لقد لبستَ رباط عنق فاتناً ، هذا الصباح ، يا ماريوس . انت تحب الزينة كثيراً ، يا مولاي . ان ذلك لن يتعبني . »

— « اؤكد لك انه سوف يتعبك . »

— « لا . لأنك أنت . انا لن افهمكما ، ولكني سوف أصغي اليكما . فحين نسمع اصواتاً نحبها نكون في غير حاجة إلى ان نفهم الكلمات التي تقولها . ان اجتماعي بكما ، هنا ، هو كل ما اريده . سوف ابقى معكما ، أجل سوف ابقى ! »

— « انت كوزيت حبيبتي ! مستحيل. »

— « مستحيل ! »

— « نعم . »

فأجابت كوزيت :

— « حسن جداً ، كنت جديرة بأن اقدم اليك الاخبار . كنت جديرة بان اخبرك ان جدي لا يزال نائماً ، أن عمتك تشهد القداس ، ان الموقد في غرفة ابي فوشلوفان يتسرب منه الدخان ، ان نيقوليت قد استدعت منظف المداخن ، وان توسين ونيقوليت قد اخذتا تتشاجران منذ اليوم ، وان نيقوليت تسخر من تلجلج توسين . حسن ، انك لن تعرف شيئاً . آه ، هذا مستحيل ؟ انا بدوري — كما سترى — يا سيدي، سوف اقول : هذا مستحيل . وعندئذ من الذي يقع في الشرك؟اتوسل اليك ، يا حبيبي ماريوس ، دعني أبقى هنا معكما . »

— « اقسم لك ان علينا ان نبقى وحدنا . »

— « حسن ، وهل انا شخص ما ؟ »

ولم ينطق جان فالجان بكلمة . والتفتت كوزيت اليه وقالت :

— « قبل كل شيء ، اريد منك ، يا أبي ، ان تجيء وتقبّلني . ما الذي تفعله هنا هكذا صامتاً لا تنطق بكلمة ، بدلا من ان تؤيدني ؟ من الذي أعطاني أباً مثل هذا ؟ انت ترى في وضوح اني تعيسة جداً في حياتي المنزلية . ان زوجي يضربني . تعال ، قبلني في الحال . »

وتقدم جان فالجان .
واستدارت كوزيت نحو ماريوس .
– « أما أنت ، يا سيدي ، فاني امد لساني اليك . »
وقدمت جبينها إلى جان فالجان .
وخطا جان فالجان في اتجاهها خطوة .
وارتدت كوزيت .
– « ابي ، انت شاحب الوجه : هل تؤلمك ذراعك ؟ »
فقال جان فالجان :
– « لقد شُفِيتُ . »
– « هل أرقت الليلة البارحة ؟ »
– « لا . »
– « هل انت حزين ؟ »
– « لا . »
– « قبلني . اذا كنتَ في صحة جيدة ، اذا كنت قد نمت نوماً عميقاً ، واذا كنت سعيداً فلن اعنّفك . »
وقدمت له جبينها كرة اخرى .
وقبّل جان فالجان ذلك الجبين الذي كان يطفو فوقه انعكاس سماوي .
– « إبتسمْ : »
وأطاع جان فالجان . كانت ابتسامة شبح .
– « والآن انتصِرْ لي على زوجي . »
فقال ماريوس :
– « كوزيت ! ... »
– « إغضب ، يا أبي . قل له إني يجب ان أبقى . في استطاعتكما من غير شك أن تتحدثا أمامي . واذن ، فانّما تحسبان انني بلهاء جداً .

واذن ، فأنه لعجيب جداً هذا الذي تقولانه ! تجارة ، وضعُ مـال في مصرف ، هذه مسألة خطيرة . الرجال يتظاهرون بالتكتم لغير داع . اريد ان ابقـى . أنا جميلة جداً هذا الصباح . أنظر الي ، يا ماريوس ! »

وفي هزة كتفين فاتنة ، وفي إظهار للاستياء رائع إلى حد يكاد يمتنع على الوصف ، نظرت إلى ماريوس . فكأن برقاً سرى بين هذين الكائنين. ولم يهمهما ان يكون في الحجرة شخص آخر .

وقال ماريوس :

— « احبك ! »

وقالت كوزيت :

— « اعبدك ! »

وارتمى احدهما ، برغمه ، بين ذراعي الآخر .

ثم ان كوزيت استأنفت كلامها ، معدلة احدى طيات ثوبها ، مطيلة شفتيها على نحو مظفَّر :

— « سوف أبقى . »

فأجاب ماريوس ، في نبرة متوسلة :

— « لا . لا . إن عندنا شيئاً ينبغي أن ننجزه . »

— « ألا تزال تقول لا ؟ »

واصطنع ماريوس نبرة وقوراً :

— « أؤكد لك ، يا كوزيت ، ان هذا مستحيل . »

— « آه ، انت تتكلم بلهجة الرجال ، يا سيدي . حسن جداً ، سوف اذهب . وانت يا ابي ، انك لم تنتصر لي . سيدي الوالد ، سيدي الزوج ، انتما طاغيتان . سوف اشكوكما إلى جدي . إذا كنتما تحسبان أنني سأعود وأخوض معكما فى شيء من الهراء تكونان مخطئين . أنا فخور . سوف انتظركما الآن . ولسوف تريان انكما انتما اللذان ستتعبان بدوني . أنا ذاهبة ، حسن جداً . »

ومضت لسبيلها .

وبعد ثانيتين فتح الباب من جديد ، واطل وجهها كرة اخرى من بين مصراعيه ، وصاحت قائلة لهما :

– « أنا غاضبة جداً . »

وأغلق الباب ثانية ، وعادت الظلمة .

كانت اشبه بشعاع تائه اخترق الليل فجأة من غير ان يتوقعه احد .

وتثبّت ماريوس من ان الباب محكم الايصاد .

وغمغم :

– « مسكينة كوزيت ! حين تعلم ... »

وعند هذه الكلمات ارتعدت اوصال جان فالجان كلها . وسدد إلى ماريوس عيناً مشدوهة .

– « كوزيت ! آه ، اجل ، هذا صحيح ، انت سوف تخبر كوزيت بهذا . قف ، أنا لم افكر في ذلك . ان لنا القوة على شيء ما ، ولكن ليست لنا القوة على شيء آخر . سيدي ، انا اتضرع اليك ، أنا اتوسل اليك ، يا سيدي ، ان تعاهدني باقدس ما عندك ان لا تعلمها بذلك . اليس يكفي ان تعرفه انت ؟ إن في استطاعتي ان اقول ذلك بطوعي من غير ان اكون مكرهاً عليه ، وان أعلنه على الكون ، على الناس جميعاً ، فليس في هذا ما يضيرني . ولكن هي ، إنها لا تعرف ما ذاك ، ان ذلك خليق به ان يروعها . محكوم بالاشغال الشاقة ، ماذا ! سوف يتعين عليك ان تشرح ذلك لها ، ان تقول لها : إنه رجل كان حبيساً في سجن الاشغال الشاقة . لقد رأت قافلة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ذات يوم . اوه ، يا الـهي ! »

وارتمى في احد الكراسي ذوات الذراعين ، وحجب وجهه بكلتا يديه . لم يكن في ميسور المرء ان يسمعه ، ولكن كان في ميسوره ان يرى ، من اهتزاز منكبيه ، انه كان يبكي . ان الدموع الصامتة دموع

فظيعة .

إن ثمة اختناقاً في النحيب . واستبد به ضرب من التشنج ، وانقلب على ظهر الكرسي ذي الذراعين وكأنه كان يلتمس النفس ، تاركاً ذراعيه تتدليان ، ومجيزاً لماريوس ان يرى وجهه مغسولا بالعبرات . وسمعه ماريوس يغمغم في جرس خفيض إلى درجة بدا معها وكأن صوته ينبعث من عمق لا قرار له : « أوه ، ليتني أموت ! »

فقال ماريوس :

— « كن هادئاً ؛ سوف أحتفظ بسرك ولن أطلع عليه احدا . »

لعل ماريوس كان أقل انعطافاً مما كان ينبغي له ، ولكنه وجه نفسه خلال ساعة مضت مضطراً إلى أن يروض ذاته على مفاجأة رهيبة ، وقد رأى ، شيئاً فشيئاً ، رجلا أشغالياً يوضع امام عينيه فوق مسيو فوشلوفان. واستحوذت عليه شيئاً فشيئاً ، هـذه الحقيقة المشؤومة ، وقادته نزعة المرقف الطبيعية إلى ان يحدد الشقة التي اخذت تفصل ما بينه وبين هذا الرجل . واضاف ماريوس :

— « من المتعذر علي ان لا اقول لك كلمة عن الوديعة التي أعدتها في كثير من الاخلاص والأمانة . انه عمل من اعمال الصلاح . ومن العدل ان تقدم اليك مكافأة على ذلك . حدد المبلغ بنفسك يُدفع اليك . لا تخشَ أن تحدده على نحو مرتفع جداً . »

فأجاب جان فالجان في رقة :

— « انا اشكرك ، يا سيدي . »

وظل مستغرقاً في التفكير لحظة ، مُمرّاً طرف سبابته فوق ظفر ابهامه على نحو آلي ، ثم رفع صوته :

— « لقد انتهى كل شيء تقريباً . بقيت مسألة واحدة ... »

— « ماذا ؟ »

لكأنما عرف جان فالجان تردداً أخيراً . وتلجلج — ولا نقول قال —

في غير صوت ، بل ومن غير تنفس تقريباً :
ـ « والآن ، وقد أصبحت تعرف ، هل تظن يا سيدي ـ وأنت صاحب الأمر ـ انه يتعين علي ان لا أرى كوزيت كرة اخرى ؟ »
فأجاب ماريوس في برود :
ـ « أعتقد ان هذا هو الأفضل . »
وتمتم جان فالجان :
ـ « أنا لن اراها بعد اليوم . »
ومضى نحو الباب .
ووضع يده على تفاحة الباب ، وأذعن لسانُ القفل ، وانفرج الباب بعض الشيء ، ففتحه جان فالجان حتى يكون في ميسوره اجتيازه ، ووقف لحظة من غير حراك ، ثم أوصد الباب ، والتفت إلى ماريوس .
إنه لم يعد شاحب الوجه ؛ لقد غدا ازرق ضارباً إلى السواد . لم يبق ثمة دموع في عينيه ، ولكنْ ضربٌ من اللهب الفاجع . كان صوته قد أمسى ، كرة اخرى ، هادئاً إلى حد غريب .
وقال :
ـ « ولكن ، يا سيدي ، سوف أعود ـ إذا أجزت لي ذلك ـ لكي أراها . اؤكد لك أنني حريص على هذا أشد الحرص . ولو لم اكن متشبثاً برؤية كوزيت لما اقررت بالاعتراف الذي قمتُ به ، لو لم اكن متشبثاً بذلك لمضيت لسبيلي ؛ ولكن رغبتي في البقاء حيث تحيا كوزيت وفي الاستمرار في رؤيتها ، هي التي حملتني على ان اخبرك ، في اخلاص، بكل شيء . انت تتابع تفكيري ، اليس كذلك ؟ ان ذلك شيء يفسر نفسه بنفسه . انت ترى ، انها كانت ، طوال تسع سنوات مضت ، إلى جانبي ؛ لقد عشنا باديء الأمر في ذلك البيت العتيق القائم على الجادة ، ثم في الدير ، ثم قرب حديقة اللوكسومبورغ . وهناك رأيتها

انت للمرة الأولى . انت تذكر قبعتها الزرقاء المصنوعة من نسيج ذي وبر . ثم عشنا بعد ذلك في حي الانفاليد حيث كان باب حديدي وحديقة . شارع بلوميه . لقد قطنت في فناء خلفي صغير حيث كنت اسمع عزفها على البيان . تلك كانت حياتي . اننا لم نفترق البتة . ودام ذلك تسع سنوات وبضعة اشهر . كنت مثل ابيها ، وكانت هي ابنتي . انا لا ادري ما اذا كنت تفهمني ، ايها السيد بونميرسي ، ولكن من العسير علي ان لا اراها البتة منذ اليوم ، ان لا اتحدث اليها بعد ، أن أحرم كل شيء بالكلية . وإذا لم تجد في ذلك سوءاً ، فسوف أجيء ، بين الفينة والفينة ، لأرى كوزيت . انا لن اكثر من التردد عليكم . ولن اطيل المكث عندكم . قد تقول إني ينبغي ان أستقبَل في الحجرة الصغيرة السفلى . في الدور الاسفل . اني مستعد لأن ادخل من الباب الخلفي ، المخصص للخدم ، ولكن ذلك قد يثير الاستغراب . من الافضل ، في ما أعتقد ، ان ادخل من الباب العادي . صدقني ، يا سيدي ، انا ما زلت محتاجاً إلى ان ارى كوزيت . ان اراها نادراً إلى الحد الذي ترغب فيه . ضع نفسك مكاني ؛ إنها كل ما أملك . وإلى هذا فان علينا ان نأخذ حذرنا . إذا انقطعت عن المجيء انقطاعاً كاملا ، ترك ذلك اثراً سيئاً ، وخليق به ان يُعتبر ظاهرة غريبة . ان ما استطيع ان أفعله ، مثلا ، هو ان اجيء في المساء ، عند هبوط الليل . »

فقال ماريوس :

— « انك سوف تأتي كل مساء . ولسوف تنتظرك كوزيت . »

فقال جان فالجان :

— « انت رجل كريم ، يا سيدي . »

وانحنى ماريوس لجان فالجان ، وقادت السعادةُ اليأسَ إلى الباب ، وافترق هذان الرجلان .

٢
الظلمات التي قد ينطوي عليها
افشاء السر

كان ماريوس يستشعر قلقاً بالغاً .

لقد وجد ، الآن ، تفسيراً لتلك النفرة التي طالما احس بها نحو الرجل الذي رآه مع كوزيت . كان ثمة شيء لغزيّ غريب في هذا الشخص الذي سبق لغريزته ان حذرته منه . وكانت تلك الاحجية هي أبشع ضروب الخزي : سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . إن مسيو فوشلوفان هذا كان هو الاشغالي جان فالجان .

إن وقوع المرء فجأة ، وهو في غمرة السعادة ، على مثل هذا السر، اشبه باكتشاف عقرب في عش قَماريّ .

هل فُرض على سعادة ماريوس وكوزيت ، منذ اليوم ، ان تخضع لهذا الجوار ؟ أكان ذلك امراً واقعاً ؟ اكان قبول ذلك الرجل يشكل جزءاً من الزواج الذي تم ؟ ألم يكن ثمة ما يُعمل ؟

هل تزوج ماريوس الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة أيضاً ؟

فغير مُجْدٍ ان تُتوّج بالضياء وبالبهجة ، وغير مجد ان تنعم بلحظة الحياة الارجوانيّة الملوكية ، الحب السعيد . مثل هذه الصدمات تستطيع ان تُكره حتى كبيرَ الملائكة في نشوته الروحية ، وحتى نصف الاله في مجده ، على الارتعاد .

وكالذي يحصل دائماً في مثل تبادل الرأي هذا ، سأل ماريوس نفسه أليس ثمة تأنيب ينبغي ان يوجَّه اليه هو ؟ أكان يعوزه حسن التكهن ؟ اكان يعوزه التبصر ؟ هل أصابه الانشداه على نحو غير إرادي ؟ قليلا ،

ربما . هل ولج – من غير ما احتياط كاف لالقاء الضوء على المناطق المجاورة – هذه المغامرةَ الغرامية التي انتهت إلى الزواج من كوزيت ؟ وقرر–وهكذا يمثل هذه التقريرات المتعاقبة التي نتخذها بانفسنا في ما يتصل بانفسنا تسمو بنا الحياة شيئاً بعد شيء–قرر الجانبَ الخيالي من طبيعته، الجانبَ المأخوذ بالاوهام ، وهو ضرب من السحابة الباطنية الملازمة لبعض الطبائع ، والتي تنبسط في ذروة الانفعال والالم – حين تتغير حرارة الروح – وتجتاح الانسان اجتياحاً كاملا ، إلى حد يحيله إلى مجرد وعي مندّىً بالضباب. ولقد اشرنا غير مرة إلى هذا العنصر المميز من عناصر شخصية ماريوس . لقد تذكّر أنه – في نشوه حبه ، في شارع بلوميه ، خلال تلك الاسابيع الستة أو السبعة الحالمة – لم يتحدث إلى كوزيت ، ولو مجرد حديث ، عن مأساة بيت غوربو الحقير حيث اعتصم المعتدى عليه بالصمت ، على نحو غريب ، اثناء الصراع ، ولاذ بالفرار في ما بعد . كيف تأتّى له ان لا يتحدث إلى كوزيت عن ذلك ؟ ومع هذا ، فقد كان ذلك غريباً جداً ، ورهيباً جداً . كيف تأتّى له ان لا يذكر أمامها اسم تيناردييه واهله ، ولو مجرد ذكر ، وبخاصة في ذلك اليوم الذي التقى فيه ايبونين ؟ لقد وجد الآن عسراً بالغاً في ان يفسر لنفسه صمته السابق . ومع ذلك فقد وجد مبرراً له . لقد ذكر دُواره ، وثمله بكوزيت ، وقد استغرق الحب كل شيء ، ورفع كل منهما الآخر إلى مقام المثل الاعلى ، وربما ايضاً – فيما يمترج مقدار العقل اللامدرَك بهذه الحالة العنيفة الفاتنة من حالات النفس – تلك الغريزةَ الغامضة الكليلة التي حفزته إلى أن يخبىء ويلغي في ذاكرته هذه المسألة الرهيبة التي كان يخشى ان يمسها ، والتي لم يشأ ان يلعب فيها اي دور ، والتي تملص منها ، والتي لم يكن يستطيع ان يكون فيها لا راوية ولا شاهداً من غير أن يكون متهماً . وإلى هذا ، فتلك الاسابيع القليلة لم تكن غير ومضة ؛ لم يكن لديهما مجال لاي شيء ، غير الحب . واخيراً ، إذا

ما وزن كل شيء ، وقلّبه ، ودرسه ، ما النتائج التي كان يمكن ان تنشأ لو اخبر كوزيت بقصة كمين بيت غوربو العتيق وذكر امامها اسم تيناردييه وأهله ؟ وحتّى لو انه اكتشف ان جان فالجان محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، أكان ذلك يغيّره هو ، ماريوس ؟ اكان ذلك يغيرها هي ، كوزيت ؟ اكان يرتد على عقبيه ؟ اكان يعتري حبه لها ضعف أو وهن؟ اكان يتردد في الزواج منها ؟ لا . واذن فليس ثمة ما يوجب الاسف ، وليس ثمة ما يؤاخذ نفسه عليه ؟ كان كل شيء حسناً . ان هناك رباً لهؤلاء السكيرين الذين ندعوهم العشاق . وهكذا فان ماريوس كان قد سلك ، في عماه ، تلك الطريق التي كان خليقاً به ان يختارها لو قدّر له ان يراها بوضوح . كان الحب قد عصب عينيه — ليقوده إلى آين ؟ إلى الجنة .

ولكن هذه الجنة كانت معقدة ، منذ اليوم ، بمصاحبة جحيمية .

إن نفرة ماريوس السابقة من هذا الرجل ، من فوشلوفان هذا الذي أمسى جان فالجان ، غدت الآن ممزوجة بالرعب .

وفي رعبه — كما يتعين علينا ان نقول — كان شيء من الشفقة ، وكان شيء من الدهش أيضاً .

كان هذا السارق ، هذا السارق المحكوم عليه مرتين بالاشغال الشاقة ، قد أعاد وديعة . وأية وديعة ؟ ستمئة الف فرنك . كان هو وحده مطلعاً على سر تلك الوديعة . كان في أمكانه ان يحتفظ بهذا المال كله ، ولكنه أسلمه كله .

وإلى هذا ، فقد كان قد كشف القناع عن وضعه مختاراً . ان شيئاً لم يكن يكرهه على ان يفعل ذلك . واذا كان ثمة من يعرف هويته فهو مدين بهذه المعرفة اليه هو . لقد كان في ذلك الاعتراف شيء اكثر من قبول الاذلال ، كان فيه قبول الخطر . فالقناع ، عند الرجل الصادر فيه حكم قضائي ، ليس قناعاً ؛ إنه ملاذ . لقد تخلى عن ذلك الملاذ .

والاسم الزائف أمن ؛ ولقد اطّرح هذا الاسم الزائف . لقد كان في استطاعته ، وهو الأشغالي ، ان يخفي نفسه إلى الابد في اسرة شريفة ؛ ولكنه قاوم هذا الاغراء . وبأي دافع ؟ بدافع من تردد الضمير. لقد شرح بنفسه هذه المسألة بنبرة الحقيقة التي لا تقاوَم . وباختصار ، فأياً ما كان جان فالجان هذا فقد كان له ضمير يقظ من غير شك . كان فيه اعادة اعتبار خفيّة مستهلَة ؛ والـذي يبـدو ، تبعاً لجميـع المظاهر ، ان الضمير كان سيد هذا الرجل منذ زمن بعيد . ان مثل هذا الأفراط في العدالة والطيبة ليس من شيمة الطبائع الوضيعة . ويقظة الضمير لا تعدو ان تكون عظمة النفس .

كان جان فالجان مخلصاً . وهذا الاخلاص ، المرئـيّ ، الملموس ، الذي لا يحتمل الشك ، الواضح حتى بالآلام التي انزلها به ، جعل البحث والتحقيق عديمي الجدوى ، وخلع الثقة على ما قاله هذا الرجل . وهنا عرف ماريوس عكساً غريباً للاوضاع . ما الذي انبثق من مسيـو فوشلوفان ؟ الحذر . ما الذي تدفق من جان فالجان ؟ الثقة .

في هذه الميزانية الخفية التي وضعها ماريوس بكثير من الروية ، في ما يتصل بجان فالجان هذا ، تثبّت مما له ، وتثبت مما عليه ، وحاول ان يصل إلى موازنة . ولكن ذلك كله كان وكأنه وسط إعصار : إن ماريوس – وقد حاول ان يكوّن فكرة جلية عن هذا الرجل ، ولاحق جان فالجان ، إذا جاز التعبير ، في أعماق تفكيره – قد ضيعـه ثم وجده كرة اخرى في ضباب مشؤوم .

كان رد الوديعة في أمانة ، وكان الاعتراف النزيه الطاهر يرشحـان بالخير . كانا أشبه بانقشاع في سحابة . ولكن السحابة ما لبثت ان عادت سوداء من جديد .

وعلى الرغم من شدة الاختلاط في ذكريات ماريوس فان ظلاً منهـا عاوده .

ما كانت على وجه الضبط مغامرة مسكن جوندريت الحقير تلك ؟ لماذا عمد ذلك الرجل ، لدن وصول الشرطة، إلى الفرار بدلا من ان يشكو أمره إلى رجال الأمن ؟ هنا وجد ماريوس الجواب . لأن هذا الرجل كان هارباً من وجه العدالة .

وسؤال آخر : لماذا جاء هذا الرجل إلى المتراس ؟ ذلك ان ماريوس رأى الآن تلك الذكرى في وضوح ، بعد ان عاودت الظهور وسط هذه الانفعالات كالحبر العادم اللون أمام النار . لقد كان هذا الرجـــل في المتراس . إنه لم يقاتل هناك . ما الذي جاء به اذن ؟ امـــام هـــذا السؤال انتصب شبح ، وقدم جواباً . جافير . لقد تذكر ماريوس أحسن التذكر ، في هذه الساعة ، مشهد جان فالجان المأتمي وهو يقود جافير موثقـــاً إلى خارج المتراس ، وسمع من جديد دوي الغدارة المروع خلف زاوية زقاق مونديتور . لعله كان ثمة كراهية بين هذا الجاسوس وهـــذا الاشغالي . كان احدهما يعـــوق الآخر . كان جان فالجان قد قصد إلى المتراس لكي يثأر لنفسه . وكان قد وصل متأخراً . ولعله كان يعرف ان جافير كان اسيراً هناك . كانت نزعة الثأر الكورسيكي * قد تسربت إلى بعض الاعماق السفلى ، وغدت قانوناً لها . وهي نزعة طبيعية جداً بحيث لا تثير دهش النفوس نصف المرتدة نحو الخير . وهذه القلوب قـــد رُكّبت على نحو قد يجعل المجرم ، الآخذ سبيله إلى التوبة ، متعففاً عن اللصوصية ، ولكنه غير متعفف عن الثأر . كان جان فالجان قد قتـــل جافير . هذا ، على الاقل ، ما بدا واضحاً .

واخيراً ، سؤال ختامي ، ولكن لم يكن ثمة جواب عن هذا السؤال . لقد احس ماريوس بهذا السؤال وكأنه كُلابة . كيف اتفق لوجود جان فالجان ان لازم كوزيت هذه الفترة الطويلة كلها ؟ ايّ قدر غامض من

* حالة من العداوة يتسع نطاقها في كورسيكة حتى تشمل جميع افراد الأسرة اثر عدوان او قتل يتعرض له احد المنتسبين الى تلك الاسرة . (Vendetta corse)

من اقدار العناية الالـهية وضع هذه الطفلة على اتصال مستمر بهـذ الرجل ؟ هل السلاسل المزدوجة القارنة تُطـرّق اذن في الأعالي أيضاً ، وهل يرضى الرب ان يجمع ما بين الملاك والشيطان ؟ هل في استطاعة الجريمة والبراءة اذن أن تعيشا تحت سقف واحد في سجن الشقاء الخفي ؟ وفي مضيق البُمدانين هذا، الذي ندعوه القـدر البشري ، هل يستطيـع جبينان ان يتقاربا حتى التماسّ ، وأحدهما ساذج والآخر رهيب ، وأحدهما مندّى ببياض الضحى الالـهي والآخر شاحب إلى الابد بوهج برق ازلي ؟ من الذي استطاع ان يقرر هذا الاقتران الذي لا تفسير له؟ بأي طريقة ، ومن خلال اية اعجوبة أقيمت وحدة الحياة بين هذه الطفلة السماوية وهذا البائس العجوز ؟ من الذي تمكن من ان يشد الحمل إلى الذئب وان يشد الذئب — وهو شيء اشد امتناعاً على التفسير — إلى الحمل ؟ ذلك ان الذئب احب الحمـل . ذلك ان الكائن الضاري قدّس الكائن الضعيف . ذلك ان الملاك كان — طوال تسع سنوات — يتخـذ من الهولة سناداً . كانت طفولة كوزيت وصباها ، ورؤيتها النور ، ونموها البتولي نحو الحياة والضياء مصونة بهذا التفاني الشائه الرهيب . هنـا تقشرت الاسئلة — إذا جاز التعبير — عن احاجي لا حصر لها ، وانفتحت الهُوى في اعماق الهُوى . ولم يعد في ميسور ماريوس ان ينحني فوق جان فالجان من غير ان يصيبه الدوار . فأي شيء ، اذن ، كان هـذا الرجل الهوّة ؟

إن رموز سفر التكوين القديمة سرمدية . ففي المجتمع البشري ، كما هو اليوم وكما سيكون ، حتى ذلك اليوم الذي سوف يغمره فيه ضياء اعظم ، يوجد دائماً رجلان ، أحدهما فوقيّ ، والآخر تحتيّ . فأما الذي يتّبع الخير فهو هابيل ، واما الذي يتّبـع الشر فهو قايين . من كان هذا اللص المستغرق على نحو تقوي في حب فتاة عذراء ، والسهر عليها ، وتنشيئها ، وحمايتها ، وتبجيلها ، واحاطتها — وهو غير الطاهـر —

بالطهر ؟ من كان هذا البالوعة الذي اجلّ هذه البراءة إلى حد جعلها خلواً من أية شائبة ؟ من كان جان فالجان هذا المشرف على تثقيف كوزيت ؟ من كانت شخصية الظلام هذه التي لم يكن لها من همّ غير ان تحمي ، من كل ظلمة وكل سحاب ، طلوعَ كوكب من الكواكب ؟

ههنا كان سر جان فالجان . وههنا أيضاً كان سر الله .

وأمام هذا السر المزدوج ، ارتد ماريوس . إن احدهما طمأنه ، بطريقة ما ، في ما يتصل بالآخر . كان الله منظوراً في هذه المغامرة بقدر ما كان جان فالجان منظوراً . إن لله ادواته . وهو يصطنع الأداة التي تروق له . إنه غير مسؤول تجاه الانسان . هل نعرف اساليب الله ؟ كان جان فالجان قد وقف جهوده على كوزيت . كان قد شكّل ، إلى حد ما ، تلك النفس . هذا شيء لم يكن يحتمل الجدل . ولكن ، ثم ماذا ؟ كان الصانع رهيباً . ولكن الأثر كان رائعاً . ان الله يجترح معجزاته على النحو الذي يبدو له صالحاً . كان قد أنشأ كوزيت الفاتنة هذه . وكان قد اصطنع جان فالجان في ذلك . لقد سره ان يصطفي هذا المعاونَ الغريب . ايّ حساب نستطيع ان نطلبه منه ؟ أهي المرة الأولى التي نرى فيها المزبلة تساعد الربيع على تكوين الوردة ؟

وقدم ماريوس هذه الأجوبة إلى نفسه ، وتبيّن له انها صالحة . وفي جميع النقاط التي اشرنا اليها اللحظة لم يجرؤ على ان يلحّ على جان فالجان في السؤال ، من غير أن يعترف لنفسه بأنه لا يجرؤ . كان يعبد كوزيت ، وكان يملك كوزيت . وكانت كوزيت طاهرة على نحو رائع . وكان ذلك حَسْبَهُ . فألى أي تفسير كان يحتاج ؟ كانت كوزيت ضياء . وهل يحتاج الضياء إلى شرح ؟ كان يملك كل شيء ، ففي اي شيء يطمع بعد ؟ أليس يكفيه هذا الكل ؟ إن شؤون جان فالجان الشخصية لم تكن تعنيه . وفي انحنائه فوق ظل هذا الرجل المشؤوم ، كان يتشبث

بهذا الاعلان المهيب الذي أطلقه ذلك المخلوق البائس : « أنا لا أمتّ إلى كوزيت بنسب . منذ عشر سنوات ، لم أكن اعرف بوجودها . »

كان جان فالجان عابر سبيل . لقد قال هو نفسه ذلك . حسن ، ولقد كان يمضي لسبيله . فأياً ما كان هذا الرجل ، فان دوره قد انتهى. لقد كان على ماريوس ان ينهض ، منذ اليوم ، باعباء العناية الالـهية نحو كوزيت . وكانت كوزيت قد أقبلت لتجد في اللازورد ، كرة اخرى ، نظيرها ، وحبيبها ، وزوجها ، ورجلها السماوي . لقد تركت كوزيت ، وقد طارت مجنحةً متسامية ، يفـعتـها * ، جان فالجان ، فارغةً رهيبة على الارض .

وفي ايما حلقة من الافكار دار ماريوس ، كان يرتد منها دائماً وفي نفسه ذعر ما ، من جان فالجان . ولعل ذلك الذعر كان ذعراً مقدساً إذ كان يستشعر كما قلنا منذ لحظة « شيئاً مقدساً » *quid divinum* في هذا الرجل . ولكنه مهما عمل ، ومهما التمس من تلطيف ، كان مضطراً دائماً إلى الوقوع على هذا : لقد كان اشغالياً محكوماً عليه بالسجن ، يعني ذلك المخلوق الذي ليس له في السلم الاجتماعية ، مكان ما بوصفه تحت آخر درجة من درجات تلك السلم . فبعد احط الناس يجيء المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . إن الاشغالي لم يعد ، إذا جاز التعبير ، نظير الاحياء . لقد حرمه القانون كل ذلك القدْر من الانسانية الذي يستطيع نزعه من إنسان ما . ففي المسائل الجزائية ، كان ماريوس — على الرغم من نزعته الديموقراطية — لا يزال متشبثاً بالنظام الذي لا يعرف الرحمة ، وكان يحمل في ما يتصل باولئك الذين يضربهم القانون افكارَ القانون كلها . إنه لم يكن قد اعتنق بعد — ولنقل ذلك — جميع الفكرات

* اليفعة Chrysalide أو Chrysalis في علم الاحياء هي الخادرة pupa او القشرة الصلبة التي تغلف الحشرة قبل ان تصبح فراشة .

التقدمية . لم يكن قد انتهى بعد إلى التمييز بين ما كتبه الانسان وما كتبه الله ، بين القانون والحق . إنه لم يدرس ولم يزن قط ذلك الحق الذي ينتحله الانسان للتخلص مما لا يُردّ ومما لا سبيل إلى التعويض عنه . إنه لم يثر على كلمة **الانتقام** . كان يرى طبيعياً ان تُتبع بعض المخالفات للقانون المكتوب بعقوبات سرمدية ، ولقد اعتبر الهلاك الابدي الاجتماعي طريقة من طرائق الحضارة . كان لا يزال عند تلك النقطة ، وكان لا بد له من ان يتقدم في ما بعد ، بحكم طبيعته الخيرة . المكونة في أعمق اعماقها من تقدم كامن .

من وسط هذه الفكرات برز له جان فالجان شائهاً مقيتاً . كان المنبوذ . كان المحكومَ عليه بالاشغال الشاقة . كانت هذه الكلمة أشبه عنده بآخر نفخة في صُوْر يوم الحساب . وبعد أن تأمل في جان فالجان فترة طويلة انتهى إلى ان يشيح بوجهه عنه *Vade retro* .

وينبغي أن نذكّر بل ان نلح في التذكير ان ماريوس — على الرغم من استجوابه جان فالجان إلى حد جعل جان فالجان يقول له : أنت تطلب مني اعترافاً — لم يكن قد وجه اليه سؤالين حاسمين أو ثلاثة اسئلة حاسمة . وليس ذلك لأن هذه الاسئلة لم تتمثل في ذهنه ، ولكن لأنه كان خائفاً منها . مسكن جوندريت الحقير ؟ المتراس ؟ جافير ؟ ومن يدري أين يمكن للاسرار المهتوكة السّر ان تقف ؟ ان جان فالجان لم يكن ، في ما يبدو ، ذلك الرجل الذي يعرف الانكفاء . ومن يدري ، فقد يرغب ماريوس في كبح جان فالجان بعد ان يكون هو قد ألحف عليه في السؤال ؟ ألم يتفق لنا جميعاً ، في بعض الظروف ، أن وضعنا اصابعنا في آذاننا — بعد ان طرحنا سؤالا ما — خشية أن نسمع الجواب؟ وهذا الجبن يستحوذ علينا ، بخاصة ، حين نعشق . فليس من الحصافة أن نغالي في السؤال عن الحالات المشؤومة ، وعلى الخصوص حين يكون ذلك الجزء اللامنحلّ من حياتنا نحن ممتزجاً بها امتزاجاً محتوماً . ان بعض

الضوء الرهيب قد ينبثق من شروح جان فالجان اليائسة . ولكن من الذي يضمن له ان لا ينعكس هذا النور المخيف على كوزيت نفسها ؟ ومن يكفل له ان لا يبقى ضرب من الوهج الجحيمي على جبين ذلك الملاك ؟ ان رشاش البرق ليس خلواً من الرعود . فللأقدار مثل هذا التكافل . حيث تنطبع البراءة نفسها بالجريمة بحكم القانون الكالح الخاص بالانعكاسات الملوّنة . ان أطهر الوجوه قد تحتفظ إلى الآبد بانعكاسات جوار رهيب . كان ماريوس خائفاً . سواء أكان في ذلك على خطأ أم على صواب . لقد انتهى إلى أن يعرف ، حتى الآن ، اكثر مما ينبغي. وكان يلتمس التعمية على نفسه اكثر مما يلتمس تنويرها . لقد حمل كوزيت . في وَلَه . بين ذراعيه . مغمضاً عينيه عن جان فالجان .

كان ذلك الرجلَ من الليل ، من الليل الحيّ الفظيع . كيف يجرؤ على سَبره حتى القعر ؟ إن استجواب الظلمة لرهيب . فمن يدري ما الجواب الذي تصدر عنه ؟ إن الفجر قد يسودّ من جرّائه إلى الأبد .

في هذه الحال النفسية كان مما يقلق ماريوس إلى حد مرير ان يفكر في ان هذا الرجل سوف يكون له ، منذ اليوم ، اتصال مهما يكن بكوزيت . وهذه الاسئلة المروّعة ، التي سبق له ان ارتد أمامها ، والتي كان من الجائز ان ينبثق منها قرار حاسم حقود ، اخذ الآن يعنّف نفسه ، أو يكاد ، لعدم طرحه اياها . لقد حسب نفسه طيباً أكثر مما ينبغي ، ليناً أكثر مما ينبغي ، ضعيفاً — ولنقل اخيراً الكلمة — اكثر مما ينبغي . هذا الضعف كان قد قاده إلى تسليم غير حصيف . لقد اجاز لنفسه بأن تتأثر . ولقد اخطأ في ذلك . كان عليه ان ينبذ جان فالجان في بساطة . كان جان فالجان أشبه شيء بذلك المتاع الذي يُترك للحريق انقاذاً للباقي ، ولقد كان عليه ان يخلص البيت من هذا الرجل . واغتاظ من نفسه . اغتاظ من عنف ذلك الاعصار الانفعالي الذي أصمّه ، وأعماه،

وقاده . كان ناقماً على نفسه .

ما الذي يجب ان يصنع الآن ؟ كانت زيارات جان فالجان بغيضة اليه . اي فائدة لذلك الرجل في هذا البيت ؟ اي شيء ينبغي له ان يعمله؟ وتشاغل عن ذلك ، إنه لم يكن راغباً في التنقيب ، لم يكن راغباً في ان يذهب إلى أعمق . كان قد وعد ، كان قد أجاز لنفسه ان يساق إلى إعطاء وعد . لقد فاز جان فالجان بوعد منه . وحتى مع محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، بل مع المحكوم عليه بالاشغال الشاقة على وجه خاص ، يتعين على المرء ان يفي بالوعد . ومع ذلك ، فقد كانت كوزيت هي واجبه الأول . وعلى الجملة ، فقد استبد به تقزز غلب على كل شيء آخر .

وقلّب ماريوس كل هذه المجموعة من الفكرات في ذهنه تقليباً مشوشاً ، منتقلا من واحدة إلى اخرى ، مُثاراً بها جميعاً . ومن هنا ذلك الاضطراب العميق . ولم يكن يسيراً عليه ان يخفي ذلك الاضطراب عن كوزيت ، ولكن الحب موهبة ، ولقد وُفق ماريوس إلى ذلك .

وإلى هذا فقد طرح ، من غير ما هدف واضح ، بعض الاسئلة على كوزيت ، التي كانت سليمة الطوية بقدر ما تكون الحمامة بيضاء ، فلم ترتَبْ في شيء . لقد تحدث معها عن طفولتها وعن صباها ، واقنع نفسه اكثر فاكثر بأن هذا الاشغاليّ وقف من كوزيت اطيب موقف يستطيع ان يقفه انسان ، واكثره حفولا بالابوة والاجلال . كان كل ما رآه ماريوس على نحو باهت وكل ما حدس به حقيقياً . كان ذلك القرّاص الكالح قد أحب هذه الزنبقة وحماها .

الكتاب الثامن

شحوب الغسق

١

الحجرة السفلية

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، قرع جان فالجان باب العربات من منزل جيلنورمان . واستقبله باسك . لقد اتفق ان كان باسك في الفِناء في الوقت المناسب ، وكأنما كان هناك نزولا عند أمر صادر اليه . فقد يتفق في بعض الاحيان ان يقول امرؤ لخادم : ترقب السيد الفلاني ، فاذا به يجيء .

ومن غير ان ينتظر وفود جان فالجان عليه ، خاطبه باسك قائلا :

– « لقد كلفني سيدي البارون ان اسأل السيد أيرغب في الصعود إلى

الدور الأعلى أم في البقاء تحت ؟ »

فأجابه جان فالجان :

— « سوف أبقى تحت . »

وفتح باسك ، الذي كان في ما عدا ذلك ناضحاً باحترام مطلق ، باب الحجرة السفلية ، وقال :

— « سوف اخبر السيدة . »

كانت الغرفة التي ولجها جان فالجان حجرة تحتية رطبة ذات عقود ، وكانوا يتخذون منها سرباً عند الحاجة . كانت تطل على الشارع ، مفروشة ببلاط احمر ، ومضاءة على نحو قاتم بنافذة ذات شُباكة حديدية .

ولم تكن الحجرة من تلك الحجرات التي تُزعَج كثيراً بالفرشاة ، والمنفضة ، والمكنسة . كان الغبار مستقراً فيها . هناك لم يكن اضطهاد العناكب قد نُظّم بعد . وكان يزين احد الواح النافذة الزجاجية نسيج عنكبوت جميل ، منبسط انبساطاً فسيحاً ، نسيج اسود فاحم مزدان بذباب ميت . وكانت الحجرة الصغيرة المنخفضة ، مؤثثة بركام من الزجاجات الفارغة كدست في احدى الزوايا . وكان الجدار قد طلي بطلاء بلون المغرة الصفراء كان قد اخذ يتقشر صفائحَ صفائحَ . وفي اقصى الحجرة كان موقد خشبي ، دُهن باللون الأسود ، ذو رف ضيق . كانت النار قد أضرمت ، مما يدل على ان شخصاً ما ، كان قد توقع جواب جان فالجان : « سوف ابقى تحت . »

كان كرسيان من الكراسي ذوات الأذرع قد وضعا عند زاويتي الموقد . وبين الكرسيين امتد ، بدلا من السجادة ، بساط صغير من بُسط النوم ، بساط تكشّف عن أمراس اكثر مما تكشّف عن صوف .

كانت الحجرة مضاءة بالنار المضرمة في الموقد ، وبضوء الغسق المنبعث من النافذة .

وكان جان فالجان متعباً . إنه لم يعرف ، منذ بضعة أيام ، لا طعاماً

ولا رقاداً . وارتمى في واحد من الكرسيين ذوَيْ الاذرع .

ورجع باسك ووضع شمعة مضاءة على الموقد ، وانسحب . ولم يلاحظ جان فالجان ، المنكس الرأس المسند الذقن إلى اعلى الصدر ، لا باسك ولا الشمعة .

وفجأة تصدّر مجفلا . كانت كوزيت خلفه .

إنه لم يرها تدخل ، ولكنه استشعر أنها دخلت .

واستدار . وحدق اليها . كانت جميلة على نحو يغري بالعبادة . ولكنّ ما تطلّع اليه بتلك النظرة العميقة لم يكن جمالها ولكن روحها .

وهتفت كوزيت :

ـ « آه ، هي ذي فكرة ! أبي ، لقد كنت أعلم انك غريب الاطوار ، ولكني لم اكن اتوقع قط شيئاً مثل هذا . لقد قال لي ماريوس انك تريد مني ان استقبلك هنا . »

ـ « اجل . أنا طلبت ذلك . »

ـ « لقد توقعت الجواب . حسن ، أنا أحذرك اني سوف اخاصمك . فلنبدأ من البداية . أبي ، قبّلني . »

وقدمت اليه خدها .

وظل جان فالجان جامداً لا يتحرك .

ـ « أنت لا تتحرك . أنا ارى ذلك . انت تسلك مسلك المتهمين . ولكن لا بأس ، أنا أصفح عنك . السيد المسيح قال : أدر خدك الآخر . ها هو ذا . »

وأدارت خدها الثاني .

ولم يتحرك جان فالجان . لقد بدا وكأن قدميه كانتا مسمرتين إلى أرض الغرفة .

فقالت كوزيت :

— « الأمر أخذ يصبح جدياً . ما الذي فعلته لك ؟ أنا أعلن انـي مرتبكـة . يجب عليك ان تصالحني . سوف تتناول طعام العشاء معنا . »

— « لقد تعشيت . »

— « هذا غير صحيح . سوف أطلب من مسيو جيلنورمان ان يوبخك . الاجداد قد جُعلوا لتوبيخ الآباء . تعال . اصعد معي إلى حجرة الاستقبال حالا . »

— « مستحيل . »

وهنا تراجعت كوزيت بعض الشيء . وكَفّت عن إصدار الأوامـر وانتقلت إلى توجيه الاسئلة .

— « ولكن لم لا ؟ وانت تختار أبشع غرفة في المنزل لكي تجتمع بي. ان هذا المكان رهيب . »

— « انت تعرفين ، يا سيدتي ، اني غريب الاطوار . إن لي اهوائي الخاصة . »

وشبكت كوزيت يديها الصغيرتين .

— « سيدتي ! انت تعرفين ! ها أنت تعيد ذلك كرة اخرى . ما معنى هذا ؟ »

وسدد جان فالجان اليها تلك الابتسامة المحزنة التي كان يفزع اليهـا بعض الاحيان .

— « لقد اردتِ ان تكوني سيدة . وها انت كذلك . »

— « ليس بالنسبة اليك ، يا أبي ؟ »

— « لا تناديني يا أبي ، بعد اليوم . »

— « مـاذا ؟ »

— « ناديني مسيو جان » أو جان ، إذا شئت . »

— « أنت لم تعد ابي ؟ أنا لم أعد كوزيت ؟ مسيو جان ؟ ما معنى هذا ؟ ولكن هذه ثورات ، هذه ! ما الذي حدث ؟ انظر اليّ في

وجهي قليلاً . وانت لن تسكن معنا ! أنت لن تأخذ غرفتي ! ما الذي فعلته لك ؟ ما الذي فعلته لك ؟ هل ثمة شيء اذن ؟ »

— « لا شيء . »

— « وإذن ؟ »

— « كل شيء كالمعتاد . »

— « لماذا تغير اسمك ؟ »

— ولكنك انت غيرتِ اسمك أيضاً . »

وابتسم من جديد تلك الابتسامة نفسها ، وأضاف :

— « ما دمت السيدة بونميرسي ففي استطاعتي من غير شك ان اكون مسيو جان . »

— « لست افهم شيئاً من ذلك . هذا هراء كله . سوف اطلب لك الاذن من زوجي لكي تكون مسيو جان . وآمل ان لا يوافق على ذلك . انت تسبب لي كثيراً من البلاء . قد تكون لك اهواؤك الغريبة ، ولكن يتعين عليك ان لا توقع الأسى في نفس حبيبتك كوزيت . هذا خطأ . ليس لك الحق في أن تكون شريراً ، أنت المفعم بالطيبة . »

ولم يجب بشيء .

وأمسكت بكلتا يديه في شدة ورفعتهما ، في حركة لا تقاوَم ، نحو وجهها ، وضغطتهما على عنقها تحت ذقنها ، وتلك علامة عميقة من علامات المحبة والحنان .

وقالت له :

— « اوه ، كن كريماً ! »

ثم استأنفت كلامها :

— « هذا ما ادعوه الكرم : ان تكون لطيفاً ، ان تجيء وتسكن هنا ، ونعاود القيام بنزهاتنا الحلوة الصغيرة ، فههنا يوجد طيور كما في شارع بلوميه ، وان تعيش معنا ، وتترك ذلك المسكن الضيق الذي في

شارع الرجل المسلح ، وان لا تعطينا ألغازاً نحلها ، وان تكون مثل سائر الناس ، وان تتعشى معنا ، وتتناول طعام الصباح معنا ، وان تكون أبي . »

واطلقت يديه .

— « انت لم تعودي في حاجة إلى أب . لقد أصبح لك زوج . »

وثارت ثائرة كوزيت :

— « لم اعد في حاجة إلى أب ! الواقع ان المرء لا يعرف بماذا يجيب عن هراء مثل هذا ! »

واجاب جان فالجان ، مثل رجل يبحث عن مستندات ويتعلق بكل قشة :

— « لو كانت توسين هنا اذن لكانت أول من اعترف بانه كانت لي دائماً مسالكي الغريبة . ليس في هذا شيء جديد . لقد كنت دائماً احب زاويتي المظلمة . »

— « ولكن هذه الحجرة باردة . ان المرء لا يرى فيها بوضوح ؛ وانه لمن المستهجن أيضاً أن ترغب في أن تكون مسيو جان . انا لا أريد ان تكلمني على هذا النحو . »

فأجاب جان فالجان :

— « في هذه اللحظة ، وأنا قادم إلى هنا ، رأيت قطعة من أثاث في شارع سان لويس . عند احد نجاري الابنوس . لو كنتُ امرأة جميلة لأهديت نفسي هذه القطعة من الاثاث . نَضَدٌ تزيّن رائع جداً ، على الزي الحالي . ما تسمونه خشب الورد ، في ما اظن . إنه مرصع . ومرآة ضخمة إلى حد بعيد . إن له أدراجاً . إنه جميل . »

فأجابت كوزيت :

— « أوه ، يا للدب البشع ! »

وفي ظرافة فاتنة ، أطبقت بعض اسنانها على بعض وباعدت ما بين

شفتيها ، ونفخت على جان فالجان . كانت الآهة جمال تقلد هرة .

وقـالت :

— « أنا حانقة . منذ البارحة وكلكم تثيرون غضبي . كل امريء منكم يغيظني . انا لا أفهم . انت لا تنتصر لي على ماريوس . وماريوس لا ينصرني عليك . لقد أصبحت وحيدة . ارتب حجرةً الطف ترتيب . ولو كان في استطاعتي ان اضع الرب فيها ، لما أحجمتُ . ولكنك تترك غرفتي مهجورة . إن المستأجر عندي يفلسني . أنا أطلب من نيقوليت تعدّ عشاء شهياً صغيراً . ولكن احداً لا يريد عشاءك ، يا سيدتي . وابي فوشلوفان يرغب في أن أدعوه مسيو جان ، وانْ استقبله في سرَب رهيب ، عتيق ، بشع ، عفن ، حيث للجدران لحية ، وحيث الزجاجات الفارغة تقوم مقام الكؤوس ، وأنسجة العنكبوت مقام السجف والستائر . أنت غريب الاطوار ، أنا اسلم بذلك ، وهذه هي طريقتك ، ولـكن من الواجب ان تُمنح هدنة ما إلى الناس حين يتزوجون . ما كان ينبغي لك ان ترجع إلى اطوارك الغريبة فجأة . واذن فسوف تكون راضيـاً كل الرضا في شارعك المقيت ذاك ، شارع الرجل المسلح . لقد كنت أنا يائسة جداً ، هناك . ماذا تنقم مني ؟ انك تسبب لي كثيراً من المتاعب . »

وغلب عليها الجد فجأة ، وسددت نظرها إلى جان فالجان وأضافت :

— « واذن فأنت لا تريد سعادتي ؟ »

ان السذاجة تنفذ في بعض الاحيان ، على نحو غير واع ، إلى بعيد جداً . فهذا السؤال ، البسيط عند كوزيت ، كان قاسياً عند جان فالجان . لقد ارادت كوزيت ان تخدش ، ولكنها مزقت .

وشحب وجه جان فالجان . واعتصم بالصمت لحظة ، ثم غمغم مخاطباً نفسه في نبرة لا سبيل إلى وصفها :

— « لقد كانت سعادتها هي هدف حياتي . والآن ، قد يومىء الله

الي بالانصراف . كوزيت ، انت سعيدة ، لقد انتهت مهمتي . »

وهتفت :

– « آه ، لقد خاطبني بضمير المفرد ! »

ووثبت إلى عنقه .

وفي وله ، ضمها جان فالجان إلى صدره ، ضماً محموماً . لقد تراءى له انه كاد يستردها من جديد .

وقالت كوزيت له :

– « شكراً لك ، يا أبي ! »

كان الجذل قد أمسى مُمضاً لجان فالجان . وفي لطف ، انسحب جان فالجان من بين ذراعي كوزيت ، وتناول قبعته .

وقالت كوزيت :

– « والآن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

– « سوف اتركك يا سيدتي . انهم في انتظارك . »

ومن على عتبة الباب ، أضاف :

– « لقد خاطبتك بضمير المفرد . قولي لزوجك ان هذا لن يحدث كرة اخرى . انا ارجو عفوك . »

وخرج جان فالجان ، تاركاً كوزيت مشدوهة لهذا الوداع اللغزي :

٢

خطوات اخرى الى الوراء

وفي اليوم الذي تلا ، في الساعة نفسها ، أقبل جان فالجان .

ولم توجه كوزيت ايما سؤال إليه . إنها لم تعد تُظهر الدهش ، لم تعد

تهتف قائلة انها تستشعر البرد ، لم تعد تتحدث عن حجرة الاستقبال . لقد تجنبت التلفظ بـ « يا ابي » أو بـ « مسيو جان » . لقد تركته يتحدث كما يشاء . ولقد أجازت لنفسها ان تخاطب بلفظ « السيدة » . بيد أنها تكشفت عن قدر من البهجة أقل . كان من الجائز أن تكون محزونة ، لو كان الحزن ممكناً بالنسبة اليها .

ولعله قد جرى بينها وبين ماريوس حديث من تلك الأحاديث التي يقول فيها الرجل المحبوب كل ما يشاء ، ولا يشرح شيئاً ، ويفوز برضا المرأة المحبوبة . ان فضول المحبين لا يذهب إلى ما وراء حبهما بكثير.

كانت الحجرة السفلية قد اتخذت زينتها بعض الشيء . كان باسك قد ازال الزجاجات ، وكانت نيقوليت قد ازالت العناكب .

وكل يوم ، كان جان فالجان يفد في الساعة نفسها . كان يجيء يومياً ، بعد ان استشعر انه عاجز عن ان لا يأخذ كلمات ماريوس اخذاً حرفياً . واتخذ ماريوس ترتيبات تجعله غائباً عن المنزل كلما وفد جان فالجان اليه . وألِفَ المنزل طريقة مسيو فوشلوفان الجديدة في الحياة . وساعدته توسين على ذلك ، فكانت تكرر : « لقد كان سيدي هكذا دائماً » . واصدر الجد هذا المرسوم : « إنه شخص شاذ الاطوار » وكانت تلك كلمة الفصل . وإلى هذا ، ففي التسعين يتعذر عقد علاقة جديدة . كل شيء قد رُصف ووضع إلى جانب غيره ؛ إن اما وافد جديد عامل ازعاج ؛ لم يبق ثمة متسع ، كانت جميع العادات قد شُكلت . مسيو فوشلوفان ... مسيو ترانشلوفان ... إن الجد جيلنورمان لم يكن يطلب شيئاً خيراً من تخليصه من « ذلك السيد » . واضاف : « ليس شيء اكثر شيوعاً من هؤلاء الاشخاص الشاذين : إنهم يقومون بمختلف ضروب الاشياء الغريبة . لا دافع على الاطلاق . كان المركيز دو كانابل أسوأ . لقد اشترى قصراً ليعيش في مستودع للحبوب . إنها مظاهر غريبة يتخذها الناس . »

إن احداً لم يلحظ الظلمة التي في الأعماق . وإلى هذا ، فمن الذي كان في استطاعته ان يحزر شيئاً كهذا ؟ ان ثمة مثل هذه المستنقعات في الهند . فالماء يبدو غريباً ، ممتنعاً على التعليل ، مرتعشاً حيث لا ريح تعبث به ، هائجاً حيث ينبغي له ان يكون هادئاً . انت ترى على السطح هذا الغليان الذي لا سبب له ؛ انت لا تلمح الافعى الهيدرية الزاحفة في القعر .

وهكذا فأن لكثير من الناس هولة سرّية ، مرضاً يَغْذونه ، تنيناً يقرضهم ، يأساً يَغْمر ليلهم . مثل هذا الرجل يشبه سائر الناس ؛ إنه يروح وإنه يجيء ، وليس يدري احد انه ينطوي على ألمٍ طفيلي رهيب ذي ألف ضرس ، ألمٍ يحيا في ذلك الرجل البائس الذي يموت به . ان احداً لا يعرف ان هذا الرجل هاوية . إنه راكد ، ولكنه عميق . وبين الفينة والفينة يتبدّى على سطحه اضطراب لسنا نفهم منه شيئاً . إن تغضناً غريباً يتراءى ، ثم يتلاشى ، ثم يعاود الظهور ؛ فقاعة هواء ترتفع وتنفجر . إنه شيء ضئيل ، إنه فظيع . إنه تنفّس الهولة المجهولة .

إن بعض العادات الغريبة ، من مثل المجيء حين يذهب الآخرون ، والانكماش لحظة يتفاخر الناس ، والتجلبب دائماً بما يمكن ان يدعى المعطف الذي بلون الجدار ، والتماس الممر المتوحد ، وتفضيل الشارع المهجور ، وعدم الاهتمام بالمحادثات ، واجتناب الحشود والأعياد ، وظهور امارات النعمة ثم العيش عيش الفقراء ، ووضع المرء — برغم ثروته — مفتاحه في جيبه وشمعته عند البواب ، ودخوله من الباب الجانبي ، وارتقائه السلم الخلفية ، كل هذه الغرائب الضئيلة ، — هذه التجعدات ، فقاقيع الهواء ، الثنيّات الزائلة — كثيراً ما تنبعث من قعر راعب .

وتصرمت على هذا النحو بضعة اسابيع . وشيئاً فشيئاً استحوذت على

كوزيت حياة جديدة ، العلاقات التي يخلقها الزواج ، والزيارات ، والعناية بالمنزل ، والمتع ، هذه المهام الكبيرة . ولم تكن متع كوزيت غالية الثمن ، كان قوامها شيء واحد : أن تكون مع ماريوس . الخروج معه ، البقاء في المنزل معه ، ذلك كان شاغل حياتها الأكبر . كانا يجدان مسرة جديدة بالكلية في الانطلاق ، متشابكي الذراعين ، في وجه الشمس ، في وضح الشارع ، غير متسترين ، وعلى مرأى من الناس جميعاً ، وليس معهما احد البتة . وكان ثمة شيء واحد يسوء كوزيت . إن توسين لم تستطع التفاهم مع نيقوليت ، بعد ان تعذر إدغام احدى العانسين بالأخرى ، ومضت لسبيلها . وكان الجد يتمتع بصحة جيدة . وكان ماريوس يترافع بين الفينة والفينة في بعض القضايا . وعاشت العمة جيلنورمان في دعة ، قرب ربة البيت الجديدة ، تلك الحياة الجانبية التي كانت تكفيها ، وكان جان فالجان يجيء كل يوم .

كان في اقلاعه عن مخاطبتها بضمير المفرد ، وفي اصطناع لفظ « السيدة » و « مسيو جان » ما جعله شيئاً آخر في نظر كوزيت . وكانت العناية التي حاول ان يفصلها بواسطتها عنه قد نجحت معها . لقد غدت مرحة اكثر فأكثر ، رؤوفاً اقل فأقل . بيد أنها ظلت تحبه حباً عظيماً ، ولقد استشعر هو ذلك . وذات يوم ، قالت له فجأة : « لقد كنت ابي ؛ انت لم تعد ابي . لقد كنت عمي ؛ انت لم تعد عمي . لقد كنت مسيو فوشلوفان ؛ أنت الآن جان . من انت اذن ؟ انا لا احب هذا كله . لو لم اكن أعرف انك طيب إلى أبعد الحدود لأخذني الخوف منك . »

وظل يسكن في شارع الرجل المسلح ، غير قادر على توطين العزم على الابتعاد عن الحي الذي تقطن فيه كوزيت .

وفي المرات الأولى كان يمكث مع كوزيت بضع دقائق ليس غير ، ثم يمضي لسبيله .

وشيئاً بعد شيء تعوّد ان يجعل زياراته أطول . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنه أفاد من المثل الذي ضربته الأيام الآخذة في الطول : اصبح يجيء أبكر ، وينصرف في ساعة اكثر تأخراً .

وذات يوم قالت له كوزيت سهواً : « ابي ! » وأضاء وجهَ جان فالجان القاتم وميضٌ من الابتهاج . واجابها : « قولي جان . » فاجابته وقد انفجرت بالضحك : « آه ! صحيح ، مسيو جان . » فقال : « حسن » واستدار لكي لا تراه يكفكف عبراته .

٣

يتذكران حديقة شارع بلوميه

كانت تلك هي المرة الأخيرة . وابتداء من هذه الومضة الختامية ران انطفاء كامل . لا دالة بعد اليوم ، ولا تحية صباح مع قبلة ، ولا كلمة « ابي ! » العذبة إلى أبعد الحدود . لقد طُرد ، بطلب منه وباشتراكه هو ، من كل وجه من وجوه السعادة على نحو متعاقب . لقد تجرع هذا الشقاء : أنه بعد أن فقد كوزيت برمّتها في يوم واحد ، اضطر في ما بعد إلى أن يفقدها جزءاً بعد جزء .

إن العين لتنتهي إلى أن تألف نور الكهف . وعلى الجملة ، فقد كان حَسْبه أن يكحل عينيه بمرأى كوزيت كل يوم . كانت حياته كلها قد تركزت حول تلك الساعة . كان يجلس إلى جانبها ، وينظر اليهـا في صمت ، أو يحدثها عن السنين الخوالي ، عن طفولتها ، عن الدير ، عن اصدقائها في تلك الأيام .

وذات أصيل – كان ذلك في احد أيام نيسان الأولى ، وكان الجو قد أمسى دافئاً ، ولكنه لا يزال على شيء من البرودة ، في تلك اللحظـة الّتي تنعم فيها الشمس بابتهاجها الاعظم ، وقد استشعرت الحدائق المجاورة لنوافذ ماريوس وكوزيت انفعال اليقظة ، وشرع زعرور الأودية يطلع ، وانتظم صف من المنثور المرصع بالجواهر على الجدران العتيقة ، وتثاءبت زهرات أنف العجل في شقوق الحجارة ، وبـدأ العشب يُطلع ، على نحو فاتن ، اقاحيّ وأزرار ذهب ، وبرزت فراشات العام البيضاء لأول مرة ، وجربت الريـح – عازفة الكمان في العرس السرمدي – في الاشجار أول ألحان تلك السيمفونية الفجرية * العظمى الّتي دعاها الشعراء القدامى « عودة الربيع » *renouveau* – في ذلك الاصيل قال ماريوس لكوزيت: « لقد قلنا اننا سوف نذهب لنرى حديقتنا في شارع بلوميه كرة اخرى . فلنذهب . ينبغي ان لا نكون عـاقّين . » وطارا مثل السنونو نحو الربيع. وتركت تلك الحديقة الّتي في شارع بلوميه مثل اثر الضحى في نفسيهما . كانا قد خلّفا وراءهما في الحياة شيئاً أشبه بربيـع حبهما . كان منزل شارع بلوميه ، بوصفه قـد أجِر ، لا يزال ملكاً لكوزيت . وقصدا إلى تلك الحديقة وإلى ذلك المنزل . ووجدا نفسيهما فيه كرة اخرى ، ونسيا نفسيهما هناك . وعند المساء ، في الساعة المعتادة ، وفد جان فالجان إلى شارع فتيات كالفير . وقال له باسك : « لقد خرجت السيدة مع السيد ، ولمّـا يرجعا حتّى الآن . » وجلس في صمت ، وانتظر ساعة . ولم ترجع كوزيت . وحنى رأسه ومضى لسبيله .

وكانت كوزيت منتشية جداً بنزهتها إلى « الحديقة » ، وسعيدة جداً بكونها « قد عاشت يوماً كاملا في ماضيها » حتّى انها لم تتحدث في اليوم التـالي عن ايمـا شيء آخر . ولم يخطر لهـا ببال انهـا لم تر جـان فالجـان .

* نسبة الى الفجر .

وسألها جان فالجان :

— « كيف ذهبتما إلى هناك ؟ »

— « مشياً على الاقدام . »

— « وكيف رجعتما ؟ »

— « في عربة كراء . »

منذ فترة من الزمان وجان فالجان يلاحظ الحياة المقتصدة التي يحياها الزوجان الشابان . وازعجه ذلك . كان اقتصاد ماريوس قاسياً ، وكان للكلمة معناها المطلق عند جان فالجان . وغامر في السؤال :

— « لم لا تقتنيان عربة خاصة ؟ ان عربة جميلة ذات اربع عجلات لا تكلفكما غير خمسمئة فرنك شهرياً . انت غنية . »

فأجابت كوزيت :

— « لست أدري . »

وأضاف جان فالجان :

— « وهذا هو الشأن مع توسين . لقد مضت لسبيلها ، ولكنك لم تستعيضي عنها بغيرها . لماذا ؟ »

— « نيقوليت تكفي . »

— « ولكن ينبغي ان يكون لك فرّاشة . »

— « ألست املك ماريوس ؟ »

— « ينبغي ان يكون لك بيت خاص ، وخدم مخصوصون، وعربة ، ومقصورة في المسرح . ليس ثمة نِعَمٌ لا تستحقينها . لماذا لا تفيدين من ثرائك ؟ الثروة تضاعف السعادة . »

ولم تجب كوزيت بشيء .

ولم تتقاصر زيارات جان فالجان . ما أبعد ذلك عن الصواب ! فحين ينزلق القلب لا نتوقف فوق المنحدر .

وكلما اراد جان فالجان ان يطيل زيارته ، ويجعل الساعات تنقضي من

غير انتباه . كان يأخذ في اطراء ماريوس ؛ كان يذهب إلى أنه وسيم ، نبيل ، شجاع ، ذكي ، فصيح ، طيب . وكانت كوزيت تزايده في ذلك . وكان جان فالجان يأخذ في الاطراء من جديد . إنهما لم يعرفا الصمت قط . فماريوس كلمة لا يتطرق اليها النفاد . كانت ثمة مجلدات في هذه الاحرف الستة . وهكذا كان جان فالجان يوفق إلى البقاء فترة طويلة . كان يستعذب رؤية كوزيت والنسيان بقربها استعذاباً كبيراً . كان ذلك هو الضمادة لجرحه . واتفق عدة مرات أن كان باسك هبط إلى الحجرة السفلية مرتين متواليتين ليقول : « مسيو جيلنورمان أوفدني لأخبر سيدتي البارونة أن مائدة العشاء قد أعدت . »

وفي تلك الايام كان جان فالجان ينقلب إلى منزله وهو مستغرق في التفكير .

هل كان ثمة اذن بعض الصدق في تشبيه جان فالجان باليَفَعة ، ذلك التشبيه الذي تمثّل لعقل ماريوس ؟ هل كان جان فالجان ، في الواقع ، يفعة عنيدة ، يفعة تفدُ لزيارة فراشتها ؟

وذات يوم مكث اكثر من المألوف . وفي اليوم التالي لاحظ انه لم يكن في الموقد نار . وقال في ذات نفسه : « ماذا ! لا نار . » وقدم إلى نفسه هذا التفسير : « هذا طبيعي جداً . نحن في شهر نيسان . لقد انصرمت الايام الباردة . »

وهتفت كوزيت عند دخولها :

— « يا الـهي ! ما أبرد هذه الحجرة ! »

فقال جان فالجان :

— « ولكن لا . »

— « واذن فأنت الذي قلت لباسك ان لا يضرم النار ؟ »

— « نعم . لقد أشرفنا على شهر نوار . »

— « ولكننا نضرم النار حتى حزيران . وفي هذا الكهف يحتاج المرء لى النار طول السنة . »

— « لقد حسبتُ ان النار غير ضرورية . »
فأجابت كوزيت :
— « هي ذي واحدة من فكراتك ! »
وفي اليوم التالي كان في الموقد نار . ولكن الكرسيين ذوَيْ الذراعين كانا قد وضعا في الطرف الآخر من الحجرة ، قرب الباب . وفكر جان فالجان : « ما معنى هذا ؟ »
ومضى التماساً للكرسيين ، وأعادهما إلى مكانهما المألوف قرب الموقد .
ومع ذلك فقد شجعته هذه النار المضرمة من جديد . واطال المحادثة اكثر من المعتاد . وفيما كان ينهض للانصراف ، قالت له كوزيت :
— « لقد قال لي زوجي شيئاً مضحكاً أمس . »
— « وما هو ؟ »
— « قال : ان لدينا دخلا مقداره ثلاثون الف فرنك . سبعة وعشرون تملكينها انت ، وثلاثة اعطاني اياها جدي . فقلت : هذا يجعلها ثلاثين . فسألني : هل تملكين الجرأة على ان تعيشي على الثلاثة الآلاف ؟ فأجبته : نعم ، وعلى لا شيء ، شرط ان يكون ذلك معك . ثم سألته : لماذا تقول لي هذا ؟ فأجاب : لكي اعرف . »
ولم يقل جان فالجان كلمة . ولعل كوزيت كانت تتوقع منه تفسيراً ما . لقد أصغى اليها في صمت فاجع . وانقلب إلى شارع الرجل المسلح . كان مستغرقاً في التفكير إلى درجة جعلته يخطىء الباب . وبدلاً من ان يدخل بيته هو ، دخل البيت المحاذي . ولم ينتبه إلى غلطته إلا بعد ان كاد يصل إلى الدور الثاني ، فهبط السلم كرة اخرى .
كانت الظنون تنكّل بعقله تنكيلا . فقد كان واضحاً ان ماريوس يرتاب في أصل هذه الفرنكات الستمئة الف ، ومن يدري فلعله كان يحسب ان مصدرها غير طاهر . أو لعله كان قد اكتشف ان هذا المال جاء منه هو ، جان فالجان . ولعله ان يكون قد تردد امام هذه الثروة

المريبة ، فكرهَ أن يجعلها ملكاً له ، موثراً ان يظل هو وكوزيت فقيرين، على ان ينعم بثراء تحيط به الشكوك .

وإلى هذا ، فقد استشعر جان فالجان ، على نحو غامض ، انه قد صُرف في خشونة .

وفي اليوم التالي اصيب ، لدن دخوله إلى الحجرة السفلية ، بشيء كالصدمة . كان الكرسيان ذوا الاذرع قد اختفيا . بل لم يكن ثمة كرسي من اي نوع .

وهتفت كوزيت وهي داخلة :

— « والآن ، لا كراسي ! أين الكرسيان ذوا الذراعين اذن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد وليّا . »

— « هذه مسألة طريفة . »

وتمتم جان فالجان :

— « لقد قلت لباسك ان يخرجهما من هنا . »

— « وما سبب ذلك ؟ »

— « أنا لن أبقى غير بضع دقائق اليوم . »

— « إن بقاءك فترة قصيرة ليس سبباً كافياً لوقوفك ما دمت هنا . »

— « أحسب ان باسك قد احتاج إلى بعض الكراسي ذوات الاذرع لغرفة الاستقبال . »

— « لماذا ؟ »

— « لا ريب في ان عندكم ضيوفاً اليوم . »

— « ليس عندنا احد . »

ولم يستطع جان فالجان ان يقول كلمة اضافية .

وهزت كوزيت كتفيها .

— « تطلب إخراج الكرسيين ! وفي ذلك اليوم طلبت ان لا تضرم

النار ! ما أغرب اطوارك ! »

ودمدم جان فالجان :

— « استودعك الله . »

انه لم يقل : « استودعك الله ، يا كوزيت . » ولكنه لم يقوَ على القول « استودعك الله ، يا سيدتي . »

ومضى لسبيله مثقلاً بالغم .

كان هذه المرة قد فهم .

وفي اليوم التالي لم يجيء . ولم تلاحظ كوزيت ذلك إلا مساء .

وقالت :

— « غريب . ان مسيو جان لم يجيء اليوم . »

وألمّ بها شيء أشبه بانقباض ضئيل في الصدر ، ولكنها لم تلحظ ذلك الا بشق النفس ، إذ شغلتها عنه ، في الحال ، قبلة من ماريوس .

وفي اليوم الذي بعده ، لم يجيء أيضاً .

ولم تلق كوزيت بالا إلى ذلك ؛ لقد أمضت السهرة ، ونامت ليلها ذاك ، كالعادة ، ولم تفكر في المسألة إلا بعد ان استيقظت . كانت سعيدة إلى أبعد الحدود ! ووجهت نيقوليت على جناح السرعة إلى منزل مسيو جان لترى ما إذا كان مريضاً ، ولماذا لم يأت البارحة . ورجعت نيقوليت بجواب مسيو جان . إنه لم يكن مريضاً . لقد كان مشغولا . ولسوف يجيء في وقت قريب . في اقرب وقت ممكن . وإلى هذا ، فقد كان يعتزم القيام برحلة صغيرة . والسيدة تذكر انه كان من عادته الارتحال بين الفينة والفينة . فلا داعي للقلق . ولا داعي لأن يشغل احد نفسه بالتفكير فيه .

وكانت نيقوليت قد كررت ، لدن دخولها منزل مسيو جان ، كلمات سيدها بالحرف الواحد . ان السيدة قد بعثتها لتستطلع « لماذا لم يأت مسيو جان البارحة . » فقال جان فالجان في رقة : « لقد تخلفت عن المجيء يومين

متواليين . »

ولكن هذه الملاحظة اخطأت انتباه نيقوليت فلم تنقل شيئاً منهـا إلى كوزيت .

٤
انجذاب وانطفاء

خلال الأشهر الأخيرة من ربيـع ١٨٣٣ والاشهر الأولى من صيف ذلك العـام ، لاحظ عابرو السبيل المتناثرون في الـ « ماريه » ، واصحاب الدكاكين ، والمتعطلون على عتبات الأبواب – لاحظوا رجلا عجوزاً مرتدياً ثوباً نظيفاً يخرج كل يوم ، حوالي الساعة نفسها ، عند هبوط الليل ، من شارع الرجل المسلح ، في اتجاه شارع « سانت كروا دو لا بروتونوري » ، ويجتاز بـ « البلان مانتو » ، إلى شارع « كولتور سانت كاترين » ، ثم ينتهي إلى شارع الـ « إيشارب » ، وينعطف إلى اليسار ، ويدخل شارع « سان لويس » .

هناك كان يمشي في خطى وئيدة ، منكس الرأس ، غير مبصر شيئاً ، غير سامع شيئاً ، مصوّب النظرات على نحو ثابت ، نحو نقطة واحدة ، لا تعرف التغير ، بدت له وكأنها مرصعة بالنجوم ، نقطة لم تكن غير زاوية شارع فتيات كالفير . حتى إذا اقترب من زاوية ذلك الشارع ، كان وجهه يتهلل ، وكان ضرب من البهجة يضيء عينيه مثل هـالة باطنية ، وعلت وجهه سيما مفتونة مشفقة ، وتحركت شفتاه حركـات غامضة وكأنما كان يحدّث شخصاً لم يكن يراه ، ويفترّ ثغره عن ابتسامة كليلة ، ويتقدم بأقصى ما يستطيـع من البطء . كان في ميسور المرء ان يقول انه على الرغم من رغبته في الوصول إلى مكان ما ، كان يخشى

اللحظة التي يقترب فيها منه . حتى إذا لم يبق بينه وبين ذلك الشارع الذي بدا وكأنه يجذبه غير بيوت قليلة كانت خطاه تنتهي إلى بطء شديد حتى لتحسب في بعض الأحيان أنه كفّ عن السير . كان تذبذب رأسه وثبات عينه يذكرانك بالابرة الباحثة عن القطب . بيد أنه كان يصل آخر الأمر ، مهما بذل من اجل تأخير ذلك . كان يصل إلى شارع فتيات كالفير . وهناك كان يقف ، وكان يرتعد ، وكان يضع رأسه بضرب من الجبن القاتم خلف زاوية المنزل الأخير ، وينظر إلى ذلك الشارع ، وكان في تلك النظرة الفاجعة شيء يشبه الانشداه بالمستحيل وانعكاس اضواء فردوس محرّم . ثم إن دمعة كانت قد تجمعت شيئاً فشيئاً في زاوية عينه ونمت إلى حد يمكنها من الانحدار كانت تنزلق على خده وتقف في بعض الأحيان عند فمه . وكان الرجل العجوز يذوق مرارتها . وكان يظل هكذا بضع دقائق ، وكأنه قد تحول إلى حجارة . ثم إنه كان يرجع من الطريق نفسها وبالخطوة نفسها . وكلما ابتعد انطفأت تلك النظرة .

وشيئاً بعد شيء كف هذا العجوز عن التقدم حتى زاوية شارع فتيات كالفير . كان يقف عند منتصف شارع سان لويس . وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أبعد قليلا ، وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أقرب قليلا . وذات يوم ، وقف عند زاوية شارع « كولتور سانت كاترين » ونظر إلى شارع فتيات كالفير من بعيد . ثم إنه حرك رأسه ، في صمت ، من اليمين إلى الشمال ، وكأنه كان يأبى على نفسه شيئاً ، وارتد على عقبيه .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقلع عن التقدم إلى شارع سان لويس نفسه . كان ينتهي إلى شارع « بافيه » ، ويهز رأسه ، ويعود أدراجه . ثم إنه ما عاد يمضي إلى أبعد من شارع الـ « تروا بافيون » ؛ ثم أمسى لا يتخطى الـ « بلان مانتو » . لكأنه رقاص ساعة لم يدوَّر ، فذبذباته تتقاصر ريثما تقف نهائياً .

وكل يوم ، كان يغادر بيته في الساعة نفسها ، ويشخص إلى الغاية نفسها ، ولكنه يرتد قبل بلوغها ، ويقصّرها – وربما على نحو غير واع – تقصيراً موصولا . كان محياه كله يفصح عن هذه الفكرة الوحيدة : ما الفائدة ؟ كانت حدقته قد خبت ، فليس فيهما بعدُ إشعاع . وكانت الدمعة قد ولت أيضاً ، إنها لم تعد تتجمع عند زاوية الجفن . كانت تلك العين المفكرة جافة . كان رأس الرجل العجوز منكساً ما يزال ؛ وكانت ذقنه ترتعش في بعض الاحيان ؛ وكان النظر إلى تجعدات رقبته المهزولة يوقع الألم في النفس . واحياناً ، حين تكون الحال الجوية سيئة ، كان يتأبط مظلة لا يفتحها ابداً . وكانت نسوة الحي الطيبات يقلن : « إنه ساذج » . وكان الاطفال يلحقون به ضاحكين .

الكتاب التاسع

ظلمة عظمى وفجر أعظم

١

شفقة للتعيس ولكن
رفق بالسعيد

أن نكون سعداء – ذلك شيء فظيع ! ما أشد سرورنا بهذا ! وما اكثر ما نجده كافياً ! وما اكثر ما ننسى ، حين نملك هدف الحياة الزائف ، السعادة ، الهدفَ الحقيقي منها : الواجب !

ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول إن من الظلم ان نلوم ماريوس .

إن ماريوس لم يوجه قبل زواجه – كما سبق منا القول – أيما سؤال إلى مسيو فوشلوفان ، ولقد خشي ، منذ زواجه ذاك ، ان يوجه أيما

سؤال إلى جان فالجان . كان قد ندم للوعد الذي اجاز لنفسه أن تُستدرج اليه . وكثيراً ما قال في ذات نفسه انه أخطأ في تساهله مع اليأس . لقد اجتزأ بالعمل لابعاد جان فالجان ، شيئاً بعد شيء ، عن منزله ، ولمحوه جهد الطاقة من ذهن كوزيت . لقد وضع نفسه على نحو موصول — وبطريقة ما — بين كوزيت وجان فالجان ، واثقاً من انها ، على هذه الصورة ، لن تلحظه ولن تفكر فيه البتة . كان ذلك اكثر من محو ، كان كسفاً .

لقد عمل ماريوس ما قدّر أنه ضروري وصائب . لقد اعتقد انه كانت لديه — لاقصاء جان فالجان ، في غير خشونة ، ولكنْ في غير ضعف — اسباب جدية رأينا بعضها من قبل ، وسنرى بعضها الآخر في ما بعد . لقد اتفق له ان اجتمع ، في قضية كان يترافع فيها ، بموظف عجوز في مصر لافيت ، فاطّلع — من غير ان يسعى إلى ذلك — على بعض المعلومات الغامضة التي لم يستطع ، في الواقع ، آن يسبر غورها احتراماً منه لذلك السر الذي وعد بصيانته ، ومراعاةً منه لمركز جان فالجان المحفوف بالخطر . ولقد اعتقد ، في تلك اللحظات نفسها — ان عليه واجباً خطيراً يجب اداؤه ، وهو إعادة الستمئة الف فرنك إلى شخص ما ، راح هو — ماريوس — يبحث عنه باكثر ما يكون من الحذر . وفي غضون ذلك تفادى استعمال هذه الثروة .

أما كوزيت فلم تكن على علم بأي من هذه الأسرار . ولكن من القسوة ادانتها أيضاً .

كانت تفيض من ماريوس نحوها مغناطيسية كلية القدرة تضطرها إلى ان تعمل ، غرزياً بل آلياً تقريباً ، ما يتمناه ماريوس . لقد استشعرت ، في ما يتصل بـ « مسيو جان » ، ارادة من ماريوس ؛ وأذعنت لها . ولم يكن عند زوجها شيء يقوله لها . لقد عرفت ضغط رغباته غير الملفوظة ، ولكنِ الواضحة ، وخضعت له خضوعاً أعمى .

وكان خضوعها هنا ينهض على عدم تذكّرها ما نسيه ماريوس . وما كان لها أن تبذل أيما جهد في ذلك . فمن غير أن تدري هي نفسها لماذا ، ومن غير ان يكون ثمة أيما دليل يساعد على لومها ، كانت روحها قد غدت روحَ زوجها بحيث أن كل ما جلله الظلام في ذهن ماريوس أظلم في ذهنها .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نذهب إلى بعيد جداً . ففي ما يتصل بجان فالجان لم يكن هذا النسيان وهذا المحو إلا سطحيين . كانت ذاهلة اكثر منها ناسية . كانت في أعمق أعماقها تحب ذلك الذي طالما نادته « يا ابي ! » . ولكنها أحبت زوجها اكثر . كان ذلك هو الذي ذهب بتوازن ذلك القلب ، المائل في ناحية مفردة .

واتفق لكوزيت ان تحدثت ، ذات مرة ، عن جان فالجان واظهرت دهشها . فما كان من ماريوس إلا أن هدأ روعها : « انه غائب ، في ما اظن . ألم يقل انه سوف يقوم برحلة ؟ » فقالت كوزيت في ذات نفسها : « هذا صحيح . كان من عادته الاختفاء على هذه الشاكلة . ولكن غيابه لم يكن يطول إلى هذا الحد . » ومرتين أو ثلاث مرات ارسلت نيقوليت لتسأل في شارع الرجل المسلح ما إذا كان مسيو جان قد رجع من رحلته وكان جان فالجان يجيب أن لا .

ولم تجدد كوزيت السؤال بعد . فقد كان لها مطلب واحد في هذا الوجود : ماريوس .

ويتعين علينا ان نقول إن ماريوس وكوزيت كانا بدورهما غائبين أيضاً. كانا قد ذهبا إلى فيرنون . كان قد مضى بكوزيت إلى ضريح أبيه .

كان ماريوس قد استل كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، من جان فالجان. وانقادت كوزيت لارادته .

وإلى هذا ، فأن ما ندعوه بكثير من القسوة ، في بعض الأحوال ، عقوق الاولاد ليس ، دائماً ، شيئاً يستحق اللوم بقدر ما نعتقد . إنه

عقوق الطبيعة . فالطبيعة ، كما قلنا في مكان آخر ، «تنظر إلى أمام» . والطبيعة تقسم الكائنات الحية إلى مقبلين وموَلّين . فأما المولون فتوجّه وجوههم نحو الظلام ، وأما المقبلون فتوجّه وجوههم نحو النور . ومن هنا ينشأ تباعد هو ، من ناحية الشيوخ ، محتوم ، ومن ناحية الجيل الطالع غير إرادي . وهذا التباعد ، غير المدَرك في بادىء الأمر ، يتعاظم تدريجياً ، ككل تباعد بين الاغصان . ان الأفنان لتبتعد عن الجذع من غير ان تنفصل عنه . هذه ليست خطيئتها . الشباب يمضي إلى حيث الابتهاج : إلى الاحتفالات ، إلى الاضواء الساطعة ، إلى الحب . والشيخوخة تمضي إلى غايتها . إن احدهما لا يغيب عن بصر الآخر ، ولكن الصلات بينهما تتراخى . ان أفراد الجيل الطالع يستشعرون برد الحياة ، والشيوخ يستشعرون برد القبر . فيتعين علينا أن لا نلوم هؤلاء الأطفال المساكين .

٢
آخر خفقات المصباح
الذي نفد زيته

وذات يوم هبط جان فالجان سلّم منزله ، وخطا في الشارع ثلاث خطوات ، وجلس على معْلم من معالم الطريق ، ذلك المعلم عينه الذي وجده غافروش جالساً فوقه ، ليل الخامس من حزيران ، مستغرقاً في التفكير . ومكث هناك بضع دقائق ، ثم عاود الصعود إلى منزله من جديد ــ كانت هذه آخر ذبذبة من ذبذبات الرقاص . وفي غد ، لم يغادر غرفته : وفي اليوم الذي تلا ، لم يغادر فراشه .

ونظرت بوابته – التي قدمت اليه طعامه الهزيل : بعض الكرنب وقليلا من البطاطس مع شيء من شحم الخنزير – نظرت إلى القصعة الفخارية السمراء ، وهتفت :

– « ولكنك لم تأكل اي شيء أمس ، ايها الرجل البائس العزيز . »

فأجاب جان فالجان :

– « اجل ، لقد فعلت . »

– « القصعة ما تزال ملأى . »

– « انظري إلى آنية الماء . إنها فارغة . »

– « هذا يُظهر انك شربت . إنه لا يظهر انك أكلت . »

فقال جان فالجان :

– « حسناً ، وافرضي اني لم اكن جائعاً إلا للماء ؟ »

– « هذا يدعى العطش . وحين لا يأكل المرء شيئاً في الوقت نفسه ندعو ذلك حمّى . »

– « سوف آكل غداً . »

– « أو في عيد الثالوث الأقدس . لماذا لا تأكل اليوم ؟ هل يقول الناس : سوف آكل غداً ! انك تترك لي قصعتي كلها من غير ان تمسها ! إنها ملفوفاتي التي كانت جيدة جداً . »

وأمسك جان فالجان يد المرأة العجوز . وقال لها في صوته العطوف :

– « أعدك بأن آكلها . »

فأجابت البوابة :

– « أنا لست راضية عنك . »

ولم ير جان فالجان قط كائناً بشرياً غير هذه المرأة الصالحة . إن في باريس شوارع لا يسير فيها أحد ، وبيوتاً لا يفد إليها أحد . وكان

جان فالجان في واحد من هذه الشوارع ، وكان في واحد من تلك المنازل .

وكان قد اشترى ، قبل ان ينقطع عن الخروج من منزله ، صليباً نحاسياً صغيراً من عند احد النحاسين ، مقابل بضعة دريهمات ، وكان قد علق ذلك الصليب – وقد نُحت عليه جسد المصلوب – تجاه سريره . ان الصليب شيء يحسن النظر اليه دائماً .

وتصرم اسبوع ، ولم يكن جان فالجان قد خطا في غرفته أيما خطوة. كان لا يزال في سريره . وقالت البوابة لزوجها : « إن الرجل الذي فوق لم يعد يقوم من فراشه أبداً ، لم يعد يأكل ابداً ، وهو لن يعيش طويلا . إن له احزانه . وليس في استطاعة احد ان ينزع من رأسي هذه الفكرة : أن ابنته لم توفق في زواجها . »

وأجاب البواب . في نبرة السيادة الجديرة بالازواج :

– « إذا كان غنياً فليستدع طبيباً . وإذا لم يكن غنياً فلا داعي لأن يستدعي طبيباً . وإذا لم يستدع طبيباً فعندئذ يموت . »

– « وإذا استدعى طبيباً ؟ »

فقال البواب :

– « يموت أيضاً . »

وشرعت البوابة تحرث الارض ، بسكين عتيقة ، حول عشب كان قد نجم في ما كانت تدعوه رصيفها . وفيما كانت تقتلع العشب ، غمغمت :

– « شيء مؤلم . رجل عجوز نظيف جداً . إنه أبيض مثل الدجاجة . »

ورأت طبيباً من اطباء الحي يجتاز بأقصى الشارع . فأخذت على عاتقها التوسل إليه أن يصعد .

وقالت له :

— « إنــه في الدور الثاني . ليس عليك إلا ان تدخل . إن المفتاح هو دائماً في الباب بعد ان عجز الرجل عن مفارقة سريره . »

ورأى الطبيب جان فالجان ، وتحدث اليه .

وحين هبط السلم استجوبته البوابة :

— « حسناً ، أيها الطبيب ؟ »

— « إن مريضك مريض جداً . »

— « مم يشكو ؟ »

— « من كل شيء ، ومن لا شيء . إنــه رجــل يستدل من جميع المظاهر انــه فقد شخصاً أثيراً لديه . إن المرء ليموت بسبب من ذلك ؟ »

— « ماذا قال لك ؟ »

— « لقد قال ان حاله حسنة . »

— « هل سترجع كرة ثانية . أيها الطبيب ؟ »

فـأجاب الطبيب :

— « أجل . ولكن شخصاً آخر غيري ينبغي أن يرجع . »

٣

ريشة ترهق ذلك الذي رفع كارّة فوشلوفان

وذات مساء وجد جان فالجان عسراً في رفع نفسه على مرفقـه وجسّ معصمه ، فلم يجد اي نبض . كان نفَسه قصيراً ، وكان ينقطع بين الفينة والفينة . وادرك انه أضعف ممـا كان في أيما وقت مضى . ثم إنـه بذل جهداً . تحت ضغط رغبة عليا من غير شك ، وجلس في

فراشه ، وارتدى ملابسه : لقد لبس ثوبه العمالي العتيق . كان قد عاد إليه ، بعد أن أقلع عن الخروج من غرفته ، وكان يؤثره . وتعين عليه أن يتمهل عدة مرات اثناء اللبس . وكان في مجرد ارتدائه صدرته ما جعل العرق يتحدر على جبينه .

ومنذ أن أمسى وحيداً كان قد وضع سريره في غرفة الانتظار لكي يحتل هذا البيت المهجور اقل ما يكون الاحتلال .

وفتح الحقيبة ، وأخرج ملابس كوزيت .

ونشرها على سريره .

كان شمعدانا الأسقف في مكانهما ، على الموقد . واخرج شمعتين من احد الادراج ، ووضعهما في الشمعدانين . ثم اشعلهما ، على الرغم ان الشمس ما زالت مشرقة ، فقد كان الفصل صيفاً . إننا نرى المشاعل مضاءة في وضح النهار . أحياناً ، في الغرف التي يستلقي فيها الأموات .

كانت كل خطوة يخطوها في الانتقال من احدى قطع الاثاث تضنيه ، وكان مضطراً إلى الجلوس . إنه لم يكن ذلك التعب العادي الذي ينفق القوة لكي يجددها ، كان بقيةَ الحركة الممكنة . كان هو الحياة المستنفَدة تُعتصر قطرةً قطرةً في جهود مرهقة لن تُبذل كرة ثانية .

وكان احد الكراسي التي ارتمى فيها قائماً أمام تلك المرآة ، المشؤومة جداً بالنسبة إليه ، السماوية جداً بالنسبة إلى ماريوس ، التي كان قد قرأ فيها مذكرة كوزيت ، مقلوبة على ورق النشاف . لقد رأى نفسه في هذه المرآة ، فلم يعرف نفسه . كان في الثمانين . أما قبل زواج ماريوس فكان المرء لا يحسب أنه في الخمسين إلا بكثير من العسر . كانت هذه السنة بمثابة ثلاثين سنة . إن ما ران على جبينه الآن لم يكن تغضُّن الشيخوخة ، ولكن أمارة الموت الخفية . كنت تلمح هناك أثر المخلب الذي لا يعرف الرحمة . كان خداه غائرين ، وكانت بشرة

وجهه ذات لون يوحي بأن الثرى قد علاها منذ الآن . وكانت زوايا فمه قد انخفضت وكأنها في ذلك القناع الذي كان القدماء ينحتونه على قبورهم . وكان ينظر إلى الفراغ نظرة تأنيب ، ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسبه واحداً من تلك الكائنات الجليلة الفاجعة التي تنهض شاكية شخصاً ما .

كان في تلك الحال — آخر مراحل الأعياء — التي ينقطع فيها الألم عن الجريان . لقد تخثر ، إذا جاز التعبير . لكأن النفس قد غطيت بجلطة يأس .

كان الليل قد هبط . وفي كثير من العناء جر احدى الطاولات وذلك الكرسي العتيق ذا الذراعين إلى مقربة من الموقد . ووضع على الطاولة ريشة ، وحبراً ، وورقاً .

حتى إذا تم له ذلك أصيب بأغماء . وحين ثاب إلى رشده ، شعر بظمأ . واذ عجز عن رفع آنية الماء ، فقد حناها نحو فمه ، في مشقة ، وشرب جرعة .

ثم التفت إلى السرير ، ونظر — وهو لا يزال جالساً لأنه لم يستطع البقاء واقفاً — إلى الثوب الاسود الصغير وجميع تلك الاشياء الاثيرة لديه .

مثل هذه التأملات تدوم ساعات تبدو وكأنها دقائق . وفجأة ارتعد . واستشعر ان البرد قد أصابه . وانحنى فوق الطاولة المضاءة بشمعداني الاسقف ، وامسك بالريشة .

واذ كان كل من الحبر والريشة لم يستعمل منذ عهد بعيد ، وكان رأس الريشة مرتداً إلى الوراء ، وكان الحبر قد جف ، فقد اضطر إلى ان ينهض ويضع في الحبر بضع قطرات من الماء ، وهو شيء لم يستطع ان يقوم به من غير ان يتمهل ويقعد مرتين أو ثلاث مرات ، وقد اضطر إلى ان يكتب بظهر الريشة . وكان، بين الفينة والفينة، يمسح جبينه .

وارتعشت يده . وفي بطء ، خط الاسطر القليلة التالية :

« كوزيت ، إنني اباركك . سوف اقدم اليك تفسيراً . لقد كان زوجك على حق في إشعاري بأن علي ان انصرف . ومع ذلك فان ثمة بعض الخطأ في الذي اعتقدَه ، ولكنه كان على حق . إنه ممتاز . وحين اموت ، أحبيه دائماً حباً جماً . وانت يا مسيو بونمبرسي . أحب دائماً طفلتي الحبيبة . كوزيت ، إن هذه الورقة سوف توجَد ، هذا ما اريد ان اخبرك إياه ، ولسوف تقرأين ارقاماً . إذا كانت لي القدرة على تذكّرها ؛ إسمعي جيداً ، إن هذا المال هو لك حقاً . وهذه هي القصة كاملة : إن الكهرمان الابيض يجيء من نروج ، والكهرمان الاسود يجيء من انكلترة ، وتقليدها الزجاجي الأسود يجيء من المانية . والكهرمان اخف ، وأنفس ، أغلى . وفي استطاعتنا ان نقلده في فرنسة كما يقلدونه في المانية . وهو يقتضي سنداناً صغيراً مساحته بوصتان مربعتان ومصباحاً على الكحول لأسالة الشمع . وكان الشمع يصنع في ما مضى من صمغ الصنوبر وسواد الدخان ، وكانت الاوقية تكلف اربعة فرنكات . وقد تراءى لي ان أصنعه من صمغ اللك وصمغ البطم . وهذا لا يكلف غير ثلاثين سو ، وهو أفضل بكثير . والابازيم تصنع من زجاج بنفسجي نلصقه بواسطة هذا الشمع بقطعة صغيرة مدورة من حديد أسود . والزجاج يجب ان يكون بنفسجياً للحلى الحديدية ، وأسود للحلى الذهبية . واسبانية تشتري مقادير كبيرة منها . تلك هي بلاد الكهرمان .... »

وهنا كف عن الكتابة ، وسقطت الريشة من بين اصابعه ، وأطلق احدى تلك الزفرات اليائسة التي كانت تصعد احياناً من أعماق وجوده . وامسك الرجل البائس رأسه بين يديه ، وانشأ يفكر .

وهتف في ذات نفسه — وتلك صيحات محزنة لا يسمعها غير الله :

— « اوه ! قضي الأمر . أنا لن اراها بعد اليوم . إنها ابتسامة

عبرت فوقي : سوف ادخل في الظلام من غير ان اراها مجرد رؤية ، كرة اخرى . اوه ! دقيقة ! لحظة ! لكي اسمع صوتها ، لكي ألمس ثوبها ، لكي انظر اليها ، هي ، الملاك ! وبعد ذلك اموت . ليس الموت شيئاً ذا بال ، ولكن الشيء الرهيب ان اموت من غير ان اراها : انها خليقة بأن تبتسم لي ؛ وانها خليقة بأن تقول لي كلمة . هل في ذلك ما يؤذي احداً ؟ لا ، لقد قضي الأمر ، إلى الابد . ها انا ذا في وحدة مطلقة . يا الـهي ! يا الـهي ! انا لن اراها بعد ابداً . »

وفي تلك اللحظة خفق شخص الباب .

٤
زجاجة حبر لا توفق
الى اكثر من التبييض

في ذلك اليوم نفسه ، أو في ذلك المساء نفسه على الأصح ، لحظة غادر ماريوس المائدة وأوى إلى مكتبه ، إذ كان لديه ملف اوراق ينبغي ان يدرس ، قدم اليه باسك رسالة وقال :

— « إن الشخص الذي كتب هذه الرسالة هو في غرفة الانتظار . »

كانت كوزيت قد تأبطت ذراع جدها ، وراحت تتجول في الحديقة .

إن الرسالة قد يكون لها ، كما للرجل ، مظهرٌ مقيت . ورق خشن ، طية غليظة ، إن مجرد النظر إلى بعض الرسائل ليسوء . ولقد كانت الرسالة التي حملها باسك من هذا الضرب .

وتناولها ماريوس . كانت رائحة التبغ تفوح منها . وليس ثمة ما

يوقظ الذكريات مثل الرائحة . وعرف ماريوس هذا التبغ . ونظر إلى العنوان : « إلى سيدي ، السيد البارون بوميرسي . في قصره . » وقادته معرفته للتبغ إلى أن يعرف الخط . وفي استطاعة المرء ان يقول ان للدهش بروقه . لكأن ماريوس كان قد استضاء بواحد من تلك البروق .

وأحيت حاسةُ الشم ، ذلك المذكِّرُ الخفي ، عالماً كاملا في ذات نفسه . هنا كان الورق نفسه ، وطريقة الطي ، وشحوب الحبر ، هنا كان في الواقع ذلك الخط المعروف ؛ وفوق كل شيء ، هنا كان التبغ . وبدا أمامه مسكن جوندريت الحقير .

وهكذا ، نزوة غريبة من نزوات المصادفة ! ان أحد ذينك الاثرين اللذين طالما بحث عنهما ، ذلك الاثر الذي عاد فبذل مؤخراً جهوداً كبيرة للاهتداء إليه والذي اعتقد انه ضاع إلى الأبد ، إن ذلك الآثر جاء بنفسه اليه .

وكسر الختم في لهفة ، وقرأ :

« سيدي البارون ، لو ان الكائن الأسمى اعطاني المواهب لذلك ، اذن لكان من الجائز ان أكون البارون تينار ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، ولكني لست كذلك . انا احمل الاسم نفسه ليس غير ، واني اكون سعيداً إذا ما كان في هذه الذكرى ما يدخلي رحاب جودك . والمنة التي ستشرفني بها سوف تكون متبادلة . انا املك سراً يتصل بشخص ما . وهذا الشخص يهمك . واني لأحتفظ بالسر واضعاً اياه بتصرفك ، راغباً في ان أتشرف بأن اكون ذا فائدة لك . سوف اقدم اليك الوسيلة البسيطة لكي تطرد من اسرتك النبيلة ذلك الشخص الذي لا حق له فيها ، باعتبار ان السيدة البارونة ذات محتد رفيع . إن هيكل الفضيلة لا يستطيع ان يؤوي الجريمة اكثر مما فعل من غير ان يتخلى عن مكانته .

« أنا أنتظر في غرفة الانتظار أوامر سيدي البارون ...
مع الاحترام » .

وكانت الرسالة موقعة **هكذا** : « تينار ».

ولم يكن ذلك التوقيع كاذباً . لقد كان مختصراً بعض الشيء ، ليس غير .

وإلى هذا . فان ذلك الانشاء المتهافت وذلك الخط أتمّا كشف النقاب . كانت شهادة المنشأ كاملة . ولم يكن ثمة مجال لأيما شك .

وكان انفعال ماريوس عميقاً . فبعد شعور المفاجأة استحوذ عليه شعور بالسعادة . فليجد الآن الرجلَ الآخر الذي التمسه ، الرجل الذي انقذه ، هو ماريوس ، وهل كان ثمة ما يتمناه غير ذلك ؟

وفتح احد ادراج مكتبه ، واخرج بعض الاوراق النقدية ، ووضعها في جيوبه . واغلق درج المكتب ، وقرع الجرس . وفتح الباب نصف فتحة :

وقال ماريوس :

— « أدخله . »

ونادى باسك :

— « مسيو تينار . »

ودخل رجل .

مفاجأة اخرى لماريوس . كان الرجل الذي دخل مجهولا عنده بالكلية.

وكان هذا الرجل — العجوز — ذا أنف ضخم ، وذقن ملتصقة برباط رقبته ، ونظارتين خضراوين ذواتي عاكستين للنور من حرير اخضر فوق العينين ، وشعر مصقول وململس ، وجبين قريب إلى الحاجبين ، مثل الشعر المستعار الذي يرتديه سائقو العربات الانكليز العاملون في خدمة النبلاء . كان شعره أشيب . وكانت ثيابه سوداء كلها ، من أعلى الرأس

لى أخمص القدم ، وكانت تلك الثياب بالية ، ولكنها نظيفة . وكانت حزمة من الجواهر الرخيصة المتدلية من جيب صدرته توحي بأنه يحمل ساعة . وكان يمسك بيده قبعة عتيقة . ولقد مشى في انحناء ، ولقد زاد انحناء ظهره في انخفاض سلامه .

وكان الذي لفت نظر ماريوس للوهلة الأولى ان ثوب هذا الرجل ، الفضفاض اكثر مما ينبغي ، على الرغم من انه مزرّر في عناية ، بدا وكأنه لم يُجعل له اصلا .

وهنا لا بد من استطراد قصير .

كان في باريس ، لذلك العهد ، في مسكن عتيق بشارع « بوتريبي » ، قرب دار الصناعة ، يهودي نابغة مهنته تحويل النذل إلى رجل فاضل . ولكن ليس إلى فترة طويلة جداً ، مما قد يكون مربكاً للنذل . وكان ذلك التحويل يُجرى بالنظر ومن غير مقياس ، ليوم أو يومين ، مقابل ثلاثين سو يومياً ، بواسطة بذلة تشبه إلى أقصى حدود الامكان بذلات الافاضل من الناس على العموم . وكان مؤجر البذلات هذا يدعى «المغيّر» ؛ كان لصوص باريس قد خلعوا عليه هذا الاسم ، فهم لا يعرفونه إلا به . كانت عنده خزانة ملابس كاملة إلى حد ما . وكانت الاسمال التي يُلبسها زبائنَه محترمة تقريباً . كانت سلعه تنقسم إلى صنوف وانواع . وفوق كل مسمار في دكانه ، كانت حالة اجتماعية تتدلى بالية رثة . فهنا ثوب الحاكم ، وهناك ثوب الكاهن ، وهنالك ثوب المصرفي . وفي هذه الزاوية ثوب الجندي المتقاعد ، وفي تلك الزاوية ثوب الاديب ، وفي مكان أبعد ثوب رجل الدولة . وكان هذا الرجل هو الذي يقدم الملابس للدرامة الهائلة التي يمثلها المكر في باريس . كان كوخه هو المقصورة التي تنطلق منها اللصوصية ، وينقلب اليها الاختلاس . ووفد على هذه الخزانة نذل رث الثياب ، ودفع ثلاثين سو ، واختار — وفقاً للدور الذي اراد ان يمثله ذلك اليوم — الثوبَ الذي يلائمه ، وحين رجع

إلى الشارع كان النذل قد أمسى شخصاً ما . وفي اليوم التالي ، اعيدت الثياب في أمانة ؛ إن « المغير » الذي استودع اللصوص كل شيء لم يُسرق قط . وكانت لهذه الملابس علة واحدة ، وهي انها « لا تلائم » . كانت بوصفها غير مخيطة خصيصاً لمن يلبسونها ضيقة على هذا الرجل ، فضفاضة على ذاك ، غير مناسبة لأحد . وكان كل لص متجاوز للمتوسط البشري في الضآلة أو الضخامة لا يستشعر الراحة في ثياب « المغير » . ان عليه ان لا يكون بديناً أكثر مما ينبغي ، أو هزيلا اكثر مما ينبغي . لقد أعد العدة للرجال العاديين فحسب . وكان قد أخذ مقاييس النوع في شخص أول وغد صادفه ، ولم يكن هذا الوغد لا بديناً ولا هزيلا . ولم يكن لا طويلا ولا قصيراً . ومن هنا بعض التعديلات ، العسيرة احياناً ، التي كان زبائن « المغير » يستعينون بها لتحقيق اغراضهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . أما الشواذ فلأمهم الهبل ! فثوب رجل الدولة ، مثلا ، الأسود من أعلى إلى أدنى ، والموافق بالتالي ، قد يكون كبيراً اكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « بت » ، وصغيراً اكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « كاستلسيكالا » . وكان ثوب « رجل الدولة » موصوفاً على النحو الآتي في بيان « المغير » — ونحن ننسخ ذلك نسخاً : « سترة من جوخ أسود ، وبنطلون جلدي من صوف أسود مقصّر ، وصدرة حريرية ، وحذاء عالي الساق ، وبياضات . » وكان في الهامش : « سفير قديم » وملاحظة ننسخها هنا أيضاً : « في صندوق خاص لمة مستعارة مجعدة على نحو دقيق ، ونظارتان خضراوان ، وجواهر زهيدة القيمة ، وقلمان صغيران من ريش الطير طول كل منهما بوصة ملفوفان بالقطن . » كان هذا كله خاصاً برجل الدولة ، السفير القديم . وكان هذا الثوب كله ، إذا جاز لنا ان نصطنع الكلمة ، مضنىً . كانت الدرزات قد اخذت في الابيضاض ، وكانت عروة غير محددة تبرز في احد المرفقين ، وفوق هذا كان احد الازرار يعوز الثوب فوق صدر السترة . ولكن هذه لم

تكن غير مسألة ثانوية . ولما كان من الواجب ان تظل يد رجل الدولة داخل الثوب دائماً ، وفوق القلب ، فقد كانت وظيفتها اخفاء الزر الغائب .

ولو ان ماريوس كان على معرفة بمؤسسات باريس الخفية اذن لتبيّن في الحال ، على ظهر الزائر الذي ادخله باسك اللحظةَ عليه ، سترةَ رجل الدولة المستعارة من خزانة « المغيّر » .

وانقلبت خيبة أمل ماريوس — لدن رؤيته شخصاً آخر يدخل عليه غير الذي توقعه — إلى كراهية للوافد الجديد. وأجال بصره فيه من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، فيما انحنت الشخصية في افراط . وسأله في نبرة حادة :

— « ماذا تريد ؟ »

واجاب الرجل في تكشيرة أنيسة تستطيع ابتسامة التمساح الملاطفة ان تعطي فكرة عنها :

— « يبدو لي من المستحيل ان لا اكون قد حظيت حتى الآن بشرف رؤية سيدي البارون في المجتمع . انا أعتقد في الواقع اني لقيته على نحو خصوصي منذ بضع سنوات في قصر السيدة الأميرة باغراسيون ، وصالونات صاحب السمو الفيكونت دامبري ، عضو المجلس الاعلى . »

إنها لوسيلة ناجحة دائماً ، في عالم اللصوصية والنذالة ، أن تعرف شخصاً لست تعرفه .

وأصغى ماريوس ، في انتباه ، إلى صوت هذا الرجل . وترصّد نبرته واشاراته في لهفة ، ولكن خيبة أمله تعاظمت . كان لفظاً أخن ، مختلفاً كل الاختلاف عن الصوت الحاد الجاف الذي توقّعه . واخذه انشداه كامل .

وقال :

— « لست اعرف لا مدام باغراسيون ، ولا مسيو دامبري . أنا لم أطأ طوال عمري بيت هذه أو ذاك . »

كان الجواب فظاً . ولكن الشخص اصر ، رغم ذلك ، في لطف :

ـ « إذن فينبغي ان اكون قد رأيت سيدي في بيت شاتوبريان ! أنا أعرف شاتوبريان جيداً . إنه لطيف جداً . وهو يقول لي احياناً : تينار ، يا صديقي ، اتحب ان تشرب معي كأساً ؟ »

وغدا جبين ماريوس كالحاً اكثر فأكثر :

ـ « أنا لم اتشرف في يوم من الايام بزيارة مسيو دو شاتوبريان . اختصر ! ماذا تريد ؟ »

وتجاه الصوت الاشد قسوة ، انحنى الرجل انحناءة اكبر .

ـ « سيدي البارون ، تنازلْ وأصغِ الي . إن في اميركة ، في منطقة باناما ، قرية تدعى لا جويا . وهذه القرية مؤلفة من بيت واحد . بيت ضخم ، مربع ، ذي ثلاثة ادوار بنيت من لبن ، وطول كل ضلع من أضلاع المربع خمسمئة قدم ، وكل دور يرتدّ اثني عشر قدماً وراء الدور القائم تحته ، بحيث يترك امامه سطيحة تحيط بالبناء ؛ وفي الوسط فناء داخلي فيه مؤن وذخائر . لا نوافذ ولكن كوى . لا ابواب ، ولكن مراق ، مراق للصعود من الارض إلى السطيحة الأولى ، ومن الأولى إلى الثانية ، ومن الثانية إلى الثالثة ، مراق للهبوط إلى الفناء الداخلي . لا أبواب للغرف ، ولكن مداخل أفقية . لا سلالم إلى الغرف ، ولكن مراقٍ . وفي الليل تغلق المداخل الافقية ، وتسحب المراقي إلى الوراء ، وتُسدد البنادق القصيرة والبنادق الخفيفة من الكوى . لا وسيلة إلى الدخول . بيت في النهار ؛ قلعة في الليل . ثمانمئة نسمة ، تلك هي القرية . لم هذا الحذر كله ؟ لأن تلك المنطقة خطرة ، إنها ملأى بأكلة لحوم البشر . واذن فلماذا يذهب الناس إلى هناك ؟ لان تلك المنطقة رائعة ، الذهب موجود هناك . »

فقاطعه ماريوس ، وكان قد شرع ينتقل من خيبة الأمل إلى فراغ الصبر :

— « ما الذي جاء بك ؟ »

— « من أجل هذا ، يا سيدي البارون . أنا ديبلوماسي عتيق مرهق . لقد استنفدتني الحضارة القديمة . أنا احب ان أجرب المتوحشين . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « سيدي البارون ، الأنانية قانون العالم . ان المرأة الريفية الكادحة التي تشتغل في النهار تستدير حين تمر العربة العامة ، اما المرأة الريفيسة المالكة التي تشتغل في حقلها هي فلا تستدير . وكلب الفقير ينبح على الغني ، وكلب الغني ينبح على الفقير . كلٌ يفكر في مصالحه . المصلحة هي هدف الناس . الذهب هو حجر المغناطيس . »

— « وبعد ؟ إختتم . »

— « انا ارغب في الذهاب إلى « لا جويا » والاستقرار فيها . نحن ثلاثة . إن عندي زوجتي ، وابنتي الصغيرة ، وهي فتاة جميلة جداً . الرحلة طويلة وغالية . انا في حاجة إلى شيء من المال . »

فسأله ماريوس :

— « وما علاقتي انا بذلك ؟ »

وأتلع الرجل المجهول رقبته من خلال رباط عنقه ، وهي حركة من حركات العُقاب ، واجاب في ابتسامة مزدوجة :

— « واذن ، فسيدي البارون لم يقرأ رسالتي ؟ »

ولم يكن ذلك بعيداً عن الصواب . فالواقع ان محتوى الرسالة فات ماريوس . لقد رأى الخط اكثر مما قرأ الكتاب . وكان لا يذكر شيئاً من ذلك ، أو يكاد . ومنذ لحظة كان مفتاح جديد قد قدم اليه . لقد لاحظ هذه الواقعة : « زوجتي ، وابنتي الصغيرة » . وسدد عيناً فاحصة إلى الرجل المجهول . وما كان في ميسور قاض من قضاة التحقيق أن يفعل خيراً من ذلك . لقد بدا وكأنه يكمن له . وأجاب :

— « إشرح . »

وأقحم الرجل المجهول يديه في جيبي سترته ، ورفع رأسه من غير ان يقوِّم عموده الفقري ، مدققاً النظر بدوره في ماريوس من خلال نظارتيه الخضراوين .

— « ليكن ، يا سيدي البارون . سوف اشرح . إن عندي سراً اريد ان ابيعك اياه . »

— « سر ؟ »

— « اجل ، سر . »

— « سر يتصل بي ؟ »

— « بعض الشيء . »

— ما هذا السر ؟ »

وتأمل ماريوس الرجل ، اكثر فأكثر ، فيما كان يصغي اليه .

فقال الرجل المجهول :

— « سوف ابدأ بالمجان . سوف ترى ان حديثي ممتع . »

— « تكلم . »

— « سيدي البارون ، إن في بيتك لصاً وسفاحاً . »

وارتعد ماريوس .

وقال :

— « في بيتي ؟ لا . »

ومسح الرجل الغريب قبعته بردنه ، وتابع كلامه رابط الجأش :

— « سفاح ولص . إنتبه ، يا سيدي ، إلى أنني لا أتحدث هنا عن وقائع قديمة ، بالية ، هرمة ، يمكن ان تسقط بمرور الزمن في نظر القانون ، أو بالتوبة في نظر الله . انا اتحدث عن وقائع حديثة ، عن وقائع فعلية ، وقائع تجهلها العدالة حتى هذه الساعة . سوف أتابع . ان هذا الرجل قد تسلل إلى ثقتك ، بل إلى أسرتك تقريباً ، تحت اسم زائف . سوف اقول لك اسمه الحقيقي . وسوف اقوله لك لقاء

لا شيء . »

— « أنا مصغ إليك . »

— « ان اسمه جان فالجان . »

— « أعرف ذلك . »

— « وسوف اقول لك ، لقاء لا شيء أيضاً ، من هو . »

— « قـل . »

— « إنه أشغاليّ قديم . »

— « اعرف ذلك . »

— « انت تعرف ذلك منذ كان لي شرف إعلامك به . »

— « لا ، أنا اعرف ذلك من قبل . »

وكان في نبرة ماريوس الباردة ، وهذا الجواب المزدوج ، « اعـرف ذلك » . وايجازه المربك للحوار ما أثار بعض الغضب المكبوت في نفس الرجل المجهول . ورشق ماريوس بنظرة ضارية مختلَسة ما لبثتْ ان خبت . وعلى الرغم من سرعتها البالغة ، فان هذه النظرة كانت واحدة من تلـك النظرات التي تدرَك بعد أن تُرى مرة واحدة ؛ إنها لم تفت ماريوس . إن بعض الالتـماعات لا يمكن ان تنطلق إلا من نفوسٍ بعينها . ان العين ، نافذة الفكر تلك ، لتتوهج بها . وليس في استطاعة النظارتين ان تخفيا شيئاً . ضع زجاجة على الجحيم ، اذن .

واستأنف الرجل المجهول كلامه ، وهو يبتسم :

— « لست اسمح لنفسي ان أناقض سيدي البارون . وعلى اية حال ، ينبغي ان ترى انـي حسن الاطلاع . والآن ، ان ما اريد ان اخبرك اياه لا يعرفه احد غيري . إنه يتصل بثروة السيدة البارونة . إنـه سر استثنائي . سر للبيع . أنا أقدمه اليك أولاً . ثمن رخيص . عشرون الف فرنك . »

وقال ماريوس :

— « أنا اعرف هذا السر كما اعرف بقية الاسرار . »
واستشعر الشخص الحاجة إلى أن يخفض سعره قليلا .
— « سيدي البارون ، قل عشرة آلاف فرنك ، وعندئذ اتكلم . »
— « اكرر القول انه ليس عندك شيء تحيطني به علماً . انا اعرف ما تريد اخباري اياه . »
واومض في عين الرجل بريق جديد . وهتف :
— « ومع ذلك ، فينبغي ان اتعشى اليوم . إنه سر استثنائي ، اقول لك . سيدي البارون ، سوف اتكلم . أنا اتكلم . أعطني عشرين فرنكاً . »
وثبّت ماريوس نظراته عليه وقال :
— « أنا أعرف سرك الاستثنائي ، تماماً كما عرفت اسم جان فالجان، وكما عرفت اسمك . »
— « اسمي ؟ »
— « نعم . »
— « هذا ليس عسيراً ، يا سيدي البارون . لقد تشرفت بكتابته اليك وإعلامك به . تينار . »
— « ... دييه » .
— « ايه ؟ »
— « تيناردييه . »
— « من هذا ؟ »
أمام الخطر ، يطلع الدُلدل * أشواكه ، ويتظاهر الجُعَل بالموت ، ويشكل الحرس الوطني القديم مربعاً . أما هذا الرجل فقد بدأ يضحك .
ثم إنه نفض ، بضربة من سبابته ، ذرة من غبار عن ردن ثوبه .

* porc — épic وهو حيوان شائك .

وتابع ماريوس :

— « وأنت أيضاً العامل جوندريت ، والكوميدي فابانتو ، والشاعر جانفلو ، والاسباني دون الفاريز ، والمرأة بالبزار . »

— « أية امرأة ؟ »

— « وكان عندك مطعم حقير في مونفيرماي . »

— « مطعم ؟ ابداً . »

— « وانا اقول لك انك تيناردييه . »

— « انا انكر ذلك . »

— « وانك نذل . خذ . »

واخرج ماريوس من جيبه ورقة مالية ، وقذف بها في وجهه .

— « شكراً ! عفواً ! خمسمئة فرنك ! سيدي البارون ! »

وأمسك الرجل بالورقة المالية ، ذاهلا ، منحنياً في احترام ، وانشأ يتأملها .

وكرر في دهش :

— « خمسمئة فرنك ! »

وتلجلج في همس :

— « خمسمئة فرنك جدية . »

ثم هتف :

— « حسن ، فليكن . فلنأخذ راحتنا . »

وفي رشاقة قرد خلع محياه كما يخلع المرء قبعته ، راداً شعره إلى وراء مقتلعاً نظارتيه ، مخرجاً من انفه ومنتشلا قلمي ريش الطير اللذين تحدثنا عنهما منذ لحظة ، واللذين سبق ان رأيناهما في صفحة اخرى من هذا الكتاب .

والتمعت عينه . وبرز جبينه مثلّماً ، غير مستوٍ ، محدّباً في مواطن، مغضّناً من فوق على نحو بشع . وغدا انفه حاداً مثل منقار . وتبدّت

من جديد الصورة الجانبية الضارية الذكية الخاصة بالجوارح من النـاس .

وفي صوت صاف لم تبق فيه أيما خنّة ، قال :

– « ان سيدي البارون معصوم عن الخطأ . أنا تيناردييه . »

وقرّم ظهره المنحني .

كان تيناردييه – فقد كان هذا الرجل هو تيناردييه حقاً – مندهشاً على نحو غريب . ولقد كان خليقاً بـه أن يضطرب ويقلق لو ان ذلك ممكن بالنسبة اليه . كان قد وفد ليُوقـع الدهش . فاذا به يتلقاه . وهذه الاهانة عادت عليه بخمسمئة فرنك ، ولقد قبلها بعد ان قلّب الأمر على مختلف وجوهه . ولكنه ظل مع ذلك مندهلا .

لقد رأى البارون بونميرسي هذا للمرة الأولى . وعلى الرغم مـن تنكّره عرفه البارون بونميرسي . وعرفه معرفة كاملة . ولم يكن هـذا البارون تام الاطلاع على كل ما يتصل بتيناردييه فحسب ولكنه بدا كامل الاطلاع على كل ما يتصل بجان فالجان أيضاً . من كان هذا الشاب . الأمرد أو يكاد ، المثلوج إلى أبعد الحدود والسخي إلى أبعد الحدود ، الذي يعرف اسماء الناس ، الذي يعرف جميع اسمائهم ، والذي يفتح حافظة نقوده لهم ، والذي يهين الأوغاد مثل قاضٍ ويدفع اليهم المـال مثل أحمق ؟

والقاريء يذكر ان تيناردييه ، على الرغم من انه كان جاراً لماريوس ، لم يقـدّر له قط أن يراه ، وهو امر مألوف في باريس . لقد سمـع ذات مرة بناته يتحدثن عن شاب فقير جداً يدعى ماريوس كان يسكن في المنزل نفسه . وكان قد كتب اليه ، من غير ان يعرفه ، الرسالة التي نعرفها . لم يكن ممكناً ان تقوم في ذهنه أيما صلة بين ماريوس والسـيد بارون بونميرسي .

أما فيما يتصل باسم بونميرسي فالقاريء يذكر ان تيناردييه لم يسمع

منه ، في ساحة القتال بواترلو ، غير المقطعين الاخيرين اللذين كان ينظر اليهما دائماً نظرة الازدراء الشرعي التي نوجهها عادة لما هو مجرد شكر ليس غير .

وإلى هذا ، فمن خلال ابنته آزيلما التي كان كلفها بتعقب اثر العروسين يوم السادس عشر من شباط ، ومن خلال مباحثه الخاصة ، كان قد وفق إلى اكتشاف اشياء كثيرة . ومن اعماق ظلمته كان قد وُفق إلى الامساك باكثر من خيط خفي . كان قد اكتشف ، بفضل الصناعة ، أو على الاقل حزرَ ، بفضل الاستقراء ، ذلك الرجل الذي لقيه ذات يوم في البالوعة العظمى . ومن الرجل ، انتهى في سهولة إلى الاسم . لقد عرف ان السيدة البارونة بونميرسي كانت كوزيت . ولكنه اعتزم ان يكون ، من هذه الناحية ، حكيماً . من كانت كوزيت ؟ إنه هو نفسه ما كان يدري على وجه الضبط . لقد لمح ثمة لا شرعيةً ما . وكانت قصة فانتين قد بدت له غامضة دائماً ، ولكن ما الفائدة من الخوض في ذلك الموضوع ؟ لكي يتقاضى ثمن سكوته ؟ كان عنده ، أو كان يحسب ان عنده ، شيء يبيعه خير من ذلك . وجميع المظاهر تدل على انّ الذهاب إلى البارون بونميرسي وكشف النقاب امامه ، من غير ما دليل ، عن هذا الأمر : **زوجتك ابنة زنا** لن يجذب غير حذاء الزوج إلى ظهر الكاشف .

كانت المحادثة مع ماريوس لمّا تبدأ بعد في نظر تيناردييه . لقد اضطر إلى التراجع ، إلى تعديل استراتيجيته ، إلى اخلاء موقع ، أو تغيير جبهة ، ولكنه لم يخسر شيئاً اساسياً ما ، ولقد كانت في جيبه خمسمئة فرنك . وإلى هذا ، فقد كان لديه شيء حاسم يقوله . وحتى أمام هذا البارون بونميرسي المطلع إلى أبعد الحدود المسلح إلى أبعد الحدود ، استشعر أنه قوي . إن كل حوار هو معركة في عرف من كانت له طبيعة كطبيعة تيناردييه . وفي ذلك الصراع الذي يوشك ان

ينشب ، ما كان وضعه ؟ إنه ما كان يعرف من يخاطب . ولكنه كان يعرف عمن كان يخاطبه . واجرى على نحو خاطف هذا الاستعراض الباطني لقواه ، وبعد ان قال : انا تيناردييه ، تمهل .

وظل ماريوس مستغرقاً في التفكير . لقد أمسك ، آخر الأمر ، اذن، بتيناردييه . هذا الرجل الذي طالما ود لو يعثر عليه من جديد كان الآن أمامه . ان في ميسوره اذن ان ينفذ وصية الكولونيل بونمرسي . وأخزاه ان يكون هذا البطل مديناً بشيء ما لهذا اللص ، وان يظل سند الدفع الذي حوّله اليه ابوه من اعماق قبره غير مدفوع حتى ذلك اليوم . لقد بدا له أيضاً ، في الحالة المعقدة التي ألمت بذهنه في ما يتصل بتيناردييه ، ان ههنا فرصة مناسبة للانتقام للكولونيل من نكد الطالع ذاك الذي جعله مديناً بحياته لمثل هذا الوغد . واياً ما كان ، فقد كان يشعر بالارتياح . كان على وشك ان ينقذ طيف الكولونيل ، آخر الأمر ، من هذا الدائن غير الجدير به ، وتراءى له انه يوشك ان يحرر ذكرى أبيه من السجن بسبب الدّين .

وإلى جانب هذا الواجب كان عليه واجب آخر : ان يلقي الضوء — إذا استطاع — على مصدر ثروة كوزيت . لقد بدا وكأن الفرصة قد سنحت لذلك . ومن يدري ، فلعل تيناردييه يعرف شيئاً ما . وقد يكون من المفيد سبر هذا الرجل حتى الأعماق ، وبدأ من هنا .

كان تيناردييه قد أزلّ « الخمسمئة فرنك الجدية » في جيب صدرته ، وكان ينظر إلى ماريوس في وداعة تكاد تكون حنوناً .

وقطع ماريوس حبل الصمت .

— « تيناردييه ، لقد قلت لك اسمك. والآن هل تريد مني ان أعلمك بسركّ ، بذلك الذي جئت تخبرني به ؟ ان لي انا أيضاً استعلاماتي ، وسوف ترى اني اعرف عن ذلك اكثر مما تعرف انت . إن جان فالجان كما قلتَ ، سفاح ولص . لص ، لأنه سرق صناعياً غنياً ، مسيو

مادلين ، كان هو سبب افلاسه . وسفاح . لأنه سفح دم ضابط الشرطة، جافير . »

فقال تيناردييه :

— « لست افهم . يا سيدي البارون . »

— « سوف اوضح كلامي . إسمع . كان في مقاطعة الـ « با دو كاليه» حوالى ١٨٢٢ . رجل كانت له مشكلة قديمة مع العدالة ، وكان قد تاب وأصلح متخذاً اسم مسيو مادلين . كان قد امسى رجلا مستقيماً ، بكل ما في الكلمة من معنى . وبواسطة احدى الصناعات ، صناعة الخرز الأسود . كان قد انشأ ثروة مدينة بكاملها . اما ثروته الخاصة ، فكان قد انشأها أيضاً ، ولكن على نحو ثانوي . وبوجه ما . بالمصادفة . كان أبا الفقراء الحاني . لقد اسس مستشفيات . وفتح مدارس . وعاد المرضى ، ومنح البائنة للفتيات ، وأعان الارامل على العيش ، وتبنّى الايتام . كان اشبه ما يكون بوصي على المنطقة . وكان قد رفض الوسام، وكان قد اختير عمدة . وعرف أشغاليّ مطلق السراح سر عقوبة آنزلت ذات يوم بهذا الرجل . وسعى به عند السلطة ، فاعتُقل . وافاد من اعتقاله فوفد على باريس وسحب من لافيت المصرفي — لقد عرفت هذه الواقعة من امين الصندوق نفسه — بتوقيع زائف مبلغاً يزيد على نصف مليون كان ملكاً لمسيو مادلين . وهذا الاشغالي الذي سرق مسيو مادلين هو جان فالجان . أما في ما يتصل بالواقعة الاخرى فليس عندك ما تخبرني به أيضاً . لقد قتل جان فالجان جافير . قتله بغدارة . وانا ، انا الذي اخاطبك ، كنت حاضراً . »

والقى تيناردييه على ماريوس تلك النظرة الراشحة بالسلطان ، التي يلقيها رجل مهزوم أمسك بتلابيب النصر كرة اخرى ، واسترجع منذ لحظة ، وفي دقيقة واحدة ، كامل الأرض التي خسرها . ولكن الابتسامة ما لبثت أن عادت في الحال . ان الادنى لا يستطيع ان ينتزع من

الارفع غير انتصـــار رقيق ، واجتزأ تيناردييه بأن قال لماريوس :

— « سيدي البارون ، نحن نضل الطريق . »

واكد هذه العبارة بأن راح يـــدير حزمة جواهره الرخيصـــة على نحو معبِّر .

واجاب ماريوس :

— « ماذا ! هل تنكر ذلك ؟ هذه حقائق . »

— « إنها أوهام . ان الثقة التي يشرفني بها سيدي البارون تجعل من واجبي ان اقول له ذلك . الحقيقة والعدالة قبل كل شيء . أنا لا احب ان ارى الناس يتهمون اتهاماً ظالماً . سيدي البارون ، إن جان فالجان لم يسرق مسيو مادلين قط ، وجان فالجان لم يقتل جافير قط . »

— « انت تتحدث في قوة ! كيف ذلك ؟ »

— « لسببين اثنين . »

— « ما هما ؟ تكلم . »

— « هوذا الأول : إنه لم يسرق مسيو مادلين ، لأن مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان نفسه . »

— « ما هذا الذي تقوله لي ؟ »

— « وهوذا الثاني : إنه لم يقتل جافير ، لأن الذي قتل جافير هو جافير . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « إن جافير انتحر . »

فصاح ماريوس وقد استبد به القلق والاضطراب :

— « برهن ذلك ! برهن ذلك ! »

فاستأنف تيناردييه الكلام مقطّعاً جملته كما يُقطّع وزن الشعر الالكسندري القـــديم :

— « ان — رجل —الشر —طة — جا — فير — قد— و جد — غريـ — قاً—

تحت – قارب – قرب – جسر – الشا – نج . »

– « برهن ذلك اذن ! »

واخرج تيناردييه من جيبه ظرفاً ضخماً رمادي الورق بدا وكأنه ينطوي على اوراق مطوية ذات احجام متفاوتة .

وقال في هدوء :

– « ان عندي وثائقي . »

واضاف :

– « سيدي البارون . من اجل مصلحتك اردت ان اعرف جان فالجان حتى القعر . انا اقول إن جان فالجان ومادلين شخص واحد ، وانا اقول ان جافير لم يقتله احد غير جافير . وحين اتكلم اقدم البراهين على كلامي . لا براهين مخطوطة ، فالكتابة موضع ارتياب . الكتابة ملاطفة ، ولكن براهين مطبوعة . »

وفيما كان تيناردييه يتكلم اخرج من الظرف صحيفتين . صفراوين ، ذابلتين ، مشبعتين بالتبغ إشباعاً قوياً . وكانت احدى هاتين الصحيفتين ، المنكسرة عند طياتها جميعاً ، المتساقطة قطعاً مربعة ، تبدو اشد عتقاً من الاخرى .

وقال تيناردييه :

– « حقيقتان ، وبرهانان . »

ونشر الصحيفتين ، وقدمهما إلى ماريوس .

والقاريء يعرف هاتين الصحيفتين . إن احداهما وهي الاقدم – نسخة من عدد « الراية البيضاء » الصادر في ٢٥ تموز ١٨٢٣ والمنطوي على نص يستطيع القاريء ان يجده على الصفحة ١٠٢ من المجلد الثاني من هذا الكتاب – تقيم الدليل على ان مسيو مادلين وجان فالجان شخص واحد . والثانية ، عدد صحيفة « المونيتور » الصادر في ١٥ حزيران ١٨٣٢ ، تثبت انتحار جافير ، وتضيف قائلة إنه يستفاد من تقرير شفهي

قدمه جافير إلى مدير الشرطة ان جافير ، وقد أسير في متراس شارع الشانفريري ، كان مديناً بحياته لشهامة متمرد عمد ، على الرغم من انه – جافير – كان تحت رحمة غدارته ، إلى اطلاق النار في الهواء بدلا من اطلاقها على رأسه .

وقرأ ماريوس . كان ثمة دليل ، وتاريخ ثابت ، وبرهان لا سبيل إلى الشك فيه . إن هاتين الصحيفتين لم تطبعا خصيصاً لتأييد أقوال تيناردييه . وكانت الكلمة المنشورة في الد « مونيتور » بلاغاً رسمياً صادراً من مديرية الشرطة . ولم يكن في ميسور ماريوس ان يشك . كانت المعلومات التي استمدها من امين الصندوق الموظف في المصرف خاطئة . وكان هو نفسه مخدوعاً . وانبثق جان فالجان – وقد تعاظم فجأة – من وسط السحب . ولم يستطع ماريوس ان يكتم صيحة فرح :

– « حسن ، اذن ، فهذا الرجل التعس رجل رائع . لقد كانت تلك الثروة كلها ثروته حقاً ! انه مادلين ، النعمة المقيّضة لمنطقة برمتها ! إنه جان فالجان ، منقذ جافير ! إنه بطل ! إنه قديس ! »

فقال تيناردييه :

– « إنه ليس قديساً . وإنه ليس بطلا . إنه سفاح ولص . »

واضاف في نبرة رجل شرع يستشعر بعض السلطان :

– « فلنكن هادئين . »

لص ، سفاح ؛ كانت هاتان الكلمتان اللتان افترض ماريوس انهما اختفتا ، واللتان رجعتا كرة اخرى ، قد سقطتا عليه كسقوط وابل مثلوج .

وقال :

– « أيضاً . »

فأجاب تيناردييه :

– « اجل ! إن جان فالجان لم يسرق مادلين ، ولكنه لص . إنه لم يقتل جافير ولكنه سفاح . »

فعاد ماريوس إلى القول :

– « اتريد ان تتكلم عن تلك السرقة التافهة التي قام بها منذ اربعين سنة . والتي كفّرتْ عنها ، كما يستفاد من صحيفتيك نفسيهما ، حياةٌ كاملة من التوبة ، وانكار الذات ، والفضيلة ؟ »

– « لقد قلتُ سرقة وقتلا . وانا اكرر اني اتكلم عن وقائع حقيقية . إن ما اريد ان اكشف لك النقاب عنه مجهول تماماً . إنه مما لم ينشر من قبل . ولعلك ان تجد فيه مصدر الثروة التي قدمها جان فالجان، في حذق ، إلى السيدة البارونة . أقول في حذق ، لأن انسلاله بهبة من هذا النوع إلى بيت شريف سوف يشارك هو في مناعمه ، واخفاءه في الوقت نفسه جريمته ، واستمتاعه بسرقته ، ودفنه اسمه ، واختلاق اسرة لنفسه ... كل ذلك ليس شيئاً تعوزه البراعة كثيراً . »

فلاحظ ماريوس قائلا :

– « في ميسوري ان اقاطعك هنا ، ولكن أكمل . »

– « سيدي البارون ، سوف اخبرك بكل شيء ، تاركاً المكافأة إلى كرمك . إن هذا السر يساوي كومة من الذهب . سوف تقول لي : لماذا لم تذهب إلى جان فالجان ؟ لسبب بسيط جداً : أنا أعرف انه تخلى عن كل شيء ، وتخلى عن كل شيء لصالحك ، وأنا أرى ان ذلك التدبير بارع ؛ ولكنه لم يبق معه درهم واحد ؛ إنه سوف يريني يديه الفارغتين . ولما كنت في حاجة إلى شيء من المال من أجل رحلتي إلى « لا جويا » فأنا افضلك ، انت الذي تملك كل شيء ، عليه ، هو الذي لا يملك شيئاً . أنا متعَب بعض الشيء ، اسمح لي بأن اجلس . »

وجلس ماريوس ، واومأ اليه أن يجلس .

لقد استقر تينارديه في كرسي مزوّد بحشيّة ، واستعاد صحيفتيه ،

وأقحمهما في الظرف ، وغمغم ناقراً « الراية البيضاء » بظفره : « لقد اقتضاني الحصول على هذه جهداً شاقاً . » قال ذلك ، ووضع رجلا على رجل ، واستلقى على ظهر كرسيه ، وهو وضع مميز للناس الواثقين مما يقولون ، ثم دخل في الموضوع في نبرة من الجد ، مؤكداً الكلمات :

ـ « سيدي البارون ، في اليوم السادس من حزيران ١٨٣٢ ، منذ سنة تقريباً ، وفي يوم الفتنة ، كان رجل في بالوعة باريس العظمى ، قرب مصب البالوعة في الـ « سين » ، بين جسر الانفاليد وجسر ابينا . »

وفجأة قرّب ماريوس كرسيه إلى كرسي تيناردييه . ولاحظ تيناردييه هذه الحركة ، وتابع كلامه في تؤدة متحدث مسيطر على من يخاطبه ، مستشعر خفقان قلب خصمه تحت كلماته :

ـ « كان هذا الرجل ، المضطر إلى إخفاء نفسه ، لاسباب لا صلة لها بالسياسة ، قد اتخذ من البالوعة مأوى له ، وكان يملك مفتاحاً لها . وكان ذلك ـ وأنا أكرر هذا ـ في السادس من حزيران . ولعل الساعة كانت الثامنة مساء . وسمع الرجل صوتاً في البالوعة . واذ اخذه الدهش الشديد ، فقد اختبأ ، وترصد . كان وقعَ خطى ؛ ان شخصاً كان يمشي في الظلام ؛ ان شخصاً كان يتقدم نحوه . شيء غريب ، لقد كان ثمة في البالوعة شخص آخر غيره . ولم تكن شباكة منفذ البالوعة بعيدة . ومكّنه الضوء الضئيل النافذ من خلالها من ان يتبين الوافد الجديد ، وان يرى انه كان يحمل على ظهره شيئاً . لقد مشى محدودباً . وكان الرجل الماشي محدودباً رجلا حُكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة ، وكان ما يحمله على كتفيه جثة . قتلٌ بالجرم المشهود ، إذا كان ثمة شيء مثل ذلك . أما السرقة فتتبع طبعاً . فالمرء لا يقتل رجلا من أجل لا شيء . وكان ذلك الاشغاليّ يعتزم ان يلقي الجثة في النهر . وإنها لحقيقة جديرة بالذكر أن هذا الاشغالي الذي اقبل من مكان بعيد في البالوعة كان قد اضطر ؛

قبل ان يصل إلى منفذها . إلى أن يجتاز موحلاً رهيباً كان يبدو وكأنه يعتزم ترك الجثة فيه . ولكنْ في هذه الحال . كان خليقاً برجال البواليع، العاملين في الموحل . أن يجدوا في اليوم التالي جثة الرجل القتيل ؛ وليست هذه بغية القاتل . من أجل ذلك آثر ان يمضي بحمله عبر الموحل . ولا ريب في ان جهوده التي بذلها كانت رهيبة . ومن المستحيل تعريض حياة امرىء لخطر أعظم من ذلك . أنا لا أفهم كيف خرج من هناك حياً . »

واقترب كرسي ماريوس اقتراباً اضافياً . واغتنم تيناردييه هذه الفرصة لكي يأخذ نفساً طويلا . ثم أكمل :

— « سيدي البارون : البالوعة ليست الشان دو مارس .. إن المرء يعوزه كل شيء هناك . حتى المجال . وحين يكون رجلان في البالوعة فلا بد لهما من ان يلتقيا . وهذا ما حدث . واضطر المقيم وعابر السبيل إلى ان يتبادلا التحية . على كره منهما لذلك . وقال عابر السبيل للمقيم : « انت ترى ما أحمله على ظهري . إن عليّ ان اخرج . ان معك المفتاح . أعطني اياه . » وكان ذلك الاشغالي رجلا ذا قوة فظيعة . ولم يكن الرفض ممكناً . ومع ذلك . فقد عمد صاحب المفتاح إلى المفاوضة ابتغاء كسب الوقت ليس غير . لقد فحص الرجلَ الميت ؛ ولكنه لم يستطع ان يرى شيئاً . ما خلا انه كان شاباً ؛ حسن البزة ، غنياً في ما يظهر . مشوهاً بالدم تشوهاً كاملا . وفيما هو يتحدث وجد وسيلة إلى ان يقطع وينتزع من وراء . دون ان يلحظ القاتل ذلك ، جزءاً من سترة القتيل . وثيقة مؤيدة للتهمة ، كما تعلم . وسيلة لتعقب آثار المسألة . ولأقامة الدليل على جريمة المجرم . ووضع تلك الوثيقة في جيبه . وبعد ذلك فتح الشباكة الحديدية ، ومكن الرجل من الخروج وحملِهِ على ظهره . واقفل الشباكة من جديد وفرّ ، حريصاً اقل الحرص على ان يتورط في بقية المغامرة ، وغير راغب على الخصوص

في أن يكون حاضراً حين يلقي القاتل القتيلَ في النهر . انت تفهم الآن . ان ذلك الذي كان يحمل الجثة ، هو جان فالجان . وذلك الذي كان يحمل المفتاح يخاطبك الآن . والقطعة المنتزعة من السترة ... »

وانهى تيناردييه العبارة بأن سحب من جيبه ، ورفع إلى مستوى عينيه بين إبهاميه وسبابتيه ، قطعة من جوخ اسود بال ، مغطاة كلها ببقع داكنة .

كان ماريوس قد نهض ، شاحباً ، مبهوراً ، مسدداً العين إلى قطعة الجوخ الأسود . ومن غير ان ينطق بكلمة ، ومن غير ان يرفع عينه عن هذه المزقة ، تراجع إلى الجدار ؛ وبيده اليمنى الممدودة خلفه راح يتلمس الجدار باحثاً عن مفتاح كان في قفل خزانة قائمة قرب الموقد . ووجد ذلك المفتاح ، وفتح الخزانة ، واقحم ذراعه فيها من غير ان ينظر ، ومن غير ان يرفع عينيه المذعورتين عن المزقة التي كان تيناردييه يعرضها عرضاً .

وفي غضون ذلك تابع تيناردييه كلامه :

— « سيدي البارون ، ان عندي اقوى الاسباب للاعتقاد بأن القتيل الشاب كان غريباً مثرياً استدرجه جان فالجان إلى فخ ، وحاملا لمبلغ مالي ضخم . »

وهنا صاح ماريوس ، طارحاً على السجادة سترة عتيقة سوداء ملطخة كلها بالدم :

— « هذا الشاب هو أنا . وهذه هي السترة ! »

ثم انتزع المزقة من بين يدي تيناردييه ، وانحنى فوق السترة ، ووضع تلك الخرقة في المكان الممزق منها . وتلاءمت أطرافها تلاؤماً كاملا . ان المزقة قد أكملت السترة .

وتحجّر تيناردييه . وقال في ذات نفسه : « لقد هُزمت . »

ونهض ماريوس ، مرتعداً ، يائساً ، متألقاً .

وبحث في جيبه ، ومشى ، هائجاً ، نحو تيناردييه ، مقدماً اليه ، بل دافعاً نحو وجهه تقريباً ، قبضته الملأى بالاوراق المالية ذات الخمسمئة فرنك والالف فرنك .

— « أنت نذل ! أنت كذاب ، مفتر ، مجرم . لقد جئت تتهم هذا الرجل ، فبرأتَه . اردتَ ان تحطمه فلم توفق إلا إلى تمجيده . وانما أنت ، أنت اللص ! وانما انت ، أنت السفاح ! لقد رأيتك ، يا تيناردييه ، يا جوندريت ، في ذلك الوكر الذي في « جادة المستشفى » . أنا اعرف عنك ما يكفي لارسالك إلى سجن الاشغال الشاقة ، بل إلى أبعد من ذلك ، إذا شئت . خذ ، هذه الف فرنك ، ايها المتحذلق الشقي ! »

وقذف بورقة الف فرنك إلى تيناردييه .

— « آه ! جوندريت تيناردييه ، ايها النذل الخسيس ! ليكن ذلك درساً لك ، ايها المتعيّش بالاسرار ، المتاجر بالخفايا ، الباحث في الظلام! وغد ! خذ هذه الخمسمئة فرنك ، واترك هذا المكان . ولتصنْك واترلو . »

وغمغم تيناردييه واضعاً الخمسمئة فرنك في جيبه مع الالف فرنك :

— « واترلو ! »

— « اجل ، ايها السفاح ! لقد انقذتَ هناك حياة كولونيل ... »

فقال تيناردييه رافعاً رأسه :

— « حياة جنرال . »

فأجاب ماريوس في هياج :

— « حياة كولونيل . أنا لا ادفع فاساً واحداً من اجل جنرال . وجئت إلى هنا لكي ترتكب مخازيك ! اقول لك انك اقترفت الجرائم جميعاً . اذهب ! اغرب عن وجهي ! كن سعيداً بمفردك . هذا كل

ما ارغب فيه . آه ! ابها الهولة ! لا يزال هناك ثلاثة آلاف فرنك . خذها . سوف تسافر غداً إلى امبركة ، مع ابنتك ، لأن امرأتك قد ماتت ، ابها الكذاب المقيت ! سوف اتدبر أمر سفرك ، ايها اللص ، ولسوف ادفع لك ، عندئذ ، عشرين الف فرنك . اذهب وعرّض نفسك للشنق في مكان آخر . »

فقال ماريوس ، وهو ينحني حتى الارض :

— « سيدي البارون ، أنا اعترف بجميلك إلى الأبد . »

وخرج تيناردييه ، غير فاهم شيئاً ، ذاهلا ومنتشياً بهذا الانسحاق العذب تحت اكياس الذهب وبهذه الصاعقة المنفجرة فوق رأسه اوراقاً نقدية .

كان مصعوقاً ، ولكنه كان سعيداً أيضاً . ولقد كان خليقاً به أن يغضب غضباً شديداً لو أعطي مانعة صواعق بدلا من تلك الصاعقة .

فلننته من هذا الرجل في الحال . فبعد يومين انقضيا على الاحداث التي نرويها في هذه اللحظة ، سافر ، باشراف ماريوس وعنايته ، إلى امبركة ، تحت اسم زائف ، تصحبه ابنته آزيلما ، وفي جيبه حوالة على نيويورك بعشرين الف فرنك . ولكن نيناردييه ، شقاء تيناردييه الأخلاقي ، هذا البورجوازي المنهار ، كان ممتنعاً على العلاج . كان في امبركة ما كانه في اوروبة . إن لمسة من رجل شرير كثيراً ما تكفي لأفساد عمل صالح واستخراج شيء رديء منه . فبأموال ماريوس ، أمسى تيناردييه نخاساً .

وما ان خرج تيناردييه ، حتى هرع ماريوس إلى الحديقة حيث كانت كوزيت لا تزال تتمشى .

وصاح :

— « كوزيت ! كوزيت ! تعالي ، تعالي بسرعة . فلنذهب . باسك ، إيتنا بعربة كراء ! كوزيت ، تعالي . اوه ، يا الٰهي ! إنه

هو الذي انقذ حياتي ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! ضعي شالك عليك . »

وحسبته كوزيت مخبولا ، وأطاعت .

ولم يأخذ نَفساً ، ووضع يده على قلبه لكي يكبت خفقاته . وأنشأ يذرع المكان جيئة وذهوباً في خطى واسعة ، وعانق كوزيت قائلا :

— « أوه ! كوزيت ! أنا رجل تعس ! »

كان ماريوس ذاهلا . لقد بدأ يرى في جان فالجان هذا صورة محزونة شامخة على نحو غريب . وبرزت امامه فضيلة لا تضاهى ، فضيلة سَنية ووديعة ، متواضعة في عظمتها . لقد تحول الاشغاليّ إلى يسوع المسيح . وشُده ماريوس بهذه المعجزة . إنه لم يدر على وجه الضبط ما قد رأى ، ولكن ما رآه كان جليلا .

وفي لحظة ، كانت احدى عربات الكراء بالباب .

وساعد ماريوس كوزيت في امتطاء متن العربة ، ثم وثب هو اليها . وقال :

— « إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ ، ايها السائق . »

وانطلقت العربة .

وقالت كوزيت :

— « اوه ! يا للسعادة ! شارع الرجل المسلح ! أنا لم اجرؤ على ان احدثك عنه كرة اخرى . اننا سوف نرى مسيو جان . »

— « ابوكِ ! كوزيت ، ابوك اكثر منه في ايما وقت مضى . كوزيت ، لقد حزرتُ . لقد اخبرتني انك لم تتسلمي قط الرسالة التي وجهتها اليك مع غافروش . لا بد أنها قد وقعت في يديه . كوزيت ، لقد مضى إلى المتراس لكي ينقذني . واذ كان شيئاً ضرورياً عنده أن يكون ملاكاً ، فقد أنقذ — خلال ذلك — الآخرين أيضاً . لقد انقذ

جافير . لقد اختطفني من تلك الهوة لكي يمنحك اياي . لقد حملني على ظهره في تلك البالوعة الرهيبة . اوه ! أنا كافر بالنعمة على نحو رهيب . كوزيت ، لقد كان هو العناية الالـهية بالنسبة الي ، بعد ان كان العناية الالـهية بالنسبة اليك . حسبك ان تفكري انه كان ثمة موحل مخيف كاف لاغراقه مئة مرة ، لأغراقه في الوحل ، يا كوزيت، وانه حملني عبر ذلك الموحل . كنت غائباً عن الوعي ، انا لم ار شيئاً ، أنا لم اسمع شيئاً ، ولم يكن في ميسوري ان اعرف شيئاً عن مصيري نفسه . سوف نرجع به إلى بيتنا ، سوف نصطحبه ، سواء أرضي أم لا ، ولن يتركنا بعد اليوم ابداً . شرط أن يكون في المنزل فقط ! شرط ان نجده فقط ! أنا على استعداد لأن أنفق بقية عمري في توقيره واجلاله . أجل ، لا شك ان هذا ما وقع ، ألا تـريـن يا كوزيت ؟ لا ريب في ان غافروش قد أسلمه رسالتي . لقد فسر كل شيء . أنت تفهمين . »

ولم تفهم كوزيت كلمة .

وقالت له :

— « لقد أصبت . »

وفي غضون ذلك ، جرت العربة .

٥
ليل يعقبه فجر

وأدار جان فالجان رأسه لدن سماعه قرعاً على باب غرفته .

وقال في وهن :

— « أدخل . »

وفتح الباب . وبرزت كوزيت وماريوس .
واندفعت كوزيت إلى الغرفة .
وظل ماريوس على العتبة ، متكئاً على قائمة الباب .
— « كوزيت ! »
قال جان فالجان ذلك ، ونهض في كرسيه ، باسط الذراعين ، مرتعداً ، ذاهلا ، شديد الشحوب ، كالح الوجه ، مفعم العينين بابتهاج عظيم .
وارتمت كوزيت ، وقد خنقها الانفعال ، على صدر جان فالجان .
وقالت :
— « أبي ! »
وتمتم جان فالجان ، وقد استبد به اضطراب عاصف :
— « كوزيت ! هي ؟ انت ، ايتها السيدة ! هذا أنت ! آه ، يا الهي ! »
وهتف ، وهو مهصور بين ذراعي كوزيت :
— « هذا أنتِ ! انت هنا ! انت تغفرين لي اذن ! »
وخفض ماريوس جفنيه لكي يمنع دموعه من التحدر ، وتقدم خطوة ، وغمغم بين شفتيه اللتين كانتا متقلصتين في تشنج لكي تكبتا الزفرات :
— « أبي ! »
فقال جان فالجان :
— « وأنت أيضاً تغفر لي ! »
ولم يستطع ماريوس أن يقول كلمة . واضاف جان فالجان :
— « شكراً ! »
ونزعت كوزيت شالها ، وطرحت قبعتها على السرير .
وقالت :

— « انهما يضايقانني : »

وجلست على ركبتي العجوز . وبحركة فاتنة ازاحت شعره الاشيب ، وطبعت على جبينه قبلة .

ولم يبد جان فالجان ، في انشداهه ، اية معارضة .

وضاعفت كوزيت — التي لم تفهم ذلك إلا فهماً مشوشاً — ملاطفاتها، وكأنما كانت تريد ان تفي دين ماريوس :

وتلجلج جان فالجان :

— « ما أحمق الانسان ! لقد ظننت أني لن أراها ثانية البتة . حسبك ان تفكر ، يا مسيو بونمبرسي ، انني كنت اقول لنفسي ، لحظة دخلتما: قضي الأمر . هوذا ثوبها الصغير ، أنا رجل بائس ، أنا لن ارى كوزيت بعد اليوم . كنت اقول هذا وأنتما ترتقيان السلم . هل كنت أبلـه ؟ اجل ، ما اكثر ما يصيبنا البله ! ولكننا لا ندخل الله في الحساب . يقول الله : انت تظن انك سوف تُهجر ويُتخلى عنك ، ايها الاحمق ؟ لا . لا ، ان الامور لن تجري على هذه الشاكلة . هيا ، إن ثمة رجلاً بائساً في حاجة إلى ملاك . ويجيء الملاك ، وأرى كوزيت من جديد ! وارى حبيبتي كوزيت من جديد ! أوه ! لقد كنت بائساً جداً ! »

وظل لحظة عاجزاً عن الكلام ، ثم تابـع :

— « كنت حقاً في حاجة إلى أن أرى كوزيت ، فترة قصيرة ، بين الفينة والفينة . ان القلب ليحتاج إلى عظم يقرضه . ومع ذلك ، فقـد شعرت جيداً أنـي عقبة في الطريق . وقدمت إلى نفسي اعذاراً : انهم في غير حاجة اليك ؛ إبق في زاويتك ؛ ليس لك الحق في البقاء إلى الابد . آه ! تبارك الله ، إنـي اراها من جديد ! هل تعرفين ، يـا كوزيت ، ان زوجك وسيم جداً ؟ آه ! ان طوق ثوبك الموشى لجميل : نعم ، نعم ، أنا أحب هذا الرسم . إن زوجك هو الذي اختاره ، اليس كذلك ؟ وإلى هذا ، فينبغـي ان يكون عندك ثياب محيطة مـن

نسيج كشمير . أيها السيد بونميرسي ، دعني اخاطبها بضمير المفرد . ان ذلك لن يدوم طويلا . »

وتابعت كوزيت من جديد :

– « كيف اجزت لنفسك ان تفارقنا على هذه الصورة ؟ إلى أين ذهبت ؟ لماذا طالت غيبتك إلى هذا الحد ؟ ان رحلاتك في الايام السابقة ما كانت تستغرق أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة أيام . لقد ارسلت نيقوليت ، فكان الجواب دائماً : انه غير موجود . ومتى كانت عودتك ؟ لماذا لم تحطنا علماً ؟ هل تعلم انك تغيرت كثيراً ؟ آه ، يا للأب الحبيب ! لقد كان مريضاً ، ونحن لا نعرف ذلك ! ماريوس ، إلمس يده ، ما اشد برودتها ! »

وكرر جان فالجان :

– « واذن فأنت هنا ! أيها السيد بونميرسي ، إنك تغفر لي ! »

وعند هذه الكلمات ، التي كان جان فالجان قد أعادها للمرة الثانية ، وجد كلُ ما فاض في قلب ماريوس منفذاً ، فانفجر قائلا :

– « كوزيت ، هل تسمعين ؟ ذلك شأنه دائماً ! إنه يلتمس عفوي ، وهل تعلمين ايّ خدمة اسداها الي ، يا كوزيت ؟ لقد انقذ حياتي . لقد فعل اكثر من ذلك . لقد اعطاني اياك . وبعد أن انقذني ، وبعد ان اعطاني اياك ، يا كوزيت ، ما الذي فعله بنفسه ؟ لقد ضحى بنفسه . هوذا الرجل ! وهو يقول لي ، أنا الكافر بالجميل ، أنا الكثير النسيان، أنا العديم الرحمة ، أنا المجرم – يقول لي : شكراً ! كوزيت ، لو انفقت حياتي كلها على قدمي هذا الرجل لكان ذلك أقل مما ينبغي . لقد اجتاز ذلك المتراس ، تلك البالوعة ، ذلك الاتون ، ذلك المستنقع ، بل لقد اجتاز كل شيء من اجلي ، من اجلك يا كوزيت ! لقد حملني عبر ضروب الموت كلها ، التي ازاحها عني وارتضاها لنفسه . إنه يتحلى بالشجاعات كلها ، بالفضائل كلها ، بالبطولات كلها ، بالقداسات كلها .

كوزيت ، إن هذا الرجل ملاك ! »

— « صه ! صه ! لماذا تقول هذا كله ؟ »

فهتف ماريوس في غضب مشوب بالاجلال :

— « ولكن أنت ! لمَ لمْ تبح بذلك ؟ انها غلطتك أيضاً . انت تنقذ حيوات الناس وتخفي ذلك عنهم ! بل انت تذهب إلى أبعد من ذلك ، بحجة رفع القناع عن وجهك ؛ انت تفتري على نفسك . هذا شيء راعب . »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد قلت الحق . »

فقال ماريوس :

— « لا . الحق هو الحق كاملا . وانت لم تقل الحق كاملا . لقد كنتَ مسيو مادلين ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ لقد انقذتَ جافير . فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ أنا مدين لك بحياتي ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ »

— « لأني فكرت مثلك . لقد وجدت انك على صواب . كان من الضروري أن أمضي لسبيلي . ولو انك عرفت مسألة البالوعة تلك اذن لأبقيتني معك . وهكذا كان علي ان ألتزم الصمت . ولو اني تكلمت لأربكتكم جميعاً . »

— « اربكتَ ماذا ! اربكت من ! هل تظن انك سوف تبقى هنا ؟ سوف نصحبك معنا . آه ، يا الٓهي ! حين افكر اني لم اعرف هذا كله إلا مصادفة ! سوف نصحبك معنا . انت جزء منا : انت أبوها وأبي . انك لن تقضي يوماً آخر في هذا المنزل الراعب . لا تتخيل انك سوف تكون هنا غداً . »

فقال جان فالجان :

— « غداً لن اكون هنا ، ولكني لن اكون في بيتكم . »

فأجاب ماريوس :

— « ماذا تعني ؟ آه . فهمت . اننا لن نسمح لك بالقيام بأي رحلة بعد اليوم . انك لن تفارقنا كرة اخرى . أنت مِلكٌ لنا . اننا لن ندعك تذهب . »

واضافت كوزيت :

— « سوف يكون ذلك إلى الأبد ، هذه المرة . ان معنا عربة تحت . سوف ارفعك . ولسوف الجأ إلى القوة . إذا كان ذلك ضرورياً . »

وضحكت ، وقامت بحركة توحي بأنها سوف ترفع الرجل العجوز بين ذراعيها حقاً .

وتابعت :

— « إن غرفتك لا تزال في بيتنا . ليتك تعرف ما أبهى الحديقة في هذه اللحظة . ان الغار الشيحيّ لينمو نمواً حسناً . والمجازات مفروشة برمل النهر . إن ثمة بعض الاصداف البنفسجية الصغيرة . ولسوف تأكل شيئاً من توتي الافرنجي . إني اسقيه بنفسي . وليس هناك بعد اليوم « سيدتي » وليس هناك « مسيو جان » أيضاً . نحن جمهورية ، وكل الناس يستعملون ضمير المخاطب المفرد ، أليس كذلك يا ماريوس ؟ لقد تغير البرنامج . ليتك تعرف يا أبي ، لقد كنت محزونة ، كان ثمة عصفورة من عصافير « أبي الحناء » أقامت عشها في فجوة بالجدار ، فجاء هرّ رهيب وأكلها لي ! مسكينة عصفورتي تلك الصغيرة الجميلة ! لقد وضعت رأسها على نافذتها ونظرت اليّ ! وبكيت عليها ! ولقد كنت مستعدة لأن اقتل الهرة . أما الآن ، فأن احداً لا يبكي . القوم كلهم يضحكون ، القوم كلهم سعداء . انت سوف تذهب معنا . ما أعظم السعادة التي ستغمر جدي ! سوف تكون لك مسكبتك في الحديقة ، ولسوف تعنى بزراعتها بنفسك : ولسوف نرى هل سيكون

توتك الافرنجي جميلا مثل توتي ؟ ثم انني سأعمل اي شيء تريده ، ثم انك ستطيعني . »

وأصغى جان فالجان لها من غير ان يسمعها . لقد سمع موسيقى صوتها اكثر مما سمع معاني كلامها . ونبعت في عينه ، ببطء ، احدى تلك العبرات الكبار ، التي هي لآلىء النفسِ القاتمةُ . وغمغم :

— « إن وجودها هنا هو الدليل على رحمة الله . »

وصاحت كوزيت :

— « أبي ! »

فتابع جان فالجان :

— « صحيح جداً ان حياتنا معاً سوف تكون فاتنة . إن اشجارهما حافلة بالطيور . ولسوف أتمشى مع كوزيت . إن من الجميل ان يكون المرء مع أناس يحيون ، ويتبادلون التحية ، ويتنادون إلى الحديقة . ولسوف يرى كل منا الآخر منذ الصباح . ولسوف يعنى كل منا بزراعة زاويته الصغيرة . سوف تدعني آكل توتها الافرنجي ؛ ولسوف ادعها تقطف ورودي . سوف يكون ذلك فاتناً . لولا ... »

وتمهل ، ثم قال في وهن :

— « يا للخسارة ! »

ولم تتحدر الدمعة ؛ لقد ارتدت على عقبيها ، واستعاض جان فالجان عنها بابتسامة .

وأمسكت كوزيت بيدي العجوز كلتيهما بيديها .

وقالت :

— « يا الهي ! لقد أمست يداك أبرد مما كانتا . هل انت مريض ؟ هل تحس بألم ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « لا . أنا في حال جيدة جداً . لولا ... »

وكف عن الكلام .

— « لولا مـاذا ؟ »

— « سوف أموت في الحال . »

وارتعدت كوزيت وماريوس .

وصاح ماريوس :

— « تموت ! »

فقال جان فالجان :

— « اجل . ولكن هذا ليس شيئاً ذا بال . »

وتنفس . وابتسم . وتابـع :

— « كوزيت . انت تتحدثين الي . تابعـي . تحدثي من جديد ، لقـد ماتت عصفورتك الصغيرة اذن ؟ تكلمـي . دعينـي اسـمـع صوتـك ! »

وحدق ماريوس . وقد تحجر . إلى الرجل العجوز .

وأطلقت كوزيت صيحة ثاقبة :

— « أبـي ! أبـي ! سوف تحيا . لا بد ان تحيا . سأجعلك تحيا ، أسامع انت ! »

ورفع جان فالجان رأسه . نحوها ، في تقديس .

— « آه . اجل . حظري عليّ الموت . من يدري ؟ لعلي اطيع . لقد كنت على عتبة الموت حين جئت . ولقد حال ذلك بيني وبـين الموت . لقد بدا لي اني ولدت من جديد . »

فهتف ماريوس :

— « انت مفعم بالقوة والحياة . أتحسب ان الناس يموتون على هذه الصورة ؟ لقد ألمّ بك حزن . ولكنك لن تعرف الحزن بعد اليوم . أنا اسألك العفو الآن . واسألك اياه راكعاً على ركبتيّ ! انك سوف تحيا ، تحيا معنا . وتحيا طويلا . سوف نرجـع بك إلى بيتنا . ولن يـكون

لأحـد منا كلينا غير هـمّ واحد ، منذ اليوم ، هو إسعادك . »
واضافت كوزيت والدمع يتحدر من عينيها :
ـ « انت ترى ان ماريوس يقول انك لن تموت . »
وظل جان فالجان يبتسم .
ـ « إذا ارجعتني معك . ايها السيد بونميرسي . فهل يجعلني ذلك غير ما أنا ؟ لا . لقد فكر الله كما فكرت انت وفكرت أنا ، وهو لم يغير رأيه . من الخير ان امضي لسبيلي . الموت تسوية جيدة . الله يعرف حاجاتنا اكثر ممـا نعرفهـا نحن . لا ريب في ان سعادتكما ، وفوز مسيو بونميرسي بكوزيت ، واقتران الشبـاب بالصبح ، وكونكما محاطين . يا ولديّ . بالزنابق والعنـادل ، وكون حياتكمـا واحة خضراء تحت أشعة الشمس ، وامتلاء نفسيكما برُقى السماء جميعاً ، واحتضـاري الآن ، أنا الذي لا أصلح لشيء ، لا ريب في ان هذا كله حسن . إسمع . يجب ان نكون عاقلين ، ليس ثمة شيء آخر ممكن الآن . أنا واثق من ان كل شيء قـد انتهى . منذ ساعة ، أغمي علي . ثم اني ، في الليلة الماضية ، شربت ذلك الاناء المليء ماء . ما اطيب زوجك . يا كوزيت ! إنك معه اسعد منك معي . »
وسُمع صوت لدى الباب . كان الطبيب قد أقبل .
وقال جان فالجان :
ـ « مرحباً ، ايها الطبيب ، ووداعاً . ها هما ولداي المسكينان . »
واقترب ماريوس من الطبيب . ووجه اليه هذه الكلمة المفردة :
« سيدي ؟ ... » ولكن كان في طريقة تلفّظه بها سؤال كامل .
واجاب الطبيب عن السؤال بنظرة معبّرة .
وقال جان فالجان :
ـ « إن كون الاشياء غير سارة ليس سبباً يبرر ظلمنا لله . »
وساد صمت . كانت الصدور كلها منقبضة .

والتفت جان فالجان نحو كوزيت . وشرع يحدق اليها وكأنه يأخذ نظرة ينبغي أن تدوم عبر الأبدية . وفي اعماق الظلمة التي كان قد انحدر اليها ، كان لا يزال في ميسوره ان ينعم ، من طريق النظر إلى كوزيت ، بالنشوة الروحية . لقد اضاء انعكاسُ ذلك المحيا العذب وجهه الشاحب . إن القبر قد يكون له سحره أيضاً .

وجس الطبيب نبضه .

وغمغم ، ناظراً إلى كوزيت وماريوس :

— « آه . انكما انتما اللذان كان في أمّس الحاجة اليهما . »

ثم انحنى فوق اذن ماريوس ، واضاف في صوت خفيض جداً :

— « لقد فات الأوان . »

والقى جان فالجان على الطبيب وماريوس ، من غير ان يكفّ عن التطلع إلى كوزيت تقريباً ، نظرة تنضح بالصفاء . وسمعا هذه الكلمات ، التي ما تكاد تبين ، تخرج من بين شفتيه :

— « الموت ليس شيئاً . الشيء الرهيب هو ان لا تعيش . » .

وفجأة نهض . إن رَجعات القوة هذه تكون احياناً أمارة من أمارات الاحتضار . ومضى في خطى ثابتة إلى الجدار ، مزيحاً من طريقه ماريوس والطبيب اللذين حاولا مساعدته ، ونزع عن الجدار الصليب النحاسي الصغير — وعليه جسد المسيح — المعلق هناك ، وعاد ، وجلس في حرية التحرك المميزة للعافية الموفورة ، وقال في صوت مرتفع ، واضعاً المصلوب على الطاولة :

— « هوذا الشهيد العظيم . »

ثم غار صدره ، وترنح رأسه ، وكأنما استبد به دوار القبر ، وشرع يُنشب ظفره — ويداه على ركبتيه — في قماش بنطلونه .

وأسندت كوزيت كتفيه ، وانتحبت ، وحاولت ان تخاطبه ، ولكنها لم تستطع . كان في ميسور المرء ان يتبين ، بين الكلمات الممزوجة بذلك الرضاب

الفاجع الذي يصاحب الدموع . جملا مثل هذه : « ابي ! لا تتركنا . امكن ان نكون قد وجدناك ثانية لكي نفقدك نهائياً ؟ »

في استطاعتنا القول ان حشرجة الموت تتلوى . إنها تروح . وتجيء ، تتقدم نحو القبر . وترجع نحو الحياة . ان في فعل الموت تلّمساً في الظلام .

واستجمع جان فالجان قواه ، بعد شبه الاغماء هذا . وهزّ جبينه وكأنه كان يبغي ان يطّرح الظلمات . واستعاد صفاءه . أو كاد ، استعادة كاملة . وأمسك بطرف ردنها . وقبّله .

وصاح ماريوس :

— « إنه يعود إلى الحياة ! ايها الطبيب ، إنه يعود إلى الحياة ! »

— « إن كلا منكما لكريم . سوف أقول لكما ما الذي آلمني . الذي آلمني ايها السيد بونمرسي . انك كنت راغباً عن مسّ ذلك المال . إن ذلك المال . هو ملكٌ لزوجتك حقاً . سوف اشرح الأمر لكما ، يا ولديّ . ومن اجل ذلك أنا سعيد بأن أراكما . إن الكهرمان الأسود يجيء من انكلترة . وإن الكهرمان الابيض يجيء من نروج . وكل ذلك تجدانه في الورقة التي تريانها هناك . والتي سوف تقرآنها . أما في ما يتصل بالأساور . فقد اخترعتُ الاستعاضةَ بالمشابك المصنوعة من صفيح ملويّ ، عن المشابك المصنوعة من صفيح مُلْسَحمٍ . ذلك أجمل ، وأفضل . وأرخص . وانتما تفهمان اي ثروة يمكن ان تجنى من وراء ذلك . وهكذا فأن ثروة كوزيت هي ملكها حقاً . انا اعطيكما هذه التفاصيل حتى تطمئن نفساكما . »

كانت البوابة قد ارتقت السلم . وراحت تنظر من خلال الباب نصف المفتوح . وأمرها الطبيب بالابتعاد . ولكنه لم يستطع ان يمنع تلك المرأة الطيبة الغيور من ان تخاطب الرجل المحتضر بصوت عال ، قبل مغادرتها المكان :

— « هل تريد كاهناً . »

فأجاب جان فالجان :

— « عندي كاهن . »

وبدا وكأنه يومىء باصبعه إلى نقطة فوق رأسه حيث كان في امكانك ان تقول إنه رأى شخصاً ما .

لعل الاسقف كان يشهد احتضاره حقاً .

وفي لطف ، أزلّت كوزيت وسادة تحت ظهره .

واستأنف جان فالجان حديثه :

— « ايها السيد بونميرسي . لا تخف . أنا أقسم لك . إن الفرنكات الستمئة الف هي ملك كوزيت حقاً . واني اكون قد خسرت حياتي إذا لم تستمتع بها ! لقد نجحنا نجاحاً كبيراً في صناعة الخرز هذه . لقد نافسنا ما يدعى حليّ برلين . والواقع ، ان الزجاج الألماني الأسود لا يمكن ان يقارَن ببضاعتنا . فالغروصة الواحدة ، التي تحتوي على الف ومئتي حبة حسنة القطع ، لا تكلف غير ثلاثة فرنكات . »

حين يكون امروٌ أثير لدينا على وشك ان يموت ننظر اليه نظرة تتشبث به ، نظرة تودّ ان تحتفظ به . وهكذا وقفا كلاهما أمامه ، وقد اخرسهما الالم النفسي المرير ، غير عارفين ما يقولانه للموت ، يائسين مرتعدين ، ويدُ كوزيت في يد ماريوس .

ومن لحظة إلى اخرى ، كان جان فالجان بزداد وهناً على وهن . كان يتلاشى ؛ كان يقترب من الافق المظلم . كان تنفّسه قد امسى متقطعاً ؛ ان حشرجة ضئيلة اعترضته . ووجد صعوبة في تحريك معصمه ، وكانت قدماه ، قد فقدتا القدرة على القيام بايما حركة . ولحظة تضاعف عجز اوصاله وخوَرُ جسده ارتفع جلال الروح كله وتجلى على جبينه . كان ضياء العالم المجهول قد اضحى منظوراً في عينيه .

وشحب وجهه . وابتسم في آن معاً . لم تعد ثمة حياة ؛ كان ثمة

شيء آخر . وتلاشى نفَسه ، وتعاظمت نظرته . كانت جثة تستشعر ان لهـا جناحين .

واومأ إلى كوزيت بأن تقترب ، ثم إلى ماريوس . كان واضحاً انها الدقيقة الأخيرة من الساعة الاخيرة ، وشرع يخاطبهما في صوت واهن إلى درجة جعلته يبدو وكأنـه ينبعث من مكان بعيد ، حتى لقـد يخيل إلى المرء ان جداراً كان قد انتصب منذ اللحظة بينه وبينهما .

— « اقتربا اكثر ، اقتربا اكثر ، كلاكما . أنا احبكما حباً جماً . اوه ! جميل ان يموت المرء هكذا ! أنت أيضاً ، انت تحبينني يـا كوزيت . لقد عرفت جيداً انه كان لا يزال عندك بعض الحـب لصاحبك العجوز . كم كان لطيفاً منك ان تضعي هذه الوسادة تحت ظهري ! انتما سوف تبكيان عليّ قليلا ، أليس كذلك ؟ ولكن ليس أكثر مما ينبغي . أنا لا اريد ان يلمّ بكما أيما أسىً عميق ؛ يجب ان تستمتعا بالحياة استمتاعاً كثيراً ، يا ولديّ . لقد نسيت ان اخبركما ان في امكان المرء ان يربح من الابازيم التي لا ألسنة لها اكثر مما يربح من سائر الاصناف . ان الغروصة ، أو الاثنتي عشرة دزينة ، تـكلف عشرة فرنكات ، وتباع بستين . هذه في الواقع تجارة رابحة ، واذن ، فينبغي ان لا تدهش للفرنكات الستمئة الف ، ايها السيد بونميرسي . انه مال حلال . في استطاعتكما ان تكونا موسرين في اطمئنان . ينبغي ان تكون لكما عربة خاصة ، ومقصورة في المسارح بين الفينة والفينـة ، وثياب رقص جميلة يا كوزيت . ثم يحسن بكما ان تقيما مآدب عامرة لاصدقائكما ، وان تكونا سعيدين جداً . لقد كنت اكتب ، منذ لحظات ، إلى كوزيت . سوف تجدان رسالتي . اني اوصي لها بالشمعدانين اللذين على الموقد . إنهما من فضة ، ولكنهما عندي من ذهب ، بل من ألماس . إنهما يحوّلان الشموع التي توضع فيهما إلى شموع مقدسة . انا لا ادري ما اذا كان ذلك الذي منحني اياهما راضياً عني في الاعالي . لقـد

عملتُ على قدر طاقتي . يا ولديّ . انتما لن تنسيا انني رجل فقير ، ولسوف تدفنانني في اقرب زاوية من الارض تحت حجر يعيّن الموضع . تلك هي وصيتي . ولا تنقشا اي اسم على الحجر . وإذا ما زارتني كوزيت قليلا في بعض الأحيان كان ذلك مبعث سرور لي . وأنت أيضاً ، ايها السيد بونميرسي . يجب أن أعترف بأني لم احبك دائماً . انا اسألك العفو . والآن ، هي وانت لا تعدوان ان تكونا شخصاً واحداً في نظري . انا عظيم الاعتراف بجميلك . أنا أشعر انك تُسعد كوزيت . لو كنت تعرف ، ايها السيد بونميرسي . لقد كانت وجنتاها الورديتان الجميلتان هما بهجتي . كنت احزن إذا رأيتها شاحبة بعض الشيء . ان في الخزانة ورقة مالية ذات خمسمئة فرنك . أنا لم امسها . انها للفقراء . كوزيت ، هل ترين ثوبك الصغير ، هناك . على السرير ؟ هل تعرفينه ؟ ومع ذلك ، فقد كان هذا من عشرة أعوام ليس غير . ما أسرع ما تمر الأيام ! كنا سعيدين جداً . لقد قضي الأمر . يا ولديّ ، لا تبكيا ، أنا لستُ ذاهباً إلى مكان بعيد جداً . سوف أراكما من هناك . وليس عليكما إلا أن تنظرا حين يهبط الليل ، وعندئذ تجدانني أبتسم . كوزيت . هل تتذكرين مونفيرماي ؟ كنتِ في الغابة . كنتِ خائفة جداً . هل تذكرين يوم أخذتُ مقبض الدلو المليء ماء ؟ كانت تلك أول مرة لمست فيها يدك الصغيرة البائسة . كانت باردة جداً ! آه ، كانت لك يدان حمراوان في تلك الأيام ، ايتها الآنسة . أما اليوم فيداك شديدتا البياض. والدمية الكبيرة ! هل تذكرينها ؟ لقد دعوتِها كاترين . لقد ندمتِ لأنك لم تحمليها إلى الدير . وكم أضحكتِني في بعض الاحيان ، يا ملاكي العذب ! وحين أمطرت السماء ، ألقيتِ بعض القذى في القنوات ، ورحتِ تراقبينها . وذات يوم ، اعطيتك مضرب كرة من خيزران ، وكرة ذات ريش اصفر وازرق واخضر . لقد نسيتِ ، انتِ ، ذلك . لقد كنتِ كثيرة الشيطنة في طفولتك ! كنت تلعبين . كنتِ تضعين حبات

كرز في اذنيك . هذه الاشياء هي جزء من الماضي . الغابات التي اجتزتها مع طفلتي ، والاشجار التي تنزهنا في ظلها ، والأديار التي اختبأنا فيها ، والألعاب ، وضحك الطفولة الطلق ، كل ذلك طواه الظلام • لقد تخيلت ان هذا كله ملك لي . وههنا كانت تكمن حماقتي . لقد كان تيناردييه وزوجته شريرين . يجب ان نغفر لهما . كوزيت ، لقد آن الأوان لاخبارك باسم امك . كان اسمها فانتين . تذكري هذا الاسم : فانتين . اركعي على ركبتيك كلما لفظته شفتاكِ . لقد تألمت كثيراً . وأحبتك كثيراً . لقد تجرعتْ كأس التعاسة مترعة كما تجرعتِ كأس السعادة مترعة . هكذا يقسم الله الاشياء بين الناس . إنه في الأعالي ؛ إنه يرانا جميعاً ، وهو يعرف ما يعمله وسط كواكبه العظمى . واذن ، فسوف أرحل ، يا ولديّ . تحابّا دائماً أعظم الحب . فليس في العالم شيء ، تقريباً ، غير التحابّ . ولسوف تفكران احياناً في الرجل العجوز البائس الذي مات هنا . آه ، يا حبيبتي كوزيت ! إنها ليست غلطتي ، حقاً ، إذا لم اركِ طوال هذا الوقت ؛ لقد تفطّر قلبي بسبب من ذلك؛ لقد مضيت حتى زاوية الشارع ، ولقد كنت خليقاً بأن أبدو مضحكاً في نظر الناس الذين يرونني أمشي هناك ؛ لقد بدوتُ أشبه بالمخبول ، وذات يوم خرجت من غير قبعة . يا ولديّ ، أنا لم اعد أرى ، الآن، في وضوح كثير ؛ كانت عندي اشياء اخرى احب ان اقولها ، ولكن لا بأس . فكرا فيّ قليلا . أنتما مخلوقان مباركان . لست ادري ماذا ألمّ بي ؛ إنني ارى ضياء . اقتربا اكثر . انا اموت سعيداً . قربا رأسيكما العزيزين المحبوبين لكي اضع يدي فوقهما . »

وخر ماريوس وكوزيت على الأرض راكعين ، مصعوقين ، تخنقهما العبرات ، وأمسك كل منهما بأحدى يدي جان فالجان . كانت هاتان اليدان الجليلتان قد فقدتا الحركة بالكلية .

كان قد انكفأ إلى وراء ، وكان نور الشمعدانين يضيء وجهه ،

وكان وجهه الابيض ذاك ينظر إلى السماء . وترك كوزيت وماريوس يغمران يديه بالقبلات ؛ لقد مات .

كان الليل عاطلا من النجوم ، وكان دامساً . وليس من ريب في ان ملاكاً عظيماً ما ، كان واقفاً في الظلمة ، باسطَ الجناحين ، ينتظر تلك النفس .

٦
العشب يحجب والمطر يمحو

في جبانة « بير لا شيز » ، في جوار مقبرة الفقراء والمجهولين ، بعيداً عن الحي الانيق من مدينة القبور تلك ، بعيداً عن جميع تلك الاضرحة الغريبة التي تعرض في حضرة الابدية ازياء الموت الرهيبة ، وفي زاوية مهجورة ، في محاذاة جدار عتيق ، تحت زَرْنَبَة * ضخمة يتسلق عليها اللبلاب ، بين النَّجيل ** والطحالب — في تلك الجبانة كان حجر . وهذا الحجر لم يعد بريئاً — اكثر من غيره — من جذام الدهر ، والعفن ، والأشنة ، وذرق الطيور . ان الماء يخضّره ، والهواء يسوّده . وهو غير قريب من أيما مجاز أو ممر ، والناس لا يحبون ان يذهبوا إلى تلك البقعة ، لأن العشب مرتفع ، ولان اقدام المرء تُبلل هناك في الحال . وحين تلقي الشمس بعض أشعتها ، تنطلق الحراذين . إن ثمة ، حول البقعة كلها ، حفيف شوفانٍ بري . وفي الربيع ، تغرد الدُّخّلات في الشجرة .

وهذا الحجر عارٍ عن اي زخرف . فلم يفكّر ، عند إعداده ، إلا

* الزرنب نبات طيب الرائحة ، ويدعى ايضاً رجل الجراد .

** النجيل : نبات من نوع الحمض .

في حاجات القبر الضرورية . ولم يُعنَ بغير جعل هذا الحجر كافياً ، من حيث الطول والعرض ، لتغطية رجل.

ولم يكن ثمة اسم ما .

بيد ان يداً خطت على ذلك الحجر بقلم الرصاص – منذ عدة سنوات – هذه الابيات الاربعة التي انتهت تدريجياً إلى ان تصبح غير مقروءة ، تحت المطر والغبار ، والتي امحت اليوم في اغلب الظن :

انه يرقد . وعلى الرغم من أن القدر كان بالنسبة اليه غريباً جداً ،
فقد عاش . لقد مات عندما فقد ملاكه .
ان الأمر يحدث ، ببساطة ، من تلقاء نفسه ،
كما يهبط الليل حين يولي النهار .

تمت الترجمة الكاملة

لرواية البؤساء

فهرست القسم الخامس : « جان فالجان »

●

ص

الكتاب الاول : الحرب بين اربعة جدران

الكتاب الثاني : مصران لوياثان

الكتاب الثالث : وحل ، ولكن روح

ص

الكتاب السابع : آخر قطرة في الكأس

الكتاب الثامن : شحوب الغسق

الكتاب التاسع : ظلمة عظمى وفجر اعظم